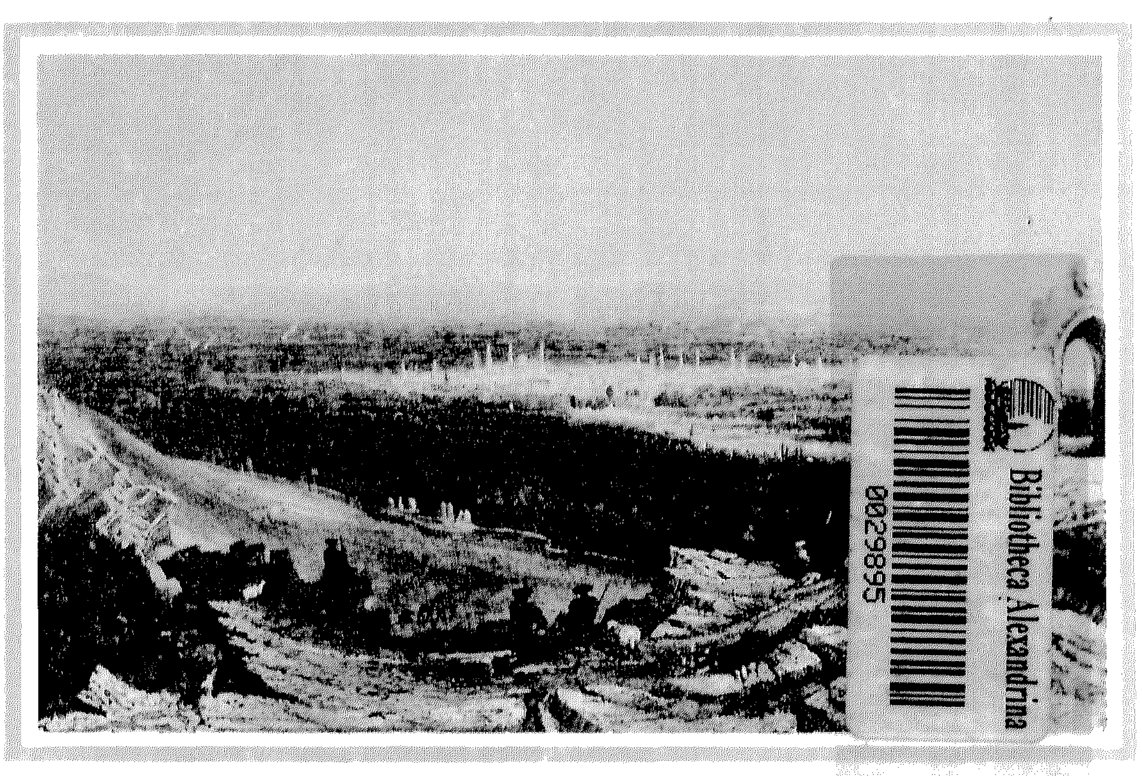
د. يوسف جميل نعيسة

مجتمع مدينة دمشق

١١٨٦ - ١٢٥٦ هـ

١٧٧٢ - ١٨٤٠ م



الجزء الأول



للدراسات والترجمة والنشر
دمشق ــ اوتوستراد المزة
هاتف ٢٤٤١٢٦ ــ ٢٤٣٩٥١
تلكس ٤١٢٠٥٠
ص. ب: ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص
لصالح مدارس ابناء الشهداء في القطر العربي السوري

مجتمع مدينة دمشق

١١٨٦ - ١٢٥٦هـ
١٧٧٢ - ١٨٤٠م

الطبعة الأولى
١٩٨٦

د. يوسف جميل نعيسة

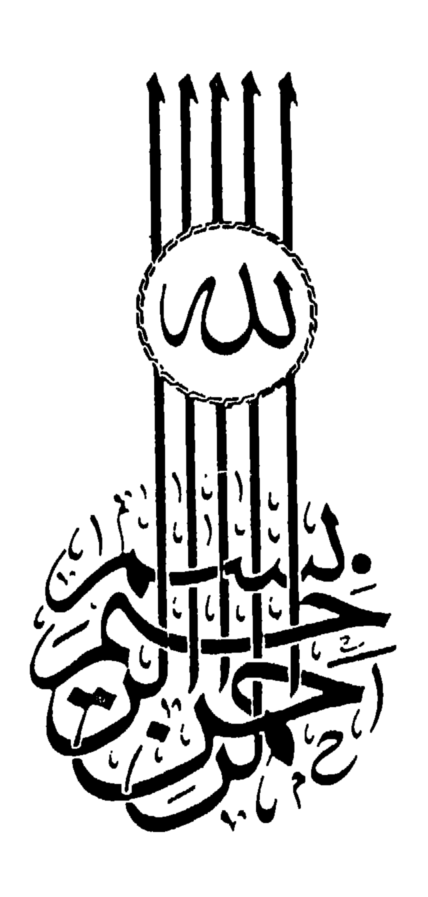
مجتمع مدينة دمشق

في الفترة ما بين

١١٨٦ - ١٢٥٦ هـ
١٧٧٢ - ١٨٤٠ م

في جزءين

الجزء الأول


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

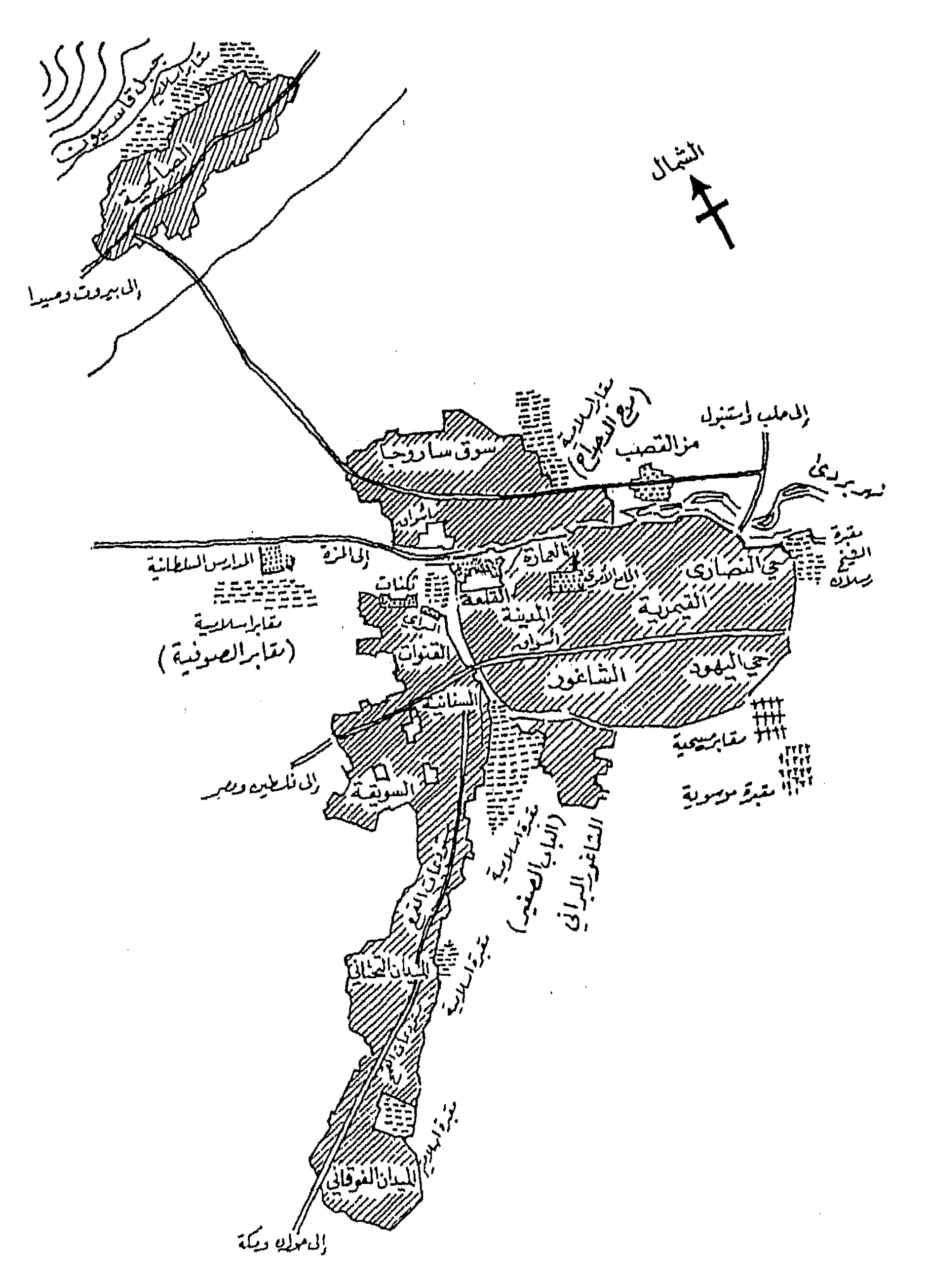
إلى أمتي العربية ... موطن اعتزازي وموئل رجائي

إلى قوافل الشهداء... شعاع النور في ظلمة القهر ... الذين شمخت بهم شجرة الحرية

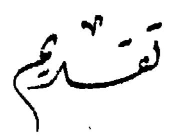
أشعل هذه الشمعة

علّ باهت نورها يُضيء محراب حبهم .... عرفاناً، ووفاءً.

د. يوسف نعيسه



مخطط مدينة دمشق في مطلع القرن التاسع عشر



بقلم الدكتور محمد خير فارس

تناول الدكتور نعيسه في بحثه القيم، مجتمع دمشق في فترة من أخطر الفترات في تاريخ السلطة العثمانية بعامة، وفي تاريخ ولاية دمشق بخاصة.

تمتد هذه الفترة بين ١٧٧٢ ــ ١٨٤٠، أي بين التدخل المصري الأول بقيادة علي بك المملوكي الذي اغتصب السلطة في مصر، وبين التدخل المصري الثاني في بلاد الشام بقيادة ابراهيم باشا ١٨٣١ ــ ١٨٤٠. وإذا كانت آثار التدخل الأول سلبية، إذ زادت في الفوضى التي كانت ضاربة أطنابها، فإن آثار التدخل الثاني كانت خطيرة وعميقة على مختلف الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. ولم تنته هذه الآثار بانتهاء الحكم المصري بل استمرت تتطور بإيجابياتها وسلبياتها، بفضل سياسة التنظيمات الخيرية التي بدأت الدولة العثمانية بتطبيقها، بتأثير الهزائم التي لحقت بها داخلياً

وخارجياً ، وبفضل الضغط الأوروبي الذي كان يطمع في الحصول من وراء هذه السياسة على تسهيلات لنشاط الرعايا الأوربيين في الدولة وضمانات قانونية .

تأثرت الدولة العثمانية بعامة وبلاد الشام بخاصة ، بعدد من الأحداث الهامة الداخلية والخارجية فعلى الصعيد الداخلي ، وبسبب ضعف السلطة المركزية العثمانية ، ازدادت أهمية القوى المحلية ، ومارس الكثير من حكام الولايات استقلالاً فعلياً ، وأسس بعضهم أسراً حاكمة وراثية .

استقل المماليك في بغداد حتى ١٨٣٠ ، وبلغ المماليك في مصر ذروة نفوذهم في عهد علي بك الكبير وأبي الذهب في آخر القرن الثامن عشر . واستقل محمد علي في مصر وشرع في بناء دولة عصرية فيها .

واستقلت الأسرة القرمنلية في طرابلس ١٧١١ ــ ١٨٣٥ ، والأسرة الحسينية في تونس ١٧٠٥ ــ ١٩٥٧ ودايات الجزائر ١٦٧١ ــ ١٨٣٠ . وسيطر المملوك أحمد باشا الجزار على ولاية صيدا ودمشق بموافقة السلطان حيناً ورغماً عنه حيناً آخر . وكان حكمه في دمشق محنة لأهلها حيث أذاقهم الأمرّين . وظهرت الحركة الوهابية في نجد تنسف ايديولوجياً شرعية السلطة العثمانية ، وتحرم السلطان ، بسيطرتها على الأماكن المقدسة في الحجاز ، أهم ألقابه « حامي الحرمين الشريفين » وتهاجم العراق والشام دون أن تلقى رادعاً ، وتوجه لولاية دمشق ضربة اقتصادية هامة بمنعها وصول قافلة الحج الشامي . وتضطر الدولة إلى الاستعانة بواليها القوي محمد علي الذي نجح في القضاء على

الحركة الوهابية وسيطر على معظم شبه الجزيرة العربية ، ولكن عمل لحسابه الخاص .

ولم تكن الأحداث الخارجية أقل أهمية من الأحداث الداخلية . توالت هزائم الدولة الخارجية ، فقد هزمت أمام روسيا مرتين من ١٧٦٨ ـــ ١٧٩٢ واضطرت إلى تقديم تنازلات اقليمية هامة . واحتل الفرنسيون مصر ١٧٩٨ ولم يخرجوا منها عام ١٨٠١ إلا بفضل المقاومة الوطنية المصرية والتدخل الانجليزي . وقامت الثورات القومية في الصرب واليونان ، وسحق الاسطول العثماني في نافارين ١٨٢٧ ، وهزمت الدولة مرة أخرى أمام روسيا ١٨٢٩ ـــ ١٨٣٠ . واحتلت فرنسا الجزائر دون أن يبدي السلطان حراكاً .

وكان أخطر الأحداث الخارجية والداخلية على ولاية دمشق واعمقها تأثيراً في مختلف جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية حدثان التقيا في بلاد الشام في آن واحد تقريباً وأكمل أحدهما عمل الآخر . الحدث الأول الثورة الصناعية التي ظهرت بادىء الأمر في انجلزه في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ثم انتقلت إلى القارة الأوروبية منذ بداية القرن التاسع عشر وبدأ تأثيرها يظهر واضحاً في الدولة العثمانية بعامة وولاية دمشق بخاصة في أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر . والحدث الثاني الحكم المصري لبلاد الشام ١٨٣١ ـــ ١٨٤٠ الذي انهى عزلة مدينة دمشق وفتحها أمام الأجانب أو حاول تطبيق الاصلاحات التي تمت في مصر في شتى

المجالات . وبالرغم من انسحاب المصريين السريع من بلاد الشام بضغط أوروبي هائل فإن السياسة التي باشرها ابراهيم باشا في سورية استمرت بفضل التنظيمات الخيرية .

اتبع الدكتور نعيسه في دراسته لهذه الفترة المنهج التقليدي ، فلم يكتف برصد المتغيرات وربطها بمسبباتها ، بل عاد إلى الجذور وأوغل بذلك فأثقل على نفسه. ولكنه قدم للقاريء العربي سفراً ضخماً رسم فيه لمدينة دمشق ومؤسساتها وعناصرها الاجتماعية الفاعلة لوحة بانورارمية جذابة .

المقدمة

عندما تناولت بالبحث مجتمع مدينة دمشق ما بين سنة ١٧٧٢ م ـــ ١٨٤٠ م ، قصدت من ذلك دراسة فترة من تاريخ دمشق تعتبر إرهاصاً لمتغيرات واسعة وعميقة لم تشمل دمشق فحسب بل شملت المنطقة بأسرها في جميع مناحي حياتها .

وإن معظم الدراسات التي ظهرت ، سواء ما كان منها عربياً أو أجنبياً كان عاماً ، أو شاملاً لفترة زمنية طويلة ، أو تناول جغرافية واسعة ، مما حرمنا من معرفة خصائص مجتمع كل مدينة ومنطقة على حدة بدقة . كما حرمنا من معرفة الظروف المحلية التي لعبت دورها آنئذ في تطورها ، ناهيك عن ظروف الإمبراطورية الداخلية والظروف الدولية أيضاً .

ولقد قام باحثان إنجليزيان هما : هاملتون جب وهارولد باوون بدراسة بعض النواحي الاجتماعية والادارية وغيرهما في الدولة العثمانية مثل دراستهما للأسرة

والقرية والبدو والصناعة والتجارة والمدينة والجيش والحكومة والادارة والفلاحين والزراعة ، وأسميا كتابهما «Islamic Society and the West» . وما نشراه منه كان في مجلدين . قام بترجمة المجلد الأول منهما الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى في القاهرة في اكتوبر/تشرين ثاني سنة ١٩٧٠ م في حين لم يزل المجلد الثاني دون ترجمة .

وأهم الباحثين الذين قاموا بجهد كبير في هذا المجال وقدموا لنا دراسات رصينة ومتعمقة هو الأستاذ الدكتور عبد الكريم رافق أستاذ التاريخ الحديث في جامعة دمشق ، وبرز ذلك في كتبه المتعددة بالإضافة إلى مقالاته وكتاباته المختلفة التي نشرها في المحافل والمجلات العلمية والأجنبية . ويعود إليه الفضل في توجيه أنظار الباحثين إلى سجلات محاكم دمشق الشرعية وذلك من خلال ما كتبه عنها وما استقاه من معلوماتها . ومن كتبه التي نشرها كان كتابه :

«The Province of Damascus: 1723-1783»

ولقد تناول فيه أوضاع دمشق في ظل الولاة من آل العظم في تلك الفترة ، ورصد فيها أهم المتغيرات التي طرأت على دمشق . ثم كتابه الثاني الذي كان أعم وأشمل من الكتاب الأول وتناول فيه أوضاع المشرق العربي في ظل الدولة العثمانية بدءاً من سنة ١٥١٦ إلى سنة ١٧٩٨ م وسماه « بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون ١٥١٦ ــ ١٧٩٨ » وهو أهم كتبه . أما كتابه الثالث فهو « العرب العثمانيون من سنة ١٥١٦ إلى ١٩١٦ م « وفيه يزيد على ما ورد في كتابه الثاني برصده أحداث الوطن العربي من حملة نابليون إلى سنة ١٩١٦ م وأبرز ما ورد فيه دراسته لمظاهر انحطاط الدولة العثمانية والنفوذ المحلي

والأسر الحاكمة سواء المملوكية أو العربية في الاقطار العربية المختلفة التي تقع ضمن الامبراطورية العثمانية سواء في المشرق أو المغرب ، وحركات الاصلاح في الدولة العثمانية وحكم الطغاة فيها والتدخل الأجنبي في الوطن العربي والحركات الود ية المختلفة التي قاومت الاستعمار وجاءت طباعة هذا الكتاب في سنة ٩٧٤ م .

ومن بعد الدكتور رافق قام الأمريكي النشأة ــ جورج خوري ــ بدراسة أوضاع ولاية دمشق ما بين سنة ١٧٨٣ ــ ١٨٣٢ وقدم بحثه ذاك تحت عنوان : *the province of Damascus, 1783-1832»* إلى جامعة ميتشجان لنيل درجة الدكتوراه عنه . وانصب اهتمامه فيه على رصد المتغيرات السياسية والاقتصادية بالدرجة الأولى في تلك الولاية وأهمل النواحي الاجتماعية ولم يحاول الخوض في المتغيرات التي حصلت في عهد ابراهيم باشا المصري بكاملها .

وهكذا وجدتُ نفسي أمام موقف صعب قد تقصر عن تحقيق أهدافه امكاناتي ، إلا أنه من جهة أخرى يغري الباحث لما لتلك الفترة من بالغ الأهمية . ففيها كانت الدولة العثمانية تترنح تحت الضربات الخارجية والداخلية وتخيم عليها سحب التخلف الداكنة امتداداً لعصور الانحطاط في وقت كانت أوربا فيه تتصاعد قوتها الفكرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية . دوراً بعد آخر حتى أصبح مصير الدولة العثمانية في التمزق والتجزئة قاب قوسين أو أدنى . ولم يمنعها من الوقوع في مهاوي الكارثة سوى اختلاف الدول الأوربية القوية فيما بينها على ذلك .

لقد أدرك المتنورون من السلاطين هذه الحقائق فسعوا لرأب الصدع وتلافي

أسباب الانحطاط والضعف فأجرى بعضهم في القرن الثامن عشر ، بعض الاصلاحات إلا أنها لم تكن كافية إلى الدرجة التي تجنبها الانهيار ، كما لم تشمل جميع مرافق الحياة فيها مما دفع السلاطين في القرن التاسع عشر للسعي مرة أخرى إلى الاصلاح ، إلا أن الظروف والصعاب التي جابهت بعضهم كانت كبيرة فاقت طاقتهم فعجزوا عن مجابهتها ولعب عامل الزمن دوراً أساسياً في ذلك ، وحسبنا هنا أن نلمح أهم الظروف والعوامل التي تسببت في ضعف الدولة العثمانية ، وأهم الأحداث الداخلية والخارجية التي عجلت في عملية التغيير التي شهدتها المنطقة بعد هذه الفترة ، سواء من الناحية الايجابية أو السلبية

فعلى المستوى العسكري كان الجيش العثماني بنظمه وتسليحه متخلفاً عن الجيوش الأوربية إلى درجة خطيرة فبرز ذلك في ميادين القتال ، ولم يتسبب بهزائم الدولة العثمانية فحسب بل تسبب في نشر الفوضى والاضطرابات في أرجائها ، وأصبح عبئاً على أمنها واقتصادها بدلا من أن يكون درعاً يحميها ويصد عنها عاديات الجيوش الأوربية وأعداءها ، ويقمع الفتن والتمردات الداخلية .

وعلى مستوى الانتاج كانت الزراعة هي الأساس في انتاج الدولة العثمانية ، ونتيجة لتفسخ النظم الاقطاعية رغم قيام المحاولات العديدة لاصلاحها ، تدهور الانتاج الزراعي بشكل مستمر وساءت أحوال الفلاحين ، ناهيك عن استخدامهم جهودهم في زراعة الأرض بأدوات بدائية موروثة وعجزهم عن مكافحة الآفات الزراعية المختلفة التي أصابت محاصيلهم ، واستهلاكهم لمعظم ما أنتجوه من غلال واغتصاب ما تبقى من انتاجهم على يد المستغلين من الاقطاعيين والجند والحكام والتجار وغيرهم[1] . وعجز الدولة عن حمايتهم مما أدى

(١) ـــ لوتسكي ـــ فلادمير . تاريخ الأقطار العربية الحديث . ص ٢٧ دار التقدم موسكو .

إلى هجرهم للأراضي بسبب تلك المظالم ، فتقلص عدد القرى والمساحات المزروعة واندفعت جموعهم نحو المدن بحثاً عن الأمن والرزق وشكلوا بذلك عبثاً جديداً على اقتصاد المدن مما زاد في استفحال أزماتها .

وعلى المستوى الخارجي قامت في أوربا الثورة الصناعية باعتمادها على طاقة البخار في الصناعة بديلاً عن طاقة الانسان والحيوان ، في وقت كانت فيه أقاليم ، الدولة العثمانية تعتمد على الطرائق القديمة في الانتاج حيث شكلت طاقة الانسان العنصر الاساسي فيه ، في حين كانت أوربا تعتمد على الآلة التي فاقت طاقة الانسان أضعافاً مضاعفة ، وانتقل الانتاج في أوربا من نظام المعامل اليدوية (المانيفا تورة) إلى الانتاج الآلي . وفاضت كمية انتاجهم عن حاجتهم مما دفعهم للعزوف عن السفن الشراعية الصغيرة في النقل وأحلوا محلها السفن التجارية الكبيرة التي تتحرك بطاقة البخار بديلاً عن الشراع . وساعدها ذلك على الابحار في مختلف الظروف ليلاً ونهاراً وفي كل فصول السنة ، ودخلت موانىء المنطقة في طور جديد في المجال الاقتصادي انعكس ذلك على الحياة الاجتماعية نفسها .

كما اختلفت طريقة تعامل الأوربيين في مجال التجارة مع مدن بلاد الشام والدولة العثمانية خصوصاً عند شرائهم المحاصيل المحلية مهما اختلفت أنواعها وكمياتها (الحبوب ــ الزيت ــ الحرير ــ القلي) وأصبحوا لا يشترون سوى المواد الخام التي تحتاجها معاملهم وباعوا منتجاتهم بالمعادن الثمينة (فضة أو ذهب) لأن كمية وأسعار المنتجات المحلية لم تعد تغطي قيمة البضائع الأوربية . وبذلك انقضى عصر المقايضة مما اثر على السكان من ناحيتين :

الأولى : كساد المنتجات المحلية لعدم قدرتها على المنافسة .

الثانية : اضطرارهم لدفع ثمن البضائع الأوربية نقداً ثميناً[١] . فأدى ذلك إلى سحب هذه المعادن من الامبراطورية العثمانية فقل وجودها . فأدخل الغش في سك النقود بخلطها بمعادن خسيسة وأدى ذلك إلى التضخم النقدي فارتفعت الأسعار وزاد الغلاء وتعطلت مصالح وحرف ، وانتشرت المجاعات في أكثر من مكان من الامبراطورية العثمانية .

وتكدست لدى الأوربيين رساميل ضخمة واكتسبوا خبرة كبيرة في التجارة وتنظيم الأجور . واستغل الأوربيون الامتيازات التي حصلوا عليها داخل الامبراطورية العثمانية وحولوها إلى تسهيلات لتجا ءم (يمكن سحبها متى شاءت السلطات العثمانية) إلى اتفاقيات وحقوق مسلم بها لا يمكن نزعها ، وبفضل هذه الامتيازات أعفي الأشخاص الأوربيون من الضرائب ، كما استثنيت حماياتهم المحليون [البراءتلية] من سلطة المحاكم العثمانية وحفظت ممتلكاتهم من المصادرة ، واستمر العمل بنظام الامتيازات حتى القرن العشرين فتشكلت ركيزة من ركائز الاستعمار وعرقلت تطور الرأسمال الوطني في الاساس ووضع التجار المحليون في موضع غير متكافىء في الحقوق مع التجار الاجانب ، فكان التاجر الأوربي يدفع رسماً للدولة العثمانية ٣٠٪ من قيمة البضاعة في حين كان التجار المحليون يدفعون رسماً ما بين ٧ ــ ١٠٪ كما أن التجار الأجانب لا يدفعون عن بضائعهم إلا رسماً واحداً ولمرة واحدة في حين كان التجار المحليون يدفعون الرسم مرات عديدة في المقاطعات المختلفة من الدولة العثمانية[٢] . فوفر ذلك مكاسب هامة على حساب الأقتصاد المحلي .

---

(١) رافق ، عبد الكريم ، العرب والعثمانيون ص ٤٢٤ و ص ٤٢٥ .

(٢) انظر : لوتسكي ، فلادميير ــ المرجع السابق ، ص ٢١ و ص ٥٢٢

وفي هذه الفترة تزايدت هزائم الدولة العثمانية فلم تعد تحصل على الغنائم والثروات من البلدان المفتوحة بل على العكس أصبحت تدفع تعويضات الحرب للدول الأوربية المنتصرة ، وكان على الشعب أن يدفع تلك المغارم والتعويضات فأثقل كاهله بالضرائب والأتاوات . وشكل ذلك ارباكات اقتصادية لا حد لها ، وزاد في الطين بلة ، ضعف السلطة المركزية إذ انزوى السلاطين في قصورهم بين الحريم وتركوا ممارسة السلطة للصدور العظام ، ودب الصراع بين الكزلار آغا والصدر الأعظم وانعكس ذلك سلباً على الادارة المركزية والولايات وزادت المكائد بين الطامعين في المناصب ، فأسهم ذلك في نشر الفوضى وانقطاع حبل الأمن في كل مكان . وانعكس ذلك بشكل أساسي على الحواضر والقرى ، وازداد شره الاقطاعيين والحكام نتيجة لنمو العلاقات البضاعية النقدية ولطبيعة التجارة الخارجية فشيدوا القصور في دمشق وغيرها من حواضر الامبراطورية واستورد التجار مواد الترف من كافة أنحاء المعمورة ودفعوا أثمانها معدناً ثميناً ، وزاد الحكام من استغلال الفلاحين ليسدوا متطلبات حاجياتهم المرفهة ، وأدى ذلك إلى الصدام فيما بينهم على ابتزاز الفلاحين مما أدى إلى اهمالهم للأرض وأصبحت بعض أجزائها أدغالاً مغطاة بالأشواك وتحولت إلى أرض موات . وأصبح أكثر من نصف مساحة الأراضي الصالحة للزراعة في عداد الأرض الموات .

وصارت المجاعات ظاهرة يتكرر وقوعها مع الزمن ، وأدى ذلك إلى مزيد من الخراب وزاد في الكيل اعتداء البدو على الحواضر[1] .

وشجع ضعف السلطة المركزية في استانبول الطامعين من الولاة والأسر

(١) انظر : لوتسكي ــ فلادميير ــ المرجع السابق ص ٢٧ وص ٢٨ .

المحلية على الاستغلال والتمرد ، فبرز المماليك في مصر والعراق والاسرة القرمانلية في ليبيا والحسينية في تونس وظاهر العمر في فلسطين ومن بعده أحمد باشا الجزار والقوى المحلية في بعض المدن الشامية .

وبلغت الاضطرابات في البلاد ذروتها في ٢/حزيران/١٧٧١ م/١٨ صفر ١١٨٥ هـ عندما زحفت قوات علي بك الكبير من مصر إلى بلاد الشام بقيادة مملوكه محمد بك أبي الذهب ، ورغم انسحابه من دمشق في ٥ ربيع الأول من نفس العام إلا أن ذلك كان بمثابة تطور خطير في بلاد الشام وكان من أهم نتائجه فقدان ولاة الشام سيطرتهم المحلية [١] إلى فترة طويلة من الزمن ، كما انتقلت المبادرة السياسية إلى ولاة صيدا ، ونتج عن ذلك ضرر كبير لمدينة دمشق على مختلف المستويات .

وفي المناطق الشمالية تعرضت الدولة العثمانية إلى هزائم متكررة أمام الروس ، وتوجت هزائمها باجبارها على توقيع معاهدة|كوجوك قينارجه|في سنة ١٧٧٤ م والتي أعطت الروس مكاسب اقليمية كبيرة على حساب الامبراطورية العثمانية فامتلكوا حصن كيرتش ويني قلعة وكينبورن وكابادوا . وأعلنت القرم وكوبان استقلالهما عن تركيا تمهيداً لضمهما إلى روسيا وحصل بعد ذلك في سنة ١٧٨٢ م . كما حصل الروس على حرية الملاحة في البحر الأسود والمضائق لأغراض تجارية .

واستطاع الروس بعد نشوب الحرب مع العثمانيين من جديد (١٧٨٧ ــ ١٧٩٢) م أن ينتزعوا أيضاً مكاسب أخرى طبقاً لمعاهدة ياسي في

---

(١) انظر : رافق ، عبد الكريم . بلاد الشام ومصر ، ص ٣٧٢ وص ٣٧٤ وص ٣٨٧ وص ٣٨٨ .

٩ كانون اثني ١٧٩٢ م فبسطوا سيطرتهم على شواطيء البحر الأسود الشمالية وامتدت حدودهم إلى نهر الدينيستر[1] .

ولقد تجدد اهتمام الدول الأوربية في هذه المنطقة ، فبعد استقلال الولايات المتحدة الأميركية سنة ١٧٧٦ م عن التاج البريطاني ، رأى الانكليز في الممتلكات العثمانية وخاصة في مصر وبلاد الشام ما يعوضهم عن خسارتهم فيها ، كما تجدد اهتمام الفرنسيين بمناطق المتوسط واشتد صراعهما على الهند على اعتبار أن الممتلكات العثمانية الواقعة شرق وجنوب المتوسط أفضل معبر إلى الهند ، درة المستعمرات البريطانية . فنزلت القوات الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت في الاسكندرية في أول تموز سنة ١٧٩٨ م . زحفت القوات على بلاد الشام وتوقفت عند أسوار عكا بفضل صمود حماتها من العثمانيين والفرنسيين الملكيين والدعم البحري الانكليزي ، وانتشر الطاعون بين صفوف القوات الفرنسية ، مما أجبر نابليون على الانسحاب إلى مصر . ورغم فشل الحملة الفرنسية على بلاد الشام إلا أنها دفعت بتلك البلاد مع الغرب على حين غرة إلى دوامة الأحداث التي كانت تهز أوربا في نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر مع أنها أقاليم نائية عن الامبراطورية العثمانية وأدرك الانكليز خطورة مطامع الفرنسيين على مصالحهم فصمموا على مقاومتها بكل السبل .

ومن جهة أخرى فإن الحملة الفرنسية على فلسطين لم تترك آثاراً عميقة في سورية كما تركتها في مصر ، إلا أن العمليات الحربية التي اندلعت في سورية قد عقدت الوضع الداخلي وأفضت إلى استعار الصراع مجدداً بين الاقطاعيين أنفسهم وبين ولاة دمشق وصيدا .

---

(١) لوتسكي : المرجع السابق ص ٣١ . رافق بلاد الشام ومصر ص ٣٠١ .

ولم تسترح الدولة العثمانية بعد خروج الفرنسيين بل جوبهت بخطر جديد جاءها هذه المرة من الجزيرة العربية وتمثل بحركة محمد بن عبد الوهاب الذي دعا للعودة بتعاليم الاسلام إلى صفائها الأول . ويعني ذلك أن السلطان العثماني لم يعد زعيماً للأمة الاسلامية وساعدت الوهابيين في ذلك انكسارات السلطات العسكرية المتلاحقة أمام الدول الأوربية ، مما دل على عدم كفاءته للدفاع عن دار الاسلام وتأتي خطورة ذلك على الدولة العثمانية من كون هذه الدعوة تشكل تحدياً للعثمانيين من العرب المسلمين دعاة الاسلام الأول وأن الحركة الوهابية بدعوتها إلى العودة إلى تعاليم الاسلام إنما كانت تحيي ذكريات عظمة العرب الأولى وما قدموه للاسلام . ولهذا اعتبرت الحركة الوهابية رد فعل عربي في القرن الثامن عشر لإرجاع زمام المبادرة والقيادة في البلاد الاسلامية إلى العرب[1] .

ولم يقتصر خطر هذه الحركة على تهديد الوجود العثماني في الحجاز والجزيرة العربية بل سعى هؤلاء إلى توحيد البلدان العربية على اساس تعاليمهم الدينية إلا أن قواتهم وامكاناتهم قصرت عن تحقيق ذلك ، ورغم ذلك قاموا بالاغارة على فلسطين وبلاد الشام والعراق ومناطق الفرات في القرن التاسع عشر ؛ ففي نيسان سنة ١٨٠١ م هاجموا مدينة كربلاء ونهبوا كنوزها وهزموا حملة والي بغداد بعد ذلك .

وفي سنة ١٨٠٣ م ظهروا في جوار حلب ، وفي سنة ١٨٠٤ م شنوا غاراتهم على الزبير والبصرة إلا أنهم دحروا بقوات واليهما سليمان الصغير ، وفي نفس العام ظهروا في البطاح الواقعة ما بين معان وحلب ، وفي سنة ١٨١٠ م

---

(١) انظر : رافق ، عبد الكريم . بلاد الشام ومصر ص ٣١١

سنة ١٢٢٥ هـ ظهروا في حوران . ويقول حسن آغا العبد في أحداث ١٢٢٥ هـ «اشتدت الأخبار في الشام بأن عرب الوهابية وصلوا إلى مزيريب ... فعمل ركبة يوسف باشا والي الشام وطلع نحو مزيريب .. فحرقوا بعض ضيع الوهابية نواحي حوران ونهبوا بعض قراها فأول ما سمعوا بيوسف باشا ترفعوا»[1] .

وكانت أخطر أعمالهم ضد الدولة العثمانية سيطرتهم على الأماكن المقدسة في (مكة والمدينة من الحجاز) ، ففي سنة ١٨٠٤ م ١٢١٨ ـــ ١٢١٩ هـ استولوا على المدينة المنورة وفي سنة ١٨٠٦ م ١٢٢٠ ـــ ١٢٢١ هـ ـــ عادوا فاستولوا على مكة وفي ذلك يقول عثمان بن بشر أن الأمير سعود قد أمر فراج بن شرعان العتيبي بالتصدي لعبد الله باشا (العظم) أمير قافلة الحج الشامي ومنعه من دخول المدينة المنورة خوفاً من تواطئه مع شريف مكة لضرب الوهابين فرجع عبد الله العظم ومن تبعه من المدينة إلى أوطانهم[2] .

وفي سنة ١٨٠٦ م ١٢٢٠ ـــ ١٢٢١ هـ عاد الوهابيون واستولوا على مكة المكرمة ونهبوها وضموا الحجاز إلى دولتهم مما زاد في احراج السلطان العثماني ، إذ لم يبق له ما يثبت أنه زعيم المسلمين بتوقف قافلة الحج بعد أن منعوا معظم الحجاج من أداء مناسك الحج ، ولم يكتف الوهابيون بذلك بل زادوا في تحديهم للسلطان بأن قام أميرهم سعود بمراسلة السلطان سليم الثالث وطالبه

---

(١) العبد ، حسن آغا ـــ تاريخه ص ١٥٠ .

(٢) انظر : عنوان المجد في تاريخ نجد . ج ١ . ص ١٢٧ وص ١٢٨ .

ويذكر عثمان بن بشر الحنبلي أيضاً أن الدولة الوهابية في سنة ١٢٢٥ هـ ـــ شملت : العارض . والجنوب ووادي الدواسر والاحساء ونواحيه وعمان وجميع أهل نجد وأهل التهايم والحجاز واليمن والمدينة المنورة وما حولها انظر : عنوان المجد في تاريخ نجد . ج ١ . ص ١٤٥ .

بالامتناع عن ارسال المحمل من دمشق والقاهرة إلى مكة قائلاً «ان ذلك ليس من الدين في شيء»[1] .

لقد ساعد الحركة الوهابية على نموها كونها ظهرت في منطقة آهلة بالسكان في هضبة نجد المعزولة بصحارى ورمال يصعب الوصول إليها بسهولة . إذ لا تخترقها سوى طرقات قليلة كوادي سرحان القادم من سورية وطريق القوافل التجارية القادم من الخليج العربي إلى الحجاز[2] .

وفي سنة ١٢٢٣ هـ ـــ تناقص عدد قافلة الحج ولم يحج في هذه السنة من أهل الشام ومصر والعراق والمغرب وغيرهم سوى شرذمة قليلة من أهل المغرب لا اسم لهم .

ولم يكن باستطاعة العثمانيين تجنيد جيش كبير لمحاربة الوهابيين والقضاء عليهم بعد فشل ولاة دمشق وبغداد في التصدي لهم ، وازداد موقف السلطان حرجاً وفقد جانباً عظيماً من هيبته وسمعته الدينية فلم يجد مناصاً من دحر الحركة مهما كلف الثمن ، فوجد في محمد علي باشا واليه على مصر خير أداة لتنفيذ تلك المهمة[3] .

وكان من أهم أسباب اختيار السلطان محمد علي باشا هو زج القوات المصرية في مجاهل الصحراء بحيث تتكبد خسائر كبيرة وإذا ما خرجت منتصرة من حربها فستكون مهيضة الجناح يستطيع السلطان العثماني الاجهاز عليها

---

(١) انظر : الرافعي ، عبد الرحمن بك . تاريخ الحركة القومية . ج ٣ ص ١٢١ .

2 - See: Holt, P.M.Egypte are the fertile crecent 1522.1922 P 145.

(٣) الحنبلي ، عثمان بن بشر ، عنوان المجد في تاريخ نجد . ج ١ ص ١٤١ .

فيتخلص من الوهابين ومن طموحات محمد علي في الاستقلال والتوسع في وقت واحد .

أما محمد علي باشا فقبل بالمهمة لأنه رأى فيها ما يمكنه من السيطرة على تجارة البلاد وخيراتها ومن ثم تحويلها إلى مفتاح للسيطرة على سورية والعراق . وأن الوهابيين هم الخصوم الحقيقيون الذين سيقفون دون محمد علي وتحقيق هذه المطامع .

انطلقت الحملة بقيادة طوسون في ايلول سنة ١٨١١ م براً وبحراً وفي تشرين الثاني سنة ١٨١٢ م استعاد المدينة المنورة من الوهابيين . وفي كانون الثاني سنة ١٨١٣ م استعاد مكة المكرمة والطائف وجدة وسيطر على كل الحجاز[١] .

وفي سنة ١٨١٥ م ١٢٣١ ـــ ١٢٣١ هـ اجبر طوسون عبد الله السعودي على توقيع معاهدة[٢] معه ، إلا أن محمد علي باشا رفضها ، واستأنف المصريون الحرب بقيادة ابراهيم باشا في سنة ١٨١٦ م / ١٢٣١ ـــ ١٢٣٢ هـ وزحفت قواتهم في عمق الجزيرة العربية متجهة نحو عاصمة الوهابيين في نجد للقضاء على دولتهم ، مستخدمين في ذلك اسلوب الابادة مما دفع بالقبائل العربية للجوء إلى الواحات النائية واستطاع المصريين في سنة ١٨١٧ م / ١٢٣٢ ـــ ١٢٣٣ هـ من السيطرة على الرس وبريدة وعنزة ودخلوا

---

(١) لوتسكي ، فلادميير ، المرجع السابق . ص ١٠٢ .

(٢) كان من بنود معاهدة الصلح تعهد عبد الله بن سعود أن يكون تابعاً للسلطان العثماني كما وعد بالخضوع للوالي المصري على المدينة المنورة وتأمين سلامة الحج وإعادة الكنوز المنهوبة إلى مكة والتخلي عن البدع الدينية كما وعد بالسفر إلى استانبول . انظر : لوتسكي . المرجع السابق . ص ١٠٤ .

نجد في أوائل سنة ١٨١٨ م / ١٢٣٣ ــ ١٢٣٤ هـ واستولوا على شقرا في ٦ نيسان سنة ١٨١٨ م ثم اقتربوا من الدرعية العاصمة في ٥ ايلول سنة ١٨١٨ م وسقطت بيدهم بعد حصارها مدة خمسة أشهر تحولت خلالها إلى أنقاض وأسر الأمير عبد الله بن سعود وأرسل إلى القاهرة ومنها إلى استانبول حيث قطع رأسه في كانون الأول سنة ١٨١٨ م وأكمل المصريون اخضاع بقية أجزاء الجزيرة العربية .

إلا أن المصريين انشغلوا بعد ذلك في قمع الثورة اليونانية واحتلال سورية ، فقام الوهابيون باستعادة قوتهم وسيطروا على نجد . ولكن المصريين قاموا بارسال جيش بقيادة خورشيد باشا فاستعادوا سيطرتهم في سنة ١٨٢٨ م وأخذ الأمير فيصل أسيراً إلى القاهرة . ولكن وجود المصريين في مناطق الخليج قد أساء إلى علاقتهم مع المستعمرين الأنكليز مما اضطرهم في سنة ١٨٤٠ م/١٢٥٥ ــ ١٢٥٦ هـ لسحب قواتهم من الجزيرة العربية كلها فاستعاد الوهابيون سيطرتهم عليها[1] مرة أخرى .

ورغم استعادة السلطان السيطرة الأسمية على الجزيرة العربية وعلى الأماكن المقدسة إلا أن السيطرة الفعلية كانت لمحمد علي باشا ولم تنته مشكلة الوهابيين حتى برزت مشكلة أكبر بدت في ثورة الصرب والثورة اليونانية . والتي أخذت أبعاداً دولية أجبرت السلطان العثماني في النهاية على الرضوخ لمطالب الدول الأوربية في منح اليونان استقلالها . مما شكل سابقة خطيرة بالنسبة للدولة العثمانية التي تتألف من عناصر قومية متعددة .

وكان ينظر إلى الثورة اليونانية على أنها ثورة قومية اعتمدت على المشاعر

---

(١) لوتسكي ص ١٠٤ .

الدينية[1] لتحريض الشعب اليوناني على القتال ضد العثمانيين ، ولكسب ود الشعوب الأوربية إلى جانبهم . برهنت الثورة على ضعف الدولة العثمانية بدلالة أنها لم تستطع قمعها دون الاعتماد على قوات محمد علي باشا . كما أدت هذه الثورة إلى تفاقم الأوضاع الأوربية وكادت تودي إلى صدام بين الدول الأوربية نفسها لتضارب مصالحها . ففرضت في سنة ١٨٢٠ استقلال اليونان على السلطان تفادياً للصدام فيما بينها . ونتج عن ذلك فيما بعد أن ازدادت أهمية محمد علي باشا كما ازداد التدخل الأوربي في شؤون الدولة العثمانية .

وقطف الروس أشهى الثمار من جراء الثورة اليونانية وعلى حساب الدولة العثمانية . وأصبحت اليونان في ذلك العام دولة ملكية وراثية .

وفي نفس العام كانت فرنسا قد أتمت احتلالها للجزائر وسلختها عن الدولة العثمانية في وقت لم تكن قد التقطت أنفاسها ثم جاءتها ضربة أخرى في العام الثاني ١٨٣١ م تمثلت في زحف قوات محمد علي باشا واليها على مصر على بلاد الشام شاقاً بذلك عصا الطاعة وظهر منذ البداية تفوق القوات المصرية ذات التنظيم والتسلح الجيدين وذات الخبرة العالية في مجال القتال ، اكتسبتها من قتالها في السودان والجزيرة العربية واليونان . في حين كانت قوات النظام الجديد في الدولة العثمانية لم يكتمل تنظيمها وإعدادها بعد . وغدا انهيار الدولة العثمانية مرة أخرى محتماً فيما إذا لم تتدخل الدول الأوربية وتمنع محمد علي باشا من تحقيق أهدافه[2] .

(١) يقول حسن آغا العبد في أحداث سنة ١٢٣٦ هـ «كان قيام الطائفة الكفرة الروم في اسلامبول وساير الممالك وصار إلى الناس شدة زايدة وكان قيامهم من أعظم الحوادث واستولوا على المورة وعدة مطارح من بلاد الاسلام على ما بلغنا ثم نصر الله الاسلام واستخصلوا منهم البلاد ... وأرسل السلطان محمود خان ... عساكر المجاهدين براً وبحراً واستقام الجهاد على المورة إلى وقتنا الحاضر» انظر : تاريخه . ص ١٦٦ وص ١٦٧ .

2 - See: Miller W. opit.P.106.

وكان رد فعل السلطات العثمانية بطيئاً فلم تبدأ المواجهة مع الجيش المصري إلا بعد ستة أشهر من زحفه على بلاد الشام . وكانت أولى المواجهات بينهما في آذار سنة ١٨٣٢ م كما لم يعلن السلطان عزل محمد علي باشا عن مصر إلا في ٢٣ نيسان سنة ١٨٣٢م[١] واستغل المصريون عامل الزمن أفضل استغلال فسارعوا الخطى إلى فلسطين ووصلوا إلى عكا وحاصروها في تشرين الثاني سنة ١٨٣١م وسقطت بيدهم في ٢٧ أيار سنة ١٨٣١م[٢].

وأرسل المصريون في نفس الوقت قادتهم لاخضاع القدس ، وأعلنوا فيها رفع القيود التي فرضت على أهل الذمة . مما أكسبهم تأييد المسيحيين ودعمهم العسكري خاصة في جبل لبنان . كما سرت أوربا من ذلك[٣].

وفي نفس الوقت كانت بقية الجيش المصري تندفع شمالاً فسحقت قوات تجمع الباشوات التسعة في حمص واستولت بعد معركة الزراعة على حماه وحلب واتجهت نحو ممر بيلان الجبلي الذي يشكل المفتاح الى قلب الامبراطورية العثمانية . وجرت معركة أخرى بين الطرفين في ٢١ كانون الأول سنة ١٨٣٢ م قرب قونية . وسحقت القوات العثمانية مرة أخرى . وفتح الطريق أمام الزحف المصري فوصلت طلائعهم إلى بروسة وأصبحت استانبول تحت الخطر .

وأدرك السلطان خطورة الموقف وأنه لا منقذ له سوى الدول الأوربية . وتباينت مواقف هذه الدول على ضوء مصالحها . فالفرنسيون وقفوا إلى جانب المصريين ورفضوا تقديم المساعدة للسلطان . في حين وقف الروس إلى جانبه خوفاً

---

1 - See: Miller.W.op.cit.P.106.

(٢) لوتسكي ، فلاديمير . المرجع السابق ص ١٢٦ .

(٣) رافق ، عبد الكريم . العرب والعثمانيون ص ٤٠٤ وص ٤٠٥ .

من انتصار محمد علي وإقامته دولة فتية على أنقاض الامبراطورية العثمانية مما يؤدي إلى اصابة مصالحهم بأفدح الأخطار . أما الانكليز فكان موقفهم حرجاً فهم لا يريدون انتصار محمد علي وإقامة دولته الفتية القوية على أنقاض الدولة العثمانية ، كما لا يريدون للروس تحقيق مكاسب من خلال تدخلهم إلى جانب السلطان تؤثر على مصالحهم ، وقد يحققون حلمهم بتقسيم الامبراطورية إلى شطرين أولهما شمالي تحت سيطرة الروس وآخر جنوبي تحت سيطرة محمد علي . لهذا حاولوا حسم الخلاف والأبقاء على تمامية أراضي الامبراطورية العثمانية [1] .

وعندما طلب السلطان العثماني محمود الثاني المعونة من الروس أدخلوا اسطولهم إلى البوسفور وأنزلوا قواتهم إلى البحر في ٢٣ آذار سنة ١٨٣٢ م على الشاطيء الآسيوي ، كما أرسلوا قوات إضافية براً عن طريق الدانوب باتجاه العاصمة العثمانية . مما أفزع الفرنسيين والانجليز فقاموا بمظاهرة عسكرية بحرية مشتركة بالقرب من سواحل مصر ، وقاموا من جهة أخرى بالضغط على السلطان وأجبروه على توقيع معاهدة كوتاهية في ١٤ أيار سنة ١٨٣٢ م مع المصريين ، وتنازل بموجبها لمحمد علي عن مصر والجزيرة العربية والسودان وكريت .

وهكذا تم تعيين محمد علي باشا حاكماً على فلسطين وسورية وكيلكيا ، على أن يجلو عن الأناضول ويعترف بسيادة السلطان .

وفي هذه الأجواء العاصفة بقي مجتمع دمشق على حالته الموروثة من عهود الانحطاط وقد تأثر بها بدرجات متفاوتة كونه جزءاً من الامبراطورية ، كما لعبت

---

(١) لوتسكي ، فلادمير المرجع السابق ص ١٢٧ وص ١٢٨ .

ظروفه المحلية دوراً خاصاً . فعلى المستوى العقائدي سادت فيه روح التعصب[1] التي كانت امتداد للحروب الصليبية رغم بعد الفترة الزمانية بينهما . ولم تكن الدولة العثمانية بعيدة عن تغذية مثل هذه الروح إذ لا رابطة تربطها بمسلمي دمشق سوى الرابطة الدينية .

وعلى المستوى الفكري ونظرة المجتمع للحياة وأسلوبه في معالجة مشاكلها ، كان في ذلك امتداداً لعصور الانحطاط . فلم يكن للبرهان العلمي والبحث عن القوانين التي تقبع وراء الظواهر الطبيعية من أثر على عقول الناس . فالخرافات تغلف العقول ، وتفسر ظواهر الطبيعة بها ، فإذا السماء انشقت ذات ليلة وهبط جسم غريب منها أو شوهد مذنب سابح في كبد السماء فسروه بما سيحصل في المستقبل . ويورد البديري الحلاق مثالاً على ذلك في أحداث سنة ١١٥٧ هـ/١٧٤٥ م أن نجماً له ذنب طلع من جهة الغرب ثم صار يطلع من جهة الشرق وذنبه إلى الغرب . وقد رافق ذلك ظهور «الطاعون»[2] حسب زعمه . وكسوف الشمس يفسر بزعزعة ايمان الشعب ففي سنة ١١٧٠ هـ/١٧٥٧ م كسفت الشمس ورؤيت النجوم نهاراً «ولا كانت هذه الأمة تعتبر»[3] أما شح السماء بالمطر فسببه في رأيهم الظلم الذي كان سائداً في مجتمع دمشق[4] .

(١) يقول صاحب حسر اللثام عن نكبات الشام «كان التعصب الديني آخذاً مركزاً عظيماً عند الناس في ذلك الحين حتى تجاوز القوم شرائط الدين وعدوا كل من كان خارجاً عن مذاهبهم كافراً ... فعمت الفوضى وصار الحكم للهمجية» . مجهول . ص ٣٦ ، الطبعة الأولى مصر سنة ١٨٩٥ م .

(٢) حوادث دمشق اليومية . ص ٢٦ وص ٥٧ وص ٥٨ .

(٣) حوادث دمشق اليومية ص ٢٠٣ .

(٤) العبد ، حسن آغا . المصدر السابق . ص ٦١ .

كما نلاحظ آنئذ الخلل في كفتي ميزان الحقوق والواجبات . فالفلاحون رغم أنهم كانوا القوة الاساسية المنتجة في مجتمع دمشق إلا أنهم كانوا محتقرين ولم يأتوا في السلم الاجتماعي إلا بعد المغاني والمومسات[1] . كما قتل الكثيرون لاتفه الأسباب ودون محاكمة وسلبت أموال البعض بنفس الأسلوب . وكتب أخباريي هذه الفترة مليئة بمثل هذه الأحداث فمثلاً حسن آغا العبد يورد في أحداث ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ ــ ١٨٠٤ م ان والي دمشق أحمد باشا الجزار أرسل جنوده بقيادة الشيخ طه الكردي لفرض الاتاوات على تجار دمشق وحرفييها وأعيانها وعجز البعض عن أداء ما فرض عليه من المال «فمن العذاب كان يقول نهار غد يدفع ذلك فيرفعوا عنه العذاب ، وثاني يوم يأخذوه تفكجية وجوخدارية آغا القول ويدوروا فيه البلد فيبيع ما يملكه من كل وجزء كذلك بالبخس وما يوفي الجرم فيندار يشحد من الخلق والناس ناظرين إليه بأعينهم فما أحد يقول شيء»[2] .

أما الآفات الزراعية كالجراد فيعالج بماء السمرمر[3] لجلب طير السمرمر فيقضي عليه في اعتقادهم . كما أن العقوبات نفسها لم تتصف بالانسانية فهناك التجريس والتغريق بماء بردى والبسمرة أو التعليق بكلاب حتى يموت جوعاً وعطشاً أو سلخ جلد الانسان وحشوه كالبو والخوزقة والتوسيط وكذلك تشويه جسد الاحياء بصلم الآذان وفقء العين وقطع اللسان وجدع الانف[4] .

---

(١) البديري ، حوادث دمشق اليومية . ص ٣٩

(٢) تاريخه ص ١٠٢ . ثم انظر أحداثاً مماثلة في تاريخ حسن آغا العبد ص ٦٩ و ٨٣ و ٩٣ و ٩٦ .

(٣) البديري ص ٨١ .

(٤) العبد ، حسن آغا ــ تاريخه ص ٥٧ وص ١٦١ ، والبديري الحلاق ص ١٧٣ وص ٣١ وص ١٧٩ . وص ٥٧ وابن طولون مفاكهة الخلان ج ١ ص ٣٨٥ .

وعولج بعض المرضى المجانين بالتعذيب لاخراج الشياطين من أبدانهم حسب زعمهم واستخدموا المندل لكشف السارقين والمفقودات[1] وراج سوق المنجمين والدجالين وادعوا معرفة الغيب والحظ[2] وساد الاعتقاد بمقدرة الصالحين في قبورهم بدفع البلاء وشفاء المرضى وقضاء الحاجات فأغدقوا بالنذور عليها[3]. وقصدوا المتصوفة ورجال الدين للاستخارة والفأل الحسن فكتبوا الحجابات والرقى للطالبين . ويذكر المرادي أن أبا بكر الدسوقي المتوفى سنة ١١٩٢ هـ/١٧٨٠ م كان يكتب التمائم والتعاويذ للمرضى وغيرهم[4] واستخير رجال الدين بعدد من اهتمامات المجتمع ، كالسفر وعودة الغائب والزواج . وتسمية الوليد وعقد الصفقات التجارية وتوجيه أبواب البيوت وشبابيكها قبل الشروع ببنائها[5]. إبعاداً للشر والحسد . ووصل بعض رجال الدين إلى درجة من التقديس في أعيان المجتمع فاعتبروا أن السماء تفرح لفرحهم وتحزن لفقدهم . فعندما مات حيدر الحسين آبادي «ظهرت أمور خارقة لوفاته فاشتدت الريح وأرعدت السماء وأبرقت واحمرت الدنيا واسودت بالغبرة الآفاق فكانوا يرون أن ذلك حزناً على فقده»[6] .

ورغم أن هذه الظواهر كانت عامة ومستمرة على امتداد فترة دراستنا في دمشق إلا أننا مع ذلك نلاحظ تفاوتاً في تأثيرها ، على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية . ويمكن تقسيم ذلك إلى ثلاث مراحل :

(١) القاسمي ، محمد سعيد ، قاموس الصناعات الشامية ج ٢ ص ٢٢١ وص ٢٣٢ .
(٢) القاسمي أيضاً ج ١ ص ١٥٧ . ثم ج ٢ ص ٤٧٢ .
(٣) ابن بدران ، عبد القادر . منادمة الاطلال .. ص ٥٣ .
(٤) سلك الدرر ج ١ ص ٥٣ ص ٧٣ — ترجمة أبي يزيد الحلبي واسحق الكيلاني .
(٥) الصايغ ، المقترب في حوادث الحضر والعرب . صورة لمخطوطة . ص ٤١ أ وص ٤١ ب
(٦) سلك الدرر . ج ٢ ص ٧٧ .

الأولى : وتقع ما بين ١٧٧٣ ــ ١٨٠٧ م|١١٨٦ ــ ١٢٢١ هـ والمرحلة الثانية وتقع ما بين : سنة ١٨٠٧ ــ ١٨٣١ م |١٢٢١ ــ ١٢٤٦ هـ أما المرحلة الثالثة والأخيرة فتقع ما بين : سنة ١٨٣١ ــ ١٨٤٠ م|١٢٦٤ ــ ١٢٥٦ هـ وهذا التقسيم مبرراته المنطقية على ضوء المتغيرات التي حصلت في كل واحدة منها على المستوى الداخلي والخارجي .

ففي المرحلة الأولى : تعرضت دمشق لهجوم محمد بك أبي الذهب ورغم بقاء مجتمعها على حالته السابقة بطبيعة عزلتها من مؤثرات الغرب من جهة ولكونها مركزاً دينياً وعلمياً متميزاً ، ولأن قافلة الحج الشّامي كانت ترفدها بمعين اقتصادي هام عدل من تأثيرات الظروف الدولية والداخلية السلبية التي أحدقت بالدولة العثمانية ، والتي انعكست بدورها على أخواتها من مدن بلاد الشام الساحلية والداخلية . ولكن حملة أبي الذهب في سنة ١٧٧١ م قد عدلت من المعادلة السياسية التي كانت قائمة بين ولاة دمشق وصيدا فانتقل التفوق السياسي إلى ولاة صيدا وكان هذا التبدل مبرراته المنطقية . فنمو قوة المماليك في مصر وطموحاتهم لاستعادة السلطة المملوكية على مصر وبلاد الشام ودعمهم لولاة صيدا ودخولهم جميعاً في تحالفات مع الروس ضد الدولة العثمانية قد أعطاهم نوعاً من القوة والنفوذ انعكس ضعفاً على ولاة دمشق وفي هذه المرحلة نمت الحركة الوهابية في الجزيرة العربية وسيطرت على مدينتي الحجاز المقدستين (مكة والمدينة) وضايقت الحجاج ومنعتهم من أداء المناسك وفرضت شروطاً مهينة على أمراء قافلة الحج مما أدى إلى تقلص قافلة الحج وتوقفها نهائياً في سنة ١٨٠٧ م| م

١٢٢٢ هـ[1] فتوقف معها الرفد الاقتصادي الكبير الذي كانت تمتاح منه تجارة دمشق وبدأت القوى السياسية فيها تتصارع على ما تبقى من موارد الرزق مما زاد في انهاك المجتمع لان تلك الصراعات كانت دموية أزهقت الأرواح وسلبت ودمرت الممتلكات والأرزاق وخلقت الخراب الاقتصادي والتفسخ الاجتماعي فازداد سلب (وبلص) المستضعفين على يد الحكام ، وشعر السكان المحليون بوطأة الغرباء في دمشق .

ولم تتمكن السلطة المركزية المهلهلة . بسبب المحن التي واجهتها . من وضع حد لتلك الاضطرابات رغم أهمية دمشق بالنسبة لها . وجل ما قام به السلاطين أن أكثروا من عزل الولاة فقصرت بذلك مدة بقائهم في مناصبهم ونتج عن ذلك أن أهملوا كل اصلاح والتفتوا إلى تأمين مصالحهم الخاصة على حساب المصلحة العامة . وأدرك السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ ــ ١٨٠٧) خطورة الوضع وضرورة اصلاح الإدارة المركزية وإدارة الولايات وإقامة الجيش الجديد . إلا

---

(١) يذكر حسن آغا العبد أن الدولة العثمانية كلفت ابراهيم باشا الحلبي بقيادة قافلة الحج في سنة ١٢١٩ هـ/١٨٠٤ ــ ١٨٠٥ م «أخذ الحج وراح ووصل إلى مكة والمدينة فلقا الوهابي أخذ مكة وحاصر المدينة حج الحج ذلك بالغلا والقحط والخوف وقلت المياه وما صار لا بيع ولا شراء إلى الحج والبازركان وجاء ابراهيم باشا بالحج سالمين ثم عزل في سنة ١٢٢٠ هـ/١٨٠٥ ــ ١٨٠٦ م وفي ٨ شهر رجب سنة ١٢٢٠ هـ أرسلت الدولة من الروم باشا إلى طرف الشام ونزل في تكية المرجة لأجل يحافظ على المدينة لأجل الوهابي واستقام هذه المدة إلى أن يطلع مع الحجاج ومدوه من اسلامبول بأموال كثيرة ... وارتفعت الأسعار في دمشق وقامت الخلق من الغلاء على القاضي ورجموه ونهبوا بعض أشياء من المحكمة ... وجرت الصدامات بين اليرلية والقابي قول وفي سنة ١٢٢١ عندما وصلت قافلة الحج على بعد مسير أربع ساعات من المدينة المنورة أرسل الوهابيون من يبلغ الحجاج بأن يرسلوا لهم المحمل والمدافع والزنبركات والمهتارخانة من أجل السماح لهم بمتابعة المسير باتجاه مكة لاداء مناسك الحج «فما أمكن عبد الله باشا هذا الأمر لأنه ذل عليه وعلى الدولة . وهذا الأمر ما سبق فرجع هو والحجاج سوى» انظر : تاريخ حسن آغا العبد ص ١١٨ ص ١١٩ ص ١٢٠ ص ١٢١ ص ١٢٤ ص ١٢٥

أنه جوبه بمعارضة قوية من الانكشارية والعلماء على حد سواء . وأجبر على التخلي عن الاصلاح وعزل من منصبه وقتل سنة ١٨٠٧ م .

أما المرحلة الثانية التي تمتد من (١٨٠٨ ـــ ١٨٣١) م فقد تأثرت دمشق بشكل غير مباشر بما جرى في استانبول ومصر رغم بقائها مغلقة في وجه الغرب، وحصلت في الامبراطورية أحداث هامة لم تؤثر على دمشق فحسب بل أثرت على وضع الامبراطورية برمتها . ففي هذه المرحلة استطاع السلطان محمود الثاني الاستفادة من أخطاء سليم الثالث بتطبيق الاصلاح بادخال الطرائق الغربية . كما تمكن من القضاء على الحركة الوهابية بواسطة محمد علي باشا وتشكيل أولى وحدات النظام الجديد ، وتمكن من القضاء على أرباب الانكشارية إلا أنه مع ذلك جوبه بنكسات خطيرة حيث نشبت ثورة اليونان وسقطت نيابة الجزائر بيد الفرنسيين .

وفيها استعادت قافلة الحج الشامي سيرها إلى الديار المقدسة بعد توقفها واستعادت معها تجارة دمشق نشاطها في هذا المجال . وعلى المستوى السياسي بقيت المبادهة بيد ولاة صيدا ولم يستطع ولاة دمشق استعادتها رغم محاولاتهم الكثيرة . واضطهد أتباع الطريقة البكطاشية حماة الانكشارية الذين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير بين سكان المدن البسطاء . وألغيت هذه الطريقة بأوامر سلطانية واضطهد أتباعها . أما الطوائف الحرفية التي كانت مرتبطة بالانكشارية فقد أعيد تنظيمها على نحو جذري ... وحاولت السلطة المركزية في استانبول إحكام قبضتها على دمشق شأن بقية الولايات التابعة لها . وزادت اجراءات الاصلاح من تذمر المدن لأن تنفيذها تطلب نفقات كبيرة وقع عبؤها على عاتق الحرفيين إلى مدى كبير ، وعلى صغار التجار ، فانخفضت الاجور وارتفعت

الضرائب وتحول التذمر إلى كراهية للسلطان شخصياً واتهم بالكفر وانه «حسب ادعائهم» متمادٍ في السكر بمعية الوجهاء في الوقت الذي كان فيه أطفال الحرفيين يموتون جوعاً . وأنه كان يعيش حياة الرفاه والترف في حين يخيم البؤس على أكواخ البؤساء . ودعت الطريقة البكطاشية إلى التمسك بآداب التقشف البسيطة الصارمة والاحتفاظ بالفضائل القديمة وبأدوات الانتاج اليدوية القديمة وكانت دعواتها مقرونة بالمواعظ والدعوة للتمرد على السلطان .

إلا أن اصلاحات السلطان العثماني لم تكن المسؤولة عن بؤس الحرفيين رغم ما فرضته من ضرائب مرتفعة عليهم ، بل أن ما أثر عليهم هو قيام الثورة الصناعية في أوربا وتأثيرها عليهم على النحو الذي ذكرناه آنفاً .

وأن طبيعة الاصلاح لم تكن مفهومة من قبل العامة ، ولعبت دعاية دراويش البكطاشية والمتضررين بالاصلاح دوراً سلبياً أدى إلى نشوء حركة تمرد واسعة النطاق شملت معظم أقاليم الامبراطورية العثمانية . وبرزت بشكل خاص في دمشق وحلب ، وفي سنة ١٨٢٥ حدثت اضطرابات كبيرة في دمشق نتيجة لاصدار فرمان حول تداول العملة وصدرت «التهديدات بقتل الحاكم وبإبادة جميع الموظفين مما ضمن للشعب اصدار أمر بابقاء جميع النقود قيد التداول حتى وصول أمين صندوق من استانبول . ثم أعقبها انتفاضات في نابلس والقدس ، وكان أهمها وأخطرها انتفاضة دمشق مرة أخرى سنة ١٨٣١ نتيجة لشروع الوالي الجديد وبأمر من السلطان باعداد قوائم بالمعامل الحرفية وبالحوانيت في دمشق لفرض ضرائب جديدة (ضريبة الصليان) كما صدرت أوامر باجراء احصاء للسكان بهدف تجنيدهم في الجيش الجديد .

وصدرت أوامر بالغاء نظام التيمار (الاقطاع العسكري) الذي كان

دعامة الدولة في أول عهدها وأصبح وبالاً عليها فيما بعد . بعد أن فسد نظام السباهية وانهار نظام التجار وعجز عن سد متطلبات الدولة في المجالات العسكرية ، مما أدى إلى صدور أمر السلطان بالغاء السباهية مع أوجاق الانكشارية سنة ١٨٢٦ م وتحولت بذلك الاقطاعات إلى أراضي للدولة وجمعت ضرائبها لتمويل الجيش الجديد أيضاً . واتخذ السلطان اجراءاً مماثلاً في مجال تنظيم الأوقاف بعد أن فسد أمرها وكثر تحويل الملك إلى وقف أهلي أوذرى تهرباً من المصادرة . إلا أن الدولة بتنظيمها للاوقاف قد حرمت العلماء الذين كانوا نظاراً ومتولين عليها من دعامة قوتهم وزاد من سلطة الحكومة المركزية[1] . وكان من الطبيعي أن تزيد هذه الاجراءات من حنق جميع المتضررين بها في دمشق . فتغلظت أكبادهم على السلطة خاصة وأن سليم باشا قد جاءها بغرض اجراءات الاصلاح في دمشق كما جرى في استانبول وكان لا بد لهؤلاء من الدفاع عن مصالحهم فعقدوا مؤتمر الربوة ونظموا التمرد في دمشق ضد الوالي وأدى ذلك إلى مقتله .

إلا أن دمشق لم تقطف ثمار نصرها وسرعان ما زحفت قوات ابراهيم باشا المصري عليها . ودخلت فلسطين وبلاد الشام تحت سلطة محمد علي باشا في سنة ١٨٣٢ م وبقيت حتى سنة ١٨٤٠ م وكان لهذه الفترة سماتها المميزة عن الفترات السابقة . فطرح محمد علي باشا بديلاً عن الرابطة الدينية الرابطة القومية العربية لاقامة مملكته . ولقد كتب بالمرستون في سنة ١٨٣٣ م قائلاً : ان محمد علي «هدفه الحقيقي هو تكوين مملكة عربية تضم كل الأقطار التي تتكلم بلغة

---

(١) رافق ، العرب والعثمانيون ص ٢٧٨

الضاد»[1] وهذا شيء جديد بالنسبة لبلاد الشام منذ الفتح العثماني وحتى ذلك التاريخ إذ أن المشاعر الدينية كانت متفوقة على المشاعر القومية .

كما أبلغ البارون بوال كومت الممثل الفرنسي لدى ابراهيم باشا حكومته الفرنسية بأن ابراهيم باشا لا يخفي مقاصده في بث الوعي القومي واحياء الأمة العربية وغرس شعور وطني أصيل عند العرب . كما بث بنشاط فكرة البعث القومي في نداءاته المتكررة لابناء بلاد الشام . وكان يذكرهم بأمجادهم العربية .

إلا أن الأوضاع لم تكن قد اختمرت بعد لتوحيد الأمة العربية فالبرجوازية العربية في سورية كانت ضعيفة جداً في حين كانت الاقطاعية مستحكمة . والاقطاعات بيد عناصر غير عربية في معظمها أو لا تتحسس بالمشاعر القومية العربية . ناهيك عن كون طرح الرابطة القومية بديلاً عن الرابطة الدينية لم يكن سوى مطية للوصول إلى الهدف المنشود وهو الاستقلال عن جسم الامبراطورية العثمانية وإقامة مملكة محمد علي باشا الذي لم يكن عربياً ولا يتقن العربية .

ومن جهة أخرى فإن ما قام به ابراهيم باشا من اجراءات واصلاحات قد شكلت الخطوة الأولى في طريق التغيير الكبير الذي شمل دمشق فيما بعد هذه الفترة . فاهتم بالزراعة وأوقف تدهورها وحدد الضرائب التي تجبى من الفلاحين وحرم الابتزازات الاقطاعية التعسفية وأعفى الأرض البكر المحروثة من دفع أي نوع من الضرائب لمدة طويلة وسعى لتأمين استقرار البدو في الأراضي المهجورة والصالحة للزراعة وانتقالهم إلى حالة الاستقرار . وهكذا نشأت قرى جديدة في مناطق دمشق وحلب وأعيد تعمير قرى مهجورة . فاتسعت في السنتين الأوليين من الاحتلال المصري مساحات الأراضي المزروعة ، وزادت في حوران وحدها عن

---

(١) لوتسكي المرجع السابق . ص ١٣١ .

٧ آلاف فدان ، وقام بمكافحة الجراد الآفة الزراعية الخطيرة وكلف الجيش المصري بهذه المهمة .

وعلى صعيد التجارة والصناعة قام بالغاء جباية الضرائب بصورة تعسفية وأضحى في وسع التجار والحرفيين الاطمئنان على سلامة أموالهم فانتفى باعث الخوف لديهم من السلب والنهب والابتزاز حيث تحدد عليهم ما يدفعونه من ضرائب ، وغدوا يستطيعون التصرف بحرية بجميع ما يتوفر لديهم من قيمة زائدة فتمكنوا من التداول بتلك القيم بجرأة وتحويلها إلى رأسمال ، بعد أن كانت تتلف أو تخبأ بعيداً عن أنظار الباشوات والعوانية .

وحددت الرسوم الجمركية بدقة ونتيجة لهذه السياسة التي لاءمت اتجاه التطور الاقتصادي في المدن السورية بصورة محسوسة ، وإلى جانب تطور التجارة الخارجية كتب القنصل الروسي بازيلي يقول : (ان الحرية التي فتحتها السلطة العربية للتجارة بعثت الحياة جديدة في المدن السورية ... وأصبحت مكاناً للتبادل التجاري بين المنتجات المحلية والأوربية ...)[١] .

وقام المصريون بفرض الأمن على الطرقات المختلفة وخاصة طريق دمشق ــ بغداد ــ فتوسعت تجارة الترانزيت (العبور) ونقلت الأقمشة الانكليزية إلى أراضي ما بين النهرين وايران والبضائع الهندية والايرانية عبر سورية إلى دمشق وأوربا ... وهذا بدوره أدى إلى زيادة دخل بعض الفئات الاجتماعية مما أدى إلى صعودها في السلم الاجتماعي .

وقام المصريون بتنظيم الادارة في بلاد الشام وكيليكيا ، فقسموها إلى ست مديريات ، وعينوا في كل مدينة نواباً للسلطة المركزية ومتسلمين ، يخضع إليهم

(١) لوتسكي . المرجع السابق ص ١٣٣ .

مباشرة شيوخ القرى المجاورة . وتحت رئاسة كل متسلم شكل مجلس استشاري أو مجلس شورى عين أعضاؤه من بين الملاكين المحليين .... وعهد إلى هذه المجالس بوظيفة المحاكم المدنية وحصرت السلطة القضائية العليا بيد ابراهيم باشا مباشرة .

كما أجريت اصلاحات في حقل التعليم ، ففي سنة ١٨٣٤ م انشئت أول دار للطباعة ، وفي العام نفسه وضع ابراهيم باشا الأساس للتعليم المدرسي الجديد ، فأنشئت المدارس الابتدائية في جميع أنحاء سورية والمدارس الثانوية في دمشق وحلب وانطاكية . وكان التعليم باللغة العربية وأسست هذه المدارس على النسق المصري مع انضباط (حربي صارم) . وارتدى الطلاب البدلة الرسمية وسكنوا في الاقسام الداخلية وأطعموا مجاناً . كما بثوا الوعي القومي العربي بين الطلاب(١) .

وحرر أهل الذمة من القيود المهينة وأدى التسامح الديني الذي طبقه ابراهيم باشا إلى نمو فكرة المساواة بين الطوائف ، وصعبت العودة إلى التمييز الطائفي بعد خروجه من سورية . كما شجع الارساليات التبشيرية إلى فتح المدارس بكثرة فبدأ التعليم بالانتشار في بلاد الشام(٢) . هذا بالاضافة الى ادخال الطرق الحديثة في المعالجة الطبية كالطب الوقائي الذي لم تعرفه دمشق من قبل مما خفف من خسائرها البشرية في الجائحات الوبائية التي كانت تقضي على أعداد هائلة من السكان فتشل الحياة العامة ويصاب الاقتصاد بأفدح الاضرار وأدخل القناصل الغربيين إلى دمشق ومعهم بعض التجار الأوربيين وعائلاتهم فافتتحوا القنصليات فيها وبدأوا يحتكون مع أبنائها وينقلون المؤثرات الغربية إليهم . وهكذا أصبحت

---

(١) لوتسكي . المرجع السابق . ص ١٢٢ .

(٢) رافق ، عبد الكريم . العرب والعثمانيون ، ص ٤١١ .

دمشق بلداً مفتوحاً بعد أن كان مغلقاً في وجه الغرب ومؤثراته ، مما جعل هذه المرحلة بمثابة إرهاص لمرحلة قادمة هامة سوف يبدأ فيها الغزو الأوربي على نطاق واسع وعلى مختلف الأصعدة والمستويات .

ولقد حاولت في بحثي هذا التعرف على الوضع الاجتماعي لمدينة دمشق في هذه الفترة بمراحلها المختلفة ورصد المتغيرات العديدة التي طرأت على هذا المجتمع وظواهرها المختلفة فبسطتها في فصول ستة . حيث يشكل الفصل الأول : مدخلاً لهذا البحث من حيث كونه دراسة تتعلق ببيئة مجتمع دمشق آنئذ ، نظراً للعلاقة والتأثير المتبادلين بين المجتمع والبيئة . ويشمل دراسة مدينة دمشق وموقعها وأسماءها وسورها وحاراتها وسكانها وشوارعها وأسواقها ومتنزهاتها وحماماتها وبيمارستاناتها : والطب ومدارسه ، وبردى وسقاياتها ، والتكايا والزوايا والفنادق والقيساريات والخانات والزيارات والمقابر الطائفية وهندستها وكيفية دفن الموتى محاولاً من خلال العرض رصد المتغيرات التي طرأت عليها في فترة دراستنا هذه .

أما الفصل الثاني فعالجت فيه شرائح المجتمع الدمشقي المختلفة من حاكمين ومحكومين .

وسيلاحظ القارىء تداخلاً في تلك الشرائح من حيث عملها ونشاطاتها المختلفة ، ومع ذلك حاولت التمييز بين تلك الشرائح الاجتماعية من حيث دورها في السلطة . ففي مجال الهيئة الحاكمة حاولت القاء الضوء على أهم الشخصيات والفئات الاجتماعية المكونة لها مثل : الوالي والدفتردار والكاخيا والمتسلم وضباط الجيش والانكشارية وثكناتها وتسليحها وتموينها وطريقة قتالها وفرقت بين صنفين منها القابي قول واليرلية باعتبارهما أهم شريحتين عسكريتين في دمشق آنئذ وعرجت

بالبحث على جند المرتزقة أداة السلطات الخاصة وبحثت في أصنافها المختلفة كالسكبان واللاوند والدالاتية والمغاربة وأبناء العراق بمدنه المختلفة والتفنكجية والهوارد وغيرهم ، ثم قوات الإقطاع «السباهية» التي شكلت شريحة من القوة العسكرية في دمشق آنئذ ، رغم أن دورها العسكري كان أقل بكثير من دورها الاجتماعي والاقتصادي . ثم تناولت بالبحث القوات الرديفة التي شكلت جانباً من القوى المسلحة في دمشق وكانت في معظمها محلية ، وبحثت في هذا الفصل أيضاً محاولات السلطان سليم الثالث ومحمود الثاني إدخال الاصلاحات إلى جسم الدولة العثمانية وانعكاس ذلك على مجتمع دمشق . ثم عرجت بالبحث في الشطر الثاني من هذا الفصل على أهم شرائح المجتمع الدمشقي كتجار دمشق والحرفيين وطوائفهم والبنى التنظيمية لتلك الحرف والتخصص الحرفي ووضع الفلاحين وملكية الأرض وما أدخل عليها من تبديلات ثم وضع البدو في أطراف دمشق وحوران ، وعلاقتهم بأبناء دمشق وسياسة السلطان العثماني تجاههم ، ووضع أهل الذمة (النصارى واليهود) والاقليات الأجنبية التي برزت في العهد المصري خاصة بقناصلهم وحماياتهم وعلاقتهم بمجتمع دمشق .

أما الفصل الثالث فيبحث في أهمية دمشق السياسية والدينية ، والمدارس ودور العلم ومناهج التعليم ومراحله ومواده ، والاجازات والشهادات العلمية ، والمكتبات والمراكز الثقافية ، والمدرسين والموظفين الدينيين ، والطرق الصوفية ، والمفتين ، والأشراف ، وأوقاف دمشق ودورها الاجتماعي ، وضروب الحيل للسطو على أموالها وممتلكاتها .

وفي الفصل الرابع تناولت بالبحث الاسرة ، وهي الخلية الأولى للمجتمع

الدمشقي . كما حاولت رصد أهم الاسر البارزة في دمشق وقتئذ . ثم تناولت الأسرة الفلاحية والأسرة الواسعة وهندسة البيت الشامي ، والقصور في دمشق وبيوت الريف وحرمة البيوت وقدسيتها ، وحياة الاسرة ونشاطها داخل البيت ثم المرأة الدمشقية ـــ حجابها وعملها ، وظاهرات الانحراف والمنحرفين والرشوة والسرقة والسطو والبلص وتناولت بالدراسة المخدرات ومعاقرة المسكرات والشذوذ الجنسي وظاهرة العهر محاولاً تقصي أسباب الشذوذ والانحراف في مجتمع دمشق وموقفه منها .

وفي الفصل الخامس تناولت أيضاً أزياء دمشق ومدلولاتها الإجتماعية والاقتصادية وأهمية ذلك آنئذٍ . وقد تناولت أزياء الهيئة الحاكمة ، وأزياء العامة داخل البيت وخارجه ، ثم زي المرأة وزينتها وحليها ـــ وأزياء أبناء الريف ، وزي المرأة الريفية وحليها وزينتها والأدوات المستخدمة في ذلك ، ثم زي أهل الذمة (نصارى ويهود وسامرة) وزي البدوي والبدوية ، وأنواع القماش والفراء المستخدم في ذلك .

أما الفصل السادس فتناولت فيه نشاطات المجتمع المختلفة كالافراح والاتراح والأعياد وطقوسها المختلفة باختلاف طوائف مجتمع دمشق « مسلمون وأهل الذمة » ثم الاحتفالات الرسمية والخاصة ، والتسلية بأنواعها وأدواتها ، والملاهي .

ولقد آثرت في البحث منهجاً راعيت فيه الظاهرة الاجتماعية والمتغيرات التي طرأت عليها بحسب التسلسل الزمني ، رغم أن تلك التطورات كانت بطيئة وأحياناً معدومة ، إذا ما قورنت بالظواهر السياسية ، التي اتصفت في تلك الآونة

بسرعة التبدل . والحقيقة التي لا مناص من ذكرها أن البحث في تاريخ المجتمع أمر شاق وبالغ الصعوبة . فمتى كان البحث الجاد سهلاً هيناً ؟ إلا أن الصعوبات تهون أمام الدأب والصبر خاصة إذا ما توج الجهد بكشف جانب من الحقيقة التاريخية أو معظمها .

وبعد فإنني أقدم جهدي هذا وكلي أمل في أني قد وفقت إلى إضافة لبنة صغيرة في صرح كبير ينتظر جهد الباحثين لدراسة تاريخ وطننا العزيز . فإن اخطأت وقصرت فحسبي أنني حاولت ولي أجر المجتهدين الساعين وإن أصبت فإن أجري على الله .

د . يوسف نعيسة

دراسة
في مصادر البحث

تنقسم مصادر هذ البحث إلى عدة أقسام :

١ــ الوثائق وتقسم بدورها إلى ثلاث فئات هي :

أ ــ سجلات محاكم المدن الشامية المختلفة في العهد العثماني .

ب ــ الفرامانات والأوامر السلطانية العثمانية المرسلة إلى ولاة دمشق وقضاتها .

ج ــ الصور الضوئية للأزياء العثمانية في تلك الفترة .

٢ــ المصادر المخطوطة : منها ما كان مخطوطاً أو صوراً لمخطوطات .

٣ــ المصادر المطبوعة : وهي عبارة عن كتب تراجم وكتب أخبارية أو كتب تراجم وأخبار معاً . أو كتب رحلات لعرب وأجانب ، وبعض تقارير القناصل ووكلائهم .

٤ــ المراجع الحديثة : والتي اعتمدت بدورها على تلك المصادر والوثائق أو على مصادر ومراجع لم تتح لي ظروفي الإطلاع عليها فاعتمدت في ذلك على من سبقني وعاد إليها في أبحاثه .

أما سجلات محاكم المدن الشامية[1] فكانت مختلفة وجلها لمحاكم دمشق في هذه الفترة . وعدت إلى سجلات القسمة العسكرية والبلدية أو القسمة العربية أو المدنية كما تسمى في بعض الأحيان وقام بالإشراف عليها غالباً نواب القاضي العام في دمشق .

وتأتي أهمية هذه السجلات بشكل عام من كونها تحوي معظم المسائل الاجتماعية والإقتصادية والادارية التي أثارت خلافاً أو أفضت إلى اتفاق ، فهي سجل لحوادث الزواج والطلاق والبيع والشراء والوصية والإرث والتركات والألقاب الاجتماعية المختلفة التي كانت سائدة آنئذ على مختلف المستويات الاجتماعية . كما أنها سجل لعمليات الآجار والاستئجار والأراضي والخصومات والسرقات وتعيين القضاة وتنقلاتهم ، وموظفي المحاكم والدولة والجند وأعوانهم وطوائف الحرف بأنواعها المختلفة وما يتعلق بها ، والوظائف الدينية والعلمية المختلفة ووضع أهل الذمة والغرباء والبدو والأزياء والنقد والبيوت وهندستها ، وأزقة دمشق ودخلاتها وشوارعها وأسوارها وأحيائها المختلفة ومنشآتها العامة والخاصة والقرى المحيطة بها ، إلى غير ذلك مما لا غنى للباحث في تاريخ دمشق وبلاد الشام في العهد العثماني من العودة إليها كمصدر هام .

---

(١) يبلغ ماهو محفوظ من سجلات محاكم دمشق المختلفة في دار الوثائق التاريخية في دمشق التابعة بدورها للمتحف الوطني فيها /١٥٥٣/ سجل . تبدأ أحداثها من ٢١ شعبان ٩٩١هـ كما في السجل رقم واحد منها ، إلى آخر أحداثها ، وتنتهي في ٢٢ شوال ١٣٣٢هـ كما ورد في السجل الأخير ذي الرقم ١٥٥٣ ، واختلف عدد صفحاتها مابين سجل وآخر ، فأقلها ١٠٠ صحفة وأكبرها ٥٩٠ صحفة ، واختلفت مساحة أوراقها بين كبيرة وصغيرة . أما سجلات محاكم حلب فيبلغ عدد المحفوظ منها في المكان المذكور ٦٢٨ سجل وتبدأ أحداث السجل الأول منها في ٢ شعبان ٩٤٢هـ وتنتهي أحداث الأخير منها في ٢٨ رمضان ١٢٤٩هـ . وتتوزع هذه السجلات على محاكم حلب الشرعية والقسمة العسكرية والبلدية والمدنية . واختلف عدد صفحات مجلداتها ، فأقلها ٢٣٠ صفحة وأكثرها ٨٠٧ صفحة . أما سجلات محكمة حماه فعددها ٦٤٠ سجل محفوظ في دار الوثائق المذكورة ، وتبدأ أحداثها في ١٢ شوال ٩٤٢هـ وتنتهي آخر أحداثها في ١٢ شوال ١٢٩٦هـ . واختلف عدد صفحات سجلاتها ، فأقلها ٦٤ صفحة وأكثرها ٨٧٧ صفحة . انظر سجل رقم ٢٥٠ و ٣٠٩ . محاكم دمشق ، ثم سجل رقم ٦٢٧ و ٤٦١ . محاكم حلب ، ثم سجل رقم ٥٤ ورقم ٢ لمحكمة حماه . كلها في دار الوثائق التاريخية في دمشق .
أما ماحفظ من سجلات محكمة حمص في المكان المذكور فعددها ٢٢ مجلداً وتبدأ أحداثها سنة ١٢٠٢هـ وتنتهي ١٢٢٧هـ . أما سجلات المحكمة التجارية بدمشق وعددها ١٥٢ سجلاً وفي خارج فترة بحثنا حيث تبدأ سنة ١٣٠١هـ وتنتهي ١٣٤٧هـ أما سجلات محكمة غزة فلا يوجد منها في دار الوثائق التاريخية سوى سجل واحد يقع في ٤٦٠ صفحة وأحداثه تبدأ في ١٩ جمادى الأولى ١٢٧٣ وتنتهي في ٢٨ جمادى الثاني ١٢٧٧هـ .

وكتبت معظم هذه السجلات باللغة العربية وبعضها باللغة العثمانية وبخطوط مختلفة . بعضها مقروء والبعض الآخر يجد الباحث في البداية صعوبة في قراءتها ، كما أن بعضها مخروم الأول أو مخروم من الآخر أو من كليهما معاً وتجابه الباحث في بعض الأحيان صعوبة تحديد عائدية السجل . ولقد قامت دار الوثائق بتجليدها وترقيم صفحاتها وسجلتها في سجلات خاصة بها . إلا أنها قد وقعت في بعض الأخطاء في هذا المجال ، كأن تذكر سجلاً يعود إلى محكمة الميدان في حين أنه أحد سجلات المحكمة الكبرى وهكذا . كما أخطأت في تحديد بداية أحداث السجل ونهايتها ، ومن جهة أخرى قام كتاب المحكمة في بعض الأحيان باستعمال السجل الواحد بطريقتين معكوستين ، كأن يسجل أحدهم الأحداث إلى منتصفه ثم يترك عدة ورقات بيضاء ويعود ليبدأ بالسجل من آخره مما أدى إلى الوقوع في الخطأ المذكور .

واعتمدت على بعض مخطوطات المكتبة الظاهرية في دمشق ومكتبة مجمع اللغة العربية الكائن قبالتها في المدرسة العادلية الكبرى ، إلا أن عددها كان قليلا ومن أهمها «المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية» لابن كنان وهو عبارة عن صورة للمخطوط الأصل ثم «النفح الفرجي في الفتح الجته جي» لجعفر البرزنجي وهو عبارة عن صورة (ميكرو فيلم) . أما الكتاب الأول المواكب الاسلامية فيبحث في المواكب الرسمية والدينية التي كانت تقام في تلك الفترة في دمشق بالاضافة إلى ما تنتجه دمشق من خضار وفواكه مختلفة ، وأكثر إفادتي كانت من قسمه الأول . ويعالج المخطوط الثاني فترة كاملة من تاريخ دمشق وهي فترة الوالي عبد الله باشا الجته جي وفتكه بقوى اليرلية في الميدان وصدامه مع البدو على طريق الحج ، في موقع القطرانة وكان مؤلفه شاهد عيان لتلك الأحداث فأفدت منه في بحث قافلة الحج الشامي والقوى اليرلية في دمشق وأوضاعها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . أما المخطوط الثالث فكان لاخباري لاذقاني الاصل هو فتح الله بن أنطون الصايغ وعنوانه «المقترب في حوادث الحضر والعرب» . وشملت صفحاته ثلاثة فصول تطرق الأول منها إلى الحياة الاجتماعية لدى البدو في بلاد الشام . أما الفصل الثاني فيتناول فيه وضع مدينة اللاذقية وجبال العلويين ووضع السكان السياسي والاجتماعي والاقتصادي . ويعرج الفصل الثالث على ذكر الاحتلال المصري لبلاد الشام وبعض الاصلاحات التي قام بها ابراهيم باشا فيها . وفي مكتبتي صورة للمخطوط الأصل أكرمني بها الأستاذ الفاضل الدكتور عبد الكريم

رافق[1] فجزاه الله خيراً . هذا بالاضافة إلى الوثائق التي قام بنشرها الدكتور أسد رستم عن الحكم المصري لبلاد الشام وجاءت تحت عنوان « الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا » .

ومن أهم المصادر المطبوعة التي اعتمدت عليها في بحثي هذا كتب التراجم والاخباريين لهذه الفترة ويأتي على رأسها كتاب « سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر » لمحمد خليل المرادي مفتي الأحناف في دمشق ونقيب اشرافها المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ/١٧٩١ م[2] . ويتألف كتابه هذا من أربعة أجزاء طبع في المطبعة الأميرية في بولاق سنة ١٣٠١ هـ دون دراسة أو تحقيق وفيه تراجم لشخصيات مختلفة من دمشق وبلاد الشام والاقطار العربية والإسلامية ورجالات الدولة العثمانية بما فيهم السلاطين العثمانيين . واتبع المؤلف التسلسل الأبجدي بحسب الأسم الشخصي وحاول ذكر سنة الولادة والوفاة . وتضمنت التراجم معلومات هامة عن نواحي الحياة المختلفة في دمشق وبلاد الشام والدولة العثمانية . كما اعتمدت على كتابه الثاني الذي هو عبارة عن تراجم للمفتين في دمشق وجاء تحت عنوان « عرف البشام فيمن ولي فتوى الشام » تناول فيه ترجمة ٧٣ مفتياً في دمشق والكتاب يقع في خمسة فصول أورد في الفصل الأول ما يتعلق بالفتوى من حيث تاريخها وآدابها ورجالها وترجم بعد ذلك لتسعة من المفتين من القرن العاشر (٩٢٢ هـ) وردت في الفصل الثاني كما وردت ترجمة أربعة عشر مفتياً في القرن الحادي عشر وهي التراجم من ١٠ ـــ ٢٣ ، ثم ترجم في الفصل الثالث لثلاثة عشر مفتياً من القرن الثاني عشر وهي التراجم من ٢٤ ـــ ٣٦ . كما ترجم لنفسه في الفصل الخامس والأخير . وأضاف المحققان لهذا الكتاب وهما الأستاذان ، محمد مطيع الحافظ ورياض عبد الحميد مراد ذيلين إلى الكتاب الأول منهما يتعلق بالمفتين بدءاً من الفتح العثماني لدمشق سنة ١٥١٦ م/٩٢٢ هـ يذكران واحداً وخمسين مفتياً منهم حتى سنة ١٣٠٥ هـ . أما في الذيل الثاني فيذكران تتمة المفتين في دمشق وعددهم عشرة مفتين إلى سنة ١٣٨٤ هـ .

أما كتاب التراجم الثاني الذي اعتمدت عليه فهو كتاب الشيخ عبد الرزاق البيطار

---

(١) ولقد استرعى انتباه لامارتين هذا الكتاب عندما زار بلاد الشام سنة ١٨٣٢ / ١٣٢٢ هـ وقام بترجمته إلى الفرنسية وتقديمه إلى المكتبة الملكية في باريس .

(٢) انظر : البيطار ، عبد الرزاق . حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر . ج ٣ . ص ١٤٠٥ . ثم العبد ، حسن آغا . تاريخه . ص ٢٠ .

الذي عاش ما بين ١٢٥٢ ـــ ١٣٢٥ هـ والذي أسماه « حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر » وقام بنشره حفيده الشيخ بهجة البيطار ، وهو من منشورات المجمع العلمي العربي بدمشق ويقع في ثلاثة أجزاء . نشر هذا الكتاب على دفعتين الجزء الأول منها نشر في سنة ١٢٨٠ هـ/١٩٦١ م أما الثاني والثالث فقد نشرا في سنة ١٢٨٣ هـ/١٩٦٣ م ، واعتمد المؤلف في بعض معلوماته على ما ورد في « سلك الدرر » كما ترجم لمعاصريه من الرجال وتختلف الترجمة بين شخص وآخر ، ما بين عدة أسطر وعدة صفحات . بلغة عربية فصيحة مستخدماً اسلوب السجع في بعض الأحيان والمحسنات اللفظية التي كانت سائدة في عصر المؤلف ، وتراجمه شملت السلاطين ورجال الدين على اختلاف وظائفهم ومناهجهم وبعض الولاة والمتصوفين والتجار ، ولم يترجم إلا لامرأتين هما « رقية بنت سليم ابراهيم المتوفاة سنة ١٢١٧ هـ ومريم بنت محمد العقاد المولودة في حلب سنة ١١٥٦ هـ[1] .

أما كتاب التراجم الرابع الذي اعتمدت عليه فهو أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ومنتصف القرن الرابع عشر ١٢٠١ ـــ ١٢٥٠ هـ « الطبعة الثانية » وهو للشيخ محمد جميل الشطي فقيه الحنابلة في دمشق وإمامهم في جامع بني أمية وخطيب المدرسة الباذرائية ، ويتألف الكتاب من قسمين : الأول منهما يترجم للرجال من ١٢٠١ هـ إلى سنة ١٣٠٠ هـ أما الثاني فيترجم للرجال حتى أواخر أيام المؤلف وكان عدد صفحاته ٢٧٠ صفحة ورتبت التراجم بحسب حروف الهجاء وبدأ بترجمة الشيخ ابراهيم البيطار وهو جد الشيخ عبد الرزاق البيطار . ومن مزايا هذا الكتاب فهرسته بحسب وفيات المترجمين وباعتبار أسمائهم . ويقوم أيضاً بتحديد وظيفة المترجم أو حرفته مثل : الفقية ـــ المرشد ـــ المصنف ـــ العالم الكبير ـــ الوالي ـــ الطبيب ـــ القاضي ـــ المفتي ـــ شيخ القراء ـــ محدث ـــ كبير ـــ شيخ الشام ـــ محدث ـــ نقيب الأشراف ـــ أمين الفتوى ـــ الامام ـــ الخطيب المؤرخ ـــ الفلكي ـــ الشاعر ـــ المتصوف ـــ المجذوب ـــ المؤذن شيخ المؤذنين ـــ الخ ... ولقد اعتمد على من سبقه من مؤلفي التراجم كما ترجم لمن عاصره من الرجال .

هذا بالاضافة إلى كتاب تراجم وأخبار للشيخ عبد الرحمن الجبرتي المتوفى في مصر ١٢٣٦ هـ/ ١٨٢١ م « عجائب الآثار في التراجم والاخبار » وهو في ثلاثة مجلدات ويحدد المؤلف ما ورد في كتابه بقوله : « يبحث في معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم

---

(١) انظر : ج ٢ . ص ٦٣٥ . ثم ج ٣ . ص ١٥١٦ .

وعاداتهم وصنائعهم وأنسابهم ووفياتهم وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية من الأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء والقراء والملوك والسلاطين وغيرهم والغرض منه التعرف على الأحوال الماضية » . كما يقول : « إن في التاريخ علم تندرج فيه علوم كثيرة لولاه ما ثبتت أصولها ولا تشعبت فروعها من طبقات القراء والمفسرين والمحدثين وسير الصحابة والتابعين وطبقات المجتهدين وطبقات النحاة والحكماء والأطباء وأخبار الأنبياء وأخبار المغازي وحكايات الصالحين ومسامرة الملوك من القصص والأخبار والمواعظ والعبر والأفعال وغرائب الأقاليم وعجائب البلدان »[1] وانصب اهتمامه في هذا المجلد على التراجم لملوك مصر والدولة الأيوبية والجراكسة والعثمانية والولاة ورجال الدين وغيرهم . أما المجلد الثاني فهو عبارة عن سجل إخباري لأشهر الأحداث بدأ من سنة ١٢٠١ هـ إلى شهر صفر ١٢١٩ هـ . ونهج في المجلد الثالث نهجه في المجلد الثاني فيسجل فيه الأحداث إلى سنة ١٢٣٦ هـ/١٨٢١ م ، ولم يتم كتابته حيث مات بعد هذا التاريخ . وعلى الرغم من أن هذا الكتاب قد انصب في معظمه على أحداث مصر والدولة العثمانية إلا أنه أورد معلومات هامة تتعلق ببلاد الشام ودمشق . فهو بذلك مصدر هام للباحث في تاريخ هذه الفترة . ومن كتب الاخباريين الهامة التي عدنا اليها في بحثنا « حوادث دمشق اليومية » للشيخ أحمد البديري الحلاق الذي عمل حلاقا وجراحا في دمشق ، وكان يرصد أحداثها يوميا ويسجلها بدءاً من سنة ١١٥٤ ــ ١١٧٥ / ١٧٤١ ــ ١٧٦٢ م وعلى امتداد واحد وعشرين عاما . وقام العالم الدمشقي محمد سعيد القاسمي بتنقيحه مما أضاع شيئا من أصالته . وبقي هذا المؤلف مخطوطا حتى قام الدكتور أحمد عزت عبد الكريم أستاذ التاريخ الحديث في جامعة عين شمس بدراسته وتحقيقه ونشره في سنة ١٩٥٩ م . ولم تكن « حوادث دمشق اليومية » محاولة من مؤلفه في كتابة تاريخ دمشق في هذه الفترة . فهي مهمة كانت أكبر من امكاناته وامكانات معظم الإخباريين من أمثاله .

إلا أنه مع ذلك يصور لنا حياة الناس في دمشق يومياً ، فيما يتعلق بالنواحي الاجتماعية والادارية والاقتصادية والسياسية والدينية والعسكرية والمعاشية وغيرها . ومن خلاله يمكن التعرف على وضع الجند وأصنافهم وعلاقتهم فيما بينهم ، وعلاقتهم مع السلطة العثمانية ومع الشعب في دمشق والفلاحين وغيرهم . كما يمكننا من التعرف على بعض أوضاع الولاة والقضاة والمفتين ورجال الدين والأشراف والبدو ، وأخبار قافلة الحج والاحتفالات المختلفة

(١) انظر : المجلد الأول . ص ٦ وص ١٠ .

الدينية والرسمية، وأخبار الطرق الصوفية وطوائف الحرف، وبنات الهوى والغواني وعقلية أبناء عصره، فهو غني بمعلوماته التي تفتقر إليها كتب الإخباريين الآخرين، ولا نجد مثيلاً له إلا كتاب الإخباري الآخر الذي جاء من بعده في مدينة دمشق وهو حسن آغا العبد في كتابه «قطعة من تاريخ حسن آغا العبد» حيث قمت بتحقيقه ونشرته وزارة الثقافة والارشاد القومي في دمشق سنة ١٩٧٩م وتبدأ أحداث هذا الكتاب في سنة ١١٨٦هـ وتنتهي في سنة ١٢٤١هـ /١٧٧٢ ــ ١٨٢٦م. وتأتي أهمية هذا الكتاب من كون مؤلفه عاصر الأحداث التي سجلها في دمشق وغيرها. وشارك في معظمها كما شارك في حراسة قافلة الحج الشامي وفي تعمير القلاع على طريقه، واستلم مناصب إدارية في ولاية دمشق، ونهج في كتابه أسلوب البديري، فكانت معلوماته متنوعة شملت نواحي شتى من حياة مجتمع دمشق، كالنواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على امتداد خمسة وعشرين عاماً. ومايؤخذ عليه أنه قد أقلّ من سرد أحداث السنوات الأولى من كتابه في حين أفاض نسبياً في ذكر أحداث السنوات التالية مما أفقد كتابه التوازن. وماوصلنا من كتابه كان مخروم الأول لذلك نشر على أنه قطعة من تاريخه وليس تاريخ بكامله. لكنه مع ذلك يبقى مصدراً هاماً. وهناك كتابا إخباريين مجهولين يُعتقد أنهما من أبناء دمشق المسيحيين، كان عنوان أولهما، «حوادث الشام ولبنان» وردت فيه بعض المعلومات عن أهم أحداث دمشق وبلاد الشام مابين ١١٩٢ ــ ١٢٥٧هـ ١٧٨٢ ــ ١٨٤١م ورصدت فيه الخلافات التي جرت بين الأرثوذكس والكاثوليك وموقف السلطة منهما، ثم ذكر تزايد خطر الحركة الوهابية وسيطرتها على مكة والمدينة ومضايقتها لقافلة الحج الشامي. ثم حملة ابراهيم باشا على سورية واحتلالها دمشق حتى خروجه منها. ثم أخبار متفرقة عن جبل لبنان وبيروت. أما الكتاب الثاني فمؤلفه أيضاً مجهول وجاء تحت عنوان «مذكرات تاريخية» وقد رصدتْ فيه أحداث دمشق على امتداد عشر سنوات بدءاً من سنة ١٨٣١ ــ ١٨٤١م ووردت فيه أخبار تطبيق النظام الجديد في دمشق على يد محمد سليم باشا وموقفها من محاولته فرض ضريبة الصليان وثورتها عليه ومقتله) ثم أخبار الحكم المحلي في دمشق. وأخبار حملة ابراهيم باشا على بلاد الشام واحتلاله دمشق والثورات والأحداث المتفرقة التي وقعت في عهده، ثم إصلاحاته ومدى انعكاسها على أوضاع دمشق المختلفة. ولقد أفدت منه في بحث فترة حكم ابراهيم باشا المصري. وقد نُشر الكتابان المذكوران في لبنان دون دراسة أو تحقيق وقام أحمد غسان سبانو بنشرهما من جديد في دمشق ووقع في أخطاء كبيرة لا مجال لذكرها هنا.

ثم رجعت إلى كتاب « منتخبات التواريخ لدمشق »لمحمد أديب تقي الدين الحصني الذي يقع في ثلاثة أجزاء وقدم للكتاب الدكتور كمال سليمان صليبي وقام بنشره في ١٢٩٩ هـ/١٩٧٩ م ، ونهج فيه مؤلفه نهج الكتب العامة المتنوعة فلم يصب اهتمامه على فترة محددة وإنما حاول أن يرصد تاريخ دمشق من الفتح الاسلامي حتى عهده ، ورصد أوضاع الأوقاف فيها إبان العهد العثماني وترجم لمشاهير الأسر الدمشقية[1] وقد أسماه في البداية « غاية المرام في منتخبات تاريخ دمشق الشام » واختصرت تسميته على ما ذكرناه آنفاً ورجعنا فيه إلى أحوال دمشق العلمية والاجتماعية في العهد العثماني[2] كما رصدنا من خلاله أوضاع اسر دمشق المختلفة .

وهناك كتب الرحلات لعرب وأجانب الذين زاروا المنطقة وأقاموا فيها لبعض الوقت وكتبوا عن مشاهداتهم فيها وأهم كتب الرحلات العربية كتاب ابراهيم الخياري الذي زار دمشق في القرن الثامن عشر وألف كتاباً أسماه « تحفة الأدباء وسلوة الغرباء » رصد فيه خطط الشام ومتنزهاتها وبعض نواحي الحياة الاجتماعية فيها . ومن كتب الرحلات العربية كتابا المصريين عبد الجواد القاياتي وعبد الرحمن سامي بك اللذين زارا دمشق في أواخر القرن التاسع عشر فألف الأول منهما كتابا أسماه « نفحة البشام في رحلة الشام » ثم ألف الثاني كتابه « القول الحق في بيروت ودمشق » ولقد رصدا في كتابيهما بعض معالم دمشق وبعض النواحي الاجتماعية فيها فاستخلصنا منهما ما أفادنا في بحثنا .

أما كتب الرحالة الاجانب وتقارير القناصل ووكلائهم وأزواجهم فكانت عديدة منها ما رصد بعض نواحي الحياة في دمشق وبلاد الشام ومنها ما رصد دقائق الأمور فيها ، وخاصة ما يتعلق بالمواكب والاحتفالات والحرف والصناعات والإدارة والقضاء وغيرها . ولا شك أن معظمهم كان مرسلاً لهذه المهمة من سلطات بلاده الرسمية لمعرفة دقائق الأمور عن مناطق الطموح الاستعماري . ويأتي على رأس هؤلاء الفرنسي (فولني) الذي شملت رحلته مصر وبلاد الشام وألف كتاباً عن ذلك طبع في ثلاثة أجزاء بالحجم الصغير في باريس عام ١٨٢٣ م قام برحلته ما بين ١٧٨٣ ـــ ١٧٨٥ م ورصد خلالها ما استطاع من أوضاع مصر وبلاد الشام الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والادارية في ظل الدولة العثمانية ، مما جعل كتابه هذا يلقى اهتماماً .

(١) انظر : الباب السابع عشر منه ص ٨٠٤ وص ٩١٦ .

(٢) انظر : الباب الثالث منه ما بين ص ٢٩٧ وص ٣٥١ .

ثم كتاب مستر براون «رحلات في أفريقيا ومصر وسوريا» ما بين سنة ١٧٩٢ ـــ ١٧٩٨ م والذي طبع في لندن عام ١٧٩٩ م ، ورصد فيه المشاهدات في مصر وبلاد الشام وفلسطين وصعيد مصر ولبنان والمناطق الساحلية إلى اللاذقية فحلب ودمشق . وبه معلومات هامة عن وضع والي صيدا أحمد باشا الجزار . وكذلك الضرائب والمغارم التي كان يفرضها على الشعب . كما رصد في كتابه وضع الاشراف والانكشارية في حلب ووصف بعض النواحي الحياتية الهامة في دمشق ، والتي وردت في الفصل الخامس والعشرين من كتابه ، ويركز اهتمامه على وصف قافلة الحج الشامي في دمشق ، ويتكلم عن تجارتها وحرفها وسكانها وطباعهم وتقاليد الحكم فيها والضرائب وأسعار السلع وقوافل التجارة . كما يصف رحلاته المتفرقة التي قام بها من دمشق إلى بعلبك ثم رحيله إلى حلب فانطاكية . وهناك كتاب بوركهارت سمي : «BURCKHARDT TRAVELS» التي قام بها في أوائل القرن التاسع عشر ما بين سنة ١٨١٠ و ١٨١٧ م وزار خلالها لبنان وحوران وفلسطين وحلب ووادي العاصي ، ثم جاء إلى دمشق عن طريق جبال لبنان في سنة ١٨١٢ م ومنها زار بحيرة طبريا في أواخر شهر نيسان وأوائل أيار من نفس العام . وقام بزيارة إلى البادية ومنها ذهب إلى مصر عن طريق سيناء فوصلها في ربيع سنة ١٨١٦ م . وقد أفادني في معرفة أوضاع حوران وآثارها وبدوها وبدو سيناء ، وتنتهي أحداث رحلته في سنة ١٨١٧ م .

ثم كتاب اليكس راسل المسمى «The Natural History of ALEPPO» ورغم أن هذا الرجل قد عاش فترة في حلب وصب جل اهتمامه على رصد الناحية الادارية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية بشيء من التفصيل ، إلا أنه أفادنا في وصفه لبلاد الشام ابان جائحات الطاعون في سنة ١٧٤٢ و ١٧٤٣ و ١٧٤٤ م . وما تركت من آثار مدمرة على النواحي الاقتصادية والاجتماعية والبشرية . كما يصف خطط مدينة حلب وقواها السياسية وطوائفها الدينية الاقتصادية والاجتماعية والبشرية . وطوائفها الدينية ومعالمها الحضارية والطبيعية وأزياءها وأفراحها وأتراحها . وقد نشر هذا الكتاب في لندن سنة ١٧٩٢ م .

هذا بالاضافة إلى كتب بعض الاجانب التي ألفوها نتيجة لمشاهداتهم الشخصية في دمشق وما جاورها من المدن الشامية ومن أهمها كتاب بورتر المسمى «FIVE YEARS IN DAMASCUS» ويقع في مجلدين رصد فيه مشاهداته فيما بين سنة ١٨٤٩ ـــ ١٨٥٥ م وقام برحلات قصيرة شملت لبنان وحوران وحمص ومنها إلى تدمر في

سنة ١٨٥١ م ولقد أفدت من كتابه في معرفة طبوغرافية دمشق وأسواقها ونشاطها الاقتصادي والصناعي ومعالمها وسكانها وبعض الظواهر الاجتماعية فيها . ووصف حالة الطرق العامة والأمن عليها .

وهناك كتاب آخر (لإيزابيل بورتن) التي كانت تعيش مع زوجها القنصل البريطاني في دمشق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأسمت كتابها :

«The inner life of Syria Palestine and the Holyland»

وهو بمثابة مذكرات يومية تحدثت فيه عن لبنان وفلسطين ودمشق ، فوصفت معالم الحياة المختلفة في دمشق كالبازارات والنشاطات المختلفة فيها ، والزيارات والمقاهي والحمامات ووجوه التسلية ومظاهر الفن كالرقص والموسيقى والغناء ، وجمارك دمشق والضرائب المختلفة وبنية السكان فيها ، ومذاهبهم وقومياتهم ، وحياة الأسرة داخل الحرملك ، ثم السلاملك والطوائف المسيحية واليهودية وكنائسهم وبيعهم وتنتهي أحداث كتابها في سنة ١٨٧٥ م .

ومن أهم رسائل وتقارير القناصل الاجانب ووكلائهم التي عدت إليها رسائل القنصل العام البريطاني المستر « جون باركر » والتي قام بنشرها ابنه «ادوار باركر » بعد أن قام بجمع تقارير ورسائل والده من مصادر مختلفة ونشرها في مجلدين تحت عنوان : «Syria Eygpte under the last five Sultans of Turkey . أما والده فكان سفيراً لبلاده في استانبول في عهد السلطان سليم الثالث ومصطفى الرابع ومحمود الثاني وعاصر الاصلاحات في عهد السلطان عبد المجيد وعبد العزيز ورصد المتغيرات على الساحة العثمانية ، وكان مكلفاً بمهمة رسمية من حكومته في حلب ، وورد في رسائله إلى السير سبنسر سميث وسيدني سميث على أنه عين وكيلاً عاماً لشركة الهند الشرقية وقنصلاً لشركة الشرق في ١٨٠٣ م ويتحدث في رسائله تلك عن حياته الخاصة والعائلية في حلب واستقباله لليدي أستير ستانهوب الانكليزية التي زارته فيها . ويتكلم أيضاً عن أوضاع حلب وجبل الدروز . كما يتكلم عن أوضاع دمشق إبان الطاعون الذي حصل فيها سنة ١٨٢١ م . وتناولت تقاريره نواحي الحياة المختلفة في حلب وبلاد الشام . وأخبار رحلته من حلب إلى تدمر ثم أخبار عودته إلى وطنه : وورد في كتابه أخبار تعيينه قنصلاً لبلاده في الاسكندرية سنة ١٨٢٥ م ، وحروب الروس مع الدولة العثمانية ، وأخبار الحملة المصرية على بلاد الشام ، وتدخل الدول الأوربية ، والاصلاحات التي قام بها ابراهيم باشا في بلاد الشام . فالكتاب كما

ترى غني بمعلوماته إذ شملت معظم نواحي الحياة في مصر وبلاد الشام على امتداد النصف الأول من القرن التاسع عشر مما لا غنى عنه للمهتم بدراسة تاريخ بلاد الشام والمنطقة في هذه الفترة .

كما عدت أيضاً إلى تقارير أجنبيين رسميين عاشا في مصر ثم في بلاد الشام في ظل الاحتلال المصري وهما الانجليزي (جون باورنج) والفرنسي (بوال كومت) .

أما الأول منهما فقد أرسل من قبل اللورد بالمرستون السكرتير الرئيسي لشؤون الخارجية في الحكومة البريطانية وكان مرتبطاً به ويرسل تقاريره إليه ، ومن أهم هذه التقارير ما أرسله في ١٧ حزيران سنة ١٨٣٩ م :

Report on the Commercial Statistics of syria

سجل فيه احصاءات عن سورية في أواخر عهد ابراهيم باشا المصري ، وشملت تلك الاحصاءات نواحي الحياة المختلفة في بلاد الشام وأوردت أرقاماً عديدة في مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية المختلفة فيها . إلا أنه من الواجب أخذ الأرقام بشيء من الحذر خاصة وأن مثل هذه الاحصاءات لم تكن متوفرة بدقة آنئذ . لكنها مع ذلك تمكننا من القاء بعض الضوء على الواقع الاقتصادي والاجتماعي في بلاد الشام في تلك الفترة .. وقام بنشر هذا الكتاب وليم جلو وأبناؤه في لندن سنة ١٨٠٤ م .

أما الكتاب الثاني فهو عبارة عن تقارير البارون بوال كومت إلى حكومته الفرنسية حيث عاش في ظل الحكم المصري وكان على صلة بالسلطات المصرية مما أتاح له رصد الأحداث يوماً بيوم وكتابة تقاريره إلى حكومته . وقام بنشر هذه التقارير جورج دوان . واطلعت على بعضها منشورة في بعض المراجع العربية والاجنبية .

هذا بالاضافة إلى عشرات المصادر والمراجع العربية والاجنبية يراها القارىء مبثوثة في صفحات الكتاب وثبت المصادر والمراجع . ولا أنكر أنه قد غابت عني بعض المصادر والمراجع التي لم أستطع الوقوع عليها في المظان والمكتبات التي عدت إليها .

الفصل الأول

دمشق
ومنشآتها العمرانيّة

دمشق لمحة تاريخية

المنظر العام للمدينة ـ دمشق في أواخر القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر ـ سور دمشق ـ حارات دمشق ـ سكان دمشق ـ شوارع دمشق وطرقاتها ـ أسواق دمشق ـ متنزهات دمشق ـ حمامات دمشق ـ البيمارستانات في دمشق ـ الطب ومدارسه في دمشق ـ بردى والسقايات في دمشق ـ التكايا ـ الزوايا ـ الفنادق والقيساريات والخانات والوكالات ـ هندسة الخانات ـ المقابر الطائفية وهندسة القبور وكيفية دفن الموتى .

دمشق لمحة تاريخية

ــ تعددت أسماء هذه المدينة عبر تاريخها الطويل ، وأخذت تسميات مختلفة بقي العديد منها إلى وقتنا الحاضر . وكانت هذه التسميات متأثرة بمن حكمها : وأول تسمية لها الشام ــ دمشق ــ جلق ، ثم جيرون ، والعذراء ، وإرم ذات العماد ، وبيت رامون ، أو عين الشرق كله ، ثم باب الكعبة ، ثم فسطاط المسلمين[١] . إلا أن أكثر هذه الأسماء اشتهاراً عبر تاريخها هو دمشقَ أو دماسكو أو Damascus ويذهب المؤرخون مذاهب شتى في تأويل هذا الاسم ، وأقرب التآويل للمنطق هو أنه من أصل لودي آرامي أي كلداني أو سرياني قديم . فقد ذكرته آثار معبد الكرنك في القرن ١٧ ق م ، وكتابات تل العمارنة في القرن ١٥ ق . م ، وقائمة تحوتمس باسم دماسكو أو تمسقوفي بالكتابة الهيروغليفية ، وتعني الزهرة المثمرة تسمية بغوطتها المزهرة المثمرة وعنها أخذه اليونانيوم والأوربيون فيما بعد[٢] .

(١) انظر : دائرة المعارف الاسلامية ــ المجلد التاسع . ص ٢٦٥ وما بعدها ــ كلمة دمشق ــ الترجمة .

(٢) انظر : (سفر التكوين) الاصحاح ١٤ . آية ١٥ ويظهر هذا الاسم في العبرية مفصلاً في قصة ابراهيم عليه السلام . ثم انظر . مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد الأول ــ ج ٩ . ص ٣٤٦ و ٣٤٦ لعام ١٩٢١ . ثم دائرة المعارف الاسلامية المجلد ٩ ، ص ٢٦٥ ــ كلمة دمشق ــ الترجمة ، ولقد أفادني العالم الأثري الايطالي باولو ماتييه الذي قام بزيارة جامعة دمشق كلية الآداب قسم التاريخ عشية اكتشافه لرُقم مكتبة ملك مدينة إبله أنه ورد اسم (دمشق) في العديد من الرقم الفخارية المكتشفة والتي وصل تعدادها إلى ما يزيد عن ١٦ ألف رقيم .

ومدينة دمشق أقدم مدن الأرض المسكونة بعد أريحا[1] . شاهدتْ هذه المدينة أحداثاً نشيطة على امتداد أربعة آلاف سنة ولديها إرث تاريخي ضخم كونها جزءاً هاماً من أعظم الامبراطوريات عبر التاريخ[2] فحضارتها تعود للشعوب التي مرت عليها فمنهم اللوديون والآراميون والفينيقيون والحثيون والعبرانيون والآشوريون والبابليون والميديون « الفرس » واليونان والرومان والعرب ومن جاء بعدهم من الأمم الأخرى[3] وبقيت أنقاض العديد من أبنية هذه الأقوام ومنشآتهم التي شيدوها دفينة تحت ترابها أو ماثلة للعيان حتى وقتنا الحاضر . وقيض لدمشق عبر تاريخها حكام تساهلوا مع سكانها في تركهم على عاداتهم فامتزجت العادات الفينيقية باليونانية والرومانية امتزاجاً تدل عليه الأساطير القديمة . ولما تنصر اليونان والرومان نقضوا الحضارة الوثنية وهدموا هياكلها العظيمة وحطموا تماثيلها واستبدلوها بالحضارة المسيحية وعضدتها القبائل العربية المتنصرة من غسان وقضاعة وإياد[4] .

حررت دمشق من الحكم البيزنطي على يد العرب المسلمين في شهر رجب من عام ١٤ للهجرة سبتمبر سنة ٦٣٥ م وفي سنة ٤١ للهجرة/٦١٦ م استطاع معاوية بن أبي سفيان أن ينشيء الخلافة الأموية فجعلها عاصمة لدولته . واستمرت دمشق هكذا إلى أن سقطت الدولة الأموية فسقطت هي بدورها بيد القائد العباسي في غرة رمضان سنة ١٣٢ للهجرة الموافق ٢٨ أبريل/نيسان ٧٥٠ م وأصبحت قصبة ولاية عباسية . وكان الخلفاء العباسيون في كثير من الأحيان ، يعينون المقربين منهم والياً عليها ، فيكتفي هذا بإرسال نائب عنه ليقيم فيها ، فأصابها ما أصابها من الاهمال .

والخليفة العباسي الوحيد الذي حاول أن يعيرها اهتماماً هو المتوكل ، حيث أقام فيها سنة ٢٤٤ للهجرة الموافقة ٨٥٨ م لفترة قصيرة ، إلا أن ذلك لم يكن كافياً لإعادة الازدهار إليها . وعندما بدأت الدولة العباسية بالتمزق إلى دويلات وظهرت الدولة الطولونية في مصر سنة ٢٦٤ هـ/٨٧٨ م وقعت دمشق في قبضة أحمد بن طولون مستقلة عن دار الخلافة في بغداد وبعد أفول نجم هذه الدولة سنة ٢٨٢ هـ/٨٩٦ م ظهر القرامطة على أبوابها على شكل

---

(١) انظر : مجلة القدس . العدد ٢٠ . ص ١٠٦ . ١٩٨٠/١/٢٠/رجب ١٤٠١ هـ .

2 - See : Porter. J.L «Five Years in Damascus» VOL. I.P. 26.

(٣) كالسلاجقة والفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين .

(٤) انظر : المعلوف ، عيسى ، مقالة في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ـــ المجلد الأول . ج ٩ ص ١٨ ص ١٩ . عام ١٩٢١ .

غارات تخريبية شنوها عليها حتى قضى جند الخليفة عليهم . وعندما كان الاخشيديون يحكمون مصر في القرن الرابع للهجرة كانت دمشق ولاية تحف بها المخاطر ولا يستتب الأمر فيها لمن يملكها . وعندما انهارت دولة الاخشيديين على يد الفاطميين الشيعة استولى عليها الفاطميون سنة ٣٥٨ للهجرة ٩٩٩ م ، وحكم الفاطميون دمشق بعد ذلك قرناً لم تكن فيه أسعد حالاً من السابق . وخرجت دمشق عن طاعتهم لتتعرض إلى حريق على يد القرامطة . وبعد ذلك بقرن من الزمان سادها الشغب والاضطراب إلى أن جاء القائد أتز السلجوقي سنة ٤٦٨ هـ/١٠٨٦ م فانحسر ظل الحكم الفاطمي عنها إلى الأبد ، ولم يدم حكم اتز طويلاً كما لم تنشط فيها العمارة حيث عاشت فترة عصيبة وعاصفة بتعرضها لضغط الفرنجة الصليبيين الذين زحفوا على بلاد الشام وهددوا دمشق مرات عديدة فهاجموها سنة ٥٢٣ هـ/١١٢٩م وفي عام ٥٤٣ هـ/١١٤٨ م . كان البوريون يستنجدون بالفرنجة بين الحين والآخر على زنكي ، إلى أن استطاع ابنه نور الدين زنكي صاحب حلب من الاستيلاء عليها عام ٥٤٩ هـ/١١٥٤ م .

وكان حكم نور الدين في دمشق فاتحة عهد جديد من الرخاء والقوة . ويعتبر عهده مع عهد صلاح الدين أزهر أيامها . وحوصرت هذه المدينة ابان الصراع بين أبناء صلاح الدين (الأفضل والعزيز ، والعادل) فأصابها من جراء ذلك شر كبير ولم تستعد هدوءها في عهد العادل إلا بموت العزيز وقضائه المبرم على الأفضل . وهدد الفرنجة دمشق أيام ولده وخليفته المعظم عيسى .

قضت غزوة هولاكو المغولية على الحكم الأيوبي على دمشق وبعيد منتصف القرن السابع الهجري (١٣) م فتحت دمشق أبوابها للغزاة ، وفي ربيع عام ٦٥٨ هـ/ مارس آذار ١٢٦٠ م زحف عليها مماليك مصر بعد انتصارهم في عين جالوت لتصبح دمشق أهم الولايات المملوكية في بلاد الشام وعادت دمشق إلى سابق ازدهارها خاصة في عهد الظاهر بيبرس .

وفي عام ٦٩٩ هـ/١٣٠٠ م تعرضت دمشق لغزو مغولي بقيادة غازان سبب لها أضراراً كبيرة ، إلا أنها استعادت عافيتها في عهدي الناصر وتنكز ولكنها بعد ذلك سادتها الفوضى ووهنت عزيمتها مما جعلها لقمة سهلة بيد تيمورلنك الغازي عام ٨٠٣ هـ/١٤٠٠م، فكانت ضربته تلك أشد الضربات الماحقة التي تلقتها فأصابتها بشر مستطير فاق ما أصابها

منذ قرون عديدة ، فبقيت سائر أجزائها ومنشآتها أنقاضاً وعانت خلال قزن من الزمان ما عانته لترميم ما يمكن ترميمه إلا أنها بقيت في حالة وهن عام لتسقط بعد ذلك بيد العثمانيين أثر معركة مرج دابق سنة ٩٢٣ هـ/١٥١٦ م ولتصبح مركزاً لولاية دمشق العثمانية[1] .

ولقد أولى العثمانيون دمشق بعض عنايتهم نظراً لأهميتها الدينية والتجارية فأقاموا فيها الجوامع والتكايا وبعض المدارس ثم عدداً من الخانات ما زال معظمها قائماً إلى وقتنا الحاضر . وفي سنة ١٧٧١ م جاءها محمد بك أبو الذهب[2] ثم أعقبته حملة مصرية أخرى قادها ابـــراهيم باشا المصري عام ١٨٣٢ م/١٢٤٧ ـــ ١٢٤٨ هـ[3] وبقـــــي فيها إلى عام ١٨٤٠ م/١٢٥٥/١٢٥٦ هـ حيث عادت إلى السلطة العثمانية بعد ذلك .

ولقد اكتسبت دمشق أهميـة دينيـة خاصة لدى أصحـاب الديانـات الثلاثـة (الإسلامية ـــ النصرانية ـــ اليهودية) فالمسلمون يؤولون بعض آيات القرآن مثل (سورة الإسراء) الآية (١) وسورة المؤمنون الآية (٥٠) حيث يجعلونها المقصودة بعبارة إرم ذات العماد التي وردت في القرآن (سورة الفجر) الآية (٧) ، كما بالغوا في قدسيتها ونسبوا بعض الأحاديث في ذلك إلى النبي (ﷺ)[4] . ناهيك عن اعتقاد بعض المؤرخين بوجود قبور بعض الأنبياء في سفوح جبل قاسيون وما جاورها من الأماكن ، ودفن فيها عدد من صحابة الرسول العربي (ﷺ) وآل بيته والتابعين والصالحين والأولياء والعلماء والمتصوفين[5] . ويوجد

---

(١) أنظر : دائرة المعارف الاسلامية . المجلد التاسع . ص ٢٦٤ (كلمة-دمشق) ـــ الترجمة .

(٢) دخلها محمد بك أبو الذهب في ٥ ربيع الأول انسحب منه في ١٨ صفر من عام ١١٨٥ هـ الموافق ل ٢ حزيران ١٧٧١ م .

(٣) دخلتها قوات ابراهيم باشا المصري في ١٥ محرم ١٢٤٨ هـ الموافق ٢ حزيران ١٨٣٢ م . انظر : مجهول ، مذكرات تاريخية ، ص ٤٩ . تحقيق غسان سبانو .

(٤) انظر : دائرة المعارف الاسلامية . المجلد التاسع . ص ٢٦٦ . الترجمة .

(٥) يذكر ابن الحوراني أسماء الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين والأولياء والمتصوفين وغيرهم الذين دفنوا في دمشق ، فمنهم أوس بن أوس الثقفي صاحب رسول الله (ص) كان بيته مكان المدرسة الصابونية وبلال الحبشي مولى أبي بكر الصديق (ض) ومؤذن الرسول (ص) . مات سنة سبعة عشر للهجرة ودفن بمقبرة الباب الصغير . ومنهم أبو الدرداء عويمر الخزرجي صاحب رسول الله (ص) من الانصار وأحد العلماء الأعلام العاملين وأحد الأئمة الكبار من زهاد الصحابة والمعرضين عن الدنيا ، ثم زوجته التابعية (أم الدرداء) الصغرى ، مدفونة عنده داخل قلعة دمشق ، وبني جامع باسمه في داخلها . ومنهم معاوية بن صخر بن أبي سفيان القرشي الأموي كاتب الوحي لدى رسول الله . ومنهم معاوية الثاني الخليفة الأموي بن يزيد بن معاوية الأول الملقب بأبي ليلى . ومنهم واثلة بن الأسقع من أهل الصفة خدم ←

فيها لليهود والمسيحيين أماكن مقدسة . فلليهود كنيس جوبر الشهير ويعتقدون أن النبي الياس

النبي ثلاث سنين توفي في عهد عبد الملك بن مروان . ومنهم فضالة بن عبيد الذي ولي قضاء دمشق في عهد معاوية . ومنهم سهل بن الربيع الصحابي الأوسي ومنهم بسرة بن فاتك الأسدي . ومنهم شمعون بن خفانة وكنيته أبو ريحان الأسدي الانصاري ومنهم مكحول مولى سعيد بن العاص ومنهم الشيخ حماد من العلماء العاملين دفن في مقبرة الباب الصغير . ومنهم ثلاثة من أزواج الرسول (ص) ، وقبر جارية فاطمة الزهراء (ض) ومنهم منصور بن عمار السلمي الخراساني العالم الزاهد ، ومنهم عمر بن حسن الخرقي من تابعي أصحاب الإمام أحمد ، ومنهم الشيخ نصر بن ابراهيم بن نصر أبو الفتح المقدسي النابلسي شيخ الشافعية بالشام . انظر : زيارات الشام المسمى (الإشارات إلى أماكن الزيارات) ص ١٧ .

قال النووي : يستجاب الدعاء عند قبره يوم السبت ويتجمع عند قبره كل سبت خلق كثير عند طلوع الشمس للتبرك والدعاء . ومنهم الشيخ أبو البيان محمد بن محفوظ القرشي الدمشقي شيخ الطائفة البيانية ، ويعرف بابن الحوراني مات عام ٥٥١ للهجرة ، ودفن في الباب الصغير قبره معروف يزار وعليه وقف لإسراج قنديل كل ليلة . ومنهم الفخر بن عساكر علي بن حسن بن هبة الله بن عبد الملك بن الحسين الحافظ الكبير أبو القاسم فخر الشافعية وإمامها . ومنهم عبد الرحمن بن ابراهيم بن سباع بن الفركاح ، وغيرهم كثيرون . ومنهم قبر الحسن بن حمزة بن جعفر الصادق . وقبر علي بن عبد الله بن العباس ، وقبر سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس ، وقبر زوجته أم الحسن بنت جعفر بن الحسن بن الحسين بن فاطمة الزهراء . وقبر خديجة بنت زين العابدين ، قبر سكينة بنت الحسين ، وقبر محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وغيرهم كثيرون . ومنهم رابعة الشامية .

ومن المزارات الجليلة في دمشق مزار موسى بن عمران كليم الله عليه السلام . ثم قبر الشيخ رسلان في مقبرة باب توما والتي تسمى باسمه وهو ابن يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد الله الجعبري . كان زاهداً وقبر إلى جانبه أكابر مشايخ الشام وأعيانها العارفون . انظر : ابن الحوراني الإشارات . ولقد اكتسب هذا المكان قدسية خاصة لدى المسلمين لأن خالد بن الوليد نصب خيمته فيه ابان فتح مدينة دمشق وأقيم مكانها مسجده . انظر : عزت حصرية ـــ الشيخ رسلان الدمشقي . ص ٧ وص ٨ . ولقد ضمت مقبرة الدحداح رفاة العديد من الصحابة والصالحين كقبر عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق (ض) وهذا خلاف فيه في مقبرة باب الفراديس يوجد مشهد الخضر وعند هذا المشهد قبر محمد بن عبد الله ابن الحسين بن أحمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان المقدسي الدمشقي الفقيه الشافعي المصري النحوي المعروف بأبي شامة . انظر : ابن الحوراني المصدر السابق . ص ١٩ .

أما مقابر غربي دمشق فأشهرها مقابر الصوفية ومقبرة التكية السليمانية ولقد دفن في مقابر الصوفية العديد من الأولياء والصالحين من الصوفية ، أوقفها مسعود قطب الدين أبو المعالي النيسابوري الإمام البارع والمدرس الواعظ . وبها عبد الرحمن بن نوح من أشياخ الإمام النووي . ومنهم شيخ الإسلام تقي الدين بن الصلاح مفتي الإسلام الشافعي . ومنهم الشيخ عماد الدين بن الكثير البصري القرشي . ومنهم ابراهيم بن سليمان الحموي من علماء الحنفية . ومنهم ابراهيم عبد الرزاق الحنفي المحدث شارح القدور من الائمة الكبار العاملين . ومنهم أحمد بن بدر الدين الحنفي الصوفي والزاهد الورع . انظر : ابن الحوراني ، المصدر السابق ، ص ٨ . وقبر في هذه المقبرة ابن تيمية شيخ الاسلام الحنبلي .

(الياهو) عند هروبه من اضطهاد إيزابيل قد لجأ إلى ذلك المكان في عام ٤٣ . للخليقة كما بشر اليشاع بن سافاط نبياً على يد الياهو النبي ــ ولهذا أقام اليهود كنيسا في ذلك المكان وكانوا يحتفظون فيه بثلاثة قناديل مضاءة . أما المسيحيين فكانت لهم كنيسة مريم العذراء وكان يعمل على سدانتها السريان وبها مذبح به صورة العذراء . تفرز زيتاً يستخدم للعلاج[١] ناهيك عن كنائس القديس بولس وحنانيا وغيرهم من القديسين . فلا عجب بعد كل ما تقدم إذا ما أولاها أتباع الديانات السماوية الثلاث أهمية دينية خاصة .

(١) انظر : دارفيو ، الفارس ، وصف دمشق . ص ٥٧ وص ٥٩ وص ٦٥ .

المنظر العام لمدينة دمشق في أواخر القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر[1]

كانت دمشق آنئذ ببنائها على شكل طائرة الأطفال الورقية حيث الكتلة الأساسية منها تقع في الشمال وبشكل أساسي داخل الأسوار ويخترقها فرعا بردى ، القنوات وبانياس ، ويساير سورها الشمالي بردى الأصل ويمتد بناؤها كذيل طائرة الورق باتجاه الجنوب وعلى امتداد ميلين تقريباً وبعرض ميل أو يزيد قليلاً ويخترق هذا الذيل طريق الحجاز ، بدءاً من حي القنوات فالسنانية فباب الجابية فقصر الحجاج فمصلى العيدين فميدان الحصى (الميدان التحتاني) فالميدان الفوقاني فبوابة الله . وهذا الامتداد لم يكن ينطلق من منتصف السرة الرئيسية للمدينة بل كان يبدأ من حوافي أسوارها الغربية وإلى الجنوب . وكنت ترى بعض الأرباض الملاصقة للاسوار والمحيطة بالمدينة هنا وهناك إلا أن الكتلة الرئيسية من الأماكن المسكونة كانت تفتح في الجهة الشمالية من أسوارها ، وتتكون من الأحياء التالية بدءاً من الشرق إلى الغرب : مز القصب ـــ العقيبة ـــ العمارة البرانية ـــ سوق ساروجة ـــ حي البحصة ـــ ثم من الناحية الجنوبية حي الشاغور البراني الذي يفصله عن السنانية مقبرة باب

---

(١) انظر : الريحاوي ، عبد القادر . مخطط مدينة دمشق في العهد المملوكي . نقلاً عن أكرم حسن العلبي رسالته لنيل درجة الماجستير تحت عنوان : «نيابة دمشق في نهاية عهد المماليك» جامعة عين شمس سنة ١٣٩٨ هـ/سنة ١٩٧٨ م .

الصغير . وإلى الجنوب الغربي من قصر الحجاج يقع حي السويقة والشويكة وفي سفح قاسيون تقع الصالحية وإلى الشمال منها يقع حي ركن الدين الذي يستقر فيه الأكراد .

وكانت تبدو للناظر إليها من سفح قاسيون كتلة بناء مغبرة ضاربة ألوانها نحو الحمرة الباهتة بفعل التربة المستخدمة في أسطحة أبنيتها وبفعل ما علق بها من غبار البادية الذي حملته إليها الرياح . وتبرز من داخلها الأبنية الأساسية المميزة ، كالجوامع الكبيرة بمآذنها الباسقة المختلفة الأشكال وأسطحة الجملون في بعض أبنيتها ، والقباب الضخمة المتسمة بالأبهة والجلال بألوان مختلفة كالأخضر والأحمر الباهت تتسنمها أهلة مذهبة ، وقباب الخانات والحمامات والمدارس والتكايا والزوايا والربط وغيرها من المنشآت العامة والخاصة . وتبدو في الزاوية الشمالية الغربية من سرتها كتلة ضخمة من البناء الحجري المتمثل في قلعتها[1] .

ورغم أن العديد من محلات دمشق التي وجدت خارج الأسوار من عهود سابقة للإحتلال العثماني إلا أن هذه المحلات اتسعت بفعل ما بني إلى جانبها من مساكن جديدة وربما بفعل الهجرة إليها وكانت أهم تلك المحلات والحارات الجديدة بدءاً من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الجنوب هي : زقاق الوراقة — في المحلة الجديدة خارج باب السلام — ثم المحلة الجديدة المسماة بزقاق بين القبرين وكانت تروى من نهر تورا شمال السور[2] ثم المحلة الجديدة التي بها زقاق السودان تابع محلة العقيبة الكبرى[3] ثم محلة المزابل ظاهر دمشق تابع محلة العمارة[4] ثم محلة المعمشة بالقرب من جبانة مرج الدحداح ومحلة البحصة المعروفة بالبهنسية والطاووسية ثم محلة التركان شرقها[5] ثم زقاق البحصة تابع محلة الأحمدية[6] ثم محلة

(١) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص ٢٤٣ . تحقيق أحمد عزت عبد الكريم — حيث ترى في ملحقات الكتاب مخططاً لمدينة دمشق في القرن التاسع عشر نقله المحقق عن جان سوفاجة من كتاب دمشق لمحة تاريخية .... كما ذكرت إيزابيل بورتن ذلك في كتابها :

The inner life of Syria Palestine and the holyland. P. 33.

and see. B.R. Ev. JL. porter «Five Years in Damascus» VOL. I. P.29.

(٢) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/سنة ١٢١٦ هـ — ١٢١٧ هـ . ص ٧٥ ، ثم السجل رقم ٢٢١/لنفس المحكمة لعام ١٢٠١ — ١٢٠٢ هـ . ص ٣٥٤ .

(٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦٠/لعام ١٢٢٢ — ١٢٢٣ — هـ . ص ٢٢٩ .

(٤) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/لعام ١٢١٦ — ١٢١٧ هـ . ص ٢٦٩ .

(٥) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠/لعام ١٢٠١ هـ . ص ٤٦٩ وص ٢٥٨ .

(٦) نفس المصدر السابق رقم ٢٢٦ .

المنلا بالقرب من جامع يلبغا ثم **محلة الحورة غرب دار السعادة**[1] ثم محلة ساحة القلعة [2]. ثم زقاق الحماصنة والمشارقة تابع القبيات ثم محلة الزفتية تابع محلة الميدان[3] وكذلك محلة حقلة عيسى بالقرب من الزفتية[4] وورد ذكر لعديد من المحلات الجديدة ظاهر دمشق في سجلات محاكم دمشق الشرعية التي تعالج تلك الفترة إلا أن هذه السجلات لم تحدد أماكنها بدقة وقد استطعنا رصد بعضها وغاب عنا بعضها الآخر وأهم هذه المحلات والأزقة الجديدة هي : المحلة الجديدة بها زقاق الأعجام ثم محلة النوفرة ظاهر دمشق تابع المحلة الجديدة [5] ثم محلة القاعة[6] ثم حارة الديمجية[7] .

والملاحظ بشكل عام ، أن توسع المدينة بشكل أساسي ، قد حصل على أطراف الأرباض والمحلات التي تقع في الجهة الشمالية الغربية والجنوبية أكثر من الجهات الأخرى . ولا يمكن تفسير هذه الظاهرة بطبيعة تزايد سكانها الأصليين فحسب بل وبهجرة أبناء الريف والغرباء من المسلمين خاصة .

فجاءها أبناء الأقاليم الشامية والعربية والعثمانية وغيرها بحثاً عن الرزق والأمن والاستقرار في رحابها . وإذا ما علمنا أن معظم المراكز الاقتصادية والإدارية والدينية والثقافية والعسكرية تقع في وسط المدينة وإلى الجنوب والغرب منها ، لادركنا سبب استيطان هذه العناصر المهاجرة وبالتالي سبب التوسع السكاني على هذا الشكل ، وهكذا امتدت الأرباض والمحلات طولاً وعرضاً باتجاه بعضها البعض ملتهمة معظم البساتين الفاصلة بينها فأخذت المدينة شكلها الآنف الذكر .

---

(١) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/سنة ١٢٠١ ـــ ١٢٠٢ هـ . ص ٣٥٠ وص ٤٦١ .

(٢) انظر : السجل رقم ٣٢٦/محاكم دمشق/لعام ١٢٤٨ هـ . ص ٥٥ .

(٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩/سنة ١٢١٠ هـ ١٢١١ هـ ص ٥٢٧ . ثم سجل رقم ٢٦٠/محاكم دمشق/لعام ١٢٢٢ ـــ ١٢٢٣ هـ . ص ١٧ .

(٤) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠/سنة ١٢٠١ ـــ ١٢٠٢ هـ . ص ٤٦١ .

(٥) سجل رقم ٣٢٦/محاكم دمشق/لعام ١٢٤٨ هـ . ص ٥٥ وص ١٥٤ .

(٦) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٦/٢٥٠ ـــ ١٢١٧ هـ . ص ٥٧ .

(٧) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩/لعام ١٢١٠ ـــ ١٢١١ هـ . ص ٣١٤ .

* سور دمشق

بقيت دمشق مطوقة بسورها حتى دخول ابراهيم باشا المصري . حيث قام السكان بتسليمه مفاتيحها [١] مما يدل على أن السور لم يفقد أهميته العسكرية في توفير الحماية لها . وهناك إشارات عديدة وردت في سجلات محاكم دمشق إلى هذا السور مع الخندق الذي كان يطوقه ، وأنهما قد صمدا في وجه المهاجمين . وكان الخندق يفصل دار السعادة عن المدينة ومحلة الحدرة والدرويشية المسماة الاخصاصية من الغرب[٢] وكان السور مع الخندق يتجهان من الغرب إلى الشرق بمحاذاة جنوب القلعة ليطوقا سوق الأروام . وفي هذا الجزء يساير خندق القلعة الجنوبي إلى رأس السوق الجديد وبه الدرج[٣] . ثم يواصل امتداده فيطوق القلعة من غربها ويمتد إلى أن يتصل بيسار مجرى النهر من ناحية الشمال ، إلى باب السلام حيث يقع داخله سوق النحاسين وزقاق بني حمزة والبارزي[٤] ويسير الخندق إلى الشرق من المدينة وهو

---

(١) انظر : الحصني ، محمد أديب . منتخبات التواريخ لدمشق . ج ٣ . ص ١٠٧٥ .

(٢) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٠٢١/ص ١٤٦ .

(٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٦٦/٢٣٩ . ثم السجل رقم ٣٣٦/محاكم دمشق/١٢٥٠ ـ ١٢٥١ هـ . ص ٨٣ . ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٤/ص ١٢١ ص ١٦٦ . ويذكر الفارس دارفيو أن القلعة كانت خارج نطاق السور . انظر : كتابه «وصف دمشق» ص ٧٣ . ترجمة أحمد ايبش . دمشق ١٩٨٢ .

(٤) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩/ص ٧٦ و ص٢٦٤ .

عبارة عن مجرى النهر نفسه فيطوقها من ناحية الشمال فيحتضن حارة الجورة ومحلة النصارى والمسبك الجواني[1] ويتابع سيره شمالاً فجنوباً فيطوق حارة باب توما ثم ينعطف بعد ذلك بانحناء نحو الجنوب ثم يسير شرقاً بغرب فيطوق معه حارة اليهود فالشاغور الجواني . ويلتف من الجنوب إلى الغرب ليلتقي بما ذكرناه في البداية فيطوق دمشق من ناحية الغرب .

ولقد استخدم الخندق مصرفاً للماء المالح[2] في دمشق حيث يفضي إلى نهر بردى . ولقد أقفلت أبواب السور في الملمات . ففي سنة ١١٦٠ هـ/١٧٤٧ م لاذ أبناء حي باب مصلى والسويقة بالمدينة بعد أن قام أسعد باشا العظم بضرب قوات اليرلية في حي الميدان[3] . وعندما هدد عبد الله باشا العظم الوالي المعزول بمهاجمة المدينة في سنة ١٢١٨ هـ/١٨٠٣ م قامت قوات الينكجارية بالتحصن داخلها وحرسوا أبوابها بوضعهم [قلق] مفرزة حراسة على كل باب . وقام سكان الحارات الخارجية بالانتقال إلى داخلها خوفاً على أرواحهم وممتلكاتهم[4] . وعندما عزل الوالي الكنج يوسف باشا في سنة ١٢٢٥ هـ/١٨١٠ ــ ١٩١١ م «انتقل أهل القرى والميدان وغالب البلد إلى داخل السور خوفاً من النهب»[5] .

وفي عهد ابراهيم باشا المصري لم يبق السور على حاله بل زالت بعض أجزائه الجنوبية والغربية وبدأت تقتحمه بيوت السكن مما أدى إلى ضياع معالمه واستخدمت حجارتها في بناء ثكنات الجيش المصري الكائنة غرب دار السعادة . مما يدل على أن السور قد فقد أهميته العسكرية . أما ما بقي من أبواب مدينة دمشق حتى القرن التاسع عشر فهي : الباب الشرقي وإلى جنوبه باب كيسان الذي كان مسدوداً حتى سنة ١١٧١هـ[6]

---

(١) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/ص ١٤٦ .

(٢) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٤٠/ص ١٤٧ . ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠ . ص ٥٠٨ . ويذكر أيضاً الفارس دارفيو أنه كانت توجد بعض الأبراج المنفصلة عن الخندق مربعة وضخمة . ويذكر بورتر من بعده أن حجارتها قد استخدمت في بناء ثكنات الجيش المصري . انظر : وصف دمشق . ص ٤٢ ، ص ٧٣ .

(٣) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص ١٢٠ .

(٤) انظر : العبد ، حسن آغا . قطعة من تاريخ حسن آغا العبد . ص ٩٠ و ص ٩١ .

(٥) انظر : العبد . المصدر السابق : ص ١٥٢ .

(٦) انظر : البدري ، أبو البقاء . نزهة الأنام في محاسن الشام . ص ٢٥ .

/ ١٧٥٧ ـــ ١٧٥٨م ثم يليه إلى الغرب الباب الصغير أو باب الشاغور فباب الجابية فباب الجديد «صحفته العامة بباب الحديد»[١] . ثم باب السر ويلي باب الحديد من جهة الغرب والذي كان يفضي بدوره إلى القلعة . وكان الاتراك ينزلون منه سراً ويطلعون منه ويجوز الخارج منه على جسر من خشب ومن تحته الخندق الدائر بالقلعة ، وينيف عمقه على مائة ذراع مليء بالماء وينبت فيه البوص . . ثم باب الفرج ويليه باب جنيق أو الفراديس (باب الجنة) ويسمى أحياناً بباب العمارة نسبة إلى المحلة الخارجية التي تقابله من الشمال ، ولقد بنيت فوقه دور للسكن[٢] .

وكانت الأبواب ما بين باب الجابية والفراديس تفتح وتقفل عند الحاجة[٣] . وكان كل باب من أبوابها مجهزاً بمصراعين (درفتين) من الخشب المتين مصفحتين بدورهما بصفائح من الحديد[٤] . وتقفل عند غروب الشمس في الحالات العادية . وبقيت معظم هذه الدرفات إلى وقتنا الحاضر : مثل باب الصغير ـــ باب الجابية ـــ باب السلام ـــ باب المناخلية ولقد استخدمت درفـــات الأبـــواب متـــاريس للمقاتـــلين كما حصل في سنـــة ١٢٢١ هـ/١٨٠٧ ـــ ١٨٠٨ م عندما نشب الصراع بين القابي قول واليرلية[٥] .

وكانت لحارات دمشق الداخلية والخارجية أبوابها الخاصة التي تقفل عند الحاجة ويقوم بحراسة هذه الأبواب أبناء الحارات ويتم التعرف على أبناء الحارة من خلال فتحات صغيرة ضمن الأبواب الكبيرة تسمى (الخوخات)[٦] .

---

(١) انظر : دائرة المعارف الاسلامية . المجلد التاسع ، ص ٢٨٣ . الترجمة . ثم : المنجد ، صلاح الدين . دمشق القديمة . ص ٥ .

(٢) انظر : المنجد ، صلاح الدين ، دمشق القديمة . ص ٦٢ . ثم : البدري ، أبو البقاء المصدر السابق . ص ٣٥ . ثم مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد الأول . ج ١ . ص ٩١ ص ٣٤٦ . سنة ١٩٢١ م .

(٣) مجلة المجمع العلمي العربي . المصدر السابق ص ٢٥ .

(٤) يذكر الحصني في كتابه «منتخبات التواريخ لدمشق» ج ٣ . ص ١٠٧٥ ، أن دمشق كانت مسورة بسور عظيم منيع فيه أبواب حديدية ضخمة . وبقيت إلى عهد ابراهيم باشا المصري . في حين يذكر الفارس دارفيو الذي زار دمشق في القرن السابع عشر أن أبواب دمشق كأبواب القاهرة كانت مغطاة بالجلد انظر كتابه . وصف دمشق . ص ٧٤ .

(٥) انظر : مجهول . حسر اللثام عن نكبات الشام . ص ٣٤ . ثم العبد ، حسن آغا . تاريخه . ص ١٢٦ وص ١٢٧ .

(٦) انظر : العبد ، حسن آغا . تاريخه . ص ٩٠ وص ٩١ .

حارات دمشق

قسمت كتلتها السكنية داخل أسوارها (أو في أرباضها المحيطة بها) إلى ثمانية أثمان احتوى كل ثمن على عديد من الحارات واحتوت كل حارة عدة أزقة ودخلات . وكان من هذه الاثمان خمسة خارج السور وثلاثة داخله . أما الأثمان الخارجية فهي : ثمن القنوات وتقع أجمل بناياته على جانبي نهر القنوات وطول هذا الثمن قبلة بشمال من ملاصقة باب المدينة الغربي والمعروف بباب الجابية وباب النصر إلى مقبرة الباب الصغير وعرضه شرقاً بغرب من أسوار المدينة إلى الشيخ ذي الخمار إلى قبر الصحابي الجليل زيد بن ثابت . وفي هذا الثمن محلة الشويكة وقبر عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان وكان يطلق عليه اسم القصرية أو القبرية ثم عرف بقبر عاتكة . ثم ثمن سوق ساروجة من مقبرة الدحداح إلى قبر الشيخ مسمار الواقع بأول الطريق الموصل إلى محلة الصالحية . وعرضه قبلة بشمال من ملاصقة ثمن القنوات إلى محلة الكركة . وهو بستان أول الصالحية ثم الثمن الثالث ثمن الميدان التحتاني الذي عرضه شرقاً بغرب من مقبرة الباب الصغير إلى ملاصقة محلة قبر عاتكة وطوله قبلة بشمال من ثمن الميدان الفوقاني إلى ملاصقة ثمن القنوات . ثم الثمن الرابع وهو ثمن الميدان الفوقاني الذي عرضه شمالاً بغرب من ساحة الزفتية والمحلة المعروفة بالقاعة إلى طريق صف الحور الموصل إلى قرية القدم الشريف وطوله قبلة بشمال من باب مصر المعروف ببوابة

الله الكائنة في آخر ميدان الحصى الملاصق للمقبرة المدفون بها سيدي الشيخ تقي الدين الحسيني كما ذكر محمد عز الدين الصيادي[1] .

ثم ثمن الشاغور عرضه قبلة بشمال من باب الفراديس إلى مقبرة الدحداح وشرقاً بغرب من برج الروس وعين ماء الزينبية ملاصقة ثمن ساروجة ويتصل العمار إلى خارج باب توما قبلة وإلى جسر نهر تورا قبلة وإلى جسر نهر تورا شمالاً وقد ضم إلى قسم من داخل المدينة ويسمى ثمن العمارة .

والخامس ثمن الصالحية الذي يبعد عن ملاصقة المدينة بمسافة ساعة وبالجهة الشمال مرتفعة بسفح جبل قاسيون . وطوله شرقاً بغرب من قرية برزة إلى الربوة ويشق هذا الثمن نهر يزيد على طوله .

أما المدينة داخل السور فتتكون من ثلاثة الأثمان الباقية وهي بدورها تتكون من الحارات التالية : داخل باب الجابية (حارة الفسقار) حارة البزورية وتعرف قديماً بسوق القمح . ثم حارة مأذنة الشحم وتعرف قديماً بعقبة الصوف وقبليها . ثم حارة الحاطب وشرقيها . ثم حارة درب البقل ورابع منه ثم حارة مسجد البيع ولم يكن في الصف الشمالي مسجد غيره . ومن باب الجابية إلى باب شرقي وإلى جهة القبلة ، قيل أن الصحابة بايعوا فيه وهي مدرسة بناها الخواجا محي الدين بن يوسف القاري سنة ٨٨٧ هـ/١٤٨٢ م وقبلها قاطع الطريق العظمي الآخذة إلى باب شرقي قيسارية وداراً أخرى عظيمة . ثم حارة تعرف بدرب الريحان ولي شرقي ما ذُكر حارة الكشك ثم شرقي ما ذكر إلى جهة القبلة شمالي باب كيسان . ثم حارة القط ثم شمالي عماير القارين ثم حارة الكنيسة ثم شرقيها حارة النبيطون[2] .

ثم حارات داخل باب توما وهي : حارة المنجيق (الجنيق) ثم قبليها بغرب حارة القيمرية ثم غربيها بشمال ثم حارة الشلاحة ثم قبليها بغرب . ثم حارة البدرائية ثم قبليها . ثم حارة الخضرا بها القليجية لم يبق منها إلا الواجهة . ثم حارة الجنود الشبلية ثم حارة الأندر (داخل باب السعادة) ثم حارة الظاهرية (داخل باب الفرج) ثم حارة مسجد الرأس

(١) انظر : الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية . ص ٢٢, ص ٢٥ .
(٢) انظر : ابن طولون ، محمد . نقلاً عن مجلة المشرق . ص ٣٣ ، العدد ٣٥ ، لسنة ١٩٣٧ م .

(داخل باب الفراديس) ثم حارة البلاطة في مسجد بدر الدين ثم حارة درب الدعوة (داخل باب الصغير) ثم حارة أخرى في درب العجم وحارة سوق الخشابين[1] .

وبالاضافة إلى أرباض كانت بمثابة قرى كبيرة ، كالصالحية التي كانت تبعد عن دمشق بمقدار أربع كيلو مترات . وكان تعدادها في القرن التاسع / ١٥٠٠ / نسمة ، معظم سكانها من الأكراد الأيوبية أو من مهجري بيت المقدس في فترة الحروب الصليبية . ثم هناك ميدان الحصى والصفوانية (صحفتها العامة إلى الصوفانية) التي تقع خارج باب توما . ثم الحميريون وهي محلة تقع ظاهر دمشق على نهر قنوات على طريق كفر سوسة . ثم طرمس من قرى دمشق والأوزاع موضع مشهور سكنته في صدر الاسلام قبائل شتى . والعقيبة من شمال المدينة وقصر الحجاج والشاغور من جنوبها كانت جميعها مسكونة من عهد السلاجقة وشارك أهلها في دفع الصليبيين عن مدينة دمشق[2] .

ونلاحظ أن توضع السكان في دمشق كان على أساس طائفي أو قبلي أو قومي وحتى حرفي،كما رأينا في تقسيمات حاراتها في السابق . أما فيما يتعلق بالتوضع الطائفي فكان الجزء الشرقي والجنوبي الشرقي خاصاً بالنصارى واليهود ، والشيعة من المسلمين ، كحي الأمين وحي الجورة ،.ولقد وزعت أحياء أهل الذمة غالباً بحسب مذاهبهم وطوائفهم . فهناك أزقة وحارات كانت خاصة بالربانيين والقرائين والسامرة من اليهود ووجد نفس الشيء بالنسبة للنصارى

---

(١) انظر : ابن طولون محمد : نقلاً عن مجلة المشرق ص ٣٣ ، العدد ٣٥ ، سنة ١٩٣٧ م .
ويذكر محمد شمس الدين بن طولون الصالحي الدمشقي ، الذي أرخ لدمشق في القرن السادس عشر ، اثنتين وخمسين حارة خارج أسوار دمشق وهي : حارة الفراوية خارج باب كيسان وشرقيها ــ حارة الحمالين قرب تربة أبيّ (ض) وحارة المخاضة وشرقيها ــ ثم حارة القيشاني ، ثم حارة الملاح وشماليها ، وحارة الشيخ رسلان وحارة الزنجاري ، ثم حارة عين الحمة وقربها ، وحارة السبعة وشرقيها ، ثم حارة الفرايين وشرقيها وحارة الشوش ثم حارة العنابة ببيت الاهة ، ثم حارة حكر الاسية ، ثم حارة شطرا أو بير الأكراد ، ثم حارة السليماني ثم حارة مرج الدحداح ثم حارة الجرن الأسود ثم حارة الجاموسة ثم حارة المسمية ثم حارة خنصرية شنتمر ، ثم حارة سوق ساروجة ، ثم حارة حمام العداد ، ثم حارة الديلم ، ثم حارة السودان ، ثم حارة خان الكنجحانية ، ثم حارة ملكاس ثم حارة البغيل ، ثم حارة زقاق القصاصين ، ثم حارة خان الظاهر ، ثم حارة عين البطيخ ثم حارة زقاق الشعوبة ثم حارة الشرق القبلة وحارة حمام الناصري وحارة المنيع وحارة القصر وحارة السلارية غربي جامع تنكز وحارة جامع العداس وحارة الحكر وحارة جلنبك الجفون وحارة البهنكامة والبنكامة وحارة القنوات وحارة الخلخال وحارة المزار وحارة الشويكة انظر : المشرق العدد ٣٥ ، ص ١٩٢٧/٣٤ م .

(٢) انظر : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ــ المجلد ١٦. ص ١٦٠ص ١٦١ ثم المجلد ٢٤، ص٥٥٤.

الموارنة والكاثوليك والأرثوذكس وغيرهم . وأما بقية أحياء دمشق فكانت سكناً للمسلمين السنة . ويلاحظ سكن العناصر غير العربية في حي سوق ساروجا والبحصة والقنوات والعقيبة والعمارة والميدان وغيرها . واستطاعت دمشق مع الزمن أن تهضم هذه العناصر وتذيبها في بوتقتها العربية وشذ عن هذه القاعدة بعض الأقليات الكبيرة التي سكنت معزولة في أحياء خاصة بها ، كالأكراد وإلى أوائل القرن العشرين . ونتيجة للظروف التاريخية التي أحاطت بها بقيت تتميز بحاراتها المنفصلة عن بعضها بأبوابها . لهذا كانت الحارة عبارة عن مدينة مصغرة لها مسجدها أو كنيسها وطريقتها لتوزيع الماء فيها . فلكل واحدة منها طالع ماء خاص بها ومنه تتوزع بأنابيب (قساطل) المياه إلى أماكن الاستهلاك المختلفة ، في الدور والبيوت والمنشآت العامة كما كان في الحارة حماماتها وسويقتها المحتوية على الحبوب وسائر الحاجيات ولها شيخها والمسؤول عنها وشرطتها المؤلفة من العسس الذين يسهرون في الليل فيتعرفون على المارة بها . وفي كل حارة شارع رئيس أو أكثر تتفرع منه دروب وأزقة ودخلات مسدودة بإحدى المباني في نهايتها ، وتفضي هذه المداخل إلى أبواب المنازل والدور وعلى كل باب قفل . ولا يظهر من المنزل إلى جهة الشارع سوى مؤخرته الخالية من النوافذ ، وإذا ما وجدت هذه النوافذ فهي عالية عن الطريق العام ومحمية بشباك من قضبان حديدية متينة وعليه المصبعات الخشبية بحيث لا تسمح بالولوج إلى داخلها إلا عن طريق أبوابها ، وحتى الأبواب كانت صغيرة ومصفحة بالمعدن الذي يوفر لها القوة والمنعة فيشعر الساكن في داخل هذه البيوت بالإطمئنان والأمان بفضل هذه العقبات المتتابعة[1] .

وحسبنا هنا أن نورد مثالاً على ذلك دخلة الناصري التي تقع في حي الشاغور الجواني ثم زقاق الست نفيسة الذي يقع في الشاغور البراني بمواجهة أسوار دمشق من ناحية الجنوب مباشرة ويفضي إليه مدخل خاص يقع غرب باب جامع باشوره الباب الصغير ، ويفصل بينهما الطريق العام ، وهذا الزقاق لا يتجاوز عرضه ٧٠ سم وهو متكسر لا يسمح لشخصين في وقت واحد بالمرور منه . فلا بد لأحدهما أن يقف عرضانياً ليسمح للآخر بالمرور . وتكسرات أضلاع الزقاق تتراوح ما بين ٢ إلى ٤ أمتار ، وأبواب منازله ضيقة ومنخفضة بحيث لا يستطيع أحد الدخول إليها إلا بعد الانحناء ، وهذه المنازل مسكونة حتى

---

(١) سوفاجة ، جان ، دمشق الشام لمحة تاريخية منذ العصور القديمة وحتى العصر الأخير . ص ٢٨ و ٢٩ .
ثم السجل رقم ٣٢٣/محكمة الميدان سنة ١٢٤٧ هـ ، ص ١٩٧ .

وقتنا الحاضر[1] . أما الأزقة بشكل عام فيلاحظ فيها الأقواس الحجرية أو القناطر من حجارة البازلت وأحياناً مقبية من الخشب وترى فوق هذه القناطر أبنية مكونة من غرفة أو أكثر يطلق عليها اسم « القصر » وعلى شبابيكها الخارجية قضبان حديدية ومصبعات خشبية . أما الباب الرئيسي للحارة فمن الخشب المصفح بالحديد ويقفل عند الضرورة . لحمايتها وبه باب صغير « الخوخة » يسمح بدخول فرد واحد عند الحاجة .

ونتيجة للاستقلالية التي تمتعت بها كل حارة كان لا بد لها من صلة وصل ما بينها وبين السلطة الحاكمة في المدينة ، وبرز ذلك في شيخ الحارة وإمامها [2] وأعيانها ورجال الدين فيها . وغالباً ما كان هؤلاء من السباهية الاقطاعيين أو الأثرياء أو رؤساء الأسر القوية ، أو بعض أغوات أوجاق الانكشارية أو اليرلية . فمثلاً وجد في عهد والي دمشق أسعد باشا العظم شيخان لحارة سوق ساروجة هما مرادي أحمد بن القلطقجي وعبد الله بن حمزة ، وفي حي الميدان كان مصطفى آغا بن خضري الذي سمّى نفسه بسلطان الشام ثم أحمد آغا وخليل آغا أولاد الدرزي ، وفي سنة ١٢١٧ هـ/١٨٠٢ ـــ ١٨٠٣ م كان فرج ولد موسى شيخاً لحارة اليهود[3] .

ولقد أسهمت الفوضى وفقدان الأمن في مدينة دمشق في انتقال السلطات الاجرائية الحكومية إلى شيوخ الحارات فكان كل واحد منهم يسهر على راحة أبناء حارته ، وشكل هؤلاء الشيوخ والأغوات والأعيان ورجال الدين هيئة إدارية وأحياناً قضائية لحل العديد من مشاكل أحيائهم وساعدوا السلطة في تحصيل حقوقها من أفراد أحيائهم ، وفي القاء القبض على بعض الأشقياء ، وتحملوا في بعض الأحيان تبعات أخطائهم ، فانصب جام غضب الولاة على هؤلاء الشيوخ ، كما حصل في سنة ١١٥٩ هـ/١٧٤٧ م . لآل التركمان أو

---

(١) شاهدته اثر زيارتي له بتاريخ ١٩٨١/١/١٧ كجزء من الدراسة الميدانية لهذه الدخلة .

(٢) فمثلاً في سنة ١٢٥٥ هـ كان الشيخ أحمد أفندي عجلوني زادة إماماً لمحلة الميدان . انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٥٧/سنة ١٢٥٥ ــ ١٢٥٦ هـ ، ص ٦ . وفي سنة ١٢٢٢ هـ كان شيخاً لحارة الخراب حسن عطايا وشيخاً لحارة اليهود خضر شمويل . انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦٠/سنة ١٢٢٢ ــ ١٢٢٣ هـ ، ص ٣١٤ .

(٣) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص ٦٧ ص ٦٨ . ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/ص ٢١٦ .

التركماني ، شيوخ حارات الميدان وأغوات أوجاق اليرلية فيها ، حيث قام والي دمشق أسعد باشا العظم بقتل بعضهم وهم : حمزة بيك محمد آغا وحسن آغا وخليل آغا [1] .

وبرز أيضاً في سنة ١٢١٣ هـ من شيوخ الميدان اسماعيل شربجي بن المهايني آغا اليرلية [2] .

ومن جهة أخرى كان يعاضد شيوخ الحارات أصحاب البأس من الرجال الأقوياء ، وكان مجلس الحارة يمثل حكومة محلية في الحي ، وتستعين به الدولة على جلب أحد المطلوبين أو على تحصيل حقوقها . كما يقوم هذا المجلس باستقبال وجهاء الأحياء الأخرى[3] . ولقد أدرك ابراهيم باشا مدى نفوذ هؤلاء المشايخ في حاراتهم . فعندما دخلها فاتحاً وقبل أن يتجه إلى حمص أخذهم كرهائن ليضمن استقرار هذه الحارات وعدم ثورتها ضد الحكم المصري[4] في غيابه .

ولقد شاهدت بعض حارات دمشق صراعات دموية فيما بينها،ففي سنة ١٢٢٠ هـ/١٨٠٥ ـــ ١٨٠٦ م وقع صدام بين أهل الميدان وأهل الشاغور حيث قامت طائفة من أهل الميدان بالهجوم على أهل الشاغور وصار بينهم جنق إلى أن أصبح الصباح »[5] .

ولم يكن الصدام ليقع بين أبناء حارات دمشق وبعضها البعض فحسب ، بل في كثير من الأحيان كان يقع بين أبناء هذه الحارات ، التي تمثل قوى اليرلية وبين قوات القابي قول والمرتزقة الغرباء عنها ، كما حصل في سنة ١٢١٣ هـ/١٧٩٨ ـــ ١٧٩٩ م حيث استمر الصدام بين أبناء حارات دمشق وقوات قلعة دمشق من القابي قول لمدة سبعة أيام ويصف حسن آغا العبد الذي شاهد هذا الصدام بقوله : البلد داشرة لا حاكم ولا متسلم »[6] .

(١) انظر : البديري المصدر السابق . ص ٧٠ .
(٢) انظر العبد ، حسن آغا ، تاريخ حسن آغا العبد ، ص ٤٦ .
(٣) انظر : العلاّف ، أحمد حلمي . دمشق في مطلع القرن العشرين ، تحقيق علي جميل نعيسة . ص ٤١ و ص ٤٢ و ص ٤٣ .
(٤) انظر: إلشطي، محمد جميل. «أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ومنتصف القرن الرابع عشر ص١٧.
(٥) انظر : العبد حسن آغا . تاريخ حسن آغا العبد ، ص ١٢٥ .
(٦) انظر : المصدر السابق ، ص ٤٤ .

كما يذكر في موضع آخر من تاريخه أنه في سنة ١٢١٧ هـ/١٨٠٢ ـــ ١٨٠٣ م «اشتغل الشر بين العسكر وبين أبناء العمارة كما هاجم جند الدالاتية حي العقيبة»[١] .

وبشكل عام لم تنزع مدينة دمشق نحو تحررها إلا بعد أن دخلتها المؤثرات الغربية على نطاق واسع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر[٢] .

---

(١) انظر : المصدر السابق ، ص ٧٧ .

(٢) انظر : سوفاجة ، جان . المصدر السابق ، ص ٣٠ . ثم الحصني ، محمد أديب ، منتخبات التواريخ لدمشق ج ٢ ، ص ٦٩١ .

سكان دمشق

كان حجم مدينة دمشق وتعداد سكانها في نهاية القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر دون عدد سكان مدينة حلب المدينة الداخلية الكبرى الأخرى في بلاد الشام . وربما يعود ذلك لكون مدينة حلب مفتوحة في وجه الأجانب وخاصة الأوربيين منهم من جهة ولكثرة هجرة أبناء الريف إليها من جهة أخرى ، نتيجة لفقدان الأمن في ريفها آنئذ . ولقد جاء في كتاب المجتمع الاسلامي والغرب أنه في سنة ١٧٩٢ م/١٢٠٦ ـــ ١٢٠٧ هـ كانت حلب تزيد دمشق بـ ٥٠ ألف نسمة حيث وصل عدد المدينة الأولى إلى مائة وخمسين ألف نسمة(١) .

أما الرحالة براون الذي جاء دمشق في أواخر القرن الثامن عشر فيقول : إن تعداد سكان دمشق أقل من مائتي ألف (٢٠٠,٠٠٠)(٢) . بينما يرى س . بيكنجهام الذي زار مدينة دمشق في سنة ١٨١٦ م/١٢٣١ ـــ ١٢٣٢ هـ أن تعدادها كان ١٠٠,٠٠٠ نسمة ومن بينهم ٢٥/ألف مسيحي و١٥ ألف يهودي و٩ آلاف مستوطن تركي من استانبول . وكان هؤلاء يشكلون معظم جهاز السلطة ويقومون ببعض الأعمال وحوالي

---

(١) انظر : جيب وباوون . ج ٢ . ص ١١٩ . ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى .

2 - Browne W.G « Travels in Africa Egypt and Syria From the Year 1792-1798». P.398.

« ١٠٠٠ جندي » يتمركزون فيها [1] . **أما بورتر الذي عاش في دمشق لمدة ٥ سنوات في** أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر فيقول : إن تعداد سكان دمشق يصعب تقديره بدقة . ورغم أن الحكومة هنا قامت بمحاولة لإحصاء السكان بهدف تحديد العناصر التي يتوجب عليها دفع الضريبة لها أو تحديد مقدار ما يترتب عليها ، إلا أن هذا الاحصاء لم يكن دقيقاً ، وذلك لأهمال الضباط والموظفين القائمين عليه من جهة ، ولوقوف عادات وتقاليد الدمشقيين حائلاً دون إحصاء عدد النساء فيها من جهة أخرى ، انسجاماً مع العادات والتقاليد السائدة . ويرى صاحب جسر اللثام عن نكبات الشام الذي أرخ لأحداث ١٨٦٠ م في لبنان ودمشق أن عدد سكان دمشق كان ١٥٠ ألف نسمة تسعة أعشارهم من المسلمين[2] . ولم يكن نمو المدينة السكاني منتظماً وذلك بسبب الهجرة إليها من الريف ومن مناطق أخرى ، كما أزهقت الصدامات الدموية المتكررة بين القوى المتصارعة العديد من أرواح سكانها ، ناهيك عن إجبار المهزومين وأسرهم على الرحيل عنها ، فمثلاً في سنة ١٢٢٧ هـ/١٨١٢ م ـــ ١٨١٣ م أمر والي دمشق بأن « جميع البغّادة الذي في البلد من كبير وصغير يرحل ولا يبقى منهم أحد في البلد وأن تم أحد منهم دمه مهدور ويسلب ماله فبعض منهم فروا هاربين وبعض منهم اختفوا وبعضهم تشتتوا في القرايا[3] » .

وعلينا أن لا ننسى أن النكبات والكوارث العامّة التي اصابت دمشق أثرت أيما تأثير على تعداد سكانها من جهة ، وعلى بنية السكان الديمغرافية من جهة أخرى . فالزلازل التي أصابت دمشق قد أزهقت العديد من الأرواح تحت ركام المنازل والمباني المنهارة كما حصل في زلزال سنة ١١٧٣ هـ[4] . وكذلك الجائحات الوبائية كالطاعون والكوليرا التي وقعت في سنة ١٨٣١ م و ١٨٤٨ م . ومن قبلهما جائحة عام ١٢٠٧ هـ/١٧٩٢ ـــ ١٧٩٣ م التي يصفها حسن آغا العبد في تاريخه بقوله : « فنفر الفنا في الخلق واستمر الموت فكانت سنة من الفنا ما سبق مثلها »[5] .

ومن جهة ثانية فإن بنية السكان الديموغرافية كانت تتغير بشكل فجائي نتيجة لتلك الجائحات فتزهق أرواح أناس من أعمار محددة في الغالب كما كانت تفعل جائحات الحصبة

1 - Koury, George. «Province of Damascus». P.158.

(٢) انظر مجهول ص ٢٢٢ .

(٣) انظر : العبد ، حسن آغا ، تاريخ حسن آغا العبد . ص ١٥٥ .

(٤) انظر : الحلاق ، أحمد البديري ، حوادث دمشق اليومية ، ص ٢٢٤ .

(٥) انظر : ص ٣١ من تاريخ حسن آغا العبد .

والجدري ففي عام ١٢١٢ هـ/١٧٩٧ ـــ ١٧٩٨ م يقول الإخباري حسن آغا العبد : « سنة تاريخه صار جدري إلى الأولاد بأن يدفن في كل يوم نحواً من مائة ولد في ظرف ثلاثة أربعة أشهر حتى خفف الأولاد »[1] .

نستنتج من كل ما تقدم بأن الأرقام التي وردت عن تعداد سكان دمشق في تلك الفترة لم تكن في معظمها دقيقة . ولعل أقرب الاحصاءات إلى الحقيقة والتي يمكن اعتمادها وبشيء من الحذر هي ما أوردها بورتر مع مراعاة امكانية الزيادة بالنسبة لعدد المسلمين بخمسة بالمئة ، ونقصان ٢٥٪ من تعداد اليهود . فيرى بورتر أن تعداد المدينة في عهده « منتصف القرن التاسع عشر » كان (١٥٠) ألف نسمة منهم :

١ـــ المسلمون = ٧٤٤٦٤ ألف نسمة

٢ـــ الدروز = ٥٠٠ نسمة

٣ـــ المسيحيون[2] (كنيسة يونانية) = ٥٩٩٥ نسمة

٤ـــ المسيحيون (كاثوليك) ٦١٩٥ نسمة

٥ـــ المسيحيون السريان = ٢٦٠ نسمة

٦ـــ المسيحيون السريان الكاثوليك = ٣٥٠ نسمة

٧ـــ المسيحيون الموارنة = ٤٠٥ نسمة .

٨ـــ المسيحيون الأرمن والكلدان = ٤٠٥ نسمة

٩ـــ المسيحيون الأرمن الكاثوليك = ٢٣٥ نسمة

١٠ـــ المسيحيون اللاتين ١١٠ نسمة

١١ـــ البروتستانت = ٧٠ نسمة

١٢ـــ الغرباء والجنود والعبيد وحماية السلطان وتحت الحماية = ١٥٠٠ نسمة

---

(١) انظر : تاريخ حسن آغا العبد . ص ٣٤ .

(٢) ويذكر الفارس دارفيو الذي زار دمشق في سنة ١٦٦٠ م/١٠٧٠ هـ أن غالبية النصارى الذين يقيمون في دمشق هم من الروم اليونان ويوجد القليل من الموارنة بالاضافة إلى بعض النصارى الافرنج ، لا يسمح هناك بتواجد هيئات للمبشرين الفرنسيسكان من فلسطين أو اليسوعيين أو الكبوشيين ، بل لكل منهم في المدينة بيته الخاص ومصلاه المنزلي ، كما أن الإزعاجات والمخاطر جعلت القنصل الفرنسي والجالية الفرنسية تغادرها إلى صيدا ، وبقي بعض التجار الفرنسيين فيها وبعض الأطباء وبعض الجراحين الذين جاؤوا لاكتساب الخبرة مردفة بربح المال .

انظر : كتابه « وصف دمشق » ..ص ٧٠ ص ٧١ . ترجمة أحمد إيبش دمشق ١٩٨٢ م .

١٣ــ اليهود[١] = ٤,٦٣٠ نسمة .

١٤ــ المجموع العام = ١٠٨,٥٩٩ نسمة[٢] بالإضافة إلى عدد آخر أغفل ذكره .

أما التركيبة القومية للسكان فكان معظمهم عرباً سوريين كانوا من سكانها الأصليين أو من مدن شامية أخرى أو من ريفها أو من بدوها أو من أقطار عربية أخرى كالعراق (مواصلة بغداديون تكارتة) أو مغاربة (من فاس والجزائر وطرابلس الغرب وتونس ومن منطقة السوس ومراكشية ودراوية)[٣] وغيرها ، أو من الهوارة من جنوب مصر أو من السودان . أو من غير العرب كالأرمن والاكراد والاتراك والداغستانيين والفرس والهنود والأفغان . وتركزت بعض الأقليات القومية في أماكن محددة من حارات دمشق وأرباضها . فهناك حارة الديلم وحارة السودان (العبيد) والأتراك في سوق ساروجة أو بالقرب من ثكنات الجيش العثماني التي كانت تقع في غرب السرايا والقلعة ، والأكراد في الصالحية وحي الميدان . ولما لم يستطع هؤلاء الدخول إلى المدينة ، استقروا في الصالحية بشكل خاص وانتحل زعماؤهم لقب آغا وأقاموا لأنفسهم قوات شبه عسكرية مؤلفة من رجال قبائلهم للدفاع عن مصالحهم[٤] . وسكنت بعض الأسر الدينية الاسلامية العربية باطن دمشق قريباً من الجامع الأموي والمراكز الدينية الأخرى التي كانت منتشرة فيها كالزوايا والتكايا والمدارس . فبعض آل الكزبري والغزي سكن في حي الشاغور الجواني ، في زقاق الزلاقة ، وآل الصيرفي والحصني والمنير والمحاسني كانوا يسكنون في الشاغور الجواني[٥] ، وآل بكري في داخل باب الجابية باطن دمشق ، وآل السلطان داخل باب السلام وآل العيطة في حي القيمرية بزقاق الطواشي وبنو العمادي

---

(١) ويذكر دارفيو أن جوبر كانت مسكناً خاصاً لليهود دون أي اختلاط بقوم آخرين وكان لهم كنيس كبير مقدس خاص بهم . وقام اليهود بإيهام المسلمين المتطرفين بأنهم سوف يموتون ان هم حاولوا سكنى هذه القرية .. ويعتقد أن أول نزول اليهود في اقليم دمشق كان بأرض جوبر وليس في المدينة ذاتها ، ثم اتخذوا حيهم المعروف بالقسم الجنوبي الشرقي من مدينة دمشق القديمة وهذا بالذات ما يرويه يهود دمشق المعاصرون انظر : كتابه السابق «وصف دمشق» . ص ٥٦ ص ٥٧ .

2 - Porter. «Five Years in Damascus». VOL.1.PP.138-139.

كما ترى ليندا شليشر أن عدد سكان دمشق آنئذ (١٠٠) ألف نسمة . انظر : المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام . ج ١ . ص ٣٣٧ ، دمشق سنة ١٩٧٨ م .

(٣) انظر : مجلة دراسات تاريخية بدمشق ــ العدد الأول ص ٧٦ . مقالة للدكتور عبد الكريم رافق في ربيع الأول ١٤٠٠هـ/ مارس ــ آذار ١٩٨٠م.

(٤) انظر : النمر ، إحسان . تاريخ جبل نابلس والبلقاء . ج ١ . ص ٢٠ .

(٥) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٠٢/سنة ١١٩٠ هـ/١١٩١ هـ . ص ٢٨ ، ص ٦٥ .

والصمادي والعش في حي القيمرية أيضاً ، وبنو الأيوبي في محلة النصارى بالقرب من جامع القبة[1] وآل المرادي بالقرب من مدرسة الكلاسة الكائنة في الجامع الأموي وآل منيني في محلة الملك الظاهر[2] وآل السفرجلاني في زقاق القاري[3] . في حين سكن البعض الآخر من آل العجلاني في محلة الميدان[4] وآل سعد الدين في الشاغور البراني[5] .

أما الفلاحون القادمون إلى دمشق فقد سكنوا في حارات الميدان . كما سكنها بعض البدو بالإضافة إلى سكناهم في حارات العقيبة والحقلة والعمارة . ولقد بنى بعض الفلاحين القادمين إلى حي الميدان بيوتاً على شكل قباب صغيرة مقلدين بذلك بيوتهم في الأماكن الأصلية . لهذا أطلق على حيهم اسم «القبيبات» وكان هؤلاء يعودون في أصولهم إلى قرية السخنة[6] واستقر إلى جانبهم فلاحون قادمون من قرية النعيرية التي تقع على مشارف حماه حيث أنشأوا زقاقا لهم في ذلك الحي وسكن إلى جانبهم أيضاً عدد من التيامنة . وكان هؤلاء دروزاً قادمين من جبل حوران[7] . وجاء إلى دمشق دفعة من الأكراد استقروا في الصالحية وحي الميدان تاركين مواطنهم الأصلية وأتوا إلى دمشق بحكم وظائفهم فيها لدى الدولة العثمانية[8] . وفي أوائل القرن التاسع عشر جاءت مجموعة من المسيحيين الكاثوليك إلى حي الميدان وتركزت في حي زقاق البرج والقرشي والموصلي وباب المصلى[9] . أما اليهود فتركزوا في الشاغور حيث سكن ٩٦٪ من طائفتهم في ذلك الحي[10] . والشيعة من المسلمين تركزت في محلتي الخراب والجورة غرب حي اليهود وشماله . والعلويون والاسماعيليون استقروا في الجزماتية وزقاق الحشاشة من حي الميدان[11] . ووجدت في دمشق جالية أرمنية تعود إلى

---

(١) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٣٤/سنة ١٢٥٠ هـ . ص ٢ ، ص ٩ ، ص ١٢ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ١٢١ ، ص ٢١٤ .

(٣) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٣٨/سنة ١٢١١ ــ ١٢١٢ . هـ . ص ٨٤ .

(٤) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠/سنة ١٢٠١ ــ ١٢٠٢ هـ . ص ٥٦٥ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٥٢٠ .

(٦) انظر : خير ، صفوح . مدينة دمشق دراسة في جغرافية المدن . ص ١٨٣ . دمشق ١٩٨٢ م

(٧) خير . المصدر السابق . ص ٢٤٦ ثم : السجل رقم ٣٢٥/ محاكم دمشق/سنة ١٢٤٧ ــ ١٢٤٨ هـ . ص ٦١ .

(٨) خير . المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(٩) خير . المصدر السابق ، ص ٢٧٥ .

(١٠) خير . المصدر السابق ، ص ٢٧٦ .

(١١) خير . المصدر السابق ، ص ٢٧٦ .

العصور الوسطى لها أديرتها وكنيستها الخاصة واستقرت هذه الجالية في شرقي دمشق وشكلت أقلية عرقية ودينية ، استخدمت في حديثها وطقوسها الدينية لغتها القومية[1] أما الأسر العثمانية فكانت تنحدر من أصول قومية مختلفة منها التركي والبشناقي والداغستاني ومن قوميات الروملي والأناضول وغيرها ، ويستدل على ذلك من أسماء تلك الأسر التي وردت في المصادر التاريخية المختلفة وخاصة سجلات محاكم دمشق لهذه الفترة . فهناك القرمانلي والوانلي والنيبيـولي والازمرلي والطرابزنلي والاضنلي والبشناقي والقره حصرلي والمرعشلي والبوسنوي والبغداني وغيرها [2] .

وعاشت القوات شبه العسكرية خارج المعسكرات في أحياء ساروجة والقنوات والميدان والعقيبة والعمارة ، حيث استقرت مع أسرها التي ترافقها ، وكانت خليطاً عجيباً من أقاليم وقوميات مختلفة[3] .

وطرأ تبدل ملحوظ على الواقع السكاني لمدينة دمشق في ظل الحكم المصري نتيجة للسياسة التي اتبعها وللمتغيرات التي أدخلها على نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والفكرية والامنية والديمغرافية فمثلاً : سمح للقناصل الأجانب بالإقامة في دمشق بالإضافة إلى المبشرين الأوربيين والتجار ولم يكن ذلك مسموحاً أو مستحباً من قبل . وسعى هؤلاء لتصريف بضائع بلدانهم . وجاء في تقرير لبوال كومت الفرنسي ، مرسل إلى حكومته في سنة ١٨٣٣ م : أن الأقمشة الإنجليزية لوحدها قد تسببت في تعطيل حوالي ١٠,٠٠٠ عامل في سنة واحدة . وما بين عامي ١٨٣٨ ـــ ١٨٣٩ كان في دمشق لوحدها ١٠٧ متجراً لبيع البضائع الانجليزية ، وهذا يدلنا بدقة على ما أصاب البضاعة المحلية من دمار ،[4] وبالتالي ما أصاب الصنّاع والحرفيين المحليين من إفلاس مما دفع بالعديد منهم للبحث عن

(١) خير . المصدر السابق ، ص ٢٧٨ ص ٢٧٩ .

(٢) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩/سنة ١٢٦٤ ـــ ١٢٦٥ هـ . ص ٣ ص ١٠ ص ١٢ ، ص ١٧ ، ص ١٨ ، ص ٢٢ ، ص ٣١ ، ص ٣٣ ، ص ٥٤ ، ص ٥٧ ، ص ٦٣ ، ص ٦٤ ، ص ٧٣ ، ص ٨٠ ، ص ٨٩ ، ص ٩٦ ، ص ٩٧ ، ص ١٥ ، ص ١٣ ، ص ١٣٨ ، ص ١٦١ ، ص ١٦٣ ، ص ١٦٥ . ص ٢١٠ ، ص ٢١٥ ، ص ٣٤٤ .

(٣) شليشر.، ليندا . المرجع السابق . ج ١ ، ص ٣٢٣ ص ٣٢٤ .

4 - See: Polk. William. R. «the opening of south Lebanon-1788-1840». P.166. Harvord university Press; 1963

الرزق في الريف ناهيك عن أن طريقة التجارة الدولية قد تغيرت فبدأت المدن الساحلية تستورد البضائع الأوربية وتقوم بدورها بتصديرها إلى دمشق وبغداد وغيرهما . وعمل في هذه التجارة تجار أغلبهم مسيحيون ويهود بالاضافة للمسلمين مما أدى إلى تغيير الواقع الاقتصادي والاجتماعي لفئات اجتماعية مختلفة في دمشق وزادت في التأثير سياسة التجنيد الاجباري[1] التي فرضها ابراهيم باشا على دمشق وبلاد الشام مما دفع بمعظم شباب دمشق للفرار منه إلى الريف والاماكن التي تقع خارج سلطة المصريين ، بالاضافة إلى اجراءات الطب الوقائي التي لم تكن تعرفها دمشق قبل عهد المصريين « كعزل المرضى والتلقيح ضد الجدري » قد أثرت بدورها على بنية السكان الديمغرافية وحدّث من تأثير الجائحات الوبائية . وتوفير الأمن دفع بأبناء دمشق للعمل في الريف في مجال الزراعة . كل هذه الإجراءات انعكست على البنية السكانية لمدينة دمشق وعلى تعداد سكانها ونسيجها الاجتماعي .

(١) يقول وليم بولك : إن الخوف من التجنيد الإجباري في الجيش المصري دفع بعدد من سكان دمشق للابتعاد عنها ، ولم تعد ملاذاً مأموناً للهاربين من التجنيد أو تشكل مورد رزق للذين ينحدرون من أصول فلاحية أو الذين جاؤوها بحثاً عن الرزق . وهكذا انعكست العلاقة بين المدينة والريف من الناحية الاقتصادية في هذا العهد . انظر : كتابه :

The Opening of South Lebanon 1788-1840...P.169

شوارع دمشق وطرقاتها

نكاد لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن خطة المدينة العامة ظلت قروناً على الحال التي كانت عليه عشية الفتح العربي الاسلامي . رغم الدمار والمحن والشدائد التي نزلت بها بعد ذلك وحتى فترة دراستنا ولم تحدث تغييراً جوهرياً في شكلها [1] . فبقايا الشوارع الرومانية القديمة بقيت على سمتها المستقيمة وكان يلاحظ ذلك في خطة دمشق الرئيسية المكونة من شوارع رئيسية تتفرع عنها شوارع وأزقة ودخلات حيث تقع على جوانبها المساكن والحوانيت والمنشآت العامة كالمعابد والمدارس والخانات والخوانق والربط والبيمارستانات وغيرها ، ويخترقها بعض تفرعات بردى من مياه القنوات وبانياس وتورا ويزيد مكونة السبلان لسقاية الحيوانات ولسد الحاجات العامة من المياه . ووجد العديد من طوالع المياه هنا وهناك لتزويد السكان بحاجتهم منها بالإضافة إلى السقايات في أكثر زوايا المدينة من أجل شرب السكان . ولقد كان العديد من هذه الشوارع مغطى برفوف خشبية ومسقوفة من الداخل بقناطر حجرية . ولقد تداعى العديد من هذه الأسواق مع الزمن وآل إلى الإنهيار كما حصل للسوق الضيق (الزنوطية) الذي كان يقع خلف الجامع الأموي حيث انهار عام ١١٦٣ هـ ١٧٥٠ م «ومات أربعة أشخاص تحت أنقاضه وهشم جماعة أخرى [2]» .

(١) انظر : دائرة المعارف الاسلامية ــ المجلد ٩ . ص ٢٦٥ . الترجمة .

(٢) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص١٣٩ .

ومن الأسواق ما كانت مبنية بطريقة حجارة العقد وبها فتحات للتهوية مغطاة في الغالب بالزجاج للإضاءة وكانت هذه الفتحات من الضيق بحيث لا تسمح لاحد بولوجها وحتى نور الشمس لم يكن ليدخل إلا كليلاً ، لذا بقي معظمها معتماً .

أما أرضية هذه الشوارع وتفرعاتها فكانت ترابية ، وقليل منها كان مرصوفاً بالحجارة . ولم يكن رصفها متناسقاً بل لوحظ فيه بروز حجارة الرصف هنا وهناك . أما الأرصفة ، إن وجدت ، في هذه الشوارع فكانت ترتفع عن منسوب سطح الطاروق بمقدار ٢ ــ ٣ قدم ولكن معظم هذه الشوارع كانت خالية من الأرصفة وكانت في معظمها خالية من مصارف المياه ، إلا في القليل النادر ، حيث كانت مياه الأمطار وفضلات الحمامات والمنشآت العامة والماء المالح تجري في كهاريز خاصة إلى خندق قلعة دمشق ومنه إلى نهر بردى . وكان يشاهد في بعض الشوارع الطواريق وهي عبارة عن منخفض بين رصيفي الشارع تسير فيه الرواحل والعربات وتمتليء هذه الطواريق بالمياه القذرة تضاف إليها مياه الأمطار في فصل الشتاء فتنبعث منها الروائح الكريهة .

أما جدران المباني التي كانت تطل على هذه الشوارع والأزقة ، فكانت غالباً من اللبن المجفف بأشعة الشمس ومطلية بالطين والتبن فيتسلخ عن الجدران بفعل الأمطار والثلوج وعوامل التعرية الأخرى فيحيل الشوارع إلى مستنقع موحل[1] . أما الشوارع الضيقة أو المقبية بحجارة العقد فكانت مظلمة وعازلة بحيث تخفف عن الانسان وطأة حر الصيف وبرد الشتاء . وكان أصحاب المخازن فيها يتغلبون على برودة الشتاء القارسة بارتداء الفراء أو باستخدام الفحم الخشبي للتدفئة في كوانين أو مواقد خاصة بهم[2] .

وفي فصل الصيف كان الطين المتراكم يتحول إلى غبار تثيره أقدام السابلة والرواحل . لهذا وجد في دمشق الرشاشون الذين يقومون برش الشوارع والأسواق بالمياه لمنع إثارة الغبار وكان يهتم بذلك تجار وحرفيو تلك الأسواق خوفاً على بضائعهم . وكان الرشاش يحمل قربة مملوءة بالماء من أحد السبلان القريبة ليقوم برش الشارع يمنة ويسرة مرة واحدة أو مرتين في اليوم الواحد . الأولى صباحاً قبل فتح الدكاكين والثانية ظهراً . وأحياناً كانت تكنس

1 - **Wright. T. «Early Travels in Palestine». P. 48.**

2 - **Alex. Russell. U. D. «The Natural History of Aleppo». VOL. 1. P. 20.**

الشوارع . وكان لكل رشاش على كل دكان شيء معلوم يجمعه في كل شهر يتعيش به . ولقد خصص لكل شارع رشاش أو أكثر على حسب كبر السوق أو صغره[1] .

وكانت هذه الشوارع تعج بالغرباء الدماشقة نهاراً فترى فيها الراكب على الحصان أو الجمل أو الحمار أو السائر على قدميه . وكان الغرباء خليطاً من قوميات عدة . فكنت ترى أزياء شرقية مختلفة فهناك الشراكسة والأناضوليون وشيوخ البدو واليهود والأكراد الخشنون والمسيحين الوجلون والفرس النحيفون أقوياء البنية والهنود الرشيقون والأتراك المتبخترون والأفغانيون الهادئون العميقو النظرة والمغاربة المتجهمو الوجه الصادقون . فجمعت هذه الأسواق كل أزياء آسيا وبعض أقاليم أفريقيا تقريباً من كل قومية وعقيدة وهم يتكلمون لغات متباينة كما يجد كل منهم صعوبة في السيطرة على راحلته الجفلى من الزحام فترى الخيول الاصيلة بسروجها المزركشة والتي يقودها سواسها ، وتشاهد في بعض الأحيان القواصة الذين يسيرون أمام أحد القناصل يرفعون أصواتهم بقولهم (ظهرك افتح درب) وذلك لتنبيه الحشد من الناس لفتح الطريق أمام القناصل[2] .

وكان أبرز شوارع دمشق ضمن أسوارها الشارع الطويل الذي يخترق المدينة من شرقها إلى غربها حيث يصل ما بين باب الجابية إلى باب شرقي ويعود هذا الشارع في أصوله إلى عهد الرومان ، إلا أنه قد طرأ عليه بعض التغيير في هذه الفترة فقد تهدمت أروقته وبقيت أعمدة هذه الأروقة منثورة هنا وهناك على جانبيه ، إلا أن حجارة رصيفيه بقيت على حالها . ويقع في هذا الشارع بيت يهوذا الاسخريوطي الذي غدر بالسيد المسيح . كما لجأ إلى هذا الشارع القديس بولس ويقع فيه طريق حنانيا ويقول توماس رايت : (إن أهل دمشق الذين يجلون هذا المقام لا يستطيعون أن يوضحوا كيف جاء حنانيا إلى دمشق والحقيقة أن ذلك ما هو إلا مقاماً لحنانيا يجله المسلمون والمسيحيون على حد سواء)[3] . ولقد شوهت استقامة هذا الشارع مع الزمن بفعل اندفاع بعض البيوت المستجدة على جانبيه وفي أماكن متعددة منه ، وهناك شارع آخر أقامه الوالي العثماني محمد باشا العظم وهو من الشوارع الرئيسة في ذلك العصر والذي كان يقع بالقرب من داره اتجاه القلعة من الجنوب عند المدرسة

---

(١) انظر : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج ١ . ص ١٥٦ .

2 - Burton.I. the inner life of Syria palestine and the Holyland P.24.

3 - Burton.I. op.cit. P.35.

الأحمدية . وكان الشروع في عمارته في أوائل جمادى الأولى سنة ٩٥ بعد المائة للهجرة وبنى فيه لصيق البوابة الموصلة إلى داره العامرة سبيلاً لطيفاً محكماً وأجرى إليه الماء من نهر القنوات[1] .

ووجد شارع ثالث رئيس يصل بين الباب الصغير والبزورية ثم شارع آخر من باب البريد إلى المناخلية . وهناك شارع آخر يقع خارج أسوار دمشق من الغرب يصل ما بين الدرويشية والسنانية ثم شارع آخر يقع خارج أسوار دمشق من الغرب يصل ما بين الدرويشية والسنانية ثم شارع آخر يساير طريق الحج بدءاً من باب الجابية إلى بوابة الله ، وهو أطول شوارع دمشق ويطلق عليه الشارع السلطاني . ومعظم هذه الشوارع كانت غير مضاءة ليلاً وإنما تضاء فقط في المناسبات الرسمية والدينية وتضاء بالإضافة إليها مآذن الجامع بالقناديل . وكانت تستخدم هذه القناديل زيت الزيتون أو زيت بزر المشمش أما شموع الإضاءة فكانت مصنوعة من شحوم الحيوانات وكان تجول السكان في الشوارع ليلاً يقتصر على القلة القليلة . وإذا ما اضطر أحد للتجول في الشوارع ليلاً كان عليه أن يحمل في إحدى يديه فانوساً لاستجلاء ثنايا الطريق أمامه . أما في ظروف اضطراب الأمن فكان التجول يمنع في المدينة ليلاً بدءاً من صلاة العشاء كما حصل في سنة ١١٦٣ هـ/١٧٣٩ — ١٧٥٠ م حيث نبه أسعد باشا العظم على قواته المكلفة بحراسة الشوارع والأسواق ليلاً لمنع التجول أو الخروج من البيوت (لا بضوء ولا بلا ضوء هذا ما سبق قط)[2] . أما حراسة هذه الشوارع والاسواق فكانت تقع على عاتق حراس ليليين يراقبون المارة ويلقون القبض على أي شخص لا يحمل فانوساً بيده ، أو إذا كان مشبوهاً . وكان الحراس يركّزون اهتمامهم على الحوانيت والخانات والمخازن مخافة اقتحامها من قبل اللصوص وكانوا يرصدون الأزقة التي يمكن أن يتسرب منها اللصوص إلى هذه الشوارع والاسواق وكان هؤلاء الحراس بمثابة موظفين من قبل الحكام لهذه الغاية .

(١) انظر : المرادي ، محمد خليل ، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر . ج ٤ . ص ١٠١ .

(٢) انظر البديري .. حوادث دمشق اليومية . ص ١٤٧ .

ولقد كانت في دمشق معاصر خاصة لكسر وعصر بزر المشمش ، واطلق على زيته المستخرج اسم الزيت المر ، والمثال على ذلك . معصرة السمسم والبزر المر التي كانت موجودة بالقرب من خان المغاربة في محلة السويقة . انظر : السجل رقم ٣٢٥/محاكم دمشق : سنة ١٢٤٧ — ١٢٤٨ هـ/ص١٠٤ وكان هذا الزيت يستخدم في الإنارة ليلاً .

واختلف عدد الحراس تبعاً لكبر السوق وصغره وكان هؤلاء الحراس لا ينامون حتى يأتي النهار ، وكان كل واحد منهم يحمل بالإضافة إلى سلاحه صفارة تسمى (دُدُكْ) .

أسواق دمشق

كان من الطبيعي أن نهتم بدراسة أسواق دمشق على اعتبار أنها مركز هام للنشاط الاقتصادي ومكان للاحتكاك الاجتماعي وعلى الرغم من أن معظم أسواقها كانت موجودة قبل العهد العثماني ، إلا أن بعضها قد أقيم مجدداً لتلبية الحاجات الاقتصادية والاجتماعية للمدينة ، وما أحدث منها كان خارج الاسوار بالقرب من التوضع السكاني أما ما أنشيء داخل الأسوار فكان بمثابة تهديم للقديم منها وإنشاء الجديد على أنقاضه . وأهم هذه الأسواق :

سوق السنانية الذي ينسب إلى الوالي العثماني سنان باشا . ثم سوق الدرويشية نسبة إلى الوالي العثماني درويش باشا ، وهذان السوقان يقعان خارج أسوار المدينة من جهة الغرب . ثم سوق الوزير محمد باشا العظم المسمى (بالسوق الجديد) وقد أقيم هذا السوق على أنقاض أسواق ومبانٍ قديمة إلى الشرق من باب السعادة داخل الأسوار ، وكان الشروع في عمارته في أوائل جمادى الأولى ١١٩٢ هـ/١٧٨١ م[1] . كما تهدم سوق الظنونية الذي كان مبنياً بالخشب في سنة ١١٦٣ هـ/١٧٤٩ ــ ١٧٥٠ م وكان يقع في حي العمارة فقام أسعد باشا العظم باستخدام حجارته في بناء قصره في سوق البزورية[2] .

(١) انظر : المرادي ، محمد خليل ، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر . ج٤ ! ص١٠١ .

(٢) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص ١٣٩ .

هذا بالإضافة للأسواق العديدة الدائمة والمؤقتة التي وجدت خارج أسوار المدينة وسنتعرض لها في حينها .

وكانت كل سوق من الأسواق متخصصة بسلعة أو حرفة أو صنعة معينة ، مما ساعدنا على معرفة أنواع الحرف التي كانت قائمة في دمشق أو الخدمات التي كانت تقدمها للمجتمع والأثاث والأزياء المستخدمة فيه ، وبالتالي توضح لنا طبيعة المرحلة الاقتصادية التي كان يمر بها مجتمع دمشق والتطور الحاصل خلال فترة دراستنا .

وبشكل عام فقد بقيت أسواق دمشق على تخصصها السابق فنسب السوق إلى الحرفة القائمة فيه كما نسب بعضها إلى بانيها أو محتلها ، وبلغ عددها في دمشق أكثر من مائة وخمسين سوقاً كانت معظمها داخل سورها وحول الجامع الأموي [1] ونلاحظ أن الصناعات المتقاربة كانت أسواقها أيضاً متقاربة . فسوق مجلدي الكتب وسوق الوراقين وسوق المكتبيين كلها تقع في منطقة باب البريد [2] لضيق الجامع الأموي من الغرب .

وكانت بعض الأسواق تعقد في الساحات العامة المكشوفة كسوق الجمال في حي الميدان وسوق الغنم وسوق البقر وسوق الجمعة بالقرب من قلعة دمشق حيث كان يؤتى بالبقر من أرزروم،ولقد أورد محمد سعيد القاسمي الذي عاش في النصف الأول من القرن التاسع عشر معظم الأسواق التي ذكرها بن عبد الهادي الذي عاش في القرن التاسع للهجرة (١٥) للميلاد . إلا أن الأخير حدد مكان السوق والحرفة التي تمارس فيه بدقة ، ولا يختلف ذلك كثيراً عما ورد في سجلات محاكم دمشق لتلك الفترة كما سنرى . ولا شك بأن عملية التخصص تلك سهلت على شيخ الحرفة سيطرته على أبناء حرفته من جهة وعلى توصيل أوامر وطلبات السلطة إليهم من جهة أخرى . ونلاحظ أن معظم دكاكين تلك الأسواق والخانات كانت وقفاً لجهات خيرية أو ذرية ، لهذا كانت تحتاج (لكدك) ، ويحصل عليه الحرفي عند اشغاله الدكان وكانت كلمة (كدك) معروفة في هذه الفترة إذا كانت تعني ما يبنيه المستأجر في حانوت الوقف ولا يحتسب على الوقف [3] كما كانت تعني الأغلاق والرفوف وأدوات الحرفة [4]

---

(١) انظر : ابن عبد الهادي ، يوسف . نزهة الرفاق عن شرح حال الأسواق ، نقلاً عن مجلة المشرق ، العدد ٣٧/ص٣٣ ، لسنة ١٩٣٩ م .

(٢) المصدر السابق . ص٢٦ .

(٣) انظر : ابن عابدين ، محمد أمين . رد المحتار على الدر المختار . ج ٥ ، ص٢١ . الطبعة الثالثة بولاق مصر .

(٤) سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/سنة ١٢١٦ ـــ ١٢١٧ هـ . ص١٢٠ .

وكان يضعها صاحب الحرفة من ماله الخاص في ذلك الدكان ، وكان لا بد من استرداد (الكدك) أو ثمنه عند اخلائه الدكان ، وبهذا المعنى يعني (الكدك) الخلو في وقتنا الحاضر . وكان عدد الكدكات مراقباً من قبل طوائف الحرفيين والتجار . كما أن مالكي الكدك ليسوا بالضرورة من أعضاء تلك الحرفة التي تراقبه وكان الكدك يورث للابناء إذا كانوا أعضاء في الطائفة نفسها ، بشرط أن يوافق شيخ الطائفة على الانتقال .

ولم يكن مفهوم الكدك في دمشق في هذه الفترة هو المفهوم نفسه في مصر ، إذ غالباً ما كان هناك انفصال بين مالكي الكدك والمنتفعين الفعليين من العقار . وسندنا في هذه النتيجة ظهور النساء كمشتريات وبائعات ووارثات لكدك ممتلكات تجارية ، كدكاكين اللحامين[1] وغيرها .

أما مراقبة الأسواق وأسعار السلع والأوزان والمقاييس المستعملة وجودة السلعة فكانت من مهام المحتسب ، وأحياناً القاضي أو المتسلم أو أغوات الانكشارية ، وأحياناً الولاة أنفسهم وحتى الصدور العظام الذين يصدف مرورهم في دمشق ، حيث كان (ينزل متخفياً وراكباً يرافقه زلمه ليحدد الأسعار ويعاقب المتلاعبين والمحتكرين[2]) . ولقد أولى الحكم المصري الإشراف على الأسواق أهمية كبيرة بعد أن أصبحت دمشق عاصمة لأقاليم الشام ، فكلف أمين الاحتساب بهذه المهمة يساعده مندوبو التجار ، وكانوا يتجولون في الأسواق بتكليف من المجلس الاستشاري للمدينة . واشترط المصريون في أمين الاحتساب الديانة والدراية بأحوال البلد والرعية[3] لما لذلك من تأثير على مجتمع دمشق . حيث كان العامة من قبل يهاجمون القضاة ويقذفونهم بالحجارة عندما يهملون الاحتساب والتفتيش على الأسواق لتحديد الأسعار[4] . ومكافحة الاحتكار .

---

(١) انظر : السجل رقم ٢١٣/محاكم دمشق/ ص٢٠١ ، ص٢٩٥ . نقلاً عن شيري فاتر : بحثها المقدم في المؤتمر الثاني لتاريخ بلاد الشام . ص١١٢ .

يقول الدكتور أحمد السيد سليمان : أن الجدك (Gedik) كلمة تركية تعني الامتياز يمنح للتاجر أو للصانع ليحتكر تجارة صنف بعينه أو صناعة سلعة بعينها . ومن معانيها الرخصة للدكان أو المبضع . انظر : تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي عن الدخيل ، ص ٦٦ . القاهرة ـــ دار المعارف ، ١٩٧٩ م .

(٢) انظر : العبد . ص٥٧ .

(٣) رستم ، أسد . الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا . المجلد ٣ والمجلد ٤ ، ص١٩٢ وص٢٠١ .

(٤) انظر : البديري ، المصدر السابق ، ـــ ص٤١ ص٥٢ ص٦٣ .

أما هندسة الدكاكين فكانت مبنية على شكل عقد من الحجارة وكانت متطاولة ومواجهة لبعضها بعضاً وكانت ضيقة خاصة في الأسواق القديمة الضيقة بدورها . فكانت هذه الحوانيت من الضيق بحيث لا تترك مجالاً لصاحب الدكان لعرض بضائعه ، وحتى المتسع منها لا يسمح لصاحبه باستقبال أكثر من زبون واحد في داخله ، وتضطر بقية الزبائن للوقوف خارجه . وإذا ما صادف وجود زبائن أمام الدكان المقابل يزدحم حينئذ الطريق لدرجة لا تسمح للمارة بشق طريقهم إلا بصعوبة بالغة .

إلا أن بعض البازارات الحديثة كانت أكثر اتساعاً ومخازنها أكبر مساحة وحجماً ، ولكن السمة العامة لها جميعاً هي الظلمة لأن نور الشمس يصعب دخوله إليها بطبيعة تصميمها الذي ذكرناه آنفاً ولضيق الشقة بين جانبي السوق من جهة ، ولكون الدكاكين متطاولة إلى الداخل من حجارة العقد ، ولا شبابيك فيها ولا إضاءة إلا نادراً . وإذا لم تكن سقوف الأسواق معقودة ، فغالباً ما تكون مقبية بالخشب وفي أحسن الحالات كان ثمة رفوف من الخشب فوق عتباتها لمنع مياه الأمطار عن الزبائن والبضائع إلا أنها تحجب ضوء الشمس عنها [1] .

وتتخلل هذه الأسواق حوانيت للحلاقين (المزينين) ويقوم هؤلاء بدعوة المارة للحلاقة ، وكنت ترى هذه المحلات غاصة بالزبائن بالإضافة إلى بيوت القهوة [2] وبعض المنشآت ذات النفع العام كالحمامات والجوامع والمدارس وغيرها .

وكان رواد هذه الأسواق من جنسيات وقوميات مختلفة وبأزياء متنوعة ، فمنهم الراكب والماشي ، ومنهم من يقبض على رسن راحلته ليسير بها إلى هدفه . وكان الأغوات يرتدون فروات طويلة من الحرير أحمر اللون مبطنة بفراء السمور ويتقلدون سيوفهم وخناجرهم المحلاة بالحجارة الكريمة المعلقة في أحزمتهم ، ويسير خلفهم ، لخدمتهم خمسة إلى ستة من الأتباع أو الخدم أو العبيد ليحملوا لهم غلايينهم أو نارجيلاتهم وعندما يصل هؤلاء إلى تلك المقاهي يجلسون هناك على الأرائك أو فوق المصاطب الخارجية ليستمتعوا بالتدخين أو بالحديث مع أصدقائهم وأصحابهم [3] .

---

1 - RusseLL. op.cit. VOL.1.P.20.

2 - Burton,I. op.cit.P.35.

3 - Lamartine.op.cit.P.10.

وينقل لنا بورتر صورة حية عن النشاط في هذه الأسواق فمثلاً عندما زار سوق الزرابلية يصفه قائلاً : (ترى مئة يد مشغولة في تطريز وتزيين الأحذية الناعمة الملساء الصفراء اللون والشخشور الذي كان يستخدم من قبل الدمشقيين مكان الجوارب (في وقتنا الحاضر) ، كما ترى أيدي عمال آخرين منهمكة في صناعة الأحذية الخارجية (الزرابيل) التي كان شكلها كشكل الجندول ولون جلدها أحمر) .

وعندما انتقل إلى سوق آخر وهو سوق الحدادين يقول : (دخلنا إلى هذا السوق من بوابة صغيرة جداً وبعد عبورنا لهذه البوابة شاهدنا سوقاً مسقوفاً معتماً يكاد لا يرى أحدنا الآخر إلا بصعوبة وزاد في ظلمة هذه السوق سحابات الدخان المتصاعدة من كير الحدادين ولا تسمع هنا وهناك إلا صوت مطارق العمال على السندانات بهدف قولبة المعادن المحماة بالنار ، وبالقرب من هؤلاء العمال ترى أكوام نفايات الفحم المحترق مختلطة مع سقط المعادن) .

ثم ترك بورتر سوق الحدادين ليدخل سوق القباقبية حيث تصنع القباقيب التي كانت تستخدم في دمشق وعلى نطاق واسع فيقول : (كان الصانع يأتي بالقطعة الخشبية المعدة لذلك فيقوم بنجفها وتقويرها حتى تأخذ الشكل النهائي للقبقاب ثم يدفعها لصانع آخر فيقوم الثاني بتشذيبه وصقله مستخدماً المطرقة والإزميل ثم يقوم بعد ذلك بتطعيمه بالفضة والأحجار الكريمة كاللؤلؤ وغيرها ثم يركب عليه الجلد المطلوب فيصبح جاهزاً للاستعمال) .

ثم انتقل إلى شارع السلطاني الذي يقع على بعد أربعين أو خمسين خطوة من سوق القباقبية ومنه دخل إلى سوق البزور أو (البزورية) حيث رأى التوابل والفواكه المجففة ويقول : (ترى الحوانيت من الجانبين بها البضائع موضبة ومنظمة وفي وسط هذا البازار ترى بناءاً ضخماً مبنياً على الطراز البربري المغربي والذي لا مثيل له في العالم وهو خان أسعد باشا العظم) .

عندما ترك هذه السوق وذهب إلى سوق القماش حيث توجد مدرسة نور الدين وضريحه ، ثم سوق الحرير أو البزاز ، وكان خاصاً بالنساء ، يقول : (إنه لم يستطع اختراقه إلا بصعوبة بالغة لشدة الزحام) ثم انتقل منه إلى سوق العبيد فالجامع الأموي[1] .

1 - See: Porter, J. I. Five years in Damascus. VOL 1. P. 58.

تعداد أسواق دمشق وأماكنها

لم يكن بناء أسواق دمشق من نتاج العهد العثماني فحسب بل كانت في معظمها من عهود سابقة لهذا العهد وربما أدخل عليها بعض التعديلات في اختصاصها أو عدلت خططها طبقاً للظروف التي مرت على دمشق عبر تاريخها .

كما أحدثت بعض الأسواق في مناطق السكن الجديدة إلا أنها كانت خارج الأسوار لتقدم نفس الخدمات كالأسواق القديمة ولا نرى فيما يخصنا جديداً في تلك الأسواق مما يدل على بقاء معظم الحرف والصناعات السابقة في مجتمع دمشق . وما يهمنا هنا وضع هذه الاسواق . وأفضل كتاب عالج هذا الموضوع ، كتاب (نزهة الرفاق في شرح حال الأسواق) ليوسف بن عبد الهادي الذي فرغ من تأليفه سنة ٨١٣ هـ/١٤٧٨ م . فقد استطاع أن يحصي في دمشق وأرباضها (١٥٠ سوقاً) بين كبير وصغير . ورغم أن ابن عبد الهادي قد كرر أسماء بعض الأسواق فالثابت منها هي ١٣٩ سوق بحسب رواية ابن المبرد[1] . يضاف إليها بعض الأسواق المحدثة في ظل الدولة العثمانية وسنذكرها في حينها وأسواق دمشق في هذه الفترة هي :

---

(١) الزيات ، حبيب . مقالة له في مجلة المشرقة العدد ٣٧ ، ص٢٨ ، سنة ١٩٣٩ م .

١ـ سوق الذراع ويقع خلف الجامع الأموي من جهة القبلة ويباع فيه البز والحرير والكتان والثياب الرقيقة والنفيسة[١] .

٢ـ سوق الذهبيين شرقي سوق الذراع ويباع فيه الذهب المرقوق وما يتعلق به ، وكان يعمل به العديد من النصارى .

٣ـ سوق الدهينية (أو المدهون أو النسوان)[٢] ويقع شرقي جامع الأموي ويباع فيه حاجات النساء من الثياب النفيسة ونحوها .

٤ـ سوق الحرير عند باب الجامع الأموي القبلي ويباع فيه الحرير الصايات والالاجة والديمة[٣]

٥ـ سوق العنبرانيين عند باب الجامع الأموي القبلي ويعمل فيه العنبر والروائح العطرة .

٦ـ سوق الرسامين ويقع بين سوق العنبرانيين وسوق السراجيين .

٧ـ سوق السراجيين ويقع غرب الجامع الأموي عند البيمارستان العتيق وأطلق عليه سوق القوافين الضيق فيما بعد[٤] .

٨ـ سوق الكوافين ويصنع فيه الكوف وتباع عند باب البريد وتغير مكانها وأصبحت فيما بعد تباع في سوق العبي خلف سوق سنان باشا ، وفي هذا السوق كان هناك من يبيع المزامير والشبابة من القصب للفلاحين[٥] .

---

1 - Porter. Ibid. P.58.

كما ورد في سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦/سنة ١١١٢ هـ . ص٣٢٣ . ثم في السجل رقم ٢٣٥/محاكم دمشق/سنة ١٢١٠ ــ ١٢١١ هـ . ص١٤١ .

(٢) انظر : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص٤٥١ . ثم نزهة الأنام في محاسن الشام . ص٦٣ .

(٣) انظر : القاسمي المصدر السابق ج ١ ، ص١٤٤ . وسجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠/سنة ١٢٠١ ــ ١٢٠٢ هـ . ص٥٣٩ .

(٤) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦/ص٣٣١ . ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٤/سنة ١٢٥٠ هـ ، ص٥٨ ،

وهم الذين يرسمون القماش المنسوج ــ انظر : السباعي ، بدر الدين . أضواء على قاموس الصناعات الشامية ، ص٤٦ . دمشق ١٩٧٧ م .

(٥) القاسمي : المصدر السابق ج ١ ، ص١٦٩ ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ سنة ١٢٠١ ــ ١٢٠٢ هـ . ص٢٧٢ .

وهم صانعو السراميز أو الزراميز (نوع من الأحذية) .

٩ـ سوق الطيبين في باب البريد .

١٠ـ سوق الوراقين في باب البريد .

١١ـ سوق الكتبيين في باب البريد ويسمى أيضاً بسوق المسكية وتباع فيه الكتب[1] .

١٢ـ سوق الزرابليين أو الزرابلية[2] . ولهم سوقان سوق بالرصيف فباب البريد وسوق بالعقيبة[3] .

١٣ـ سوق الاخنائيين في رأس الرصيف .

١٤ـ سوق السلاح قبلي الجامع الأموي تباع فيه ساير السلاح[4] .

١٥ـ سوق السيوريين ويقع تحت العنبرانيين تصنع فيه السيور وتباع .

١٦ـ سوق الصاغة وهما صاغاتان الجوانية ويباع فيها اللؤلؤ[5] والجواهر ونحو ذلك والبرانية ويعمل فيها الخواتم والأساور وغير ذلك .

---

(١) انظر : القاسمي ، محمد سعيد ، قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص٣٨٩ . ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٥/سنة ١٢١٠ ـ ١٢١١ هـ ، ص٣٩٣ . وأيضاً سجلها ذا الرقم ٢٦٠/ ص١٤٤ .

(٢) لم يحدد مكانه صاحب قاموس الصناعات الشامية محمد سعيد القاسمي . انظر : ج ١ ، ص١٦٥ من المصدر المذكور .

(٣) ذكر محمد سعيد القاسمي في كتابه قاموس الصناعات الشامية أنه يوجد سوق لبيع الجزمات من النوع الواطي يطلق عليه سوق الجزماتية ويقع في ميدان الحصى . انظر : ج ١ ، ص٨٢ منه .

(٤) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦ . ص٣٢٣ . ثم : السجل رقم ٢٣٥/محاكم دمشق ص١٤١ .

ويقول الدكتور عبد الكريم رافق : (عرف صانع البنادق والرصاص في دمشق باسم البندقجي وكان يقوم بعمله سراً في منزله خوفاً من السلطة ويباع البارود في دكاكين متفرقة في أنحاء المدينة وليس كما يمكن الظن في سوق السلاح ، ووجود هذا السوق سابقاً على استخدام السلاح الناري في العهد العثماني ، وكان في الأصل يبيع الأسلحة المعدنية البيضاء ، كالسيوف والرماح والخناجر وغيرها . ولم يتمكن من بيع البارود فيه نظراً لامكانية اشتعاله وسرعة انتشار ناره وانفجاره ولهذا توزعت دكاكين بيعه على أنحاء المدينة عند بواباتها ومداخلها الخارجية ، حيث يتلقى أصحاب الدكاكين البارود من القرويين الذين يأتون به إلى المدينة لبيعه . وذكر أن مصنعاً لانتاج البارود قد وجد في دمشق في النصف الثاني من القرن الثامن عشر سد حاجات الانكشارية) انظر : بحثه في مجلة الدراسات التاريخية التي تصدر في دمشق ـ العدد الأول ، ص٨٩ .

(٥) أطلق عليه سوق اللؤلؤ ويقع في درب ابن منجوق انظر : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج٢ ، ص ٣٢٨ .

١٧ــ سوق البزوريين أو (البزورية) ويقع تحت سوق السلاح وتباع فيها النباتات العطرة والأبازير ونحو ذلك[١] .

١٨ــ الدهيناتية بين سوق السلاح والبزوريين ويعمل فيه ساير الادهان من دهن اللوز وغيره . ويباع فيه أيضاً جوز الهند ومربى الكباد والبرتقال والدراقن والتفاح وراحة الحلقوم والقباقيب[٢] .

١٩ــ سوق العبيين أو العبي[٣] وتقع تحت سوق البزوريين ولهم سوقان كل مدة بيطل واحد منهم ينتقلون إلى آخر .

٢٠ــ سوق الخريزاتيين[٤] ولهم سوقان أحدهما في باب البريد والثاني تحت سوق البزوريين .

٢١ــ سوق الحباكين ولهم سوقان أحدهما في باب البريد والثاني عند باب الجامع الأموي .

٢٢ــ سوق الطواقين خلف سوق البزوريين من جهة الغرب . وقد ذكرته سجلات محاكم دمشق لتلك الفترة باسم سوق القلبقجية[٥] .

٢٣ــ السكريين تحت سوق البزوريين يباع فيه السكر ثم سوق المتبن بالقرب من مأذنة الشحم[٦] .

٢٤ــ سوق الاقباعيين تحت سوق الجوخيين يباع فيه الجوخ عند التكية .

٢٥ــ سوق الفرايين عند سوق الجوخيين وفيه الفراء النفيسة .

٢٦ــ سوق الفرايين الفرا الحمر عند سوق القميلة .

---

(١) كانت تباع في هذا السوق المربيات والملبس والفستق والبندق واللوز والصنوبر والسكاكر والمعاقيد والمعاجين كما يوجد سوق الكعيكاتية وهذا نوع من البزوريين انظر : القاسمي . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص٣٨٩ . ثم : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٣٠/سنة ١٢٤٨ ــ ١٢٦٥ هـ ، ص٣٧ .

(٢) انظر : نزهة الأنام في محاسن الشام . ص ٦٣ .

(٣) انظر : قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ص٣٠١ .

(٤) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/سنة ١٢١٦ ــ ١٢١٧ هـ . ص٥ .

(٥) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/سنة ١٢٠١ ــ ١٢٠٢ هـ . ص٢٠١ .

(٦) سماه قاموس الصناعات الشامية سوق السكرية انظر : ج ٢ . ص٣١٢ منه ثم : سجل المحكمة البلدية بدمشق رقم ٣٣٠/سنة ١٢٤٨ ــ ١٢٦٦ هـ . ص٣٧ .

٢٧ـــ سوق الجوار والرقيق[1] . يباعون فيه في يومي الخميس والاثنين عند التكة . ثم

٢٨ـــ سوق الجقمق هو نفسه خان جقمق[2] ويقع غربي التكة تباع فيه الثياب والبز ما دون ما يباع في سوق الذراع ونسبته إلى بانيه ثم

٢٩ـــ سوق القطنيين[3] وورد ذكره باسم سوق القطن في سجلات محاكم دمشق ويقع تحت سوق جقمق يباع فيه القطن ثم

٣٠ـــ سوق النجادية وأطلق عليه في سجلات محاكم دمشق سوق المنجدين وهو لتنجيد الفرش ويقع غربي سوق القطن وسوق جقمق ، ثم

٣١ـــ سوق القضمانيين تعمل فيه القضامة ،

٣٢ـــ سوق الصابون غربي القضمانيين ،

٣٣ـــ سوق الحبالين في باب الجابية ، ثم

٣٤ـــ سوق باب الجابية وهو يحتوي على دكاكين مختلفة للبيع ثم

٣٥ـــ سوق الزهوريين وليس لهم سوق مخصوص فهم عند كل باب من أبواب المدينة إلا أن محمد سعيد القاسمي الذي عاش في أوائل القرن التاسع عشر يقول كان لهم سوق في الصالحية لبيع الورود والنسرين والمضعف والقرنفل والمنتور والسيسبان والصبر والليلك وغيرها[4] .

٣٦ـــ سوق الموبياتية وهم متفرقون في باب الجابية وجسر الزلابية ومسجد القصب وباب الفراديس .

---

(١) يقول بورتر : إنه يقع بالقرب من سوق الحرير البزاز يمين بيت الجمرك أنظر :
«Fivc years in Damascus» VOL.-1. P. 59.

(٢) يقول عبد القادر بن بدران : إن بانيه من أبناء التركمان ، تنقل في الخدمة حتى أصبح دويداراً ثانياً عند الملك المؤيد قبل أن يصبح هذا الأخير سلطانا ، وعندما أصبح سلطانا فرزه على نيابة الشام فقام جقمق ببناء هذا السوق وأوقفه على [illegible] ، التي بناها سنة ٨٢٤ هـ . ثم : انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٠١/٢٢٥ هـ ، ص١٩٣ . انظر : منادمة الأطلال ومسامرة الخيال . ٣٫٢٣ .

(٣) سوق القطن انظر : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص٣٦ ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ . ص٣٣٥ .

(٤) المصدر السابق . ج ١ ، ص١٦٩ ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/سنة ١٢٠١ ـــ ١٢٠٣ هـ ، ص٣٣٥ .

٣٧ـ سوق الجبوبية باب الجابية وفي هذا السوق أيضاً العديد من حوانيت الخشيفاتية الذين يبيعون الخشاف[1] .

٣٨ـ سوق البرادعية[2] وتصنع فيه البرادع ولهم سوقان أولهما بباب الجابية وثانيهما في باب الفرج ثم .

٣٩ـ سوق القمح أو القماحين وهو عرصات بميدان الحصى وما والاه (وبه العديد من البايكات لخزن الحبوب) .

٤٠ـ سوق عند جامع كريم الدين بالقبيبات .

٤١ـ سوق عند باب مصلى شمال شرق باب مصلى .

٤٢ـ سوق باب السريجة .

٤٣ـ سوق خان السلطان خارج باب الجابية .

٤٤ـ سوق المكاكجية شرقي خان السلطان[3] .

٤٥ـ سوق الامشاطية الذين يصنعون الترجيل عند الحزيزاتية ثم .

٤٦ـ سوق الامشاطية الذين يصنعون أمشاط الحياكة شرقي خان السلطان الذي يقال له خان ابن العسال ثم .

٤٧ـ سوق الحدادين ولهم سوقان الأول بباب الجابية والثاني في الشاغور الجواني[4] . ثم

٤٨ـ سوق النجارين وصنايعهم المختلفة (نجارة وآلة حرث) بباب الصغير وبالسبعة ونجارو السكاكر (جمع سكر أو القفل) والمفاتيح فوق سوق البيمارستان .

٤٩ـ سوق باب الصغير .

---

(١) المصدر السابق ج ١ ، ص ١٢٥ . ثم : المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٣٥ ./سنة ١٢١٠ ـ ١٢١١ هـ ، ص١٠ .

(٢) يقول محمد سعيد القاسمي : كان يطلق على من يصنع للدواب ارسان وراسيات وسماطات وعكل وغيرها من أنواع الصوف والقطن التي تصنع باليد يقال له النطفجي ، ولها سوق خاص تابع لسوق السروجية يطلق عليها اسم النطفجية . انظر : قاموس الصناعات الشامية ج ٢ ، ص٤٨٥ .

(٣) ربما أصبح في عهد محمد سعيد القاسمي سوق المردانية ، حيث كان يصنع فيه الأمشاط الحديدية التي تستخدم في غزل الحرير انظر : قاموس الصناعات الشامية ج ٢ ، ص ٤٢٧ .

4- Porter.J.L. five years in Damascus, VOL.1.P.58.

ووجد سوق للحدادين ذكره محمد سعيد القاسمي على أنه بالدرويشية وبه تصنع الأقفال ويطلق عليه اسم القفلاتية . انظر : قاموس الصناعات الشامية ج ١ ، ص١٨٢ .

٥٠ـــ سوق الدقاقين الذين يبيعون الدقيق يقع بباب الجابية ثم .

٥١ـــ سوق الدقاقين الذين يبيعون الثياب ولهم سوقان الأول عند باب الخضرا [١] والثاني عند سوق العبي ثم .

٥٢ـــ سوق الخراطين ولهم سوقان أحدهما قبلي دار السعادة[٢] والثاني عند القشاشين ثم .

٥٣ـــ سوق الاخصاصيين الذين يبيعون الاخصاص والاقفاص ونحو ذلك غربي باب السعادة ثم .

٥٤ـــ سوق الدفوفيين والعنابير عند سوق الاخصاصيين ثم .

٥٥ـــ سوق الهوى عند باب دار السعادة يباع فيه آلة الخيل ثم .

٥٦ـــ سوق السروجيين[٣] غرب القلعة تباع فيه السروج وآلة الخيل أيضاً ثم .

٥٧ـــ سوق الحدرة غرب القلعة يباع فيها الزبيب ونحو ذلك ثم .

٥٨ـــ سوق القربيين بالحدرة ويصنعون به القرب والدلاة ونحو ذلك ثم .

٥٩ـــ سوق الدجاجيين عند باب الجابية وبالحدرة ثم .

٦٠ـــ سوق جسر الزلابية شمال القلعة إلى الغرب ثم .

٦١ـــ سوق اللحامين بباب الجابية ومنهم متفرقون بكل سوق ثم .

٦٢ـــ سوق السكاكيين داخل سوق جسر الزلابية ثم .

٦٣ـــ سوق النحاسين ورد ذكره في سجلات محاكم دمشق بأنه داخل سوق الأروام[٤] . لهم سوقان أحدهما يباع فيه النحاس تحت القلعة والثاني يصنع فيه بباب الفراديس .

---

(١) سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٢٢/٢٦٠ ـــ ١٢٢٣ هـ . ص٧ .

(٢) يقول صاحب قاموس الصناعات الشامية محمد سعيد القاسمي : (كانوا يخرطون الخشب بأشكال مختلفة منها الكراسي وآلات الشطرنج والبرجيس وبرابق الدرابزين وقلوب الأراكيل وأجران التوم) انظر : ج ١ ، ص١٢٢ . ثم : نزهة الأنام في محاسن الشام . ص٦٢ .

(٣) أصبح اسمه سوق السروجية يقع شمال قلعة دمشق من جهة بابها الشمالي ويؤدي إلى سوق القميلة . انظر : المصدر السابق ج ٢ . ص١٨١ . ويقول صاحب نزهة الأنام في محاسن الشام ، ص٦٣ . كان يصنع فيه كل ما يلزم الدابة من أدوات وجلد ولجام وأرسان وبيوت طبنجة وبيوت للبنادق الصغيرة وبيوت للكتب وبيوت التمائم .

(٤) يقول أنه يعمل بهذه الحرفة اناس كثيرون . انظر : قاموس الصناعات الشامية ج ٢ ، ص٤٨٠ ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٤٧/٣٢٤ هـ . ص١٢٥ .

٦٤ــ سوق السقطية لهم سوقان أحدهما في النحاسين تحت القلعة والثاني بالقرب من القلعة ثم .

٦٥ــ سوق تحت القلعة والثاني في العلبية ثم .

٦٦ــ سوق تحت القلعة .

٦٧ــ سوق الخيل ويباع فيه الخيل[1] والبغال ويقام تحت القلعة في بكرة كل يوم .

٦٨ــ سوق الحمير تحت القلعة في بكرة كل يوم .

٦٥ــ سوق الجمال تحت القلعة كما وجد سوق لبيع الجمال في المنطقة الواقعة ما بين الميدان التحتاني والفوقاني[2] ثم .

٧٠ــ سوق البقر[3] يوم الجمعة تحت القلعة ثم .

٧١ــ سوق الفاكهة في رأس تحت القلعة وبدار البطيخ كل يوم ثم .

٧٢ــ سوق الحطب تحت القلعة ثم .

٧٣ــ سوق البيمارستان ثم .

٧٤ــ سوق برا . ثم سوق قميلة[4] : والأسماء الثلاثة لسوق واحد تحت القلعة يباع فيه الخلقان ثم .

٧٥ــ سوق ساروجة[5] فوق وتحت القلعة ثم .

٧٦ــ سوق العدول تحت القلعة ثم .

---

(١) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٣٠/سنة ١٢٤٨ ــ ١٢٦٥ هـ . ص١٥ .

(٢) انظر : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية ج ١ . ص٨٣ . ثم انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ملحق رقم ٢ .

(٣) وجاء في قاموس الصناعات الشامية ج ١ . ص١٤٩ أن «البقر كان يؤتى به من آرزوم فيأتي الفلاحون إليه زمراً زمراً ومعهم أبقارهم وأثوارهم من أجل بيعها ، كما يحصل في سوق الخيل والجمال» ثم انظر أيضاً سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٠١/٢٢١ ــ ١٢٠٢ هـ . ص٢٣١ .

(٤) قاموس الصناعات الشامية ج ٢ . ص٤٥١ أنه كانت تباع فيه السلع العتيقة البالية .

(٥) يقع من الشمال من قلعة دمشق وينسب هذا السوق إلى الأمير صارم الدين ساروجة بن عبد الله المظفري كان أميراً في دولة الملك الناصر بن قلاوون بالديار المصرية . ولما أعطى الملك الناصر تنكز أمرة غزة جعل تنكز ساروجة آغا له وضمه إليه . وفي سنة ٧٤٠ هـ حضر مرسوم من مصر بتكحيله فعمي ، ثم ورد مرسوم آخر بالعفو عنه ولكن سبق السيف العزل ، وأقام أعمى في بيت المقدس إلى أن مات فيه في أواخر سنة ٧٤٣ هـ . انظر : ابن بدران . منادمة الأطلال : ص٣٢٣ .

٧٧ـ سوق الذراع تحت القلعة يباع فيه القماش الذي هو دون ويباع في سوق جقمق ثم .

٧٨ـ سوق الفضلات في رأس سوق برا تحت القلعة ثم .

٧٩ـ سوق السلبية[1] في راس سوق الرجال ثم .

٨٠ـ سوق القشاشية[2] ويقع عند القلعة ثم .

٨١ـ سوق المدهون[3] تحت القلعة ثم .

٨٢ـ سوق الحصر في رأس سوق المدهون ثم .

٨٣ـ سوق النشارين في راس سوق الحصر ثم .

٨٤ـ سوق الفاخورية في راس تحت القلعة[4] ثم .

٨٥ـ سوق النقلية في راس تحت القلعة ثم .

٨٦ـ سوق الشيخي وربما سمي سوق الاروام الذي ورد ذكره في سجلات محاكم دمشق وتباع فيه الخلقان الحسنة التي هي أعلى مما يباع بسوق برا وسوق الذراع بالنقلية ثم .

٨٧ـ سوق الخضرية وتباع فيه البقول بباب الفرج ثم .

٨٨ـ سوق الشماعين بباب الفرج ثم .

٨٩ـ سوق الغرابلية المناخلية[5] بباب الفرج ثم .

٩٠ـ سوق الحلاوة الصابونية بباب الفرج ثم .

---

(١) ربما سوق الأروام حيث لم يحدد مكانه يوسف بن عبد الهادي ، على حين ذكر محمد سعيد القاسمي سوق الأروام وقال بأنه سوق لبيع السلع المتنوعة الجديدة والمستعملة انظر : ج ٢ . ص٤٥٠ ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٩/سنة ١٢١٠ ـ ١٢١١ هـ ، ص٢٦١ ، ص٣٥٧ ، ص٤٩١ .

(٢) ورد لي نزهة الأنام في محاسن الشام . ص٦٣ على أنه سوق القشاشين .

(٣) ورد سابقاً لدى يوسف بن عبد الهادي في نزهة الرفاق في شرح حال الأسواق اسمان لسوقين هما : سوق المدهنية والدهناتيين .

(٤) ربما سوق القساطلية حيث تباع فيه القساطل . انظر : القاسمي . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص٣٥١ بالاضافة إلى أدوات الفخار المنزلية الأخرى . ثم انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٠١/٢٢٠ ـ ١٢٠٣ هـ ، ص١٨٥ .

(٥) ورد ذكره في نزهة الأنام في محاسن الشام ص٦٣ ، ثم انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٠١/٢٢٠ ـ ١٢٠٢ هـ . ص١٩١ .

٩١ــ سوق القزازين[1] بباب الفرج ثم .

٩٢ــ سوق القواسين بباب الفرج ثم .

٩٣ــ سوق سراميج الرجال داخل باب الفرج ثم .

٩٤ــ سوق البقسماطية تحت القلعة ثم .

٩٥ــ سوق المجلد للكتب عند باب البريد ثم .

٩٦ــ سوق الازرار بباب البريد .

٩٧ــ سوق الكتب بباب البريد .

٩٨ــ سوق الأبارين[2] بباب الفرج ولهم سوق آخر يقع غربي البزوريين ثم .

٩٩ــ سوق الحلوائيين عند جامع السلطان ثم .

١٠٠ــ سوق العمارة ثم .

١٠١ــ سوق العلبية[3] بمحلة مأذنة الشحم بباب الفراديس ثم .

١٠٢ــ سوق الادمية[4] ثم .

١٠٣ــ سوق الهواونية[5] بباب الفراديس ثم .

١٠٤ــ سوق داخل باب الفراديس ثم .

---

(١) ورد في المصدر السابق ص٦٣ على أنه سوق الزجاجين .

(٢) انظر : القاسمي ، محمد سعيد قاموس الصناعات الشامية ج ٢ ، ص ٢١٥ . حيث يقول : (هذا السوق تصنع فيه المسلات والإبر والسنارات وغيرها وهو خارج باب الفرج وقد زاحمته منتجات الصناعة الأوربية الواردة إلينا .

(٣) تصنع فيه علب لوضع الحلويات للسفر ومجامع ومخامر وكيلات علب العطارين لوضع أصناف العطارة وأصناف السكاكر للهدايا والأعراس والأولاد المختونين ولوضع اللبن وللمكاييل ثم المدّ ونصفه والثمنية ولوضع غذاء الجمال والبقر ومصاول لتصويل العنب وأمثالها . انظر : القاسمي محمد سعيد «قاموس الصناعات الشامية» ج ٢ ، ص٣١٨ . ثم انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٠١/٢٢١ ــ ١٢٠٢ هـ ص٣٧٦ .

(٤) الادمية وهم باعة الاديم أي الجلد المدبوغ ويجمع على أدم والحور جلد أحمر من الضأن وأصله حور والواحدة حور والعامة تسكن الواو وتطلقه على كل الجلود الرقيقة . انظر حول ذلك : مجلة المشرق ، العدد ٣٧ ، ص٢٦ ، سنة ١٩٣٩ م .

(٥) يقول محمد سعيد القاسمي (اطلق عليه سوق العصرونية كما يختص بالخرداوات ويسمى صاحب المهنة بالخرنجي وهو أجمل أسواق دمشق على الإطلاق وأروجها . انظر : قاموس الصناعات الشامية ج ١ ، ص١٢٣ .

١٠٥ـ سوق مزيلي الآثار داخل باب الفراديس .

١٠٦ـ سوق القباقبية[1] شمالي الجامع داخل باب الفراديس ثم .

١٠٧ـ سوق قناة العوني ثم .

١٠٨ـ سوق مسجد الاقصاب ثم .

١٠٩ـ سوق السبعة .

١١٠ـ سوق العنابية .

١١١ـ سوق باب شرقي ثم .

١١٢ـ سوق القيشاني بباب شرقي ثم .

١١٣ـ سوق باب توما ثم .

١١٤ـ سوق الشقاعية وليس لهم مكان بل هم متفرقون فيساير البلد ثم .

١١٥ـ سوق الطباخين وهم متفرقون .

١١٦ـ سوق السرايجية وهم متفرقون وجلهم قرب القلعة ثم .

١١٧ـ سوق الفقاعية[2] وهم متفرقون وجلهم في باب الجابية ثم .

١١٨ـ سوق الاقسماوية[3] . ثم سوق الصويجاتية أو الصاجاتية وهم متفرقون وجلهم تحت القلعة ثم .

١١٩ـ سوق التنورية وهم متفرقون وجلهم بجسر الزلابية إلى باب الجابية ثم .

١٢٠ـ سوق دكان الطيور بباب الصغير . يباع فيه الصيد من الطيور[4] ثم .

١٢١ـ سوق حكر السماق ثم .

١٢٢ـ سوق الربوة ثم .

١٢٣ـ سوق الجسر بالصالحية ثم .

١٢٤ـ سوق شعيب بالصالحية ثم .

١٢٥ـ سوق الشركسية ثم .

---

(١) وجاء في المصدر السابق ج ١ ، ص ١٨٢ . أن للقباقيب تجاراً مخصوصين يتجرون مع البلاد التي لا تتقن صنعة القبقاب وهؤلاء في جميع شوارع دمشق .

(٢) الفقاع شراب يتخذ من الحبوب والثمار .

(٣) الاقسما وهو نقيع الزبيب .

(٤) سماه صاحب كتاب الدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ، ص٣٢٧ ، وسوق الطير ويقع مسجد شامي فيه .

١٢٦ــ سوق القطانين بالصالحية ثم .

١٢٧ــ سوق الفاكهية بالصالحية ثم .

١٢٨ــ السوق التحتاني بالصالحية ثم .

١٢٩ــ سويقة القاضي بالمدينة شرق حارة اليهود[١] ثم .

١٣٠ــ سوق البنادقية يوم الجمعة في رأس سوق السلاح ثم .

١٣١ــ سوق المحايرية ويباع فيه المحاير والشباري ولهم سوقان أحدهما عند الاخصاصيين ثم بطل والثاني في القشاشين وهو إلى الآن[٢] .

ثم سوق ترزي باشا بالقرب من سوق الأروام[٣] ثم سوق الحبالين ، ثم سوق الخواصة بمحلة الميدان تابع سوق القصر ، ثم سوق المناخلية وفيه باب المناخلية ، وسوق السقالين البوابجية . وقد وجدت أسواق فيما بعد أشار إليها بعض المؤرخين الذين جاؤوا بعده كسوق الالاجة الموجود به جامع العباسي[٤] ثم سوق باب توما وسوق القيمرية وسوق السباهية وسوق النصارى في داخله وسوق الجزماتية . ثم سوق القلائين وسوق حكم أو سوق عليس[٥] .

ثم سوق الكبير بالقرب من درب تليد[٦] ثم سوق النحاتين الذي ينحت فيه أصناف الاحجار ويهيئونها على أشكال معينة ويبيعونها لمن يرغب بشرائها جاهزة مثل التماثيل لبحرات الماء وشواهد القبور وأجران الماء وغير ذلك[٧] .

---

(١) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠ / ص٢٦٥ . ثم : سجلها رقم ١٢٠١/٢٢١ ــ ١٢٠٢ هـ . ص١٤٦ ، وص١٨٥ .

(٢) نقلاً عن مجلة المشرق العدد ٣٧ بدءاً من صفحة ٢٢ إلى ص٢٦/سنة ١٩٣٩ م .

(٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٠١/٢٢١ ــ ١٢٠٢ هـ . ص٤٢٢ .

(٤) انظر : النعيمي ، عبد القادر الدارس في تاريخ المدارس . ج ٢ ص٣٢٨ . ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٠١/٢٢١ ــ ١٢٠٢ هـ ص٤٧ . ثم سجلها رقم ١٢٥٠/٣٣٤ ص٢٩٥ . ثم سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٣٦ /سنة ١٢٥٠ ــ ١٢٥١ هـ ص١٩١ . ثم سجل المحكمة الكبرى رقم ١٢٠١/٢٢٠ ــ ١٢٠٢ هـ ص٥٣٩ .

(٥) النعيمي الدارس . ج ٢ ص٣٢٨ . ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠/سنة ١٢١١ ــ ١٢١٦ هـ ص٤١٢ . ثم سجل المحكمة الكبرى رقم ٢٢١/سنة ١٢٠١ ــ ١٢٠٣ هـ ص٢٤٧ وص٢٧٠ ص١٤٦ . ثم سجل المحكمة الكبرى رقم ٢٢٠/سنة ١٢٠١ ــ ١٢٠٢ هـ ص١٩ .

(٦) النعيمي ، الدارس . ج ٢ . ص٣٣٢ .

(٧) انظر : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص٤٧٩ .

وهذا السوق ورد ذكره لدى القاسمي إلا أنه لم يحدد مكانه وربما كان المقصود به ما هو الآن ملاصق لمقبرة الباب الصغير من ناحية الشمال الغربي والذي ما زال قائماً حتى وقتنا الحاضر . وبقيت هذه الأسواق جميعها (خططاً ومهمة) قائمة خلال العهد العثماني وحتى وقتنا الحاضر إلا القليل منها الذي عدلت خطتها وأضيف إليها بعض البناء المجاور أو انهارت مع الزمن فاستخدمت حجارتها في بناء منشآت أخرى كما حصل لسوق الزنوطية القديم الذي يقع بالقرب من الجامع الأموي وكان من حجارة العقد واستخدمت حجارته في بناء قصر أسعد باشا العظم الوالي العثماني . ومن الأسواق الشهيرة التي ظهرت في العهد العثماني سوق السنانية ، الذي يقع فيه جامع سنان باشا وينسب إلى الوالي العثماني معمار سنان باشا وكان هذا السوق يوفر حاجات سفر الحجاج المسلمين ، ثم سوق الدرويشية وفيه جامع الوالي العثماني درويش باشا وتربته ، ثم سوق محمد باشا العظم الذي أقامه في أواخر القرن الثامن عشر ، ثم سوق علي باشا بالقرب من السنجقدار ثم سوق مدحت باشا والي دمشق في أواخر القرن التاسع عشر .

ولقد احتفظت الأسواق المحدثة في العهد العثماني بمهامها السابقة مما يدل على أن علاقات الانتاج وطبيعته لم يتغيرا في هذه المرحلة ، ومن جهة أخرى فإن تزايدها يدل على تزايد عدد السكان ، الذين عجزت الأسواق القديمة عن سد حاجاتهم فأقيمت لذلك أسواق جديدة . هذا بالاضافة إلى الأسواق المؤقتة التي كانت تعقد في أيام محددة من الأسبوع على الطرقات العامة خارج الخانات صيفاً أو داخلها في الشتاء اتقاء لبرد الشتاء وأمطاره . فكان الفلاحون يأتون بسلعهم لبيعها . ونورد مثالاً على ذلك سوق خان حاصبيا في سفح جبل الحرمون بالقرب من قرية قانقاب حيث كان الفلاحون يتجمعون هناك يوم الثلاثاء من كل اسبوع[1] للتجارة بما ينتجون .

---

1 - Burckhardt.J. «Travels in Syria and the Holyland». P.34.

متنزهات دمشق

تقع دمشق في خط الاعتدال حيث أن الفصول الأربعة من الربيع والصيف والخريف والشتاء تجري أحكامها بها ، ولذلك نجد في بقعها الأشجار التي لا تعيش إلا بالأقطار الحارة والصحراوية كالتمر والبلح وخلافه ، والأشجار التي لا تعيش إلا في الأقطار الباردة مثل الجوز وخلافه ، والأشجار التي لا تعيش إلا بالقطر المتوسط مثل المشمش واللوز والزيتون وخلافه ، فجميعها موجودة على غاية من النمو والحسن والأثمار . وغرست هذه الأصناف جميعها ضمن حدائق أكثر البيوت الدمشقية[1] .

ولم يلعب مناخ دمشق دوره في الإنبات فحسب بل لعبت دوراً في ذلك وفرة مياهها ، بالإضافة إلى يد الانسان الخبيرة في الزراعة ومنذ القدم ، وقد لعب الآراميون دوراً كبيراً في خططها وتوزيع مياهها وتجفيف مستنقعاتها ، وكذلك الشعوب التي جاءت بعدهم كالرومان وغيرهم ، وحولوا هذه البقعة الصغيرة التي تتكىء على سفوح الجبال وتترامى باتجاه باديتها إلى جنة خضراء حقيقية معطاء مونقة للبصر فسحر الغرباء باطلالتها ومحاسنها كما طبعت سكانها بطابع خاص سنراه في عاداتهم .

ولقد اعتقد العديد أن لهوائها ومائها أو لكليهما معاً قوة عجيبة في منع انتشار

---

(١) انظر : الصيادي ، محمد عز الدين . الروضة البهية في دمشق المحمية . ص٢٧ .

الأمراض الكريهة التي تعافها النفس وخاصة الجزام . ويقول براون من (الحقائق التي توصلت إليها ، أن الأمراض إن لم تكن قد وصلت في جسم الانسان إلى مراحلها النهائية فإن الاقامة فيها قد توقف استفحالها في الجسم)[1] .

ورغم تضارب الآراء في ذلك ، فالمؤكد أن موقعها بالقرب من سفوح الجبال ، وتراميها في اتجاه البادية ، وفر لها الهواء العليل ، بالاضافة لإشراق الشمس معظم أيام السنة .

أما جمال دمشق فيأتي من المتناقضات بين ما يحيط بها من البوادي وما بين غوطتها وافرة الخضرة والمياه . فلا عجب إذ ما سحرت دمشق الأجانب والعرب الذين زاروها في فترات تاريخية مختلفة وحسبنا هنا أن نورد أقوال بعضهم مثل « موريس باريس » الذي قال عنها : (هي جزء من الخيال وموطن الشعر) ثم قول : « رولان دور فيليبيس » عندما زارها : (كنت أبحث منذ أسابيع عن الشرق الأسطوري وها أنا قد وصلت إليه) ثم « الفونس دو لا مارتين » : يصف المدينة فيقول : (كانت قباب مساجدها وقصورها الكثيرة تعكس أشعة الشمس الغاربة وكانت كما ينشق المرء أريج الورود) . ثم يقول « بيريو أدفر » : (واحة دمشق قطعة من السماء في صميم الصحراء) : ثم يقول « برير هايم » (تبدو دمشق في أعالي الجبل وقد أحاطت بها الغوطة كأنها لؤلؤة ما زالت في صدفتها)[2] . وقال « رينان » : (هي جنة الله) كما قال « سوفاجة » عنها : (بلد غني بالأسرار والحقائق لا يقدم للزائر ما عنده دفعة واحدة)[3] .

ولم تسحر دمشق برياضها ومفاتنها الأوربيين فحسب بل فتنت العرب ومنذ أقدم العصور . ولكننا لا نستطيع أن نعرض هنا أقوال من تغنى بجمالها من العرب والمسلمين ، إذ لو فعلنا ذلك لاحتاج الأمر هنا لكتابة الصفحات العديدة ولقادنا الشطط بعيداً عن الغنية . وحسبنا هنا أن نورد قول أحدهم عندما زارها وهو ابراهيم عبد الرحمن الخياري المتوفي سنة ١٠٨٣ هـ/١٦٧٣ م حيث يقول : (وجدتها نزهة للناظر وسلوة لمحزون الخاطر وتحفة للقاطن والمسافر)[4] .

ولا غرابة في ذلك فالقادم إليها سواء من شرقها أو جنوبها أو شمالها يترك أرضاً شبه قفر

1 - Browne .W.G. op.cit. P.403.

(٢) انظر : سمارة ، يوسف ، سورية ملتقى الحضارات ، ص٢٨ .
(٣) المرجع السابق . ص٢٩ .
(٤) تحفة الأدباء وسلوة الغرباء . ج ١ ، ص١٤٩ .

قل ماؤها وندر نبتها لتطل عليه دمشق بغوطتها خضراء غناء وافرة الظلال وافرة المياه . والتناقض بين الصورتين يلعب دوره في إظهار مفاتنها ورونقها .

وكان بها متنزهات عديدة ، قريبة منها أو بعيدة عنها . أما القريبة فهي التي تطل على فروع بردى ، القريبة من أسوارها ، والتي يسار إليها على الأقدام مثل الشرفين الشمالي والجنوبي اللذين كانا يطلان على المرج الأخضر ونهر بردى ثم متنزه ساحة البوابة خارج باب مصر ثم متنزه ساحة السخانة ويقع بالقرب منهما سوق الجمال ، ثم متنزه الصوفانية ويقع قرب قبر الشيخ رسلان شرقي المدينة ثم متنزه باب شرقي وهو متنزه النصارى من أبناء دمشق ثم متنزه الزينبية وبرج الروس ويقع شرقي محلة العمارة البرانية على طريق دمشق حمص ثم متنزه مرج الدحداح وما بجانبه من الجنائن ، المعدة كمتنزه للأشراف وذوات دمشق ليلاً ونهاراً أو في كل الأوقات نظراً لقربه وانتظامه البديع .

ثم متنزه باب السلام به جنائن على جانبي نهر بردى وتوفر في هذه الجنائن المذكورة الانتظام وحسن الترتيب والمقاصف البديعة . وجميع أصحاب ومستأجري هذه الجنائن من صناع ومتعيشين ديدنهم استقبال من يقصدهم من الأهالي في جنائنهم على حسب درجاتهم وهذه الجنائن كانت تؤم صيفاً وشتاءً ولا تخلو من الجمعات اللطيفة على الدوام .

ثم هناك متنزه عين الكرش الواقع شمالي سوق ساروجة ، وبه جنائن وبساتين لا تخلو من الناس ثم متنزه الآس والجلاس غربي قاسيون[1] .

ثم متنزه ما بين النهرين وهو مبدأ الوادي وبه دور وقصور وسويقة وبها حانوت طباخ وصاجاتي وقطفاني وفقاعي وحواضري وفاكهاني وشوّا وقلائين وسكراني ونقلي وقاعة لبن وعدة للجلبة وحمام يشرح الصدر . ثم متنزه الجبة وهي أرض مربعة قدر فدانين عليها سقائف تظللها من طين بين شجر الصفصاف والجوز والحور . وكل مفرش حصير تحيط به جداول الماء من أربع جهاته من البرك والبحيرات بالنوافير وهي على حد نهر بردى وبه نواعير . ثم متنزه القطبية وهي مقصف على نهر بردى وعليه نواعير لسقاية أراضيه بجداول الماء والبرك والبحيرات وبه قصبة ذات جوانب يعلوها أربعة أطباق ومربط دواب وعند المقاصف العبي واللحف والانطاع وحتى الاطباق والملاعق لمن يأكل وهذا لا يوجد في بلد من البلدان .

ثم متنزه البهنسية وهو روض يجمع بين الأشجار والفواكه والأزهار مع عيون ماء ويعلوه

(١) انظر : الصيادي ، محمد عز الدين المصدر السابق . ص٤٤ وص٤٧ .

محلة النيربين وهو أعظم المحلات وأخضرها وأنضرها ثم متنزه الربوة فيها عين ماء يقال لها « الملتم » ومرابط الدواب وبها سويقتان قاطع لهما نهر بردى وفيها صيادو السمك يصطادونه ويقلونه ويبيعونه للزائر[1] .

وبها دكاكين لسمانين وبواردية واقسماوية وفرن تنور وأربعة شرائحية وطباخ[2] . ويقول الخياري :

من متنزهات دمشق التي سارت بها الركبان وحدا بها الحادي مابين قاص ودان وأولع بها الشعراء مدحاً ووصفاً « ذات القرار والمعين المشار إلى ذكرها في الكتاب المبين فلقد وافيتها متنزهاً في رياضها وارداً سلسبيل أنهرها السبعة ولا أقول حياضها فوجدتها نزهة للناظر وسلوة لمحزون الخاطر وتحفة للقاطن والمسافر ذهبت إليها مع بعض الأحباب الظرفاء والأصحاب ومررنا فيها بالنيربين والجنك والكف والميطور وهي أسماء لأماكن معينات يعرفها ويتعهدها من أهل الظرافة واللطافة جماعات » .

ثم يذكر محل كيوان بالقرب من الربوة فيقول : « زادت خضرته وراقت نضرته أما الربوة ذات البهجة والحظوة فإذا أنهارها تنساب في رياضها وتسقي أغصاناً أخجلتها الورود مع كونها في غيوضها إذ شتان بين أغصان تثمر أقماراً وأغصان تحمل أثماراً فحللنا بستاناً من بساتينها والأنهار تتلاطم بمعينها والمحل المشار إليه مشهور اللطافة والمحاسن به أنبوب ماء يتصاعد كالفضة والبللور فلا بدع أن كان غير آسن يسمونه بالنوفرة وباللغة العامية بالفوار وفي مقابل هذا مجلس لطيف الشكل حسن الوضع مستعذب الوصل ويصعد ماء فواره نحو القامتين إذا حبس فمه لحظة أو لحظتين ومقيلنا به فإذا به أنزه محل ترتفع فيه الأبصار وأوجه منزل تقابله أعين النظار ايوان لطيف يقابله مجلس حسن شريف مركب على أعواد خشب يمر تحته نهر بردى وهو أعظم الأنهار السبعة التي تجوس خلال الربوة كان غالب يومنا فيه تظللنا الأشجار وتجري من تحتنا الأنهار ، ويتحفنا تغريد الأطيار وتنشد الحداة الدواخل رقيق الأشعار فهو يوم غفل عن تكدير صفوه الدهر »[3] .

---

(١) انظر : البدري ، أبو البقاء ، المصدر السابق ، ص٦٥ وص٧٠ .

(٢) انظر : تيمور ، أحمد ، مقالة له في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق . المجلد ٢ . ج ١ . ص١٤٧ . جمادى الأولى سنة ١٣٤٠ هـ كانون ثاني ١٩٢٢ م .

(٣) انظر : الخياري ، ابراهيم ، المصدر السابق . ج ١ ، ص١٤٩ ، ص١٥٠ ، ص١٥١ ، ص١٥٣ ، ص١٥٤ ، ص١٥٥ .

ثم متنزه الحواكير في سفح جبل قاسيون يفصل بينه وبين الربوة عقبة دمر تروى بدولاب تجره الحيوانات لارتفاعها عن مستوى نهر يزيد[1] . وبالإضافة إلى المتنزهات العامة تلك كانت هناك متنزهات خاصة لاعيان دمشق وأغنيائها أنشأوا فيها قصورهم ومنازلهم في مناطق عدة من الربوة والصالحية والمرج الأخضر[2] .

ويقول الصيادي «إن المتنزهات الخصوصية لا تحصى ويضيق المجال عن ذكرها»[3] . يقيمون فيها في فصل الربيع والصيف ومتى أرادوا الاستجمام والراحة والتمتع بمفاتن الطبيعة الجميلة . وكانوا يولمون الولائم فيها لاصدقائهم من حكام دمشق وأعيانها فمثلاً : سنة ١١٦٢ هـ/١٧٤٩ م أقام أسعد باشا العظم سيراناً[4] مع أكابر الشام في جنينة أبيه الكائنة بالقرب من مسجد الأقصاب كما أقام علي أفندي المرادي ضيافة لأسعد باشا في قرية ببيلا في طريق الست على الغذاء والعشاء وفي يوم الاثنين ثالث جمادى الأولى خرج الحاج أسعد باشا وعمل سيراناً في أرض الغوطة ومعه أكابر دمشق وأعيانها وكان يتخلل هذا السيران تناول الطعام وشرب القهوة[5] وتدخين الجوبوق أو النرجيلات وكان القوم يخرجون للتنزه جماعات والاصدقاء مع بعضهم وكذلك الأسرة بكاملها رجالاً ونساءً وأطفالاً ، يجلسون على ضفاف النهر والجداول المتفرعة منه تحت ظلال الأشجار يتناولون الطعام الذي أحضروه معهم من بيوتهم أو يشترونه من الحوانيت الموجودة في تلك المتنزهات وينتقلون من بيوتهم إلى تلك المتنزهات سيراً على الأقدام أو يستخدمون رواحلهم الخاصة أو يستأجرون تلك الرواحل وخاصة الحمير من الخانات المخصصة لذلك . فكان لكل خانجي العديد من الحمير لتأجيرها . وله أتباع يقومون بإيصال الزبائن إلى الأماكن التي يريدونها من متنزهات دمشق وكانت تصبغ ذيول الحمير بلون خاص للدلالة على أنها للإيجار . وبقي ذلك قائماً حتى استخدام العربات وانشاء الطرقات لها في دمشق في أوائل القرن العشرين . وكان الخانجي يرسل حميره مع مستأجريها وبصحبة أتباعه إذا كان المستأجر غير معروف من قبله[6] وكان

(١) انظر : البدري ، أبو البقاء المصدر السابق ، ص١٠٢ .
(٢) انظر : الخياري ، ابراهيم . المصدر السابق ، ص١٥٠ .
(٣) انظر : الصيادي ، محمد عز الدين المصدر السابق ، ص٥٠ .
(٤) السيران تعبير دمشقي يقصد به التنزه في الطبيعة أنظر : حوادث دمشق ا ليومية . ص١٢٩ . الحاشية .
(٥) انظر : البديري ، المصدر السابق ص١٤٥ .
(٦) انظر : العلاف ، أحمد المصدر السابق ص٢٥ ص٢٦ .

لحركة الحمير جلبة وضجة فمنذ الصباح الباكر يسمع سعال أصحابها وهم غادون رائحون ، يحثون الخطى وراءها جذلين ، غير باد عليهم التعب إلا في نهاية النهار ، ويحثون حميرهم على الجد في السير بوخزها بمسمار مدبب مثبت في نهاية عصا أو بضربها بالعصى نفسها [1] .

وفي الفترة المتأخرة استخدم أغنياء دمشق العربات التي تجرها الخيول في تنقلهم وقضاء حاجاتهم ونزهاتهم .

1 - See: Burton. I.op. cit. PP.44.45.

* حمامات دمشق

كانت حمامات دمشق من المنشآت ذات النفع العام يرتادها أبناء دمشق والغرباء عنها على حد سواء ، ومن المعتقد أنها مأخوذة عن اليونان والرومان[1] .

وكان بعضها آنئذٍ محبوساً لجهة وقف (ذُري أو خيري) . وحسبنا هنا أن نستعرض مثالاً على ذلك حمام فتحي أفندي القلانسي في محلة الميدان بالشارع السلطاني الذي كان يستحم المرء فيه دون مقابل ويأكل قرصين من الصفيحة[2] ثم حمام ساقة الذي كان متولياً عليه سنة ١٢١٠ هـ/١٧٩٥ م الشيخ عبد الرحمن المرادي . وكانت دخولها تصرف في وجوه مختلفة بحسب حجة واقفها ، فبعضها كان يذهب للصرف على المدارس أو المنشآت الدينية والبعض الآخر لمتولي أوقافها أو للقيمين على إدارتها وتشغيلها ، وكذلك لترميمها بين الحين والآخر . ولم تكن على درجة واحدة من حيث فخامتها ورقيها وتجهيزها ، لهذا كانت ترتاد من فئات الشعب المختلفة . كما أنشىء العديد منها في قصور أغنياء دمشق وأفراد الهيئة الحاكمة ،

---

(١) انظر : كيّال ، منير . الحمامات الدمشقية وتقاليدها : ص١٤٧ ، ص١٤٨ .

(٢) الصفيحة هي أكلة دمشقية مكونة من رقيق العجين فوقه اللحم المفروم وقليل من اللبن ودبس الرمان والبصل المفروم والصنوبر والكزبرة الناعمة والعصفر والملح والفلفل يخبز ويؤكل .
ثم انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/ص٣٢ .

ولم تكن حمامات دمشق داخل سورها فحسب بل انشيء بعضها في الأرياض المحيطة بها وفي قرى الغوطة .

ولقد ارتبط عدد الحمامات في دمشق بعدد سكانها وتوسعها العمراني لهذا ترى أن عدد تلك الحمامات قد تناقص مع الزمن بدءاً من القرن الثامن وحتى القرن الحادي عشر للهجرة ثم بدأ بعد ذلك يتزايد عما كان عليه في القرن الحادي عشر . فالحسن بن أحمد الاربلي المتوفى ٧٤٦ هـ يذكر أن مجموع حمامات دمشق داخل سورها كان /٧٧/ حمام أما الحمامات التي تقع خارجها فمجملها /٣٤/ حمام[1] أما ابن كنان المتوفى ١٠٩٣ هـ فيذكر أن عدد حمامات دمشق في عهده فكان /٢١/ حمام بما فيها الحمامات التي تقع خارج الأسوار[2] ولقد استطعنا رصد عدد كبير من الحمامات العامرة وأماكن وجودها من خلال سجلات محاكم دمشق لفترة دراستنا ونلاحظ أن عدداً من الحمامات قد أنشيء في هذه الفترة كما رمم بعضها الآخر . أما ما كان منها ضمن الأسوار فهي :

حمام النايب في محلة باب توما باطن دمشق[3] ثم حمام منجك بمحلة القباقبية[4] ثم حمام عيسى القاري[5] ثم حمام بني أسامة بدخلة بني الصايغ[6] ثم حمام لصيق البيمارستان النوري بالقرب من المدرسة الشامية من ناحية القبلة[7] ثم حمام الأمير علي في محلة سوق القطن بزقاق المدرسة الخضيرية[8] ثم حمام المسك في محلة طالع القبة أو حمام السلسلة[9] .

---

(١) انظر : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد ٢٢ ص٣٢٦ ص٣٢٨ «مدارس دمشق وحماماتها» ، تحقيق محمد أحمد دهمان .

(٢) انظر : المروج السندسية نقلاً عن منير كيال. الحمامات الدمشقية وتقاليدها. ص٤٨ ، ص٤٩ ، ص٥٠ .

(٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/ص٣٥١ .

(٤) انظر سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١١/٢٣٥ هـ ، ص٣٦٩ .

(٤) انظر سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٠/٢٣٥ — ١٢١١ هـ ، ص٣٦٩ .

(٥) انظر : المصدر السابق ، ص٣٦٢ .

(٦) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٤/ص٢٧ .

(٧) انظر سجل المحكمة الكبرى رقم ٢٣٥/ص٤٩ .

(٨) انظر : المصدر السابق ، ص١٨٢ ثم انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩/سنة ١٢١٠ — ١٢١١ هـ . ص٢٤٤ .

(٩) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١١/٢٤٠ — ١٢١٢ هـ ، ص٤٣٧ وص٤٩٤ ثم سجلها رقم ١٢٤٧/٣٢٣ هـ ، ص٢٣ .

ولقد أنشئت بعض الحمامات في هذه الفترة خارج الأسوار واستخدم ما كان منها قائماً وسعي لترميم ما كان معطلاً [1] .

ثم حمام الناصري بالشاغور الجواني[2] ثم حمام الخراب شرقي خان اسماعيل باشا العظم[3] ثم حمام القيشاني بالقرب من سوق البريد[4] ثم حمام الركاب بمحلة الشاغور الجواني[5] ثم حمام سامي وحمام القاعة بمحلة القباقبية[6] ثم حمام العتيق بمحلة الملك الظاهر[7] ثم حمام البابين ويستقي ماءه من نهر بانياس ويقع في حي القيمرية[8] ثم حمام الملكة وحمام السراجي وحمام الحاجب[9] .

أما الحمامات التي كانت موجودة خارج أسوار دمشق في الأرياض المحيطة بها فهي : حمام الفواخير في صالحية دمشق ثم حمام القاشاني في سوق الجركسية من الصالحية[10] ثم حمام القناطر في محلة القنوات[11] ثم الحمام الجديد في محلة القنوات بزقاق التعديل[12] ثم حمام الورد بسويقة ساروجة[13] ثم حمام السنانية[14] ثم حمام المحتسب بالدخلة النافذة بالقرب من خان لالا مصطفى باشا[15] ثم حمام الزين بالسويقة المحروقة بدخلة المقدم[16] ثم حمام القرماني بمحلة

(١) سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٥/١٢١٠ ــ ١٢١١ هـ ، ص٣ وص٤٩ حمام عيسى القاري باطن دمشق .

(٢) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/ص٣٢ .

(٣) انظر : في سجلها رقم ٢٦٠/سنة ١٢٢٣ هـ ، ص٢٢١ .

(٤) انظر : سجلها رقم ٣٣٤/سنة ١٢٤٧ هـ ، ص٢٠ .

(٥) انظر سجلها رقم ٣٢٦/سنة ١٢٤٨ هـ ، ص٦٧ .

(٦) انظر : سجل القسمة البلدية رقم ٣٢٧/سنة ١٢٤٧ ــ ١٢٤٩ هـ/ص٣٠ .

(٧) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٣٤/سنة ١٢٥٠ هـ/ص٨٨ .

(٨) انظر : سجل القسمة العسكرية رقم ٤٠٩/سنة ١٢٦٤ ــ ١٢٦٥ هـ ، ص٤٣٦ .

(٩) انظر : سجل محكمة الميدان رقم ٤١١/سنة ١٢٦٤ ــ ١٢٦٥ هـ ، ص٢١ وص٣٤ .

(١٠) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/سنة ١٢٠١ ــ ١٢٠٣ هـ ، ص١٦٦ وأيضاً سجلها رقم ٢٢٠/سنة ١٢١٦ ــ ١٢١٧ هـ ، ص٢٥ وص١٤١ .

(١١) انظر سجلها رقم ٢٣٥/سنة ١٢١٠ ــ ١٢١١ هـ ، ص٣٥ .

(١٢) انظر : القسمة العسكرية رقم ٢٦/ص٣٠٠ .

(١٣) المصدر السابق . ص٣١١ .

(١٤) انظر سجل القسمة العسكرية رقم ٩٩/سنة ١٢٣٧ ــ ١٢٤٥ . ص٨٢ .

(١٥) انظر : سجل القسمة العسكرية رقم ٢٦/ص٢٩ وص٨٢ .

(١٦) انظر : سجل المحكمة الكبرى رقم ٢٥٠/سنة ١٢١٦ ــ ١٢١٧ هـ ، ص٨٩ .

القلعة ظاهر دمشق[١] ثم حمام التيروزي في محلة قبر السيدة عاتكة[٢] ثم حمام الحدادين في محلة الدرويشية[٣] ثم حمام الجديد بمحلة القماحين من الميدان[٤] وحمام فتحي القلانسي[٥] ثم حمام الحاجب بباب السريجة[٦] ثم حمام الخانجي[٧] ثم حمام السلسلة[٨] ثم حمام الجوزة في سويقة ساروجة[٩] وحمام أمونة بمحلة العمارة بالقرب من جبانة أبي الدحداح[١٠] ثم حمام السكاكري[١١] .

ولا شك أنه قد غاب عنا بعض أسماء الحمامات التي كانت في دمشق كما أننا نلاحظ تزايد ما كان منها خارج الأسوار في هذه الفترة نظراً لتزايد الأحياء السكنية .

ومن جهة أخرى فقد اختلف نمط بناء كل حمام من حيث الزخرفة والمواد المستخدمة وطريقة بنائه والمساحة التي بني عليها إلا أن غالبها ، تألف من ثلاث دوائر أساسية هي : البراني ـــ والوسطاني ـــ والجواني ، والبعض القليل منها كان مكوناً من دائرتين : البراني والجواني . وأجمع السواح على تفضيل حمامات دمشق عن غيرها لما فيها من الاتقان ونظام الهندسة وغزارة المياه واتقان الخدمة والاكرام والاعتناء وبخس الأجرة للمغتسل . وكان يدخل إلى الدائرة الخارجية منه (البراني) من باب الشارع أو الحارة . وعلى جانبي المدخل توجد غرفتان صغيرتان تليهما مصطبتان أو أكثر مرتفعتان عن أرضية البراني بمقدار يصعد إليهما بدرج خاص فيخلع عليها المغتسلون ثيابهم ويقدم لهم ما يلزم من البشاكير والمناشف[١٢] وما

(١) المصدر السابق ، ص١١٣ .
(٢) المصدر السابق ، ص٢٠٦ .
(٣) المصدر السابق ، ص٣٢٧ .
(٤) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦/سنة١٢٢٢ ـــ ١٢٢٣ هـ ، ص٧ .
(٥) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/ص٥٣ .
(٦) المصدر السابق ، ص٤١١ .
(٧) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٤/ص٣٣ .
(٨) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠/سنة١٢١١ ـــ ١٢١٢ هـ . ص٤٩٤ .
(٩) انظر : السجل رقم ٢٦٠/محاكم دمشق / سنة ١٢٢٢ ـــ ١٢٢٣ هـ ، ص٥٨ .
(١٠) انظر سجل محكمة الميدان بدمشق رقم ٣٢٣/سنة ١٢٤٧ هـ ، ص١٢٤ .
(١١) انظر السجل رقم ٣٢٥/محاكم دمشق/١٢٤٧ ـــ ١٢٤٨ هـ ، ص٩٤ .
(١٢) حيث يوجد خزانات في جدار المصاطب ، فيها عدد من البقج وكل بقجة فيها كسوتان مكونتان من منشفتين ، الأولى يلف الجسم فيها بين الصرة والأسفل ، والثانية للف الجزء العلوي من الجسم وهناك بشكير للرأس وكان الأغنياء من المغتسلين ، يضعون كسوة فوق البشاكير من الحرير .

شاكل ذلك للرجال . أما النساء فكن يجلبن بقجاتهن من بيوتهن . وكانت مصاطب الحمام مكسوة بالسجاد والبسط . وفي داخلها نوفرة ماء تطوقها من جهاتها الثلاث مصاطب صغيرة أو مقاعد لجلوس المستحمين عليها . وفي وسط المصاطب الكبيرة توجد بركة ماء كبيرة بها فسقية ونافورة وغالباً ما تكون مزينة بتماثيل من الأسود الحجرية التي تخرج من أفواهها المياه لتصب في البركة . كما في حمام نور الدين الزنكي في البزورية .

ويزود الحمام بالقباقيب العديدة التي تستخدم من قبل المغتسلين وعمال الحمام وبه المرايا التي تعلق على الجدران . ولتأمين الإضاءة للحمام نهاراً توجد به شبابيك علوية محكمة القفل من الزجاج .

ويرى من البراني أوجاق القهوة لإعدادها وتقديمها للزبائن . ولا يسمح بالتدخين إلا لمعلم الحمام .

أما الدائرة الثانية فتتكون من الوسطاني والجواني . وهي خاصة بالاستحمام ، بها منافع (دورات مياه) ويوجد في كل منها أجران ، وهذه الأجران من الرخام أو الحجارة تنصب فيها المياه من فتحتي أنبوبين ، الأول حار والثاني بارد تتحكم فيها قطعتان من الخشب . أما جدار البناء وأرضيته فغالباً من الرخام والسقف من حجارة العقد أو على شكل قباب بها فتحات توضع عليها قطع زجاجية للإضاءة ويطلق على هذه القطع اسم القماري[1] .

هذان القسمان لا يوجد فيهما شبابيك البتة وذلك للحفاظ على حرارة الحمام الداخلية[2] . وتستمد هذه الحمامات المياه من الطوالع القريبة التي تتزود بدورها من الطالع الرئيسي . وينتقل الماء بأنابيب فخارية إلى مرجل ناري وإلى صنابير المياه الباردة ودورات المياه والنهرات في داخل برك الماء ونسوق مثالاً على ذلك (حمام نور الدين الشهيد) الذي كان يزود بالمياه من طالع البزورية ثم حمام العفيف وحمام المقدم وحمام الحاجب لكل واحد منها طالع ماء يزوده طالع رئيسي يأتيه الماء بدوره من نهر يزيد . أما حمام الورد والجورة فمن نهر تورا وحمام الملك الظاهر من نهر بانياس وحمام الملكة والقاضي والسروجي من نهر بانياس والقنوات

(١) انظر : القساطلي ، نعمان بدأت الروضة الغناء في دمشق الفيحاء . ص١٠٨ وص١٠٩ ولقد تثبت من ذلك بزيارة ميدانية لحمام نور الدين الشهيد الواقع بالقرب من خان أسعد باشا العظم في سوق البزوريين بدأت مديرية آثار دمشق بتوسيعه وإعادته إلى حالة الأصل في سنة ١٩٨٠ م

(٢) انظر : السجل رقم/٤١١/محكمة الميدان . ص٣٤ وص٤٨ .

وحمام فتحي وغيره من نهر الديراني[1] وكانت هندسة الحمام فيما يتعلق بتدفئته وتسخين المياه فيه وتوزيعها على أقسامه في غاية الاتقان وكانت على الشكل التالي : هناك الأقميم الذي يقع خارج الحمام وهو عبارة عن حفرة كبيرة وعميقة دون مستوى أرضية الحمام بحوالي ٣ أمتار تكون إلى جانبها مواد الاحتراق من قمامة وزوث الحيوانات وبزور الزيتون المطحونة وغيرها . وفي هذه الحفرة توجد أثافي يرتكز عليها قدران (حلتان) كبيران من النحاس ، أولهما ويطلق عليه اسم « الناري » والثاني بجانبه ويطلق عليه « الدخاني » ويصل بينهما انبوب من الفخار مستواه دون مستوى سطحهما وهو محكم لا يسمح بتسرب المياه منهما ويأخذ الناري ماءه من الطالع الخاص بالحمام بقدر معلوم ويتحكم به الأقميمي بسدادة خاصة . وعندما يسخن الماء فيه يندفع إلى الدخاني ومن الدخاني في أنابيب إلى صنابير المياه الساخنة ليصب في الأجران داخل الحمام في الوسطاني والجواني . وارتكاز الناري والدخاني على الأثافي يسمح بتسرب الأوكسجين فيساعد الوقود الموجود في أسفل الاثفية على الاحتراق وما بعد الاقميم يوجد دهليز مستقيم تحت الجواني ثم الوسطاني إلى أن يصل إلى المدخنة التي تسمى « الصليبية » والتي تسمح بخروج الدخان منها وتقع هذه المدخنة في نهاية الحمام من الجهة المقابلة للاقميم والدخان الساخن عندما يسير تحت الجواني والوسطاني بتفرعات خاصة يؤدي إلى رفع درجة حرارة القسمين المذكورين . ويلقم الاقميمي الاقميم بالوقود حسب الطلب ، ومن جهة أخرى اتخذت للحمامات احتياطات هندسية خاصة من أجل استمرار تدفق الماء فيما إذا قطعت المياه عن الحمام من الطوالع الرئيسية بأن أقيم في داخل الحمام خزانات خاصة تملأ بالماء للطوارئ[2] .

ويجمع معظم المؤرخين الذين أرخوا للحمامات في دمشق على أن معظم حماماتها وأكثرها اتساعاً ونظافة في تلك الفترة من الزمن كان حمام الخياطين وحمام القيشاني وحمام الملكة وحمام النوفرة الذي يقع بالقرب من باب الجامع الأموي الشرقي ، وحمام المسك الذي يقع في حارة النصارى من دمشق . وحمام الخراب وحمام الناصري في الشاغور وحمام البكري وحمام القيمرية وحمام الشيخ في باب توما [3] . ثم حمام نور الدين الشهيد في البزورية .

(١) انظر : كيال ، منير ، الحمامات الدمشقية وتقاليدها . ص٥٦ وص٥٧ .

(٢) وعندما قمت بزيارة حمام نور الدين الشهيد في البزورية وضح لي ذلك معلم الحمام السيد مروان حمامي التيناوي وذلك بتاريخ ١٩٨١/١/١٨ .

(٣) انظر : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج ١ ١٠٩ . ثم : القساطلي ، نعمان الروضة الغناء في دمشق الفيحاء . ص١٠٩ .

ولقد توارث العمل في هذه الحمامات أفراد أسر معينة من دمشق حيث كان الوالد يعلم ابنه الحرفة ، وهكذا ، ومن الأسر الدمشقية التي عملت في الحمامات آل التيناوي والقطان ، وكبب ، ومعتوق وموصلي ، والنوري ، والكوزلي ، والملا ، والشيرازي ، والملي ، والماردينى ، والحنبلي ، والسمسمية[1] وعمل بها أيضاً بعض الأنكشارية والأشراف . وكان لهذه الحرفة شيخها شأن بقية الحرف في دمشق[2] .

أما الطاقم الذي كان يعمل في داخل الحمام فكان على الشكل التالي :

ـــ المعلم وهو صاحب الحمام أو مستأجره الذي يقوم بتشغيل الحمام وتوزيع العمل على بقية عماله .
ـــ والناطور : ويتعاطى كسوة الزبائن في القسم الخارجي .
ـــ والمصوبن : ومهمته تغسيل الزبائي بالصابون والليفة والدلك بالكيس الخاص بالحمام لاخراج الوسخ لمن أراد ثم القهوجي ويسقي القهوة للزبائن في الحمام ، ثم .
ـــ الأجير : ويكون واحداً أو أكثر ومهمته أخذ النعال وتقديمها لاصحابها .
ـــ القميمي : ومهمته إيقاد النار في الاقميم والاشراف عليه والحصول على الوقود والزبل ونشره ليجف كما يخرج الرماد من تحت الاقميم .
ـــ الزبال : ومهمته جلب روث الجمال والحمير والبقر في الشليف على ظهر حمار من أماكن عدة كالخانات وغيرها[3] ويعطيها للاقميمي ، ثم .
ـــ التبع : وهو عامل أيضاً يقدم للزبائن المناشف إذا كانوا من متوسطي الحال أو من الفقراء كما يعمل النورة المعروفة بالدواء[4] .

وتطالعنا سجلات محاكم دمشق بالعديد من أدوات ومحتويات الحمامات مثل : محارم بغدادية ـــ ومحارم مكاوية ـــ ومادبيات ـــ وبقجات يمنية ـــ وبسط وسجادات مختلفة الاحجام وحرامات محشوة خرق ومخدات محشوة خرق أيضاً وسجادات كبيرة وثريات

(١) انظر كيال ، منير . الحمامات الدمشقية وتقاليدها . ص١٧٣ .
(٢) المصدر السابق ، ص١٧٠ .
(٣) انظر : القاسمي محمد سعيد قاموس الصناعات الشامية . ج ١ ، ص١٠٧ ، ص١٠٨ ثم ج ٢ . ص٣٦٣ .
(٤) المصدر السابق . ج ٢ ، ص٢٢١ .

وصناديق كبيرة وقباقيب وأراكيل ودولات نحاس ومناصب وملاقط وقشط وكاسات ومجالف وأباطين وغيرها [١] .

أما الصابون المستخدم في الحمامات فكان من أنواع مختلفة منها البلدي والمغشوش والنابلسي والجعفري والنوعان الأخيران جيدان[٢] واستخدم الفلاحون والفقراء نبات الشنان في الحمام من أجل تنعيم الشعر والبدن وجلي الأوساخ عن أجسادهم[٣] .

وكان من الطبيعي ألا يسمح باستخدام الحمام بشكل مختلط بين الجنسين (الذكور والاناث) وحتى طاقم تشغيله كان يتبدل بحسب جنس الزبائن . فكان الحمام يفتح لاستقبال الذكور من الفجر إلى الظهر على حين يخصص من الظهر إلى المساء لاستقبال الاناث فيُبدل طاقم تشغيله بالعنصر النسائي وكانت بعض الحمامات لا تستقبل سوى الرجال خاصة ما كان منها في الأسواق والشوارع . أما طاقم تشغيل الحمام النسائي فهو متألف من :

ـــ المعلمة : وهي التي تقوم باستقبال الزبونات وتقبض منهن الأجرة وتكون في حلة جميلة وزينتها كاملة ثم .

ـــ الأسطة : وهي التي تقوم بتغسيل البدن والرأس للزبونة ومهمتها كما نرى مهمة المصوبن لدى الرجال ، ثم .

ـــ البلانة : وهي التي تقوم بتدليك البدن بالكيس وتقوم بصبغ الأبيض الشايب من الشعر وتقوم أحياناً بحمل البقج للنساء الموسرات من بيوتهن إلى الحمام وبالعكس ثم :

ـــ زقاقة البارد : وهي التي تأتي بالماء البارد وتضيفه إلى الماء الساخن حتى يصبح محتملاً . ثم

ـــ الناطورة : ومهمتها حراسة ثياب النساء وتأتي بمناشفهن وتلف أبدانهن[٤] .

---

(١) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٠٢/سنة ١١٩٠ ـــ ١١٩١ هـ ص٤٨ ثم : سجلها رقم ٢٣٩/١٢١٠ ـــ ١٢١١ هـ ، ص١٨٩ . ثم سجل محكمة الميدان رقم ٤١١/سنة ١٢٦٤ ـــ ١٢٦٥ هـ ، ص٣٤ .

(٢) انظر : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ؛ ص٢٦٩ .

(٣) المصدر السابق ج ٢ ، ص٢١٦ .

(٤) انظر : القاسمي ، محمد سعيد ، قاموس الصناعات الشامية ، ج ١ ، ص٥٠ وص١٠٨ وص١٠٩ .

الحمام كظاهرة اجتماعية

لم يكن الحمام آنئذ منشأة عامة يقدم خدمة للأفراد فحسب ، بل كان مكاناً للقاء الأصدقاء والأقرباء وفي مناسبات اجتماعية عديدة مثل : ما قبل الأعراس وما بعدها ، وبعد الولادة وبعد البرء من المرض وغير ذلك من المناسبات الاجتماعية .

كما يحصل التعارف بين أبناء المجتمع الدمشقي ، وكانت لتلك اللقاءات نتائجها الاجتماعية . فيتناول الأصدقاء والاقرباء فيه الطعام مشتركاً كما يتناولون الشاي والقهوة والمشروبات المثلجة ، ويتبادلون الأحاديث والسير ويتخلل ذلك أحياناً السماع للغناء[1] .

وكانت النسوة يأتين إليه بكامل زينتهن مع حاشيتهن وغالباً ما يعد لهن الحمام مسبقاً ويصطحبن معهن في بعض الأحيان المغنيات خاصة إذا كن قد قمن بحجز الحمام لهن ولصديقاتهن . وقريباتهن[2] . مسبقاً ، فينطلقن بمرحهن دون قيود . ومن جهة أخرى كان الحمام ملتقى للنساء ومكاناً مناسباً للام التي تبحث عن شريكة لحياة ابنها . حيث ترى الفتيات المصاحبات للامهات بقسمات أجسادهن ونبرات صوتهن إلى غير ذلك . وتتعرف الأم على اسم الفتاة واسم والدتها واسم اسرتها ومكان سكنها ووضعها الاجتماعي ، وهكذا[3] .

(١) انظر : الصيادي ، محمد عز الدين . المصدر السابق ، ص٢٨ .

2 - Russell. A. op.cit. VOL.1.P.138.

(٣) انظر : كيال ، منير . الحمامات الدمشقية وتقاليدها ، ص٢٢٠ .

وكانت كل امرأة تصطحب معها بقجة تحوي ملابسها النظيفة والمناشف والكيس الذي يحوي الطاسة والصابونة والترابة الحلبية والمشط وكيس الحمام والليفة والحناء إذا ما أرادت صبغ شعرها . وبعض النسوة كن يحضرن معهن معجوناً من أجل تدليك أجسادهن فتنبعث منه رائحة الزنجبيل خاصة إذا ما كانت المرأة نفساء ، وهذا المعجون يسمونه الشداد[1] لشد بعض عضلات الجسم .

أما الرجال فكانوا يستخدمون دواء لإزالة شعر العانة والإبطين وبعد إزالة الدواء عن الجسم يجلس المغتسل على أرض الحمام في القسم الجواني ، ليقوم البلان بتدليك جسمه مرات عديدة بفاصل زمني بين كل مرة وأخرى ، وكذلك أصابعه وكتفيه ورقبته مع صب دفعات من الماء الساخن . وبعد ذلك ينتقل المغتسل إلى الوسطاني حيث ينشف جسمه بالفوطة وينتقل بالقبقاب إلى الخارجي (البراني) ليرتدي ثيابه وعندما يكون الجو بارداً يرتدي فوقها فروته ويقوم بشرب القهوة[2] .

وكان حمام العرس ، بالنسبة للنساء ، يتم بتوجيه أم العروس الدعوة لأهل العروس والعريس من النساء قبل زواج العريسين . وما بعد الزواج تقوم أم العريس بتوجيه الدعوة بعد اسبوعين من الزواج سداداً منها لحمام أم العروس الذي قامت به الأخيرة قبل زواج ابنتها . ويطلق على حمام أم العريس حمام الغمرة . وهناك حمام الولادة الذي يقام في اليوم السابع للولادة ، ثم حمام الأربعين أي بعد الولادة بأربعين يوماً [3] .

وغالباً ما يتم اللقاء في حمامات الحارات القريبة من منازل هذه الأسر إلا أننا نلاحظ أن بعض الحمامات كانت وقفاً على فئات اجتماعية معينة . فحمامات حي الميدان القريبة من البوابة كان يرتادها الفلاحون ، وحمام الملكة كان يرتاده أغوات سوق ساروجة ، في حين كان بعض الحمامات الأخرى ترتادها فئات قومية معينة مثل حمام الراس الذي كان يرتاده الحجاج الأكراد من العربجية والحمالين وبعض نزلاء خانات الميدان قبل الظهر ، وبعد الظهر كان يستقبل السيدات من سكان المناطق المجاورة له ، وحمام المسك كان يرتاده النصارى واليهود لقربه من أحيائهم[4] .

---

(١) ويتكون الشداد من الزنجبيل والدبس والقرفة ولسان العصفور والآس والزيت والبيض . أنظر : المرجع السابق . ص١٧٤ .

2 - Russell. op.cit. VOL.1.PP.134-135.

3 - Russell. op.cit. VOL.1.P.136.

(٤) انظر : كيال ، منير ، المرجع السابق . ص١٨٩ .

وشاهدت حمامات دمشق العديد من حوادث السرقات خاصة عندما لا تكون محجوزة لسبب ما ، بل يكون الزبائن غرباء عن بعضهم ، حيث تكون الظروف مهيئة لحدوث مثل ذلك . ويقوم السارقون بسرقة ما يقع بأيديهم من ثياب ومناشف وأحذية وغير ذلك ما خف وزنه وغلا ثمنه ، ويتركون بديلاً عما سرقوه حاجياتهم البالية والتافهة . وكانت السرقة تحدث في حمامات الرجال والنساء على حد سواء .

فالنساء السارقات كن يراقبن النساء الغنيات ويقمن بابدال بقجاتهن ببقجات الغنيات في غفلة منهن أو ينتشلن من هذه البقجات ما يردنه من الأشياء الثمينة . وإذا ما حصل واكتشف أمرهن فيدعين أن ذلك كان نتيجة الخطأ في تمييز بقجاتهن عن بقجات المسروقات ، وإذا ماظفرت السارقة بما أرادت ولم يكشف أمرها ، تتسلل مسرعة بما حملت خارج الحمام ، وبعدئذ تقع الواقعة بين المرأة التي سرقت أشياؤها ومعلمة الحمام . ولم تقتصر أحداث الحمام على ذلك بل كان يحصل ما أهو أدهى وأمر من ذلك وهو تبديل الأطفال الرضع حيث تقوم المرأة بتبديل طفلتها الأنثى بطفل غيرها الذكر ، وذلك بتبديل اللفافة الخارجية في غفلة من عين الأم ، وأحياناً تقوم المرأة الزانية بترك ابنها غير الشرعي لمعلمة الحمام مقابل مبلغ من المال ، لتخفي عارها [1] .

---

(١) انظر : المرجع السابق . ص٢١٤ وص٢١٥ .

البيمارستانات في دمشق

بقيت دمشق حتى دخول ابراهيم باشا المصري تعتمد على البيمارستانات القديمة في استقبال مرضاها ولم تعرف المستشفيات بالمعنى العصري إلا بدءاً من عهده .

وكانت تلك البيمارستانات دوراً للبائسين وأندية للضعفاء ولأصحاب العاهات والزمانات وكان في دمشق ثلاث بيمارستانات هي :

بيمارستان الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي أنشيء لعزل المجزومين عن المجتمع خوفاً من انتقال عدوى المرض إلى الاصحاء ، وكان مكانه في محلة الاعاطلة بالقرب من باب شرقي وبقي يستقبل مرضاه منذ تأسيسه وحتى مطلع القرن العشرين .

أما البيمارستان الثاني فهو البيمارستان النوري ويقع غرب سوق الخياطين داخل دمشق . أسسه نور الدين بن محمود بن زنكي سنة ٥٩٥ هـ وقد أطنب المؤرخون في ذكره والإشادة بمحاسنه ومنافعه وأفردوا الفصول الطوال في بنائه وزخرفته ونفقاته وتخطيطه . وتألف بناؤه من أربعة ايوانات خصص كل واحد منها لعلاج نوع من المرض . وله باب يبرز عن

(١) جمع بيمارستان : وهي كلمة فارسية الأصل مركبة من كلمتين (بيمار) وتعني المريض وستان تعني مكان أو محل انظر : كرد علي ، محمد . خطط الشام ، ج ٦ ، ص١٥٧ .

جداره الغربي زين أعلاه بمقرنصات نافرة إلى الخارج ، كما كانت نوافذه التي تعلو أبوابه مزخرف بزخارف جصية مخرمة تشبه إلى حد كبير زخارف نوافذ قصر الحير[1] .

وكان لهذا البيمارستان أوقاف كثيرة وواسعة تدر عليه أموالاً كثيرة تصرف لمعالجة المرضى واطعامهم وتوفير مرتبات الأطباء والصيدلانيين والعمال وغيرهم ، الذين لا يقلون عن عشرين رجلاً[2] .

وكان يعالج المرضى المتخلفين ومنهم المجانين الذين كانوا يوثقون بالسلاسل . وهكذا نرى أن طريقة العلاج التي اتبعت فيه كانت طريقة العصور الوسطى . ووجد متولون ونظار على أوقافه من قبل السلطات العثمانية ، ففي سنة ١٢٥٠ هـ/١٨٣٤ — ١٨٣٥ م .
كان متولياً على أوقافه موسى آغا بن يوسف آغا النور شاهرلي بموجب براءة سلطانية[3] وكان ناظراً على أوقافه في القرن الثاني عشر أحمد بن محمد بن زين العابدين بن الغزي الدمشقي الشافعي وذلك من سنة ١١٦١ — ١١٩٤ هـ / ١٧٤٨ — ١٧٨٠ م[4] . وقام أبناء الطبيب مصطفى عودة وهم سعيد آغا وعبد القادر آغا وحسين أفندي بمداواة الناس فيه بطريقة الطب القديم الذي أخذوه عن والدهم .
وبقي البيمارستان النوري يستقبل مرضاه إلى أوائل القرن الرابع عشر للهجرة /١٣١٧/ هـ حيث قامت بلدية دمشق بانشاء مستشفى الغرباء في الجانب الغربي من التكية السليمانية المطلة على المرج الأخضر وجمعت له الإعانات من مصادر عدة ومنها أوقاف البيمارستان النوري[5] .

أما البيمارستان الثالث فهو البيمارستان القيمري الذي يقع إلى غرب جامع الشيخ

---

(١) مجلة المعرفة . المجلد ٩ . ص١٧١٤ وص١٧١٥.. ترجمة القاهرة . ويقول ابن جبير الذي زار دمشق سنة ١٥٨٠ هـ «وأن أجرة البيمارستان النوري في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً وله قومة بأيديهم الازمة المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها من الأدوية والأغذية وغير ذلك . والأطباء يبكرون إليه كل يوم يتفقدون المرضى ويأمرون باعداد ما يصلح لهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل انسان» انظر : رحلة بن جبير ، ص٢٣٠ . ببيروت سنة ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م .
(٢) انظر : كرد علي ، محمد . خطط الشام . ج ٦ ، ص١٥٨ .
(٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٤/سنة ١٢٥٠ هـ . ص٥٨ .
(٤) انظر : المرادي . سلك الدرر . ج ١ ، ص١٧٢ .
(٥) انظر : الشطي ، محمد جميل . أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ومنتصف القرن الرابع عشر . ص٢٨٤ . «منتخبات التواريخ لدمشق» . ج ٢ ، ص٦٩٣ .

محي الدين بن العربي . وينسب إلى منشئه أبي الحسن بن أبي الفوارس المتوفى سنة ٦٥٣-هـ . وقد رممه حسن باشا المعروف « بشوريزي حسن » . ونظر في أوقافه وأقام شعائره كما فعل بالبيمارستان النوري من قبل[١] .

وكان يصرف على البيمارستان القيمري من أوقاف عديدة ، حبسها عليه مؤسسه المذكور ، وقد حددت صورة وقفه ، وجوه الصرف المختلفة « كمعالجة المرضى والمصابين والأشربة وأجرة الطبيب بحيث يصرف للطبيب الواحد في كل شهر /٧٠/ درهماً ونصف غرارة قمح ، وللكحال في كل شهر خمسة وأربعون درهماً ونصف غرارة قمح وللحوائج في كل شهر عشرة دراهم وسدس غرارة قمح وإلى الشراب وبائعه ولعمل الأشربة والمعاجين في كل شهر ستة وعشرون درهماً وثلث غرارة قمح . ولأمين المتشاوفين على الوقف إلى كل واحد في كل شهر ستون درهماً وغرارة قمح وغرارة شعير ، وللامام في كل شهر أربعون درهماً وثلث غرارة قمح .. وللمعمار المرتب لعمارته في كل شهر ثلاثة عشر درهماً وسدس غرارة ويكون بواباً .. وللحوائج في كل شهر ثمانية دراهم وسدس غرارة قمح وللناظر العشر من المغل وربع الوقف ويصرف إلى رجلين اثنين بخدمة البيمارستان عن ثمن قدور ونحاس وفر ولحف ومخدة وفي كل شهر إلى قيمه والمؤذن بالمسجد بقرب البيمارستان خمسة وعشرون درهماً فإن فضل إلى فكاك الأسارى من الكفار وبعد ذلك عاد وقفاً على الفقراء وجهة الوقف هذه مؤرخة في سنة ٦٥٣ هـ . ما تذكر القرى والبساتين والحوانيت والطواحين التي حسبت على هذا البيمارستان »[٢] .

أما هندسة بنائه فله واجهة من أجمل واجهات الأبواب هندسة[٣] ولقد وصفه الشيخ جمال الدين بن عبد الهادي بقوله : « هو من أحاسن الدنيا ويقال إنه ليس في الدنيا بيمارستان أحسن منه ولا أشرح وخاصة الايوان المعظم والقاعتان المعظمتان القبليتان بهذه الشبابيك المشرفة على الدنيا وتحت الشبابيك هذه حوض النارنج ولا سيما في أيام زهره تفوح

(١) كرد علي، محمد: المصدر السابق. ج٦، ص١٥٨ ويقول: محمد أحمد دهمان وأن هذا البيمارستان قد أصابه الدمار قبل هجوم التتار على دمشق سنة ٦٩٦ هـ ونهبهم للصالحية انظر : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد ١٨ ، ص٦٤ .

(٢) انظر : كرد علي محمد . المصدر السابق ج ٦ ، ص١٥ وص١٥٩ . ثم : الحصني ، محمد أديب ، المصدر السابق . ص ٩٧٤ وص٩٧٥ .

(٣) انظر كرد علي ، محمد ، خطط الشام . ج ٦ ، ص١٥٨ .

منه هذه الرائحة الزكية فتنعش النفوس وتزكي الأرواح ويقال أن تمرلنك عندما أخذ الشام نزل دواداره فيه وقال درت جميع دمشق فما وجدت أشرح منه ولا أفضل ، به قائمتان لصيق القاعتين المذكورتين للمرضى المسهولين أحداهما للرجال والأخرى للنساء ولصيقهما حاصلان الشرقي منهما للشرابات والمعاجين والأكحال والاشياف[1] والاقراص وغير ذلك والغربي معد لتفريق ذلك في كل يوم اثنين وخميس للخارجين عنه وصار لا يفرق ذلك فيه إلا يوم الخميس فقط وفي كل يوم للمرضى به من نساء ورجال وفي شرقيه مطبخ للمزورات[2] والفراريج وغير ذلك ولصيقه قاعة من جهة الغرب للمجانين ولصيقها حاصل للمغل وفي دهليز بابه الشمالي بيت لبواب ، وبوسطه بركة منظمة يأتي إليها الماء بشكل دائم بناعورة مركبة على نهر يزيد وفيه خدمة للرجال والنساء وكحال وطبيب وشراباتي وعامل ومشارف وغير ذلك من التراتيب الجيدة وفيه محفة لحمل الضعفاء ويحصل لهم بها في الصالحية نفع عظيم[3] » .

ولقد جاء ذكر لهذا البيمارستان في القرن الثاني عشر للهجرة على أنه كان يستقبل المرضى للعلاج ونلمح ذلك من خلال ترجمة عليم الله الهندي النقشبندي اللاهوري الحنفي الذي كان « يخلو بنفسه في معالم الأربعين في جبل قاسيون بالصالحية حيث كان الكثيرون من المرضى يعالجون[4] » .

هذه هي البيمارستانات التي بنيت في دمشق في فترات مختلفة من تاريخها الاسلامي وحبست لها الأوقاف الكثيرة من أجل أن تبقى في خدمة الشعب كمنشآت ذات نفع عام . ولم نلحظ انشاء مستشفيات أو بيمارستانات جديدة في العهد العثماني حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وكل ما رأيناه من جديد في هذا المجال هو بناء المستشفى العسكري الذي بناه ابراهيم باشا المصري الذي احتل دمشق سنة ١٨٣١ ،/١٢٤٦ ــ ١٢٤٧ هـ حيث أقامه بالقرب من مقبرة الصوفية[5] غربي مدينة دمشق وكانت المعالجة فيه على الطرائق الغربية في

---

(١) جمع شيف وسياف وهي الأدوية الخاصة بالعين . انظر : ابن طولون . القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ، القسم الأول ، ص٢٤٤ .

(٢) جمع مزورة وهي المرقة تطعم للمريض وتطبخ خالية من الأدهان . انظر : ابن طولون . القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية . القسم الأول ، ص٢٤٤ . الحاشية .

(٣) انظر : ابن طولون . القلائد الجوهرية ، القسم الأول ، ص٢٤٤ .

(٤) انظر المرادي ، محمد خليل . سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر . ج ٣ ، ص٢٦٠ ، ص٢٦٢ .

(٥) انظر : كرد علي ، محمد خطط . الشام . ج ٦ ، ص١٥٩ . ثم : الصيادي محمد عز الدين . الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية ، ص٤٤ .

الطب : التي تختلف عن الطريقة والتي كانت متبعة في البيمارستانات الدمشقية التي تعتمد على اسلوب وأدوات استعملت في العصور الوسطى في معالجة المرضى ، من حيث الغذاء والدواء ، مع استخدام التمائم والتعاويذ ، وأهمال للطب الوقائي وخاصة ما يمنع انتشار العدوى من شخص إلى آخر بإزالة البيئات المناسبة لانتشار الجراثيم وتكاثرها والحشرات الناقلة للجراثيم وغيرها في شوارع المدينة وأزقتها وأرباضها ، أو ما يسبب تلوث مياه الشرب والأطعمة وغير ذلك .

ولقد أهمل الدمشقيون عن جهل إزالة مسببات الأمراض والجراثيم من أزقة مدينتهم وشوارعها فكنت ترى المزابل بالقرب من حاراتها[1] كما كان عمال الحمامات ينقلون روث الحيوانات من الخانات وغيرها فيضعونها بالقرب من حماماتهم في أزقة دمشق وشوارعها لاستخدامها وقوداً للحمامات . فشكلت تلك الأكوام بيئة مناسبة للجراثيم والحشرات الناقلة لها . هذا ناهيك عن القائهم جثث الحيوانات النافقة في شوارعها وأزقتها دون ادراكهم لما ينتج عن ذلك من اضرار صحية ، ووردت أولى الإشارات إلى اهتمام الولاة والحكام بنظافة دمشق سنة ١٨٣٠ م في عهد محمد سليم باشا الذي « طالع المنادي على الزبالة بأن تعزل في جميع حارات البلد فلما سمع الناس التنبيه من زيادة خوفهم ففي مدة يوم وليلة عزلوا جميع حارات البلد وما بقي زبالة فيها مطلقاً »[2] .

وكان الناس يسعون لازالتها ليس بدافع وعيهم الصحي بل خوفاً من البطش . وتغير الحال بعد دخول ابراهيم باشا الذي كان مصحوباً بمجموعة من الأطباء الأوربيين لتحصين ومعالجة الجيش المصري من الأمراض والأوبئة . فأشاروا عليه بأن « يجعل ناس مخصوص لاجل تنظيف الوخم والزبالة من طرقات البلد لاجل حفظ صحة العموم مع التكنيس ورش الأمياه مداوم »[3] لهذا قامت السلطات المصرية في دمشق بتعيين مكنسين لتنظيف الأزقة والأسواق والمحلات من الأوخام والأوساخ وخصصت لهم أجرة معلومة تتوزع على دور المحلة بشكل

---

(١) هناك بعض الإشارات إلى وجود مزابل ضمن الأحياء السكنيا في دمشق . انظر : مثلاً سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٦/٢٥٠ ـــ ١٢١٧ هـ . ص٢٦٩ حيث ورد ذكر مزبلة كانت بالقرب من حي العمارة وورد في سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/ص٢٣٧ ذكر لمزبلة أخرى في الشاغور البراني من ناحية الجنوب بالقرب من النهر الأبيض .

(٢) انظر مجهول . مذكرات تاريخية . ص٢ .

(٣) الصايغ ، فتح الله . المقترب في حوادث الحضر والعرب . ص٧٧ آ .

شهري . كما قامت بمنع وضع القمامة الخضراء (الرطبة) بداخل المحلات بل تنشر بالبراري لتجف ثم تدخل إلى المدينة لاستخدامها في الوقد . وقامت بتعيين جنود لمراقبة النظافة في الأسواق والأزقة أطلق عليهم اسم الطوف[1] .

ولم تكتف تلك السلطات بذلك بل قامت بتجفيف المستنقعات وبناء المجاري الخاصة بالماء المالح[2] وكان من الطبيعي أن تعطي مثل هذه الاجراءات نتائج ايجابية في مجال الصحة العامة . ويعلق على ذلك فتح الله بن أنطون الصايغ الذي عاصر الحكم المصري بقوله : « نقصت الأمراض وكثرت الصحة في البلاد وبين العباد[3] » .

ولا شك في أن تلك الاجراءات قد وضعت الدمشقيين على بداية طريق طويل يكتنفه حتى النهاية الجهد والجد والعلم والمال .

أما فيما يتعلق بطرق المعالجة فقد استمرت الطرق القديمة في معالجة الامراض والاصابات المختلفة فمثلاً : الملدوغ بالأفعى السامة « يرسل انسان من طرفه عاجلاً من طرفه من غير تماهل من اثره مثل : محرمة ـــ عرقية ـــ أم طربوش فيروح المرسال لعند الشيخ فيأخذ منه العلامة يمسكها بيده ويقول إلى المرسال ارفع رجلك الواحدة وأوقف على فرد رجل فيرفع رجله ويبقا واقفاً على رجل واحدة ثم يبدأ الشيخ يقرأ مقدار عشرة دقائق فيزيط السم للمعضوض في البلد ولا يسري ويشفا ويسلم من ذلك .... وكذلك الذي يكون عضه كلب كلبان فيرسل من طرفه مع شيء من أثره كما ذكرنا سابقاً[4] » .

كما لجأ المرضى إلى أصحاب الكرامات طلباً للشفاء ويذكر البديري مثالاً على ذلك أن « أحمد بن مشيش من صلا ء وتقواه ما وضع يده على مريض إذا رمد وقرأ ما تيسر إلا شفاه الله وعافاه[5] » .

ولقد حققت الطرق الطبية بعض النجاح في معالجة حالات مرضية واستعصت عليها حالات أخرى . وكان للإيحاء النفسي الذي استخدمه المعالجون من رجال الدين والأطباء والمتصوفين والمشعوذين ، دوره في تقوية جسم المريض وبرئه من مرضه . إلا أن هؤلاء وقفوا

(١) انظر : رستم ، اسد . الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا . ص٩٠ ص٩١ .
(٢) قدامة ، أحمد . معالم وأعلام في بلاد العرب . ج ١ قسم ١ ، ص٤ .
(٣) المقترب في حوادث الحضر والعرب . ص٧٧ آ .
(٤) المصدر السابق . ص٤٩ .
(٥) حوادث دمشق اليومية . ص٢٥ .

عاجزين أمام جائحات الأمراض الوبائية وغيرها من الأمراض . كالطاعون والكوليرا والجدري وغير ذلك . فحصدت الأرواح حصداً ، والأمثلة على ذلك كثيرة . وحسبنا أن نورد مثالاً على ذلك ما وقع لدمشق في فترة ولاية صالح باشا المعدنلي الثانية حيث أصابها طاعون فتاك أودى بحياة /٢٠,٠٠٠/ نسمة من سكانها وكان فتكه في حوران أشد وأضرى[1] .

وفي سنة ١٧٨٥ م/١١٩٩ هـ جاءتها جائحة وبائية قادمة من مصر ووصلت إليها في آذار سنة ١٧٨٦ م/١٢٠٠ هـ فمات إثرها كثيرون من أبناء دمشق إلا أن حلب كانت أكثر تأثراً بها فمات من أبناء حلب /١٠٠,٠٠٠/ نسمة أو أزود بقليل[2] ولا أعتقد أن هذا الرقم صحيح ، إذ أن عدد سكان حلب لم يكن أكثر من هذا الرقم بكثير آنئذ ، ولكن بلا شك أودت هذه الجائحة بحياة الآلاف من أبناء حلب ، ولم يمض على ذلك ربع قرن من الزمان حتى ضرب مدينة دمشق الطاعون مرة أخرى ، ففي سنة ١٨١١ م/١٢٢٦ ــ ١٢٢٧ هـ قضى الطاعون على ربع سكان دمشق[3] وكان الحال مريعاً في مثل هذه الظروف حيث ترى المدينة مقفلة في وجه الداخل والخارج ، وكذلك الحارات في داخل المدينة ، وتتوقف حالة التعامل بين الناس ، وحركة البيع والشراء ويؤدي ذلك إلى شل الحركة الاقتصادية في البلد . وإذا ما أصيب أحد من أفراد البيت فمن المؤكد إصابة الأسرة بكاملها فيهرب أفرادها إلى مكان آخر . وقد يموت الفرد ولا يرى من يدفنه . وكان من المألوف في هذه الجائحات أن ترى الجثث من الموتى ملقاة في الشوارع والحارات هنا وهناك ، وكان الحفارون يثرون على حساب دفن العدد الكبير من الموتى يومياً .

وفي مدينة حلب كانت الحالة تختلف من حي إلى آخر من حيث الحركة والتعامل بين أفرادها . ففي مثل هذه الحالات كنت ترى الأحياء المسيحية واليهودية أكثرها حرصاً على عدم التعامل والاختلاط وتحرص على الانعزال وربما يعود ذلك إلى نمو وعيهم الصحي نتيجة لاختلاطهم بالاجانب الغربيين ولاقتباسهم منهم بعض وسائل الطب الوقائي ، ولهذا كانت نسبة الوفيات بينهم أقل من نسبتها لدى المسلمين الذين لم يطبقوا تلك القواعد . وكان

1 - Koury.G. op.cit P.184.

(٢) انظر : الخوري ، عبود . المرتاد في تاريخ حلب وبغداد . ص١٠٠ ، ص١٠١ .

3 - See: Koury. Province of Damascus. P.150.

ثم تاريخ حيدر الشهابي . ص١٩١ . وكذلك الشدياق . أخبار الأعيان في جبل لبنان . ج ١ ، ص٤٤٩ .

الأوربيون الذين يعيشون في مدن الشرق ، أو في دمشق أو يصدف وجودهم فيها إبان الوباء يصطحبون معهم أدويتهم أو أطبائهم . فمثلاً السيدة «استر ستانهوب» الانكليزية التي كانت تقيم في لبنان زارت دمشق في مطلع القرن التاسع عشر وكان يصاحبها طبيبها الخاص[1] وكذلك «جيمس فريزر» الذي كان يعيش في بغداد سنة ١٨٣٤ م/١٢٤٩ ـ ١٢٥٠ هـ كان لا يخرج من بيته إلا وهو حامل معه الأدوية الواقية من الكوليرا [2] .

وعندما انتشر الطاعون في مدينة دمشق سنة ١٨٤٠ م/١٢٥٥ هـ قامت السلطات المصرية باجراءات صحية لم تعهدها دمشق من قبل . فعزلت الاصحاء عن المشتبه بإصابتهم وحجرت على المرضى ويذكر أحد كتاب الحكومة آنئذ «أن الحكيم المصري المسؤول قد أخذ جنينة عبد الرحمن هاشم وعمل فيها كرانتينا .ووضعوا عسكر في الجناين وجنينة عاصم عملوها للمتلوثين وجنينة هاشم إلى المصابين فصار الذي ينطعن في بيته واحد ياخذوا المطعون إلى بيت المطاعين وباقي أهل بيته يأخذوهم لعند الملوثين ويسكروا البيت الذي صار فيه الطاعون وصار حكما الافرنج يحكّموا في الناس مثلما يريدوا لأنه متى ما دخل انسان إلى الكورتينا يصير طلوعه صعباً وحكموا أن كورتينا المطعون أربعين يوماً يوم والملوث ثلاثين يوم وإذا صدف أن أحد الملوثين وجعه رأسه يعيدوا كورتينته وكذلك المطعون لأن في أناس قد استقاموا أربعة أشهر أو أكثر حتى من الجمعة وقع سقط بالعرضي من العسكر بالجناين فلما نظروا وجوه النصارى ذلك اجتمعوا وعملوا ترتيب إذ أخذوا جنينة هاشم إلى خاصة طوائف النصارى فعملوا قاطع دف ما بين الضعفاء والملوثين ورفعوا العسكر من بينهم وصار يقعد خارج المدينة أربعة نصارى إذا مات أحد يحملوه ويتوجهوا يدفنوه[3]» . وأدت هذه الطريقة إلى حصر آثار الوباء وتقليل الخسائر في الأرواح على عكس الجائحات السابقة التي كانت تقضي على عدد كبير من أبناء دمشق .

---

1 - Koury. G. op.cit. P.150.

(٢) انظر : فريزر ، جيمس . رحلة فريزر إلى بغداد .ص٩١ . ترجمة جعفر الخياط بغداد سنة ١٩٦٤ م

(٣) انظر : مجهول ، مذكرات تاريخية . ص٢٠٣ وص٢٠٤ .

الطب ومدارسه في دمشق

كان في دمشق قبل العهد العثماني مدارس أربعة للطب أنشئت ما بين عامي ٦٠٥ و ٦٨٦ هـ وحبست لها الأوقاف اللازمة للصرف عليها وعلى تلامذتها وأساتذتها وموظفيها وصيانتها وقراءة آي الذكر الحكيم على أرواح منشئيها إلى غير ذلك من وجوه البر . وتلك المدارس هي : المدرسة الدخوارية ــ الدنيسيرية ــ اللبودية ــ والربيعية . ولكن هذه المدارس تحولت إلى دور للسكن أو دمرت بفعل الزمن والهزات الأرضية التي ضربت دمشق ولم يعد بناؤها وأكلت أوقافها . ولهذا أصبح الطب في دمشق يؤخذ من منبعين أولهما : كتبه وثانيهما مدارسه في استانبول ثم مصر . أما المنبع الأول فقد بقيت كتبه بين أيدي الأسر الدمشقية ذات الاهتمامات الطبية والتي كانت تلقن أبناءها ذلك العلم وتدربهم على ممارسته . ويذكر لنا أحد الأخباريين المجهولين «أن النصارى في دمشق كانوا أميين وجهلاء وكان لبعضهم معرفة بالطب أخذوه بالإرث وتعلموه بالمزاولة حتى نبغ بعضهم به[1]» .

وكان من أبرز أطباء النصارى في سنة ١٢٠١ هـ/١٧٨٦ ــ ١٧٨٧ م حنا الطبيب الذي كان يقطن حي الزيتون باطن دمشق[2] ثم عطايا الطبيب الذي كان ناظراً على وقف

(١) انظر : حسر اللثام عن نكبات الشام . ص٤٥ . مصر سنة ١٨٩٥ م .

(٢) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / سنة ١٢٠١ ــ ١٢٠٣ هـ . ص٢٢٩ .

ديـر صيدنايـا ١٢٤٧ هـ ١٨٣١ ــ ١٨٣٢ م[١] ومـن اليهود كان في سنـة ١٢٠١ هـ/١٧٨٦ ــ ١٧٨٧ م الطبيب المعلم يوسف اليهودي وكانت دكانه في محلة اليهود بزقاق الزيتون[٢] . ثم الطبيب سعد بن يوسف اليهودي والمعلم هدايا الطبيب اليهودي[٣] الذي توفي سنة ١٢١١ هـ/١٧٩٦ ــ ١٧٩٧ م . وكان طبيباً من اليهود المعلم عبد الحكيم اليهودي[٤] .

أما الأطباء المسلمون فمنهم من أخذ الطب من الآباء والكتب الموجودة لديهم ، وهو ما يطلق عليه اسم الطب القديم ، ومنهم من ذهب إلى استانبول أو القاهرة فالتحق بمدارسه الحديثة .

ولقد برع عدد من أطباء الصنف الأول في دمشق وعالجوا مرضاهم بطرق الطب القديمة فكان منهم سعد عودة بن سلمان بن داوود وأخوه جمال فبرع الأول في الطب واشتهر كرئيس للطب في دمشق وكانت إقامته في العصرونية . وأخذ الطب وفنونه عن أبيه ثم عن شرف الدين الرحبي شيخ الاطباء ورئيسهم . ومن الأطباء أسعد بن ابراهيم الدمشقي الشافعي الشهير بابن حجيج الصوفي المسلك الذي برع في الطب وتخرج عليه في الطب الكثير من رجال دمشق ومات سنة ١٢٤٥ هـ/١٨٢٩ ــ ١٨٣٠ م[٥] ومصطفى بن الحاج الذي كان سكنـه في باب المصلى في الزقـاق الجواني سنـة ١٢١٢ هـ/١٧٩٧ ــ ١٧٩٨ م .[٦] وابـراهيم الخلاصي المتـوفى سنـة ١٢٥٥ هـ/١٨٣٩ ــ ١٨٤٠ م كان يعرف نوع المرض من النبض والقارورة[٧] ومصطفى آغا عودة المتوفى سنة ١٢٨٠ هـ/١٨٦٣ ــ ١٨٦٤ م أحد أطباء دمشق كان يداوي مرضاه بالطب القديم وكان الفقراء يقصدونه من دمشق وقراها فيحسن مداواتهم ويعطيهم العلاج من عنده[٨] . واستخدم بعض الأطباء الرقي والحجابات والتعاويذ وقراءة بعض الآيات

(١) سجل رقم ٣٢٣/سنة ١٢٤٧ هـ . ص١٨٥ .
(٢) السجل رقم ٢٢٠/سنة ١٢٠١ ــ ١٢٠٢ هـ . ص٥ .
(٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/سنة ١٢٠١ ــ ١٢٠٢ هـ . ص٢٢٩ . ثم سجل رقم ٢٠٢/محاكم دمشق / ص٥ .
(٤) انظر : أيضاً السجل رقم ٢٩٠/سنة ١٢١١ ــ ١٢١٢ هـ . ص٣٣٨ .
(٥) انظر : الحصني ، المصدر السابق . ج ٢ ، ص٦٦٣ و ٦٤٦ وص٦٤٨ .
(٦) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٠/٢٣٤ ــ ١٢١١ هـ . ص٣٦ .
(٧) انظر : الشطي . المصدر السابق . ص١١ .
(٨) انظر : الشطي . المصدر السابق . ص٢٨٤ .

من القرآن في معالجة المرضى خاصة ما كان يتعلق بمرض الصرع والجنون . فمثلاً محمد طه غزال الصوفي القادري طريقة كان يعالج المصروعين « فيشفيهم الله على يديه[1] » والشيخ ظبيان الكيلاني كانت الناس تراجعه للاستشفاء فيرقيهم بآيات من القرآن الكريم ويحصل الشفاء . وكذلك ابن الحكم الصاحب كان والده رئيس أطباء دمشق قرأ الطب على والده واعتنى ببقية الفنون ثم زار دار السلطنة وداوى المرضى بالكتابة والتعويذات[2] .

أما الصنف الآخر من أطباء دمشق فهم الذين حصلوا العلوم الطبية من مدارسها في استانبول . فتخرجوا على تلك المدارس ومنهم من استطاب الحياة فأقام فيها كعبد الإسعاد أيوب الخلوتي المتوفى سنة ١١٠٦ هـ/١٦٩٥ م ذهب إلى استانبول لدراسة الطب وكان على صلة وثيقة بشيخ الاسلام وأمضى حياته العلمية في المدارس وأصبح رئيس أطباء بيمارستان في استنبول[3] . ثم ابراهيم صرة أميني المتوفى سنة ١١٨٨ هـ/١٧٧٤ ـــ ١٧٧٥ م درس الطب في استنبول وتزوج ابنة شيخ الاسلام شلبي زادة اسماعيل ثم اعتزل[4] ومن الأطباء من ألف كتباً هامة في علم الطب وترجمت إلى التركية كأبي بكر بن بهران[5] .

وممن أشتهر بالطب في دمشق أيضاً عبد الفتاح بن مغيزل كان له مهارة في علم الطب ومات سنة ١١٩٥ هـ/١٧٨١ م[6] والشيخ عبد القادر الخلاصي كان طبيبا ماهراً قدم والده من حلب إلى دمشق سنة ١٢١١ هـ/١٧٩٧ م[7] واستمر فيها يمارس مهنته الطبية .

ومن جهة ثانية فقد تطفل على مهنة الطب الكثيرون . فمنهم من كسب خبرته بالممارسة والمران ومنهم من كان مشعوذاً ودجالاً . وكان منهم رجال ونساء . فالحلاقون في دمشق قدموا العلاجات الطبية للمرضى ، كخلع الأسنان والاضراس والحجامة باستخدامهم أدوات معينة . ففقؤوا الدمامل وشطبوا ظهور بعض المرضى بالموسى بعد استخدام « كاسات

(١) الشطي . المصدر السابق . ص٢٤٦ .
(٢) الشطي . المصدر السابق . ص١٥٣ .
(٣) المرادي . المصدر السابق . ج ١ ، ص٥١ .
(٤) المرادي . المصدر السابق ج ١ ص٤٢ .
(٥) المرادي . المصدر السابق . ج ١ ، ص٥١ وص٥٢ .
(٦) انظر : المرادي المصدر السابق . ج ٣ ص٤٢ .
(٧) انظر : الشطي محمد جميل . أعيان دمشق . ص١٨٦ .

الهوا» وغير ذلك . وكان من الطبيعي أن ترى على رفوف حوانيت الحلاقين العديد من «الزجاجات المليئة بالمراهم . والدهونات وساحبات الاسنان والمبازل . وبقي الحلاقون حتى مطلع القرن العشرين يقدمون خدمات طبية في أكثر من مجال . ويقول أحمد حلمي العلاف إن الحلاق «كان طبيباً وجراحاً وكحالاً وطبيب أسنان ومزيناً[1]» . وكان يأخذ أجراً معقولاً على ذلك . ففي سنة ١٢٦٤ هـ/١٨٤٧ م دفعت زاهية بنت حسن رسلان ٩ قروش أجرة حكمة للحلاق عبده بن حمزة المحملجي كما دفعت له ثمن لزقات قرشين وكان دكانه في باب المصلى بزقاق الحبالة[2] .

ويرى المؤرخ الأميركي المعاصر بيتر غران أن طريقة العلاج في دمشق لدى بعض مشايخ الصوفية تركزت على إعادة تعريف العلاقة بين العلاج والمريض وبين الطبيب والمريض وأنكرت حركة الاحياء الصوفي نظرية الصفة الجزئية للمرض الجسدي أو العقلي ونظرت للاثنين على أنهما متعلقان ببعضهما البعض ولقد حاولت أن تخلق مناخاً اجتماعياً ملائماً لعلاج دائم[3] .

ولا شك أن الأثر النفسي وثقة المريض بطبيبه يلعبان دوراً في شفائه ، إلا أنه يجب أن يرافق ذلك العقار المناسب أيضاً . على حين نرى أن الشعوذة قد سيطرت على المعالجة دون إعطاء العلاج المناسب في بعض الأحيان وقبل ذلك المرضى لتفشي الجهل بين العامة والخاصة على حد سواء . وبقيت الطرق المتوارثة في العلاج تلعب دورها .

وقامت بعض النسوة بتوليد النساء كقابلات (دايات) وكن يكتسبن الخبرة بالمران . وكانت المرأة الحامل توضع أثناء المخاض على كرسي خاص يساعدها على الولادة . وقامت بعض النسوة بعلاج بعض الأمراض مثل داء القرع الذي يصيب رأس الأطفال ، فيذكر محمد سعيد القاسمي أنه عاصر امرأة في منطقة دمشق تداوي القرع لدى الأطفال مستخدمة في ذلك الدهونات والمراهم والزيوت العقاقير[4] .

وكان بعض الأطباء في دمشق يعالجون المجانين بتقييدهم بالسلاسل وحجزهم في إحدى البيمارستانات مع تقديم بعض العلاج لهم .

(١) انظر : العلاف أحمد حلمي . دمشق في مطلع القرن العشرين . ص١٣٨ و ١٣٩ .
(٢) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩/ ١٢٦٤ — ١٢٦٥/ ص ٨٥.
(٣) انظر : غران . بيتر بحثه في مؤتمر تاريخ بلاد الشام الثاني المنعقد في جامعة دمشق ١٩٧٨ م .
(٤) انظر : قاموس الصناعات الشامية . ج ٣ ، ص٤٦١ .

وبالنسبة لمداواة العيون **كان هناك الكحال والكحالة** . وبرز من الكحالين في دمشق سنة ١٢١١ هـ الحاج محمد بن عرفه الكحال الذي كان دكانه في صالحية دمشق في سوق الشركسية[1] وفي سنة ١٢٢٢ هـ برز السيد عبد الله الكحال . وأدلى الدجالون بدلوهم في هذا المجال فكانوا « يخبطون خبط عشواء ويتلاعبون بأعين الناس بدون علم ولا تبصر ، بموطن الحدقة فيعطونهم الكحل المعروف بالحجر وغيره وترى دائماً عين المريض ملطخة بالأوساخ ويتحمل الألم جملة أيام حتى يزول العارض بنفسه[2] » .

وكان هناك من يعالج الاسهالات كما رأينا سابقاً في البيمارستان القيمري بالصالحية[3] . وهناك من يقوم بمداخلات جراحية في الجسم ويطلق عليه اسم الجراح . ويقول محمد سعيد القاسمي : «إن مهنة الجراحة قسم من أقسام الطب الرائجة وصاحبها يتعاطى المجاريح بالتفتيش عليهم وبوضع اللصوق والمراهم سواء كانت بجراحة أصلية أم عرضية وهذه الصنعة ليس منها كساد سيما في مثل بلدنا فلا نجد الجرائحي كاسداً أبداً وهو ثري غالباً سيما ان اشتهر وساعده الحظ فالشهرة والحظ هما أعظم رأسمال الانسان[4] » .

ولقد استخدم الأطباء العديد من الأدوات الطبية وخاصة مايتعلق بالجراحة ومنها المراود وآلات استخراج الشوك وآلات حفظ الصفاق وأنابيب مختلفة ومسبارات للخراجات والنواصير وغيرها. والبيرم والجبيرة — والجفت وأدراج المكاحل — ودسة المباضع ذات الشعبتين والرمانة — والسكين والمباضع والمناخز — والمساعط والمشداخ والمشارط والمكابس والطبر والموسى والمنجل والمهت وجركان الابرة[5] .

ولقد أقام أطباء دمشق دكاكينهم (عياداتهم) في أسواق دمشق يذهبون منها إلى دور المرضى الأغنياء حسب طلبهم[6] . كما استقبلوا المرضى في عياداتهم تلك ولكننا لم نحصل على

---

(١) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٠/٢٣٩ — ١٢١١ هـ ، ص٢٩٨ . ثم سجلها رقم ١٢٢٢/٢٦٠ — ١٢٢٣ هـ . ص١٧ .

(٢) انظر : القاسمي محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ . ص٣٨٥ .

(٣) انظر : المصدر السابق ج ٢ ، ص٤٦١ .

(٤) انظر : المصدر السابق . ج ١ ، ص٧٨ ، ص٧٩ .

(٥) عدد الدكتور أحمد عيسى بك في كتابه (آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب) أكثر من ستين آلة طبية. كما عرض صوراً لها في نهاية كتابه ووضح استخدام كل آلة من تلك الآلات الطبية وذلك في صفحات كتابه المذكور ما بين ص٧ وص٢٣ .

(٦) انظر : القاسمي محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص٢٨٩ .

وصف حي لزيارة الأطباء لمرضاهم في بيوتهم في دمشق على حين أورد «ألكس راسل» وصفاً حياً لزيارة بعض أطباء حلب لمرضاهم في منازلهم ويورد مثالاً على ذلك زيارة الطبيب لإحدى المريضات الغنيات ، حيث تراعى في مثل هذه الحالة التقاليد الاجتماعية في الاحتجاب فيقول : « ينتظر الطبيب في الخارج حتى يخلى الحرملك الموجودة فيه المريضة من النساء فتقوم النساء بوضع الحجاب ثم يخلين الحرملك الذي سيدخله الطبيب وعندما يؤذن للطبيب بالدخول يقوم العبد المرافق له بالمناداة بصوت مرتفع اعمل درب (اعطوا طريق) وهذه العبارة تعتبر تنبيهاً منه لأهل البيت في اتخاذ إجراءات التحجب وإخلاء غرفة المريضة من النساء بعد إسبالهن الحجاب ويستمر العبد بتكرار عبارة (درب درب الحكيم جاييه) وإذا ما صادف الطبيب ورأى بعض النسوة سافرات في إحدى حجرات البيت فمن الواجب عليه حينئذ ، أن يغض طرفه ويشيح بنظره إلى جهة معاكسة . أما وجه المريضة فيكون مغطى بنقاب ناعم . فيتقدم منها ليجس نبضها ، وكانت الفكرة السائدة لدى الجميع أن الطبيب إذا ما أراد معرفة المرض عليه باديء ذي بدء أن يجس نبض المريض (دس مفصلُ) . فتقوم المريضة بتقديم يدها للطبيب وتشرح للطبيب آلامها وما تعانيه وتحدد له مكان الآلام وحالتها بالتفصيل وتجيب على أسئلة الطبيب ، وإذا ما احتاج الأمر من المريضة ، أن تفتح فمها أو تبرز لسانها ، فعليها أن تزيح النقاب عن وجهها ولكنها لا تزيحه عن شعرها إطلاقاً مهما مست الحاجة أو كانت الأسباب وبعد ذلك يصف الطبيب العلاج ويأخذ أجرته وينصرف[1] » .

وبقي الطب القديم سائداً في دمشق إلى أن بدأ أبناؤها ينهلون معارفه من منبعه (استنبول) حيث أقيمت المدارس له وللصيدلة على الطرق الأوربية ، وقام بالتدريس مدرسون أوربيون واعتمدوا في ذلك المناهج الأوربية وتم ذلك في عهد السلطان محمود الثاني الذي أقام مكتباً طبياً في سراي غلطة من أجل تعليم الطب لابناء الامبراطورية[2] وكان أول احتكاك للدمشقيين بالمدارس الغربية في عهد ابراهيم باشا ، عندما قتل البادري توما سنة

1 - Russell. op.cit. VOL.1.F.245.

وهناك بعض الإشارات في سجلات محاكم دمشق إلى أجرة قدم الطبيب أو الجراح وثمن الأدوية التي يدفعها المريض . انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦/ص٢٢٠ القضية رقم ٤٦١ .

(٢) انظر : غران بيتر . بحثه الأسس الاجتماعية في دمشق ص٢٦٨ في مؤتمر تاريخ بلاد الشام الثاني في دمشق ١٩٧٨ م .

١٨٤٠ م/١٢٥٥ هـ/١٢٥٦ في دمشق وكشف على عظامه أطباء أوربيون ونصارى واسلام ومنهم ميخائيل مشاقة[١] .

كما ضمت حملة ابراهيم باشا عدداً من الأطباء الأوربيين والممرضين «التومرجية» وأبرز أطباء الحملة كان كلوط بيك وريناالدي وفينولو (طبيب الكورتينا) ومصارى (طبيب الحكمدارية) ولوداسو (باشة الاسبتارية) وبيكولو ومن الأطباء المسلمين والعرب خليل الجراح والحاج محمد مستو الساطي طالب (جراح باشة) والسيد الطبيب محمود أمين صخر والسيد محمد بن السيد موسى وغيرهم[٢] .

ولقد شاهدت دمشق أولى الطرق الأوربية في العلاج والوقاية على يد الراهب الافرنجي الكبوشي البادري توما والذي أقام في دمشق بدءاً من سنة ١٨٠٧ م «كان كاره يدق إلى الجدري في الشام للنصارى والاسلام واليهود[٣]» .

وذهب بعض الدماشقة إلى مصر لتعلم الطب الحديث بعد أن استقدم محمد علي باشا أطباء (فرنسيين وطليان ونمساويين) للتدريس في مدارس الطب التي أقيمت في أبي زعبل والقصر العيني في القاهرة وأشهر الأطباء الشاميين الذين تخرجوا على تلك المدارس ابراهيم بك النجار المولود في دير القمر سنة ١٢٣٨ هـ/١٨٢١ ــ ١٨٢٢ م واتصل هذا الطبيب بالدكتور كلوط بك[٤] الذي كان رئيس أطباء العساكر المصرية سنة ١٢٥٣ هـ/١٨٣٧ ــ ١٨٣٨ م ولقد قام كلوط بك[٥] بادخاله مع العديد من السوريين في مدرسة القصر العيني ونال شهادته سنة ١٢٥٨ هـ/١٨٤٢ ــ ١٨٤٣ م . ثم ذهب إلى الاستانة ودرس على اساتذتها المتطببين وعينته الدولة العلية كطبيب للعساكر الشاهانية في

(١) انظر : مجهول ، مذكرات تاريخية . ص١١٣ إلى ص١٢١ .

(٢) انظر : رستم أسد ، المرجع السابق . ج ٥ ص١٣ وص١٤ . ثم فطير صهيون . ص٤٥ وص٥٨ وص٥٩ تحقيق ــ مصطفى طلاس دمشق ١٩٨٤ م . ثم سجل القسمة البلدية بدمشق رقم ١٢٤٧/٢٧ ــ ١٢٤٩ هـ ص١٢١ حيث ورد فيه أن حسين بن محمد العطار قد تخرج عليه العديد من أطباء دمشق .

(٣) انظر : مجهول . مذكرات تاريخية . ص١١٣ ثم . رستم أسد المرجع السابق . المجلد ٣ ــ ٤ ص٣٤ وص٣٥ .

(٤) انظر الحصني . المصدر السابق . ج ٢ ص٦٤٦ ــ ٦٤٨ .

(٥) كلوط بك هو طبيب فرنسي أسس الاصطلاحات الطبية في الديار المصرية أيام محمد علي الكبير ويعتبر من مؤسسي الطب الحديث .

بيمارستان بيروت العسكري[1] ثم **الدكتور ميخائيل مشاقة** الذي انضم إلى ابراهيم باشا المصري في عكا ورافقه في زحفه على دمشق وأخذ يطبب المصابين بالكوليرا ثم ترك دمشق وذهب إلى دير القمر ليعمل في مهنة الطب للمعاش . واتصل أيضاً بكلوط بك سنة ١٨٤١ م/١٢٥٦ هـ . وذهب إثر ذلك إلى مصر ليلتحق بمدرسة القصر العيني الطبية وحصل فيها على (دبلوماً) ولقب دكتور في الطب[2] .

ورغم انتشار طرق الطب الحديث في دمشق على يد هؤلاء الأطباء إلا أن الطرائق القديمة استمرت في دمشق جنباً إلى جنب مع الحديثة حتى تغلبت الطرق الحديثة على القديمة في مطلع القرن العشرين . ويبدو أن الطرق الحديثة بدأت تكسب رضى الجماهير وثقة الفئة الواعية من الشعب الدمشقي مما دفع بمحمد سعيد القاسمي للتعليق على أصحاب الطرق القديمة والمتطفلين على مهنة الطب بقوله : « لا يعرفون تشخيص الداء فهذا محرم عليهم شرعاً . ينصبون أنفسهم أطباء فهو مثل الخمر إثمه أكبر من نفعه ومن ذا يسمح لجاهل أن يلعب بروحه[3] » .

ومن جهة أخرى فقد تطور علم الصيدلة[4] ودخلت طرقه الغربية إلى دمشق مع الطب الغربي الحديث ويقول محمد سعيد القاسمي : « هناك نوعان من بائعي الأدوية أولهما الصيدلاني وهو الذي يبيع العلاجات كالحشائش والزهورات والبزورات وما أشبه وكانت هذه الحرفة في غاية الرواج حتى ظهور الأخزخانة فأصابها الكساد والاخزخاني في وقتنا الحاضر هو الصيدلاني الذي يقدم العلاج على الطريقة الغربية »[5] .

---

(١) مردم بك خليل . أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع . ص٢٣٩ .

(٢) انظر : عيسى بك أحمد . معجم الأطباء . ص٤٩٧ . مصر سنة ١٢٦١ هـ ١٩٤٢ م .

(٣) انظر : قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ص٢٨٩ .

(٤) يقول أحمد حلمي العلاف : إن الصيدلة كانت معدومة تماماً في دمشق ، ومنحصرة في حوانيت العطارين ، وأشهرهم برو العطار أي ابراهيم العطار ، وأقدم صيدلية عرفت في دمشق هي صيدلية سليم فارس في سوق البزورية ، ولم تكن بشكل فني لأن الأطباء أنفسهم يطببون ويعطون الدواء من عندهم ، فإذا احتاجوا إلى دواء غريب أجنبي أمروا ذوي المريض شراء الدواء من تلك الصيدلية ، أما الأدوية التي تؤخذ من العطارين فهي : شرش الزنجبيل — الطيون صفرة — وشمبر — وهوا جواني ودم الأخوين — وخولان — وحص لبان ذكر — وحبة القطة — والقرفة والقرنفل — وجوزة الطيب . الخ ... أنظر : كتابه دمشق في مطلع القرن العشرين ص١٣٩ .

(٥) انظر : قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص٢٧٩ .

بردى والسقايات في دمشق

يعتقد الكثيرون من علماء الجغرافيا أنه لو لم يكن بردى لما كانت دمشق فهي هبته لأن منطقتها قليلة الأمطار إذا ما قيست بالمناطق المطيرة في سورية ولهذا لا نرى زراعة بعلية يعتد بها وتساعد على استقرار السكان ، خاصة وأنه قد تمر سنوات عديدة تشح فيها السماء بالأمطار أو الثلوج ، وما يهطل منها يقصر عن حاجة الانبات ويعود ذلك للتضاريس الغربية والشمالية الغربية المتمثلة في سلسلة جبال لبنان وحرمون التي تتلقى الغيوم فتمنعها عن منطقة دمشق إلا اليسير منها ، ورغم ذلك فقد لعبت تلك التضاريس العالية دوراً إيجابياً من ناحية أخرى ، حيث أمدت بالمياه الحوض الجوفي الذي يغذي بدوره نبع بردى والذي ينبجس من سفوح جبل الزبداني الشرقية ويتجه إلى الشرق فيخلق بذلك أسباب الحياة في واديه ويرفده عند قرية الفيجة نبعها الغزير ، ثم ترفده بعد ذلك ينابيع عين الخضراء وغيرها . ويتفرع قبل دخوله دمشق إلى فروع عدة كان للإنسان دوره فيها خلال فترات تاريخية مختلفة ، ففرع تورا ويزيد يرويان سفوح قاسيون والصالحية ثم (بردى الأصل في أسفل الوادي) وفرع الديراني يروي المزة وداريا وكفر سوسة وغيرها ، وبانياس والقنوات يغذيان المدينة وقلعتها وأرياضها . وتتفرع هذه الفروع بدورها إلى فروع أصغر .. مشكلة سواقي وجداول وأقنية وتتشعب في بساتينها وغوطتها كالشعيرات الدموية فتهب الخضرة والري لزراعتها . ويصعب في هذا المجال ذكر هذه التشعبات بكاملها وحسبنا هنا أن نذكر بعضها مثل : لدان الكبير ـــ والصغير ـــ

ومجدول — وداعية — وحبوة — **والزلف** — والقومة العليا — والقومة السفلى — والذابون والملك — وغيرها .

ولقد لعب بردى دوراً كبيراً جعل المناطق المطلة عليه مسكونة منذ فجر التاريخ فنرى آثار الانسان الأول الذي سكن الكهوف منحوتة على يديه في وادي بردى قرب (سوق بردى) وهي ما زالت ماثلة للعيان حتى الآن ولها أبواب منحوتة في الصخر على شكل مستطيل مع بعض الصور النافرة للانسان والحيوان إلا أن هذه الصور غير متقنة مما يدل على بساطة الأدوات المستخدمة في ذلك وبدائية ذوق الناحت .

وما يهمنا من بردى فروعه التي تروي مدينة دمشق وتهبها الماء والحياة والجمال ، فانبجست في أرض مدينة دمشق وغوطتها هنا وهنالك ينابيع عديدة ويذكر ابن بدران نقلاً عن أبي البقاء البدري (أنه في ظاهر باب السلامة إلى حد باب توما ثلاثمائة وستون عيناً تجري إلى القبلة وقال البدري رأيت أغلبها وارتويت من أعذبها)[1] .

كما يذكر ابن عساكر مؤرخ دمشق الكبير أن قنوات دمشق بلغت ١٣٠ في داخلها و ٢٠ قناة في ظاهرها[2] .

ولقد ارتوى سكان دمشق وأرباضها من فروع بردى وتدخل الانسان في سوق مياه بعض فروعه إلى المنازل والمنشآت العامة والأسواق . وأهم هذه الفروع تورا والقنوات وبانياس حيث كانت بقية فروع النهر تتعرض للأوساخ[3] ويختص تورا بالأحياء الواقعة على الضفة اليسرى من نهر بردى ويختص بانياس بالأحياء الواقعة على الضفة اليمنى بين القلعة والجامع الأموي وحارة القيمرية ويصل من باب توما ثم القنوات فيغذي الأحياء الواقعة إلى الجنوب من الخط المذكور ويتولى فرع يزيد إرواء الصالحية والأكراد أما الداراني فتروي مياهه حي الميدان[4] وغيرها . ويعتقد أن أول من حاول جر المياه النظيفة في أقنية خاصة إلى داخل المدينة هم اليونان عندما كانت تحت حكمهم[5] . لكن لم تجر هذه المياه بدءاً من منابع الأنهار ولذلك

---

(١) انظر : ابن بدران ، عبد القادر منادمة الاطلال ومسامرة الخيال . ص٣٩٦ وص٤٠٧ وص٤٧٨ .

(٢) انظر : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق . تقسيم نوب الماء . المجلد ١٠ ، ص٤١٣/سنة ١٩٣٠ م

(٣) انظر : خير ، صفوح . دمشق . ص٤٨٣ ، ص٤٨٤ .

(٤) انظر : الصيادي ، محمد عز الدين . الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية . ص٢١ ص٢٢ .

(٥) انظر : البدري ، أبو البقاء . نزهة الأنام . ص٥ .

بقيت تتعرض للأوساخ وتعرضت مجاريها للردم خاصة في فترات الفيضان أو الزلازل أو انهيار الصخور في مجاريها . واعتاد أبناء دمشق منذ فترة لا نعرفها على تعزيل هذه المجاري .

وفي فترة دراستنا يصف محمد سعيد القاسمي عملية التعزيل لفروع بردى فيقول : «إن أصحاب نهري يزيد وتورا يقطعون ماءهما عن المجريين ويجعلانهما يصبان في مجرى بردى بإذن رسمي من الدولة ويكون القطع من الثامن عشر من شهر شباط (فبراير) إلى الخامس من شهر مارس (آذار) ويأتون بأصحاب هذه الحرفة فيكرونهم وهم عدد كثير يأتون بمرور وفؤوس ومجارف وقفف فكل ما يجمع من أوساخ أو أحجار وغيره في دور السنة يرفعونه من أرض (مجرى) تلك الأنهار وهكذا بالنسبة لنهر المزة (الديراني) وغير ذلك يقطع نهر القنوات وبعده بانياس وفي زمن الصيف حيث يقل الماء يعزل نهر بردى وتتم هذه العملية كل عام[1]» .

وكان لانقطاع مياه النهر عن المدينة أثره السيء للغاية على أبنائها . فالماء لم يكن لسد حاجة الشرب والطبخ فحسب ، إذ لو كانت كذلك لسدوها من مياه الآبار وبعض العيون . ولكن الحاجة إليه كانت تبرز في توفير النظافة للجوامع والكنائس وللمصلين وللمنشآت العامة كالمدارس والخوانق والزوايا والخانات والحمامات . والمستشفيات والأسواق وغيرها . ولتوفير أسباب الرطوبة اللازمة للتخفيف من وطأة حر الصيف وهذا لا يتحقق إلا بمياه السبلان والسقايات والنوافير وبرك الماء داخل هذه المنشآت وخارجها والتي تغذيها مياه الطوالع من الأنهار . ولهذا كان الحكام وولاة دمشق العثمانيون يسرعون إلى إصلاح مجاري الأنهار وطوالع المياه إذا ما أصابه تلف أو عطل لما في ذلك من نفع عام لمدينة دمشق وأبنائها . وحسبنا هنا أن نسوق مثالاً على ذلك ما أصاب منطقة دمشق في سنة ١١٧٣ هـ/١٧٥٩ م . إثر الزلزال الذي ضربها . فقد أصيبت مجاري فروع بردى بأضرار بالغة فتشققت بعض المجاري وتلفت أقنية طوالع الماء وانقطعت المياه عن المدينة فزاد في شقاء أهلها ومعاناتهم ، فأمر الوالي العثماني بإزالة الحجارة الكبير التي سقطت في مجرى النهر وترميمها ، فأعاد المياه إلى مجاريها بالإضافة إلى فرع تورا ويزيد اللذين يقدمان المياه للمدينة . ويذكر الإخباري الدمشقي أحمد البديري الحلاق أن والي دمشق سليمان باشا العظم قام بذلك من ماله الخاص وأن الترميم كان في غاية الضبط «ما سبقه أحد إليه من عهد

(١) انظر : قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ . ص٢١٧ ، ص٢١٨ .

اصلاحها من أيام التيمور وتمت العملية بخمسة عشر يوماً بدءاً من أول مربعانية الصيف ولما تم أمر بإطلاق النهر فكان اطلاقه على أهل دمشق فرجة من أبهى الفرج[1] » .

ولغزارة المياه لم يحسب حساب لهدرها في دمشق ، إلا في بعض فصول السنة كفترة التحاريق ، والجفاف ولهذا غطت شبكة المياه معظم أحيائها وأسواقها ومنشآتها العامة . وكان لكل شارع أو حارة أو دخلة طالع خاص بها تستقي بيوتها ومنشآتها منه الماء بنسب معينة (تقدر بالقيراط) وتقاس بالاصبع وذلك لاختلاف غزارة المياه بين فصل وآخر . ولعبت المراتب الاجتماعية بين العائلات دوراً في توزيع المياه فحصل بعضها على حق استخدام فروع ثانوية[2] عند الحاجة .

ونتيجة لأهمية المياه في دمشق كانت تباع مقاديرها بموجب حجج شرعية مع العقار . ونسوق مثالا على ذلك أحد بيوت محلة الراعي الذي كان يستقي الماء بمقدار اصبع واحدة وربع اصبع بموجب الحجر الأسود المركب على الطالع المزبور . والإصبع هو جزء من الذراع القاسمي[3] . وكانوا يتحكمون بذلك اعتماداً على صناعة القساطل الفخارية بالثخن المطلوب .

أما طالع الماء فهو عبارة عن حوض بشكل متوازي المستطيلات يأخذ ماءه من فرع رئيس من النهر . ويطلق على نقطة انطلاق الماء من النهر إلى الطالع اسم (الماصيّة) فمنها ينطلق الماء بأنابيب فخارية محكمة القفل إلى الطالع ومنه بأنابيب فرعية إلى الدور والمنشآت المختلفة كل منها بحسب النسب المقررة لها . وهكذا كانت السقايات والسبلان يتدفق منها الماء في شوارع وأسواق وحارات دمشق . وجعل السكان الماء يتدفق في برك ونوافير ضمن المنازل . وقاموا ببناء تلك البحرات والنوافير بأشكال مختلفة . فتوفر الماء للسقاية والشرب والطبخ والاستحمام والنظافة بشكل عام . ولعب تدفق المياه في قاعات الجلوس والاستقبال دوراً في تخفيف وطأة الحر في الصيف .

وكان لهذه البحرات (والبرك) أقنية تذهب فيها المياه إلى المطابخ والجنائن والسبلان أو إلى المراحيض فأقنية الماء المالح ، لترفد أقنية أخرى رئيسية تصب في الخندق فنهر قليط .

وزاد العهد العثماني في السقايات والسبلان سواء بما أوجده منها في الشوارع أو القصور . أو المنشآت ذات النفع العام ، أو ترميم ما تهدم منها بفعل الزمن والهزات

---

(١) انظر : حوادث دمشق اليومية . ص٤٠ .

(٢) خير ، صفوح . دمشق ... ص٤٨٦ وص٤٨٧ .

(٣) سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/سنة ١٢٠١ ــ ١٢٠٢ هـ ، ص٢٦ وص٥٧ .

الأرضية . ولا نجد جامعاً أو مدرسة أو تكية أو زاوية أنشئت في هذه الفترة إلا وأقيمت فيها البحرات والسبلان مراعين في ذلك نمط البناء الرومي . وترى ذلك واضحاً في بحرة جامع السنانية وبحرة قصر أسعد باشا العظم والتكية السليمانية والسليمية ومدرسة عبد الله باشا العظم واسماعيل باشا في البزورية .

ومن جهة أخرى أقام بعض الولاة والمحسنون من الحكام وغيرهم السبلان والسقايات وحبسوا لها الأوقاف لصيانتها زلفى لله ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، ففي سنة ١٢٠٢ هـ/١٧٨٨ م أقام أحد أعيان بني السفرجلاني سبيل ماء في زقاق المليحي باطن دمشق وكان يستمد ماءه من الطالع المجاور للحمام الناصري الذي يأتيه الماء من نهر القنوات[1] .

وعين في دمشق موظفون مخصصون لضمان تدفق الأنهار إلى الطوالع ومنها إلى أماكن استهلاكها ، وأطلق على الواحد منهم اسم « الشاوي » وكانت مهمته التفتيش على طوالع الماء التي تحت نظره ومراقبتها وتنظيفها من الأوساخ وورق الأشجار كي لا يدخل في قساطلها فيسدها ، ويقوم بمنع تسرب المياه إلى غير الجهة المقصودة وذلك بسده المجرى بقصاصة الجلود في فم الطالع[2] . ويقوم الشاوي أيضاً بمراقبة الطالع بشكل دائم لاصلاح أي عطل في مجراه . وكان للشاوي خبرة في سحب المياه من الأنهار إلى الطوالع ومنها إلى أماكن استهلاكها . وينفذ ذلك بالتعاون مع بعض العمال ، بشق طريق جديد لقسطل جديد عندما يطلب منه ذلك ، ويراعى عند تركيبه للقساطل الفخارية ادخال رأس القسطل الضيق في طرف القسطل الآخر الأكثر اتساعاً وهكذا لتدفن في لحد من أحجار وفخار ، إلى أن يصل بين مصدر التغذية بالمياه ومكان استهلاكه . وكانت مفاصل تلك القساطل تلحم بقطعة من اللامونة وهي ما عملت من مدقوق القطن وقليل الكلس مع الزيت الخالص تدق مع بعضها

---

(١) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠/سنة ١٢٠١ — ١٢٠٢ هـ ، ص٥٤٩ .

(٢) الطالع عبارة عن خزان ماء محكم القفل لا يسمح بتسرب الماء خارج القساطل ويخصص للمارة أو السوق — أو المنشآت المختلفة ويتغذى بمياه النهر بواسطة انبوب رئيسي يدخل إليه من الأعلى ليسمح بترسيب الرمل العالق وغيره ومن أسفله تخرج أنابيب صغيرة لتوصيل الماء إلى أماكن استهلاكها . ونورد مثالاً على ذلك طالع سوق البزورية الذي يقع على باب حمام نور الدين الشهيد على يمين الداخل ، وكذلك طالع زقاق السروجي في الشاغور البراني ويقع إلى يمين الداخل إلى مقام السروجي . تحققت من ذلك بزيارة ميدانية في ١٩٨١/١/١٦ م .

ذقاً جيداً وتلحم بها تلك الوصلات فتضبطها وتمنع تسرب الماء من خلالها . أما مدفن تلك الأنابيب فكان متيناً ليحافظ على القسطل وكانت هذه الحرفة مهمة بدمشق يتعاطاها المسيحيون ولهم بها مهارة[1] .

أما السقايات فكانت منشآت ذات نفع عام أقامها الولاة والحكام والاغنياء والتجار والمحسنون وغيرهم في أحياء دمشق وشوارعها وأسواقها أو في جوامعها وكنائسها وبيعها ومدارسها وزواياها وتكاياها وربطها وحماماتها وتربها وبالقرب من بيوت القهوة والخانات . واستمدت مياهها من قسطل خاص تدفق في جرن أو في بحرة مباشرة . فكان الناس يشربون ويأخذون حاجتهم من الماء من الجرن . وأما الحيوانات فكانت تشرب من البرك الموجودة تحته أو من السبلان . ولقد حاولنا رصد أهم السبلان والسقايات في دمشق في فترة دراستنا فكانت على الشكل الآتي : سبيلا الجامع الأموي كانا على جانب النوفرة أنشأهما التاجر حسن بن القوتلي[2] بالإضافة إلى أربع سقايات من جهاته الأربع كانت موجودة من قبل[3] ثم مسجد الجلادين الذي يقع بالمقلاص عنده سقاية وقناة ماء[4] . ثم مسجد درب الحجر له بابان على أحدهما قناة وعلى الآخر سقاية ثم مسجد ابن الجسط وعلى بابه سقاية[5] ثم مسجد الوزير في السويقة بقربه سقاية مجردة[6] . ثم مسجد النبطون على بابه سقاية[7] ثم مسجد الزيني في سويقة باب توما عند بابه قناة قديمة وسقاية مستجدة[8] ثم مسجد الغورنق الذي يعرف اليوم بالجنيق كان كنيسة للنصارى على بابه سقاية مستجدة بناها نور الدين[9] ومسجد رحبة البصل عنده سقاية[10] ومسجد سوق الغنم كان فيه كاس يجري فيه الماء[11]

---

(١) القاسمي محمد سعيد . المصدر السابق . ج٢ ، ص٢٦٥ .

(٢) انظر : الشطي ، محمد جميل . آعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر ص٤٢ .

(٣) انظر : البدري ، أبو البقاء . نزهة الأنام في محاسن الشام . ص٥٦٦ .

(٤) انظر : النعيمي عبد القادر . الدارس في تاريخ المدارس . ص٣٠ .

(٥) المصدر السابق ، ص٣١٨ .

(٦) المصدر السابق ، ص٣١٩ .

(٧) المصدر السابق ، ص٣٢٠ .

(٨) المصدر السابق ، ص٣٢٢ .

(٩) المصدر السابق ، ص٣٢٧ .

(١٠) المصدر السابق ، ص٣٢٨ .

(١١) المصدر السابق ، ص٣٣٢ .

وكانت بعض الجوامع والمساجد تحوي على برك ماء بالإضافة إلى السقايات مثل جامع التوبة في حي العقيبة به بركة ماء مربعة يجري إليها الماء من عين الكرش ونهر تورا وفيه سقاية من نهر تورا[1] ثم جامع مازي في الميدان الفوقاني فيه سقاية وبركة مثمنة[2] وكنا نرى بعض الجوامع بها الماء جارٍ في بيوت الخلاء . فجامع الربوة كان صحنه مفروشاً بفصوص الرخام وفيها سقاية ماء رائعة الحسن ومطهرة فيها بيوت عدة يجري فيها الماء[3] .

أما البحرات فبنيت بأشكال هندسية مختلفة ومن حجارة متباينة كالبازلتية السوداء الصلبة أو الحجارة المزّية البيضاء والرخامية وغيرها . وثبت على جدران بعضها لوحات صخرية كتب عليها ، بخطوط مختلفة (نافرة أو محفورة) ، اسم منشئها أو بعض من آيات القرآن أو أبيات من الشعر وسنة تشييدها . ومن أجمل سقايات دمشق التي ما زالت قائمة حتى الآن « سقاية السروجي » في حي الشاغور البراني . ويعتقد البعض أن أصولها تعود إلى العهد الروماني وتتألف من ميزاب يتدفق منه الماء إلى أجران ثلاثة فوق بعضها مثبتة على الجدار بشكل متدرج بحيث يتدفق الماء من الجرن الأول إلى الثاني ومنه إلى الثالث فبركة الماء وما يفيض منها إلى مصرف الماء المالح . أما شكل البركة فنصف دائري مبنية من حجارة البازلت السوداء وتتدلى من حائطها كرتان حجريتان من البازلت بالإضافة إلى كرتين حجريتين بشكل كمي الورد الجوري الدمشقي[4] . ولقد تباينت هندسة السقايات فكان منها البسيط أو المفعم بالزخارف والمقرنصات والتزيينات النباتية المختلفة . وفي النموذج الأول ترى الجرن من البازلت أو الحجارة المزية أو الرخام ضمن بركة من حجارة عادية ، وما يفيض من مائها يساق إلى مصرف الماء المالح كما في سقاية جامع الطفطانية في حارة الأصلاح ضمن حي الشاغور الجواني .

أما النموذج الثاني فهو أكثر غنى بالزخارف النباتية والحيوانية ومثال ذلك سقاية سوق القطن التي تقع في الجهة الشمالية منه .

أما الفسقيات داخل البحرات فيأتيها الماء من طوالع خاصة وكانت بأشكال متنوعة

---

(١) انظر : ابن عبد الهادي ، يوسف . ثمار المقاصد في ذكر المساجد . ص٢٠٢ .
(٢) انظر : المصدر السابق ، ص٢٥٠ .
(٣) انظر : رحلة ابن بطوطة . ص١٠٣ .
(٤) تحققت من ذلك اثر زيارتي الميدانية لموقعها بتاريخ ١٩٨١/٢/١٥ م .

فمنها ما هو على شكل محارة أو قصعة أو حيوان أو طير . وكانت ترفع هذه الفسقيات على قسطل في وسط البحرة يتدفق منها الماء إلى البحرة . أما بعض الفسقيات الأخرى فمثبت على حواف البحرات من الأعلى فينفر الماء منها إلى حوض البحرة .

ولقد تباينت تلك البحرات بأشكالها الهندسية المختلفة . فكان منها المستطيل والمربع والمخمس والمسدس والمسبع والمثمن الشكل والاضلاع ، ومنها الدائري والبيضوي والأهليلجي والدائري المخصر . ونلاحظ تلك الأشكال في بحرات قصري أسعد باشا العظم في البزورية وقصر فوزي باشا العظم في سوق ساروجا وجامع الدرويشية والسنانية ومصطفى لالا باشا ومدرسة اسماعيل باشا وعبد الله باشا العظم وغيرها .

ولعل بحرة التكية السليمانية في المرج الأخضر هي أجمل بحرات الماء وفسقياتها في دمشق وأكثرها إتساعاً والتي بنيت على النمط الرومي في عهد السلطان سليمان القانوني . فهي على شكل مستطيل من الحجارة البلقاء (أبيض وأسود) وهي ليست عميقة لكنها واسعة في وسطها عمود مفرغ ترتكز عليه الفسقية على شكل قصعة ٣ انش (بوصة) ، وتصرف المياه الفائضة إلى نهر بردى بواسطة قساطل الصرف . وهي ما زالت إلى الآن على حالها السابق وكانت مياهها تستخدم لوضوء المصلين ونظافة التكية . وهناك بحيرة أخرى ذات شأن تقع بالقرب من مشهد الحسين بالجامع الأموي حيث يوجد دهليز به حوض ماء صغير يخرج الماءُ منه بقوة حيث يرتفع نحو القامة في غلظ الزند العظيم البللوري وحوله أنابيب صغار ترمي الماء عالياً فيخرج كقضبان اللجين وكأنها أغصان تلك الدوحة المائية أبدع من أن يوصف وهذا الماء لا يزال جارياً مصعداً منحدراً دائماً وأبداً على هذا الوضع والأسلوب به حسن الصوت يزيد في العقول ويشدي القلوب[1] .

هذا ناهيك عن العديد منها الموجود في قصر أسعد باشا العظم وخانه الموجودان في البزورية ثم في جامع سنان باشا الموجود بالقرب من باب الجابية ثم جامع درويش باشا الموجود في الشمال الغربي من جامع السنانية ومدرسة اسماعيل باشا العظم بالخياطين ومدرسة عبد

(١) انظر : البدري ، أبو البقاء . نزهة الأنام في محاسن الشام . ص٥٨ . ثم : الخياري ، ابراهيم بن عبد الرحمن . تحفة الأدباء وسلوة الغرباء . ص١٦٩ .

الله باشا بالقرب من سوق البزورية وخان الحماصنة والمدرسة المرادية والفتحية في القيمرية وغيرها كثير .

وإذا ما وجدت إحدى المنشآت العامة فوق منسوب مجرى النهر المجاور سيق الماء إليها بواسطة الشادوف الذي دورته الحيوانات أو بواسطة النواعير التي ركبت على مجرى النهر لترفع الماء إلى منسوب أعلى من منسوب أرضية المنشآت وهكذا . ونورد مثالاً على ذلك البيمارستان القيمري في الصالحية حيث سيق إليه الماء من نهر يزيد بعد رفعه بالنواعير ثم جامع تنكز الذي يقع غرب قلعة دمشق فقد سيقت إليه المياه بعد رفعها من نهر بانياس بالنواعير . ولم يقتصر استخدام النواعير على مدينة دمشق وأرياضها بل استخدمت في قرى الغوطة وركبت على الآبار وكانت تحركها الحيوانات عوضاً عن تيار ماء النهر وكان هذا النوع من النواعير يختلف عن نواعير دمشق المركبة على الأنهار وهي عبارة عن سطول كبيرة من الخشب مربوطة بحبل من الليف ومركبة فوق ذلك الدولاب تديرها دابة على مدار ملتصق بذلك الدولاب فيخرج الماء ليذهب إلى الخزان[1] .

وبذلك حفرت العديد من الآبار في المنشآت المحرومة من مياه الأنهار والتي ترتفع أرضية بنائها عن منسوبها ، أو حفرت للطوارئ لسد الحاجة عندما تقطع مياه الأنهار . ونسوق مثالاً على ذلك بئر مسجد الباشورة الملاصق للباب الصغير ثم بئر الجامع الأموي الخطيب وقلعة دمشق[2] . وكانت هذه الآبار تتعرض في بعض الأحيان للردم أو لسقوط الأوساخ فيها أو لانقطاع حبل الدلو وسقوطه داخلها . وكان البيار يقوم باخراج الأوساخ منها وتعزيلها واستعادة الدلاء منها . ويصف ذلك محمد سعيد القاسمي قائلاً : «إن للبيار عصا نحو رمح في رأسها دائرة من حديد تجميع كلاليب كثيرة وطرفها الآخر مثقوب فيه قطعة مقصودة يدخلها في يده ثم يدلي العصا المذكورة في البئر ويحركها بأصبعه ويخرجها شيئاً فشيئاً وصاحب هذه الصنعة يدور في الأزقة التي كثرت فيها الآبار وينادي بالحارات «معزل البيارة» أما من يحفر الآبار فهو شخص آخر من عمال الأبنية[3] . أما الناس الذين حرموا من المياه الجارية في دورهم أو من الآبار فكانوا يستقون من المصادر المذكورة آنفاً بواسطة الروايا الجلدية

(١) انظر : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص٤٩٠ .
(٢) انظر : البدري ، أبو البقاء . المصدر السابق ، ص٦١ .
(٣) انظر : قاموس الصناعات الشامية ج ٢ ، ص٦١ وص٦٢ .

أو الأوعية الفخارية أو النحاسية . وكان يتحول الصوجي في شوارع دمشق ليبيع الماء للسابلة ولمن أراد «ويعطى مقابل ذلك ما تسمح به نفس الشارب»[1] أو ينقل الماء إلى الدور **مقابل** الدراهم [2] .

---

(١) انظر : المصدر السابق . ج ٢ ، ص٢٧٣ .

(٢) ولدواعي الاحتجاب كان لا يدخل بائع الماء إلى أرض الديار ، بل جهزت جدران البيوت الخارجية بأجران حجرية تفضي إلى برك وأحواض في داخل البيت . فيأتي بائع الماء ويسكب الماء في الجرن بحسب حاجة البيت وله على ذلك مبلغ من المال . ويمكن مشاهدة ما تبقى من تلك الأجران إلى الآن في بعض بيوت الصالحية والتي تقع فوق منسوب مجرى النهر .

التكايا

أكثر ما يسترعي انتباهنا في العهد العثماني إقامة التكايا بديلاً عن الخانقاهات[1] حيث بنى العثمانيون التكايا على أسس متينة وعلى مساحات كبيرة من الأرض وأدخلوا الأنماط

(١) وردت لدى محمد كرد علي ، أنها خوانق ومفردها خانقاه أو خونكاه وهي فارسية الأصل أي الموضع الذي يأكل فيه الملك وهي زوايا الصوفية . ويذكر المقريزي أنها أحدثت في الاسلام في حدود الاربعمائة من سني الهجرة وكان في دمشق ست وعشرون خانقاه هي : الأسدية ــ الاسكافية ــ الاندلسية ــ الباسطية ــ والحامية الشبلية ــ الخاتونية ــ والدويرية ــ والروزنهارية ــ والسمسياطية ــ والشومانية ــ والشهابية ــ والشبلية ــ والشنباشية ــ والشريفية ــ وخانقاه الطاحون ــ والطواوسية ــ والقرية ــ وخانقاه القصر ــ والقصاعية ــ والكججانية ــ والمجاهدية ــ والنهرية ــ والنجيبية ــ والناصرية ــ في جبل قاسيون . والناصرية خلف (مجهولة) ثم اليونسية والنحاسية .

ومن الخوانق الحديثة ، خانقاه أحمد باشا الشهير بين أمراء الأروام أي العثمانيين بشمسي أحمد باشا . تولى دمشق فطالت مدته ، وبنى فيها خانقاهاً قبالة قلعة دمشق من جانبها القبلي ملاصقة لخندقها . وجعل فيها حجرات للصوفية . وهي من محاسن دمشق ، وما زالت هذه الخانقاه عامرة . ولكن لا على الصورة التي أرادها الواقف بل صارت جامعاً . ويذكر النقشبندي أنه كانت في دمشق في القرن التاسع وظيفة شيخ الشيوخ وموضوعها التحدث على جميع الخوانق في دمشق وأعمالها ، والعادة أن يتولاها شيخ الخانقاه السمسياطية انظر : المقريزي . تقي الدين ابن أبي العباس أحمد بن علي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» ج ٢ . ص ٤١٤ وص ٤١٦ . طبعة أوفست بغداد . ثم انظر : كرد علي ، محمد . خطط الشام . ج ٦ . ص١٣٠ وص١٣١ ص١٣٢ ص١٣٣ ــ وص١٣٤ سنة ١٩٧٢ م طبعة بيروت .

الهندسية الرومية في بنائها ، **فكانت غاية في الجمال والروعة** ، وحبسوا لها الأوقاف الكثيرة الغنية والواسعة للصرف عليها وصيانتها ولتأمين جراية الدراويش المقيمين فيها وللصرف على طلاب العلم وموظفيها . وتكوّن بناؤها من غرف لمبيت الدراويش ومسجد للصلاة وغرف للتدريس ومطابخ ومخابز وكلارات (بيت المؤونة) ودورات مياه وميضآت وبحرات ماء بها فسقيات وسقايات وزودت بالفرش والكتب والقناديل من النحاس المكفت والزجاج ، وألحقوا بها الترب وعينوا لها الموظفين من اختصاصات مختلفة والنظار على أوقافها والمتولين لشؤونها والمدرسين والمؤذنين والخطباء والأئمة وقراء القرآن وغير ذلك . وقدمت بعض الوجبات من الطعام للفقراء والمحتاجين ، وأصبح بعضها مأوى للفقراء واليتامى وأبناء السبيل والطارئين[1] ، وقد وصل عدد الصوفية فيها أحياناً إلى ثلاثمائة صوفي ، لكل واحد منهم عدد من أرغفة الخبز وكمية من اللحم والمرق والحلوى والصابون والكسوة .

وأول من أوجد التكية في دمشق هو السلطان سليم الأول ثم سليمان القانوني وسار على منوالهما بعض الولاة العثمانيين والأثرياء . ولقد تهدمت التكايا بفعل الزلازل وأعيد بناؤها مرة أخرى كما حصل بعد زلزال سنة ١١٧٣ هـ/١٧٥٩ ــ ١٧٦٠ م . وبقيت تلك التكايا تقوم بمهامها الدينية والاجتماعية إلى مطلع القرن العشرين . وأهم هذه التكايا في دمشق هي :

١ ــ التكية السليمية التي بناها السلطان سليم الأول في صالحية دمشق في سنة ٩٢٤ هـ/١٥١٨ ــ ١٥١٠ م بعد عودته من فتح مصر وتقع شمالي ضريح الشيخ محي الدين بن عربي وحبس لها الأوقاف الدّوارة [2] .

٢ ــ التكية السليمانية : تقع في المرج الأخضر شيدها المهندس التركي الشهير (معمار سنان) المتوفى سنة ٩٦٦ هـ/١٥٥٨ ــ ١٥٥٩ م وذلك بأمر من السلطان العثماني سليمان القانوني وإليه تنسب وكان في محلها قصر امارة الفاطميين ، وبنى مكانه السلطان ظاهر بيبرس القصر الأبلق وهدم هذا القصر في زمن تيمورلنك وأقيمت مكانه هذه التكية سنة ٩٦٢ هـ/١٥٥٤ ــ ١٥٥٥ م بأمر من السلطان سليمان

---

(١) انظر : كيال ، منير ، رمضان وتقاليده الدمشقية . ص٦٢ .

(٢) ابن طولون محمد . مفاكهة الخلان في حوادث الزمان . القسم الثاني . ص٧٩ . ثم : كرد علي ، محمد . خطط الشام . ج ٦ ، ص١٣٨ .

القانـــوني ، كما تم بنـــاء مدرسة في شرقهـــا ألحقت بها وذلك عام ٩٦٦ ـــ ٩٦٧ هـ/١٥٥٩ م وهي السنة التي توفي فيها السلطان سليمان القانوني . وتتألف هذه التكية من عمارتين غربية وشرقية وقد استخدم في بنائها النظام الرومي في الهندسة . وكانت التكية محاطة بسور له ثلاثة أبواب رئيسية[١] وفي الداخل صحن سماوي (فسحة سماوية) به بحرة ماء مربعة ونافورة بها فسقية كبيرة على شكل قصعة حجرية مفرضة من اطرافها تأخذ مياهها من طالع على نهر بانياس . أما الصحن الداخلي فمبلط بالحجارة المزّية والبازلتية . ويحيط بالبحرة مجرى من جهاتها الأربعة وبه مصارف تؤدي إلى نهر بردى . وتحيط بالصحن مباني التكية فمن جهة الجنوب المسجد وهو مبني على الطراز الرومي ومسقوف بقبة كبيرة رئيسة وقباب أخرى صغيرة ، ومن جانبيه « الشرقي والغربي » تبرز مئذنتان مدببتان على النمط الرومي : ويحيط بالصحن من جهتي الشرق والغرب رواقان بهما عدد متساو من الأقواس وترتكز بدورها على أعمدة اسطوانية رخامية ضخمة وفوق الأقواس قباب ترتكز كل واحدة منها على عمودين وعلى جدار الغرفة التي تقابلهما والقباب متساوية في الأرتفاع والاتساع ووراء الرواقين عدد من الغرف متساوية في عددها وارتفاعها إلا أنها أعلى من قباب الرواق وفي كل قبة مدخنة قمتها بشكل مخروطي (النمط الرومي) .

ويقع إلى الشمال من الرواق الشرقي مباشرة الميضأة ودور الخلاء . ومن الناحية الشمالية من التكية توجد المطابخ وعنابر الحبوب والمواد التموينية . وهي عبارة عن غرف كبيرة إلا أنها مسقوفة بأكثر من قبة وترتكز قبابها على أعمُدة وخلف هذه الغرف يقع السور الخاص بالتكية ، مبني من الحجارة المزّية أخذ أعلاه شكل (الجملون) لمنع الدخول إليها بعد اقفال أبوابها[٢] .

وكان مدرسو هذه التكية ونظارها يعينون من استانبول ، وقد هدمت التكية بفعل الزلزال الذي أصاب دمشق فقام الدفتردار فتحي القلانسي سنة

(١) باب غربي وباب شرقي وباب شمالي وهو أصغر من الاثنين ، أما الشرقي فيفضي إلى المدرسة الملحقة بها ، والذي يفضي إلى الميدان الأخضر ، والشمالي على مدخله قبة صغيرة ترتكز على عمودين وعلى جدار سور التكية ، ويفضي هذا الباب إلى نهر بردى مباشرة .

(٢) العبد . تاريخ حسن آغا العبد . ص٥٦ .

١١٥٩ هـ/١٧٤٦ ـــ ١٧٤٧ م بتجديد منارتها [بعد سقوطها أيام الزلزلة أحسن مما كانت[1] وكان ينزل فيها الجنود العثمانيون[2] المارون من دمشق .

٣ ـــ المولويخانة أو التكية المولوية : وتقع غرب جامع تنكز ، خارج أسوار مدينة دمشق . عمرت سنة ٩٩٣ هـ/١٥١٧ ـــ ١٥١٨ م للطريقة المولوية التي تنسب لجلال الدين الرومي[3] وكانت تقام فيها مواجيد مؤسسها المذكور[4] .

٤ ـــ التكية النقشبندية : وهي تابعة للطريقة النقشبندية وتقع في محلة الفحامين بالقرب من باب السريجة ، أنزل بها علم الله الهندي بن عبد بن رشيد ، العباسي النسب الحنفي النقشبندي اللاهوري ، حيث ذهب من دمشق إلى القسطنطينية وعاد إليها . وكان أهالي دمشق وغيرها يقدرونه ويحترمونه ويجتمعون عنده . وكان يسمع الآلات وتضرب في حضرته مع الإنشاد .[5] ولقد كان للنقشبندية زاوية أخرى تقع في جهة القيمرية لصق الجامع الأموي حيث كان مسجداً يسمى مسجد عروة حوّل إلى زاوية له ا[6] .

٥ ـــ تكية شمسي أحمد باشا : الوالي العثماني على دمشق في عهد السلطان سليمان القانوني وتقع قبالة قلعة دمشق من جانبها القبلي ملاصقة لخندقها وجعل بها حجرات للصوفيين كما جعل لها وقفاً يطبخ منه كل ليلة بعد العصر طعام يأكله المجاورون بها . وهي من محاسن الشام وضعت على وضع لطيف وبها بركة ماء وبستان لطيف واقع في وسطها ودائماً يكون بها شيخ يتناول ما شرط للمشايخ من علوفات وعوائد وفوائد[7] .

٦ ـــ تكية خارج باب الله بالقرب من قرية القدم ، أقامها الوزير أحمد باشا الكبير المعروف بكوجك « أحمد الارناؤودي » أحد الوزراء المشهورين بالشجاعة الذي أصبح حاكماً على دمشق ثانية في سنة ١٠٤٢ هـ وحبس لها أوقافاً في قرى وضواحي صيدا وبعلبك

---

(١) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية : ص٨٥ .

(٢) انظر : كرد علي ، محمد . خطط الشام . ج ٦ ، ص١٣٩ .

(٣) انظر : العبد ، حسن آغا . تاريخ حسن آغا العبد . ص٥٦ وص١٢٢ .

(٤) انظر القاسمي ، جمال الدين . تعطير المشام بمآثر دمشق الشام . المسودة بخط يد المؤلف . وهي موجودة في مكتبة محمد سعيد القاسمي . حي المهاجرين من دمشق . جادة القسطل .

(٥) انظر : المرادي ، محمد خليل . سلك الدرر . ج ٣ ، ص٢٦١ .

(٦) انظر : ابن عبد الهادي . ثمار المقاصد في ذكر المساجد . ج ٢ . ص٢٢١ .

(٧) انظر : البوريني ، حسن . تراجم الأعيان من أبناء الزمان . ج ١ ، ص١٨٨ .

وكانت أملاكاً لفخر الدين المعني . والحق بذلك ستين جزءاً بالجامع الأموي وتعيينات لأهالي الحرفيين وبنى سبيلاً بالقرب منها ودفن رأسه فيها عام ١٠٤٦ هـ[١] .

٧ ـ تكية خالد أبي بهاء ضياء الدين النقشبندي الدمشقي : وتقع في الصالحية في محلة الأكراد أقيمت له سنة ١٢٤٢ هـ بعد وفاته ، وكان ذلك بأمر من السلطان عبد المجيد . واشتمل بناؤها على قبة فوق ضريحه ثم مسجد وعدد من المقصورات للمريدين المتجردين ومطبخ وبركة ماء عظيمة[٢] .

---

(١) انظر : المحبي ، محمد . خلاصة الأثر . ج ١ ، ص٣٨٥ .

(٢) انظر : البيطار ، عبد الرزاق . حلية البشر ... ج ١ ، ص٥٧٠ . ثم : الغلاييني ، محمد أمين . العقد الثمين في مقام الأربعين . ص٤٤ .

الزوايا

كانت الزوايا كالخانقاهات والربط مأوى للصوفية المتعبدين ، إلا أنها تقام فيها الأذكار[1] . ولقد كثرت الزوايا بكثرة الطرق الصوفية وكان لبعض الطرق الصوفية أكثر من زاوية في دمشق سواء أكانت مراقد العظماء أو الصحابة أو التابعين ، أو العلماء العاملين أو الزهاد ، أو بنيت خصيصاً لذلك . وكان الناس يقصدونها للزيارة والتبرك[2] .

---

(١) كلمة تطلق على جميع العبادات التي يقوم بها المرء بلسانه بل وبأفعاله ، ذكر الله المندوب إليه في الكتاب والسنة وهو التوجه إلى الله تعالى بكليته سواء نطق باسمه الكريم أم لم ينطق «واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخفية ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين» وسواء أكان في ذلك قائماً أو جالساً أو نائماً «فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم ....» ولا يراد بالذكر تنزيه الله فإن لله الكمال المطلق . وما ثمّ شيء ينبغي أن ينزه عنه وحتى قصد الذكر ترى تنزيهه فقد ألحق به فصح بوهمه ، وإنما يراد ذكر الله أن يشهد الذكر ليلاً ونهاراً وأنه يرانا ويطلع على أعمالنا وأقوالنا وخواطرنا وكل ما خفي ذلك من أطماع الذاكرين فهو سوء أدب . لهذا رؤي الاكثار من الذكر . ويذكر جمال الدين القاسمي أن الشيخ محمد بن أحمد المزطاري المغربي المكناسي المالكي الشاذلي نزيل دمشق (ما غفل في وقت من الأوقات الخمس عن سبعين ألف لا إله إلا الله) انظر : «تعطير المشام بمآثر دمشق الشام» ج١ المسودة بدون ترقيم .

(٢) انظر كرد علي . خطط الشام . ج ٦ . ص١٥٣ . كما يذكر جمال الدين القاسمي أن محمد قزيها الشهير بابن سنان الدمشقي الشافعي الشاذلي . أقام بالجامع المعروف بالصابونية قرب باب الصغير ، كان قعيداً ويزار . انظر : تعطير المشام بمآثر دمشق الشام . ج ١ المسودة . دون ترقيم .

وكانت الزاوية ذات أهمية اجتماعية مقصداً للمؤمنين وملتقى أبناء القطر الواحد أو الأقطار المتجاورة كزاوية المغاربة في دمشق أو أبناء العجم أو الهنود أو الأكراد وهكذا .. وكانت الزاوية تتكون من غرفة لضيوفها وللحجاج المسلمين والطلبة . وألحق بها (مقبرة) يدفن فيها أولئك الذين أمضوا حياتهم فيها . ويقول دوماس (DAUMAS) : إن الزاوية على الجملة كانت عبارة عن مدرسة دينية ودار مجانية للضيافة . وفي هذين الوضعين تشبه الدير في العصور الوسطى إلا أنها في المشرق اكتسبت وضعاً محدداً فقصر استعمالها على المساجد وما عدا ذلك صارت في الغالب تسمى الخانقاه أو التكية[1] .

ولقد تناقص عدد الزوايا في دمشق هذه الفترة عما كانت عليه في الفترات السابقة[2] وذلك بفعل سوء الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، حيث سطى الساطون على أوقافها كما تهدم بعضها بفعل الزلازل ، ولم يعد إصلاحه فاضمحل شأنها وتحولت عن مهمتها الأولى .

ولم يعد التصوف عكوفاً وعبادة وانقطاعاً إلى الله والتجرد لذكره وغيرة على الدين والزهد في طلب الدنيا ، ومجاهدة للنفس ورياضتها ونحو ذلك ، بل أصبح التصوف أقرب إلى الدروشة منه إلى التصوف الصحيح . وسعى شيوخ الطرق الصوفية إلى الجاه الاجتماعي في الغالب ، وكثيراً ما جرى الخلاف بين الأقرباء منهم على زعامة الزاوية وطريقتها الصوفية ، كما حصل لآل سعد الدين الجباوي ، ولهذا أصبح التصوف ظاهرة اجتماعية سياسية أكثر منه ظاهرة دينية[3] ونال شيوخ الطرق الجاه والمال والدنيا فهابهم الحكام والأعيان وخرجوا لزيارتهم .

وأصبحت زوايا الصوفية في حالة نشاط دائم يرتادها المريدون والزائرون والطلبة التي كانت نشطة ، ولهذا كانت لها أهميتها الإجتماعية والسياسية بالاضافة لأهميتها الدينية . وأهم الزوايا في فترة دراستنا هي :

الزاوية الوطية للطريقة الشاذلية وكانت تقع شمال جامع جراح بالشاغور البراني وعرفت

(١) انظر : دائرة المعارف الاسلامية ج ١٠ . ص٢٣٢ وص٢٣٣ ، الترجمة .

(٢) ذكر بن طولون الذي عاش في القرن السادس عشر أن زوايا دمشق بلغت ٤٦ زاوية بعضها بقي إلى عهده وبعضها تهدم . انظر : القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية . ص١٩٢ وص١٩٣ وص١٩٥ وص٢٠٢ وص٢٠٣ وص٢٠٦ وص٢٠٨ وص٢٠٩ وص٢١٠ .

(٣) انظر : المرادي . سلك الدرر . ج ٢ ، ص٣٩ .

بزاوية المغاربة[1] على اختلاف اقطارهم (فاسيون ـــ جزائريون ـــ سوسيون ـــ مراكشيون) وكان من شروط وقف هذه الزاوية أن لا يكون النازل فيها مبتدعاً ولا شريراً . وقام بوقفها علي بن وطية سنة ٨٠٢ هـ وحبس عليها حوانيت وطباقاً حولها . وكانت ملتقى لأبناء المغرب . كما كانت الطريقة الشاذلية تقيم الذكر والأوراد في المشهد الشرقي من الجامع الأموي وهو خاص ببني السفرجلاني[2] وأقام الشيخ محمد تقي الدين بن عبد الله بن علي الحنبلي الشاذلي المعروف بأبي شعر زاوية الشاذلية قرب بيته في محلة الشاغور ، وكان يقيم فيها الأذكار والأوراد وله أتباع ومريدون ومات سنة ١٢٠٧ هـ . وكان للشاذلية زاوية أخرى بالجامع المعروف بالصابونية قرب باب الصغير[3] . وكان لهذه الطريقة شيخ مشايخ[4] في دمشق .

وهناك الزاوية الحصنية التي تقع في حي الشاغور البراني أوقفها الشيخ تقي الدين بن بكر بن محمد بن عبد المؤمن الشهير بالحصني الشافعي المنسوب إلى قرية الحصن في حوران[5] . وقام باختلاسها بنو العجمي فانتزعت منهم وأعيدت أحسن مما كانت عليه[6] . ثم الزاوية الغزالية في الجامع الأموي شمال مشهد عثمان .

أما الطريقة الخلوتية فكان لها أكثر من زاوية في دمشق . فمنها زاوية بالقرب من باب جيرون قرب الجامع الأموي . وكانت مشيختها في آل الدسوقي يقيمون الذكر والتوحيد فيها[7] . وكانت لهذه الطريقة زاوية أخرى تقع في ناحية المارستان الأربع مفارق بناها الشيخ يوسف المالكي الخلوتي وكان يقيم الذكر يوم السبت من كل اسبوع في جامع الشيخ . محي الدين بن عربي بالصالحية[8] . ثم يوسف الطباخ المتوفى سنة ١١٥٩ هـ الذي كان يقيم

(١) انظر : كرد علي . خطط الشام . ج ٦ ، ص١٣٧ .

(٢) انظر : القاسمي ، جمال الدين . تعطير المشام بمآثر دمشق الشام . ج ١ . المسودة وهي خالية من الترقيم ترجمة الشيخ «أبو الفتح» . ثم انظر : الحصني محمد أديب . منتخابات التواريخ لدمشق . ج ٢ ، ص٨٦٨ .

(٣) انظر : القاسمي ، جمال الدين . المصدر السابق . ج ١ ترجمة الشيخ محمد تقي الدين بن عبد الله بن علي الحنبلي الشاذلي .

(٤) انظر : سجل رقم ٥٠/محاكم دمشق/القضية تاريخ ١٠ رمضان سنة ١١٤١ هـ/٩ شباط ١٧٢٩ م .

(٥) انظر : ابن بدران ـــ منادمة الأطلال ومسامرة الخيال . ص٣٠١ .

(٦) انظر : كرد علي . خطط الشام . ج ٦ ، ص١٣٦ ، ص١٣٧ .

(٧) المرادي . سلك الدرر . ج١ ، ص٥٣ .

(٨) القاسمي ، جمال الدين تعطير المشام بمآثر دمشق الشام . ج ٣ ، ص٢٣٣ ثم : الحصني ، محمد أديب ، المصدر السابق . ج ٢ ، ص٦٣٨ .

الذكر في المدرسة السميسياطية وفي جامع التوبة[1] ولآل سعد الدين زاويتهم وسجادة خلافتهم مقرها في الميدان في محلة القبيات ، كانوا يقيمون التوحيد والأذكار فيها ، وكانت لهم زاوية وأوقاف في محلة الشاغور البراني يقيمون فيها الأوراد والتوحيد والاذكار . وكان لهم زاوية أخرى في حي القيمرية ثم الزاوية العسالية في قرية القدم[2] .

وهناك زاوية لآل التغلبي الحنابلة وهي الزاوية التقوية حيث كانوا يقيمون فيها الأذكار وتقع داخل دارهم في حي العمارة[3] . وكان خادماً عليها في سنة ١٢٥٠ هـ الشيخ علي بن محمد الفتلة[4] . ووجدت زاوية لآل الصمادي القادريين في حي الشاغور . وكان السلطان سليم الأول قد حبس على هذه الزاوية قرية كناكر في وادي العجم . وكان القادريون يقيمون الذكر في المدرسة الاسماعيلية المعروفة بالخياطين[5] . وزاوية الطريقة الأحمدية في المدرسة النورية وكانت لآل النحلاوي ، يقيمون فيها الأذكار كما كانوا يقيمون الأذكار في المدرسة الخاتونية[6] . ثم الزاوية المولوية وكانت تقع غربي جامع تنكز وكان شيخاً عليها في سنة ١٢١٦ هـ محمد صالح أفندي[7] . ثم الزاوية الداوودية وكان شيخها من آل الداوودي وتقع في صالحية دمشق . وكان متولياً على أوقافها في سنة ١٢١١ هـ الشيخ عبد الرحمن الداوودي ومن بعده الشيخ أحمد حمزة[8] ، ثم زاوية آل الصديقي وقام بوظيفة البوابة والقيامة عليها في سنة ١٢١٦ هـ مصطفى بن بايزيد الصفوري[9] ، وأسماها جمال الدين القاسمي بالزاوية الصفورية وكانت تقع بمحلة قبر عاتكة لصيقة مقبرة الدقاقين من غربها[10] . ثم الزاوية الطالبية

---

(١) المرادي . سلك الدرر . ج ٤ . ص٢٤٥ .

(٢) المرادي . سلك الدرر . ج ٢ ص٤١ .

(٣) الحصني محمد أديب . المصدر السابق ج ٢ . ص٨٣٢ ثم : القاسمي جمال الدين . تعطير المشام .... ج ٣ ، ص٢٢٩ .

(٤) السجل رقم ٣٣٤/المحكمة الكبرى بدمشب/ سنة ١٢٥٠ هـ ص٢٨٠ .

(٥) انظر : الحصني ، المصدر السابق . ج ٢ ص٨٥٤ . ثم انظر : القاسمي جمال الدين . تعطير المشام ... ج ٣ ص٢٢٠ وص ٣٤٢ ص٢٣١ .

انظر : الحصني . المصدر السابق ج ٢ . ص٨٨٥ .

(٧) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/سنة ١٢١٦ ١٢١٧ هـ ، ص٢٢٦ .

(٨) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١١/٢٤٠ ـــ ١٢١٦ هـ ، ص٢١٢ .

(٩) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/ص١٢٩ .

(١٠) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٣٦/سنة ١٢٥٠ ـــ ١٢٥١ هـ ، ص١٣٩ ثم : القاسمي ، جمال الدين . تعطير الشام بمآثر دمشق الشام . ج ٣ . ص٢٢٠ .

الرفاعية في قصر حجاج[1] . ثم زاوية في سوق ساروجة نجهل لأية طريقة تتبع وكل ما نعلمه أنه كان يقيم فيها الذكر شيخها الشيخ العكر . ثم الزاوية النجارية النقشية ومشيختها في بني المرادي[2] ، وذكرها القاسمي على أنها الخانقاه النقشية وتقع في سوق ساروجة أنشأها العارف الجليل الشيخ مراد البخاري النقشبندي نزيل دمشق وباني المدرسة المرادية[3] . وكان للطريقة النقشبندية زاوية أخرى وهي الزاوية الهندية التي كانت خارج باب الجابية ودفن فيها علم الله الهندي النقشبندي وكانت تقام فيها الجمعة والجماعة[4] .

وهناك الزاوية الكردية التي كانت في محلة العمارة لصيق باب الفراديس من خارجه استقام فيها حسن الكردي ومات ودفن فيها سنة ١٨٩٥ هـ[5] . وكان للطريقة الرفاعية زاوية في سفح قاسيون يقام فيها الأذكار[6] وكان لهذه الطريقة زاوية أخرى في ميدان الحصى[7] . ثم الزاوية البكتاشية وتنسب هذه الطريقة إلى حاجي بكتاش الذي كان تلميذاً لبابا اسحق جاءت إلى دمشق مع الإنكشارية وانتقلت إلى طوائف الحرف وألغيت بالغاء أوجاق الإنكشارية في دمشق في عهد السلطان محمود الثاني .

أما الربط[8] فبالرغم من كثرتها في الفترات السابقة[9] لم يعد لها وجود في فترة دراستنا

---

(١) القاسمي جمال الدين . المصدر السابق ، ج ٣ ، ص٢٣١ .

(٢) انظر : الحصني ، المصدر السابق ج ٣ ، ص٩٦٥ .

(٣) تعطير المشام بمآثر دمشق الشام . ج ٣ . ص٢٢٥ .

(٤) القاسمي جمال الدين . المصدر السابق . ج ٣ . ص٢٣٣ وص٢٣٥ .

(٥) أيضاً القاسمي جمال الدين المصدر السابق . ج ٣ ، ص٢٣٣ .

(٦) انظر : الغلاييني محمد أمين . العقد الثمين في مقام الأربعين . ص٤١ ، ص٤٣ .

(٧) القاسمي جمال الدين . المصدر السابق . ج ٣ ، ص٢٢٩ .

(٨) جمع رباط وجاءت التسمية من الآية القرآنية «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل .....» انظر : سورة الأنفال الآية ٦٢ . ثم دائرة المعارف الاسلامية . المجلد العاشر . كلمة «رباط» . الترجمة .

(٩) ولقد أورد بن طولون أسماء الربط في الصالحية وكان منها : رباط دار الحنابلة ـــ رباط مسجد التينة ـــ رباط دار الحديث القلانسية ـــ ورباط المدرسة الاستادارية ـــ ورباط علاء الدين التركاني ورباط النوري ـــ ورباط الزيتونة ـــ ورباط الصارمية ـــ ورباط العزية ـــ ورباط الزاوية ـــ ورباط السيجرية ـــ ورباط سعيد ـــ ورباط التربة السويدية ـــ ورباط الاسكافية ـــ ورباط خليفة ـــ ثم رباط مسجد الزهر . انظر : القلائد الجوهرية ص٢٥٦ وص٢٥٧ .

وذكر يوسف بن عبد الهادي ما كان منها في مدينة دمشق وهي : رباط الوزار في سويقة ساروجة ورباط نجم الدين أيوب والد صلاح الدين بوسط داخل الدرب في زقاق العونية بباب البريد . وكان رباط النساء بالقرب منه مكتب للأيتام انظر : ثمار المقاصد في ذكر المساجد . ج ٣ . ص٢٤٨ .

هذه ، وكانت وقفاً على النساء من المتصوفات أو المنقطعات أو المهجورات أو المطلقات أو العجائز أو الأرامل من المتعبدات وكان لهن الجرايات والمقامات المشهورة في مجلس الوعظ[1] وكانت لها أهميتها الإجتماعية إلا أن السلطات العثمانية لم تعرها اهتماماً في هذه الفترة . وربما عاد ذلك إلى ظروف دمشق المتغيرة عن السابق في مجال السياسة والإجتماع والاقتصاد حيث سادت الفوضى وضربت أطنابها ، وأصبحت المرأة موضع اعتداء من الجند الغرباء والقوى المتناحرة في دمشق . فلم تسلم من اعتدائهم حتى النساء المحصنات . فلا عجب إذا ما قام المجتمع بالتضييق على المرأة وحجزها في البيوت وحرمانها من ارتياد الربط أو الإقامة فيها . ولهذا اضمحل شأنها وزال نشاطها من دمشق .

ويذكر مؤرخ دمشقي آخر بعض هذه الربط التي كانت في عهده وكان منها : رباط بلدخ ورباط النجارين داخل مدينة دمشق ثم رباط المزة المعروف ،الحواجبية ورباط الحبقيق ورباط فيروز وهي كلها خارج مدينة دمشق . انظر : الأربلي ، الحسن . الصدر السابق ص٢٤٦ .

(١) انظر : الطويل توفيق . التصوف في مصر ابان العصر العثماني . ص٣٨ .

الفنادق والقيساريات والخانات والوكالات

نظراً لأهمية هذه المنشآت الإقتصادية والاجتماعية في حياة مجتمع دمشق فقد أوليناها اهتمامنا من الدراسة ، فدمشق اشتهرت عبر تاريخها الطويل بنشاطها التجاري الدولي والمحلي ، ويعود ذلك إلى موقعها الجغرافي الهام والمتميز على طريق القوافل التجارية وقوافل الحجاج ، فاقتضى ذلك إقامة المنازل للمسافرين ورواحلهم وإقامة المنشآت للتبادل التجاري وقوافل السلع للتصدير والاستيراد ، وإقامة أماكن للحرف والصناعات المحلية التي اشتهرت بها دمشق والتي لاقت منتجاتها رواجاً كبيراً في بلاد الشام وخارجها .

فأقيمت لذلك تلك المنشآت داخل المدينة وخارجها وعلى الطرقات العامة الموصلة إليها وأطلق على تلك المنشآت تسميات مختلفة تداخلت مدلولاتها مع الزمن . فكان منها الخانات والفنادق والقيساريات والوكالات وغيرها . ولم تكن التسميات عربيةً في أصولها بل تعود في معظمها إلى أصول مختلفة كالفارسية أو اليونانية أو اللاتينية .

فكلمة خان تعني القصر أو البيت ، أما كلمة الفندق فهي لاتينية الأصل يعتقد أنها أخذت عن الأفرنج خلال الحروب الصليبية لأننا لم نجد لها استعمالاً في المصادر العربية قبل هذه الفترة :

كما ورد في الموسوعة الاسلامية أن كلمة الفندق اشتقت من أصلها اليوناني

«باندوخيتو[1] وكلمة قيسارية[2] جمعها العرب على (قيساريات) وفي بعض الأحيان (قياسر) وورد جمعها في سجلات محاكم دمشق في هذه الفترة (قواسير)[3] . وأياً كان جمع هذه الكلمة فهي غير عربية بل يونانية الأصل وتعني البناء الملكي أو الأمبراطوري ، ذلك لأن السوق من الأملاك العامة التابعة للدولة ، أي أنها ذات صفة ملكية وتسمى باللاتينية (CAESARUM) ويبدو أن هناك اختلافاً دقيقاً بين القيسارية والخان في هذه الفترة ، وشاهدنا على ذلك ما ورد في أحد سجلات محاكم دمشق الشرعية حيث ورد « ان بهرام باشا في حلب كان لديه قيسارية وخان[4] . إلا أننا لم نستطع جلاء الفرق بينهما .

ولقد ظهرت ألفاظ الفندق[5] والقيسارية[6] والخان كأسماء لتلك الأبنية المخصصة لنزول

---

1 - Encyclopèdie de L'Islam N.E. II.P.966.

2 - Ibid. N.E. II.P.700.

(٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/سنة ١٢٠١ — ١٢٠٣ هـ . ص١٩٨ .

(٤) السجل السابق للمحكمة الكبرى بدمشق . ص١٩٨ .

(٥) بنى الأيوبيون في دمشق الفنادق التالية : فندق البزوريين في سوق البزورية ، ثم فندق ابن حية وفندق ابن موسى في سوق القمح ، وفندق البيع وفنادق الخشب في سوق البقل ، وفندق في مكان دار غرير بن عبد الله البجلي الصحابي . وفندق أبي طاهر الفارقاني بالقرب من مقبرة الباب الصغير — وفندق ابن العناز بالقرب من أويس القرني . وفندق بني عبد المطلب عند سوق الدواب ، وفندق خارج باب شرقي ، ثم الفندق الكبير بأرض عاتكة ، وفندق غربي دار البطيخ (فندق الحلبيين) انظر : الريحاوي ، عبد القادر . خانات مدينة دمشق . ص٤٩ وص٥٠ .

أما القيساريات التي بنيت في العهد الأيوبي في دمشق فهي : القيسارية الفخرية عند حمام القلانسيين شرقي كنيسة بولس وبقيت قائمة حتى العهد المملوكي . ثم قيسارية السلطان في زقاق الدر . ثم قيسارية الجعفري بالشعارين وقيسارية الفراء لم يحدد مكانها . ثم قيسارية القرشي في درب عجلان . ثم قيسارية الوزير في سوق القمح في الكتانيين وقيسارية في أول درب اللبان بسفح قاسيون ثم قيسارية القطن . ثم قيسارية الصياغ جوار جامع الأموي انظر : الريحاوي عبد القادر . خانات مدينة دمشق . ص٥٠ وص٥١ .

أما ما سمي بالخانات في العهد الأيوبي فهي خان الزنجاري شيد مكانه جامع التوبة الموجود إلى الآن بدمشق ، ثم خان التربة في حكر السماق غربي أسوار دمشق . ثم خان الصالحية مقابل البيمارستان القيمري وسمي هذا الخان بخان العنب . ثم الخان الكبير مقابل باب القلعة الغربي انظر : الريحاوي ، عبد القادر . خانات مدينة دمشق . ص٥١ ص٥٢ .

ولقد أقيمت في العهد المملوكي منشآت تجارية جديدة لم تكن معروفة من قبل ، فبعضها مؤرخ وبعضها لم يعرف تاريخ بناؤه .. ونلاحظ أن لفظ الفندق لم تعد مستعملة في هذا العهد لان المنشآت التي من هذا النوع والمشيدة في العهد المملوكي أطلق عليها اسم قيساريات أو خانات ، ونلاحظ أن لفظ

القوافل ولممارسة النشاطات التجارية والصناعية منذ القرن السادس للهجرة . واستخدمت كلمة (وكالة) في مصر للدلالة على الخان أو القيسارية واستخدمت كلمة وكالة في دمشق أيضاً للدلالة على الخان ، إلا أن استخدامها كان على نطاق ضيق ، وورد ذكر ذلك لدى محمد أمين المحبي في أحداث سنة ١٠٠٥ هـ/١٥٩٥ ـــ ١٥٩٦ م في ترجمته لوالي دمشق

قيسارية أصبحت اصطلاحاً يطلق على المنشآت التجارية المخصصة لمهنة من المهن أو للبيع أو للشراء . نستدل على ذلك من أسمائها أو وظائفها كما سنرى ، بينما أطلق اسم الخان على المنشأة المخصصة لنزول القوافل التجارية ولأعمال التجارة . ومع أنه لم يبن شيء من هذه القيساريات ، إلا أننا سنجد وصفاً مفصلاً لعدد منها في المصادر التاريخية مثل :

١ ـــ قيسارية مسبك الفولاذ شيدت سنة ٧٣٢ هـ/١٢٣١ م داخل باب الصغير وقيسارية يلبغا شيدت سنة /٧٤٧ هـ/١٣٤٦ م حرقت عدة مرات وجددت سنة ١٤١١/٨١٤ م خارج باب الفرج . وقيسارية الطواشي (خان باب الفرَج) وقيسارية البهنسي من أوقاف الجامع الأموي ، فرغ من بنائها سنة ٧٨٢/هـ ١٣٨٠ م وتقع في الحريريين ، جددت في العهد العثماني . ثم قيسارية الدهشة تم اكتمال بنائها سنة ٧١٥ هـ/١٣١٥ م بالقرب من الجامع الأموي ، وقيسارية ابن البابي كانت سكناً لتجار الفرنج وقيسارية الشرب وقيسارية القواسين قرب باب الزيادة ، وقيسارية السلاح وقيسارية القجماسي ثم قيسارية البهار داخل باب الصغير ثم قيسارية تنم .

أما الخانات فمنها خان جقمق ، ما يزال موجوداً ويقع في سوق مدحت باشا في الجانب الشمالي منه إلى الشرق من خان الدكة وخان الزيت .

٢ ـــ خان بيبرس وينسب إلى نائب السلطة في أيام الظاهر بيبرس أوقفه على فكاك الأسرى ولكنه غير معروف مكانه .

٣ ـــ خان التكة موجود إلى الآن ويعرف بخان الدكة وكانت تباع فيه الجواري والرقيق .

٤ ـــ خان السبيل في الصالحية

٥ ـــ خان السبيل يقع في القابون التحتاني .

٦ ـــ خان البقسمات وقف للمدرسة الصابونية في محلة الأقصاب غرب خان العقاد

٧ ـــ خان العقاد يعد لنسج الحرير .

٨ ـــ خان الملح يقع اتجاه خان العقاد إلى الجنوب .

٩ ـــ خان طولون وقف للمدرسة الصابونية ويقع بالعقيبة الكبرى خارج السور .

١٠ ـــ خان العنب في الصالحية قبالة البيمارستان القيمري .

١١ ـــ خان اللبن عند الجامع المظفري بالصالحية .

١٢ ـــ خان السلطان الظاهر بباب الجابية .

١٣ ـــ خان الشهابي في محلة سوق القصب معد لقفول الحلبيين .

١٤ ـــ خان ابن العسال في سوق باب السريجة .

١٥ ـــ خان النجيبي في ميدان الحصى .

مراد باشا حيث يقول : لقد بنى وكالة حسنة وأمر أن يسكن فيها تجار سوق السباهية ويقول أبو الطيب الفنري في تاريخ الوكالة ... «ولي الشام مراد فبنى خير وكالة[1]» .

أما سجلات محاكم دمشق في فترة دراستنا فتذكر القيساريات في دمشق للدلالة على تلك الخانات ، كقيسارية النحاس في محلة ماذنة الشحم ، ثم تعود فتذكر هذه القيسارية في موضع آخر باسم خان النحاس[2] ثم قيسارية القاضي عجلون باطن دمشق بمحلة القيمرية

---

١٦ ــ خان البيض أنشأه النائب منجك .
١٧ ــ خان الخزندار في مسجد القصب .
١٨ ــ خان العميان من أوقاف الخانقاه العزية في باب الجابية .
١٩ ــ خان ابن حجي بالقرب من خان العميان .
٢٠ ــ خان المعروف قديماً بابن الحارة ويومئذ بخان المرأة .
٢١ ــ خان الطحين في عداد أوقاف التربة الافريدونية .
٢٢ ــ خان قصر حجاج من أوقاف المدرسة الكجمكرية الكائنة في العفيف .
٢٣ ــ خان الخرفان يقع في سوق العنبرانيين عند باب الجامع الأموي .
٢٤ ــ خان الظاهر وخان اللاجين ، الأول منسوب للسلطان الظاهر بيبرس والثاني لنائب السلطنة في دمشق حسام الدين اللاجين الذي حكم بين سنتي ٦٧٩/٦٩٠ هـ/١٢٨٠ ــ ١٢٩١ م/ ثم خان بسوق الهوى يوجد مكانه سوق الدرويشية الآن .
٢٧ ــ خان فارس قبالة مسجد الاقصاب : أنظر الريحاوي ، عبد القادر . خانات دمشق . ص٥٦ وإلى ص٥٨ .

ويقول أليكس راسل: إن القيسارية نوع من البناء ذي النفع العام خصص للفئات الدنيا من الغرباء عن المدينة مثل البدو والأكراد والأتراك أو لعناصر من أصل إفرنجي ، وأطلق المسيحيون والأرمن في حلب على هذا البناء اسم قيسارية . وهو مكون من ساحة سماوية واسعة محاطة بعدد من الشقق الواطئة وكل شقة تحتوي على ٢ ــ ٣ غرفة مخصصة للساكنين في تلك القيسارية ، وغالباً ما تكون أرضها مرصوفة بالحجارة من غير تنظيم وترى بعض الشجيرات المغروسة هنا وهناك بجانب مداخل الغرف ، كما ترى بحرات ماء داخل تلك الغرف . بها نافورات أو بعض الآبار في الساحة لسد حاجة السكان من الماء . وكانت موزعة . تلك القيساريات ، في أحياء حلب وضواحيها ، ووجد بناء مشابه للقيساريات يطلق عليه اسم الخانات ولكنه أقل انتشاراً من الصنف الأول .

See: the natural history of aleppo. VOL. 1.P.36.

(١) انظر:المحبي . خلاصة الأثر . ج ٤ ، ص٣٥٦ .

(٢) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٥/سنة ١٢١٠ ــ ١٢١١ هـ ، ص٢٠٦ . وسجلها رقم ٣٢٣/سنة ١٢٤٧ هـ ، ص٤١ .

بالقرب من مدرستها[1] ثم القيسارية الكائنة باطن دمشق داخل باب الفرج والفراديس بسوق القوافين[2] .

ويعتبر المحبي أن الوكالة والخان والقيسارية اسم لمسمى واحد[3] وسمي بعضها في حالات ضيقة باسم النزل خانة .

وكانت تلك المنشآت متداخلة الاختصاص والنشاطات ومختلفة الأماكن والمساحات التي بنيت عليها ، إلا أنها متشابهة في هندستها . وقام ببنائها الخاصة والعامة والسلاطين ونوابهم وولاتهم والتجار والأثرياء وأهل الخير ، وحبسوا لها الأوقاف لصيانتها وللصرف من ريعها على وجوه الخير كفك الأسرى وبناء المدارس والجوامع والتكايا والزوايا والربط ، وللحرمين الشريفين وإيواء اليتامى والفقراء والغرباء وأبناء السبيل ، وغير ذلك من وجوه النفع العام . فمثلاً كان خان العميان الذي يقع بالقرب من خان ابن حجي من أوقاف التوريزي على الخانقاه العزية بدمشق[4] وكان بعض الخانات وقفاً ذرياً خالصاً مثل خان محمد الدمشقي الحنفي المتوفى سنة ١١٧١ هـ/١٧٥٧ م في سوق جقمق وجعله وقفاً ذرياً[5] .

ومن جهة أخرى لم تفقد الخانات المقامة على الطرقات العامة ، أهميتها في هذه الفترة بل ازدادت أهميتها نظراً لفقدان الأمن على تلك الطرقات ، فكانت المأوى الأمين للقوافل والمسافرين . ولقد أولتها السلطات العثمانية أهميتها ، فرممت ماتهدم منها وزادت في عددها . وكان الواحد يبعد عن الآخر ما بين العشرين إلى الأربعين كيلو متراً . وما زال العديد منها قائماً حتى وقتنا الحاضر . ولقد بنيت من الحجارة لتقوى على الزمن واللصوص . فهناك خان حسية وخان البريج وخان تاره وخان النبك وخان السلطان المعروف الآن بخان العرايس في شمال القطيفة والكتابة على أسكفة بابه تسميه فندقا[6] . ثم خان القطيفة وخان العصافير في نهاية ثنية العقاب شمال قرية عدرا ثم خان دوما . وهناك خانات أخرى مقامة على طرقات دمشق من

(١) انظر : أيضاً سجلها رقم ٢٢٠/سنة ١٢٠١ ــ ١٢٠٢ هـ . ص٤٩٦ .

(٢) انظر : أيضاً سجلها رقم ٢٢١/سنة ١٢٠١ ــ ١٢٠٣ . هـ ، ص٥٤ .

(٣) انظر : المحبي . خلاصة الأثر ... ج ٤ ، ص٣٥٦ وص٣٥٧ .

(٤) انظر : النعيمي ، محمد ، الدارس في تاريخ المدارس . ج ٢ . ص١٦٧ .

(٥) المرادي سلك الدرر ... ج ٤ . ص٢٣ .

(٦) المرادي سلك الدرر .. ج ٤ . ص٤٨ .

سمي بالفندق ولقد شاهدت تلك الأسكفة على باب الخان المذكور إثر زيارة ميدانية له بتاريخ ١٩٨٣/٥/٢ م .

ناحية الغرب والجنوب . كخان الشيخ وخان سعسع وخان أرنبة وخان جسر بنات يعقوب على نهر الأردن ووجدت خانات عديدة على طريق دمشق صيدا . أما هندسة هذا النوع من الخانات فكانت عامة على شكل مستطيل أو مربع ، له باب خارجي عال يسمح بدخول الرواحل إلى الساحة الداخلية ، التي هي عبارة عن فسحة سماوية بها بئر ماء في الغالب لسد حاجة المسافرين إليه . ويقفل الباب لحماية المسافرين والبضائع بواسطة الحراس المخصصين لحمايته . وكان للحراس غرف خاصة بهم . وبنيت غرف فوق الباب للمراقبة وكانت غرف الخان تحيط بالساحة الداخلية وينزل فيها المسافرون خاصة في فترات اضطراب حبل الأمن . ووجد في داخل الخان مسجد للصلاة . وكانت جدرانه الخارجية مرتفعة وخالية من الشبابيك . وعندما ينام المسافرون داخله . كان عليهم أن يدفعوا رسماً معيناً للحراس أو الخانجية ولا يستلمون مقابل ذلك أي اشعار بذلك . وكان المسافرون يؤمنون طعامهم كاللحم وغيره ، وفرش النوم والنار والإضاءة والعليق والعلف لرواحلهم بوسائلهم الخاصة[1] .

ولقد أقيم في بعض هذه الخانات زوايا للفقراء يأوون إليها ، ويقدم إليهم الطعام من الأوقاف التي حبست لهذا الغرض . ولقد قام الوزراء من آل كوبرلي بحبس عديد من العقارات لهذا الغرض خدمة منهم لقوافل الحجاج الذاهبة والآيبة من الديار المقدسة[2] . فمثلاً خان عياش الواقع على طريق دمشق حلب كان فيه مسجد ومورد ماء وكان به حانوتان . وحبست عليه أوقاف كثيرة لتقديم الحصر والزيت والحبال والدلاء ورواتب للإمام والمؤذن والبواب[3] .

أما الخانات التي وجدت في قرى دمشق وأرباضها فلم تختلف في مهامها عما كانت عليه داخل المدينة ، إلا من حيث فخامة بنائها ، ولقد تهدم بعضها بفعل الزمن أو بفعل الحاجة لشق الطرقات والشوارع ، مما حرمنا من تكوين فكرة واضحة عن كل واحد منها . واستخدم هذا النوع من الخانات لايواء المكارين والغرباء والفقراء والرواحل . وأشهر هذه الخانات ما كان في سوق الخيل والعمارة وباب المصلى والشاغور البراني والمصلبية . وكانت

- Wright B.T. early Travels in palestine. P.383.

- Russell. op.cit. VOL.1.PP.18.20.

(٣) انظر : قدامة ، أحمد . معالم وأعلام في بلاد العرب . ج ١ ، قسم ١ ، ص٣٦٦ .

النازل فيها يدفع خمسة عشر قرش في الشهر الواحد للغرفة الواحدة [1] ووجدت بعض الخانات لايواء رواحل أبناء الريف لعدة ساعات من الزمن[2] أو لإيواء أبناء الريف وبعض الغرباء وأطلق عليها اسم بايكة أو اسطبل . واستخدم بعض الدماشقة هذه الخانات لوضع الحمير التي يؤجرونها لمن يريد مقابل مبلغ من المال . للسعي في أسواق المدينة وحاراتها أو للتنزه في بساتينها وقراها القريبة . وصبغت أذناب الحمير بلون خاص تمييزاً لها وبقي ذلك حتى مطلع القرن العشرين[3] .

أما النوع الثالث من الخانات ، من حيث موقعها فهي التي كانت ضمن أسوار المدينة ، وكان منها الكبير والصغير . وأكثر القائم منها يعود إلى العهد العثماني . مما يدل على اهتمام العثمانيين بهذا النوع من المنشآت ذات النفع العام . ومعظم هذه الخانات كان موزعاً في سوق البزورية والحرير والقلبقجية والخياطين وسوق الطويل ، وبالقرب من الجامع الأموي مما يدل على أن مركز النشاط التجاري كان يقع في هذه المنطقة من المدينة . وكانت الشوارع التي تقع فيها تلك الخانات تسمح بمرور الجمال وهي محملة . وحتى أبواب الخانات كانت تسمح أيضاً بذلك ، ولقد تعددت اختصاصات هذه الخانات فكانت للتجارة الخارجية والداخلية ، ومأوى للتجار الغرباء و المسافرين . ومخازن لبضائعهم وملتقى أبناء الأقطار العربية ولبعض أصناف الجند ، وحتى لبنات الهوى .

---

(١) انظر : الريحاوي عبد القادر . خانات مدينة دمشق . ص٥٩ .

(٢) شاهدت انموذجاً من تلك الخانات في جولتي الميدانية التي قمت بها في حي الشاغور البراني بتاريخ ١٩٨٠/١١/٨ م وهو خان «أبي حمو» الذي يقع غرب زاوية السروجي ولقد بني على مساحة من الأرض تقدر بـ (١٠٠٠ م ٢) من الحجارة الغشم البازلتية ـــ على طريق العقد الناقص والمرتكز سقفه على عضادات من نفس الحجارة . وهو خال من الفسحة السماوية به معالف للرواحل . كما ورد ذكر لمثل هذه الخانات في سجل محكمة دمشق رقم /٢٣٠/ سنة ١٢٤٣ ، ص ٢١٥ وسجل رقم ٢٢٥/سنة ١٢٤٠ ـــ ١٢٤٨ هـ ، ص١١١ .

(٣) يقول أحمد حلمي العلاف : هناك في سوق الخيل الذي أعدت فيه الحمير البيضاء للنقل لونها أبيض ، من علاماتها تلوين ذيلها باللون الأحمر . لتعرف بأنها من الحمير المعدة للآجار ، كما كان لها برادع بشكل واحد ومعروف عند كافة الناس ، فإذا أريد استئجار واحد منها أو أكثر (إذا كانوا جماعة) عمدوا إلى دكان صغير وهي بمثابة مركز شركة للنقل ، فاستأجروا قدر ما يكفيهم وركبوها لساعة أو أكثر أو ليوم أو لأكثر ويذهب وراءهم أحد السعاة التابعين للشركة وبيده العصا أو السوط جرياً على قدميه فيضربها حتى تصل بهم إلى المكان المقصود ثم يعود بها . وكثيراً ما كانت تؤجر بدون ساع إذا كان المستأجر معروفاً . انظر : دمشق في مطلع القرن العشرين . ص٣٦ .

ويصف لا مارتين الذي زار مدينة دمشق سنة ١٨٣٣ م جانباً من النشاط التجاري والاجتماعي داخل هذه الخانات فيقول : «إن التاجر المرموق كان يستأجر غرفة من الغرف العلوية في الخان ليضع فيها بضاعته الثمينة وكتبه[١] وخصصت الغرف السفلية من الخان لاستخدامها كمستودعات لبضائع التجار . أما التجار المحليون فكانوا يجلسون لغرض التجارة في هذه الخانات من الصباح وحتى مغادرتها مع الغروب إلى منازلهم[٢]» ويقول بورتر الذي عاش في دمشق في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر : «سنة ١٨٥٠ — ١٨٥٥ م» ما يلي : «كان المرء يشاهد التجار مستلقين على الدرج أو بجانب أبواب مخازنهم يدخنون النرجيلات أو جوبوقات التوتون أو يتسكعون في الأروقة من أجل إتمام الصفقات التجارية أو للتعامل مع الجمارك . والقهوجي (صانع القهوة) في حركة دائمة يحمل سماوره النحاسي القذر وقدره المعدني أو الفخاري وفناجينه الصغيرة القذرة ليقدم للناس القهوة التي تعتبر شراب الدمشقيين المفضل . وهناك حاملو الغلايين الذين يقومون بتنظيفها وبتنظيف النارجيلات وتحضير التنباك عليها للتدخين .

وكان المرء يرى في تلك الخانات بائع الشراب يملأ جرته ويثبتها بحزام إلى وسطه وعنقه ويقوم بقرع الصحاف المعدنية بإحدى يديه على بعضها محدثاً صوتاً لتنبيه الراغبين في الشراب داخل الخان[٣] ويرى المرء داخل الخان عدداً من الأشخاص الحمالين (العتالة) الذين يقومون بحمل البضائع ونقلها من مكان إلى آخر على ظهورهم مقابل أجر معين . وقد يستخدم هؤلاء العربات الصغيرة من أجل ذلك . وكانت أجرة نقل الطرد عبارة عن عشر بارات أو أكثر[٤] أما حراسة الخانات فيقع عبؤها على آغا الانكشارية ووجد مراقب يرسل من قبل القاضي لجمع ما يترتب على البضائع العامة التي تدخل الخان من ضرائب . وهناك الأوضة باشي أو البواب الذي يقيم بشكل دائم داخل الخان في غرفة خاصة بالقرب من الباب الرئيس ، وهو حائز على ثقة الجميع ، ويقفل باب الخان الرئيسي مع الغروب وربما يفتح الخوخة «التي هي عبارة عن باب صغير ضمن الباب الرئيسي» ليلاً وعند الحاجة»[١] وكان يساعده في ذلك بعض مرؤوسيه .

---

1 - Voyage en Orient. VOL.2.P.14.

2 - Russell. op.cit. VOL.1.PP.18.19.20.

3 - Five Years in Damascus. VOL.1.P.33.

(٤) انظر : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص٣٠٢ .

5 - Russell. op.cit. VOL.1.PP.18.19.

ولقد عمل العديد من المغاربة حراساً في خانات دمشق[1] . وبقيت هذه الخانات في مأمن من الأعتداء عليها إبان الصراعات في المدينة ، لوفرة حراسها من جهة ، ولاحترام رؤساء الجنود للتجار لكثرة ما يقدمونه لهم من الهدايا[2] من جهة أخرى .

وكان التخصص واضحاً في الخانات في هذه الفترة فمنها ما كان يُعنى بحرفة محددة كنسج الحرير والآلاجة ومنها ما كان للفتالين وهي حرفة ملحقة بصناعة النسيج . وبه دواليب للف الخيوط[3] وأقيم في بعضها مجارف يدوية للمخمل الممتاز المطرز والأطلس والبروكار والدمقس والكمخا وأصناف أخرى من النسيج ذي اللون الواحد والمخطط والمموج والمناديل الحريرية والأقمشة القطنية وأصناف أخرى من الأقمشة .

وتفردت بعض خانات دمشق بنزول أبناء مقاطعات محددة ، كخان سليمان باشا العظم الذي دعي بخان الحماصنة لأن تجار حمص كانوا ينزلون فيه[4] . وكان بعضها ملقى لطائفة محددة من الجند كخان اللاوند والأكراد[5] . وأطلق على أحد الخانات اسم خان الدالاتية ، وكان ملقى للمغاربة في دمشق[6] . ثم خان الشهابي الذي كان في سوق الأقصاب وهو معد للقفول الحلبية[7] . ووجدت خانات مخصصة لنزول الغرباء في دمشق من

---

(١) انظر : رافق ، عبد الكريم . مقالة له في مجلة الدراسات التاريخية بدمشق العدد الأول ص ٧٩/مارس/آذار ١٩٨٠ م

(٢) انظر : مجهول حسر اللثام عن نكبات الشام . ص٣٢ وص ٣٣ .

(٣) انظر : السجل رقم ١٤٦/محاكم دمشق سنة ١١٧١ هـ ـ ١٧٥٧ م . ص ٢٢٨ وص ٣٤٩ ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠ / ص ٢٢٦ . ثم سجلها رقم ٢٦٠ / ص ٢٢١ . ويذكر دارفيو أن القوافل كانت تجلب من مكة جميع أنواع العقاقير والتوابل والبضائع من بلاد فارس والهند . ويحمل إليها الافرنج الاغطية الحريرية والأصواف والذهب والورق والقبعات والقرمز والنيلج والسكر وكميات من البضائع الأخرى التي تفرغ في صيدا وبيروت وطرابلس ثم تنتقل من هذه المرافىء مع القوافل إلى دمشق . انظر : كتابه : وصف دمشق . ص٦٧ وص٦٨ .

(٤) انظر الريحاوي ، عبد القادر ، خانات مدينة دمشق ، ص٦٠ . ثم مجلة المشرق ، العدد ٣٦ ، ص٦٨ . مقالة لحبيب الزيات .

(٥) انظر : رافق عبد الكريم . مقالة له في مجلة الدراسات التاريخية بدمشق العدد الأول ، ص٧٦ مارس (آذار) ١٩٨٠ م .

(٦) انظر : المصدر السابق ، ص٧٧ .

(٧) انظر ابن عبد الهادي ، يوسف . الإعانات في معرفة الخانات ، نقلاً عن مجلة المشرق العدد ٣٦ ، ص٧٠ ، سنة ١٩٣٨ م .

الأجانب والمسافرين ، يقومون بطبخ طعامهم[1] فيها . وهناك خانات للقهوة وبيعها وهي ملتقى لفئات من المجتمع الدمشقي للتسلية والاستماع إلى الحكايا ورؤية خيال الظل واللعب بالداما والشطرنج وغيرها .

ووصف الخياري أحد الخانات الذي يقع بالقرب من باب جيرون (الجامع الأموي) بقوله : (يرى الجالس منه عن يمين ويسار منتزهات جميلة للغاية يجلس كثير من الفضلاء فيشربون به هاتيك القهوة التي لم يحظ غيرها بأن يكون له بها لهوة . وكان به محل فوار الذي يعتبر من العجب بل العجاب ، يصعد فيه الماء نحو القامة مع غلظ الزند العظيم البلوري ، فينحدر إلى أسفل متفرعاً كفروع أغصان تدلت للثم السوق فوق الأقدام أو كعذبات على معاطف الظباء والآرام تنصب في حوض من الرخام ذي الألوان .. وهذا الماء لا يزال جارياً مصعداً ومنحدراً دائماً وأبداً على هذا الوضع والأسلوب له حسن الصوت يزدري في العقول ويشجي القلوب . وان خانات القهوة فيها لكل شخص سلوة فلقد جمعت اللطافة »[2] .

كما كانت بعض الخانات ملقى لبنات الهوى والجند . وهكذا نرى أن الخانات في دمشق لم تكن لها مهمة اقتصادية فحسب ، بل كانت مهمتها الإجتماعية أكبر وأعظم ، فهي ملتقى الغرباء والأصدقاء يجري فيها التعارف وعقد الصفقات والتسلية وممارسة الحرفة ومبيت الغرباء ومأوى رواحلهم الخ .

وسميت بعض الخانات في دمشق بنوع السلعة التي تباع فيها أو الحرفة التي تمارس فيها .

مثل خان الحرير وخان الزيت وخان الجبن وخان الرز وخان الدبس[3] وخان الجمرك جوار المرادية[4] وخان الجوخية لبيع الجوخ وخان الخياطين الذي بناه الوالي العثماني أحمد شمسي باشا سنة ٩٦٠ هـ/١٥٥٠ م في سوق الخياطين[5] وخان الدكة المخصص لبيع الجواري

(١) انظر : القاسمي ، محمد سعيد ، قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص٣١٠ وص٣١١ . ثم انظر : دارفيو ، الفارس . وصف دمشق ، ص٣٠ .

(٢) انظر : تحفة الأدباء وسلوة الغرباء، ج١ ، ص١٦٨ وص١٧٢ وص١٧٣ . وكلمة خان هنا تعني (مكان) أي بيت القهوة.

(٣) انظر : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية: ج١ ، ص١٣٤ وص١٥٤ .

(٤) انظر : الريحاوي ، عبد القادر . خانات مدينة دمشق . ص٦٢ وص٦٣ .

(٥) انظر : الريحاوي ، المرجع السابق ، ص٦١ .

والرقيق[1] ولكن بعض هذه الخانات غيرت اختصاصها إلا أنها حافظت على اسمها حيث قامت باستقبال البضائع من الأقطار الأوربية مثل خان العصرونية[2] وخان العامود[3] وخان الزيت[4] وخان الزعفراني[5] وخان السفرجلاني[6] وخان المرادية[7] .

---

(١) انظر : الريحاوي، المرجع السابق ، ص٥٦ .

(٢) انظر : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج١ ، ص١١٧ .

(٣) انظر : سجلات الوثائق التاريخية (الفرمانات السلطانية) . الترجمة . المجلد رقم ٢ ، الوثيقة رقم ١١٦ . ص١٢١ . آذار . سنة ١٢٤٦ هـ .

(٤) المصدر السابق الوثيقة رقم ١٢٧ ، ص١٢٨ . سنة ١٢٤٦ هـ .

(٥) المصدر السابق الوثيقة رقم ٩٧ ، ص١٠٠ وص١٠١ وص١٠٢ سنة ١٢٤٦ هـ .

(٦) المصدر السابق الوثيقة رقم ٩٧ . ص١٠٠ وص ١٠١ وص ١٠٢ ، سنة ١٢٤٦ هـ .

(٧) المصدر السابق الوثيقة رقم ١٠٦ . ص١٠٩

هندسة الخانات

ارتبط بناء الخانات في دمشق بظروفها الاقتصادية والسياسية في مختلف العهود . وما بني منها في العهد العثماني كان قليلاً إذا ما قورن بالعهود السابقة وأقله في فترة دراستنا وأهم الخانات العثمانية في دمشق لم يتجاوز عدد أصابع اليد[1] .

(١) ولقد ذكر يوسف عبد الهادي الخانات الدمشقية التي بقيت إلى عهده (القرن العاشر للهجرة) وما بني في العهد العثماني أو ما قبله . في كتابه (الإعانات على معرفة الخانات) . كما يذكر نعمان القساطلي الذي : عاش في القرن التاسع عشر للميلاد /١٣٩/ خاناً في دمشق بين كبير وصغير للتجارة والصناعة والقهوة ولإيواء الدواب والمكارية والفقراء داخل دمشق وخارجها في كتابه «الروضة الغناء في دمشق الفيحاء» ومابقي من هذه الخانات الى فترة دراستنا نرصده من تلك المصادر وبعض المراجع الأخرى وهي على الشكل التالي : خان جقمق (وأحياناً سوق جقمق) وهو مايزال قائماً إلى يومنا هذا في سوق مدحت باشا ويقع في الصف الشمالي من هذا السوق وإلى الشرق من خان الزيت وخان الدكة (التكة) . ثم خان التكة (الدكة) مايزال موجودا الى الآن ويعرف لدى العامة بخان الدكة ويقع في أول سوق مدحت باشا الآن . ويقول بن عبد الهادي : بأنه كان يباع فيه الرقيق والجواري . انظر بن عبد الهادي . (الاعانات ...) ج٣ . ص٥٢ والقساطلي . (الروضة ...) ص١١٠ . ثم خان لالا مصطفى باشا ويقع ظاهر دمشق خارج باب الفرج بمحلة العقيبة . انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦/ص١٦٩ ، بالقرب من حمام المحتسب . ثم خان القماحين ، ويقع ظاهر مدينة دمشق بمحلة القماحين انظر : سجل القسمة البلدية رقم ٣٢٧/ص١٤٢ . وتعود ملكيته لآل النقطة . خصص لزرب الدواب . ثم خان بني الناشف ، ويقع بالقرب من جامع درويش باشا . إلا ان الوثائق الشرعية لم تحدد مكانه بدقة فيما اذا كان داخل أسوار دمشق أم خارجها . ثم الخان المعروف ببني رمضان ويقع في محلة ←

خان الخياطين الذي بناه في سوق الخياطين الوالي العثماني أحمد شمسي سنة ٩٦٠ هـ/ ١٥٦٢ ـ ١٥٦٣ م ثم خان المرادية الذي بناه والي دمشق ما بين ١٠٠٢ و ١٠٠٥ هـ/١٥٩٣ ـ ١٥٩٥ م. ثم خان درويش باشا (٩٧٩ ـ ٩٨٢ هـ

الشيخ محي الدين في الصالحية. أنظر: ابن عبد الهادي. ص٥٣ وما بعدها. ثم خان الخضيرية أو الخضيري ويقع باطن دمشق بمحلة القطانيين بالقرب من سوق العلبية. انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/ص٧٦. وربما هو الخان الموجود اليوم بسوق القطن قريبا من المدرسة الخضيرية. ثم خان السمرجية ويعرف بخان الحورة. أما مكانه فلم تحدده سجلات محاكم دمشق الشرعية.

ثم خان سبياي ومكانه غير معروف وينسب الى النائب سبياي الذي ولي على دمشق في آخر العهد المملوكي.

وخان في باطن دمشق بمحلة باب شرقي المعد لوضع الغلة ويقع قبلي الطريق الآخذ الى باب شرقي انظر: ابن عبد الهادي (الإعانات ..) ص٥٣ وما بعدها. ورغم ورود ذكره في سجل المحكمة الشرعية إلا أن نسبته لم ترد فيه. وخان المغاربة في باب المصلى بزقاق الأربعين. وخان عبد العظيم بمحلة القيمرية باطن دمشق. انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٤/ص٧. وخان السيد منصور، وربما هو بخان السيد الموجود اليوم قبالة الجامع المعلق خارج السور الشمالي انظر: الريحاوي خانات دمشق، ص٦٠.

وخان الجاموس أو الجواميس ـ ثم خان الشلاح، وخان بسوق الحمام، كلها ورد ذكرها في الوثائق التاريخية. انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٣/ص٢١ وص٣٠. أما أماكن هذه الخانات في دمشق فلم تحددها تلك السجلات. ثم خان الدقاقين في محلة الدقاقين قبالة سوق البزورية من جهة الجنوب. وخان البهرامية. انظر: سجل المحكمة العسكرية بدمشق رقم ٢٣٨/ص٧٠ إلا أن هذا السجل لم يحدد مكانه.

وبالرغم من بقاء هذه الخانات إلى العهد العثماني، إلا أنها لم تكن في أهميتها كالخانات التي أنشئت في العهد العثماني والتي بقيت إلى وقتنا الحاضر في دمشق، وربما يعود ذلك لاهتمام جميع العهود التي مرت على دمشق منذ إنشائها وحتى وقتنا الحاضر، بالحفاظ عليها والاستمرار في استخدامها من قبل التجار والحرفيين. فقاموا بصيانتها وترميمها وأهم هذه الخانات هي:

خان الجوخية ـ أو خان الخياطين ـ وهو جزء من سوق الخياطين بناه في بداية العهد العثماني والي دمشق أحمد شمسي باشا في عام ٩٦٠ هـ/٢٥٥٢ ـ ١٥٥٣ م، كما هو مثبت بالكتابة المنقوشة على بابه، وخان الحرير عمّره والي دمشق العثماني درويش باشا الذي حكم ما بين (٩٧٩ ـ ٩٨٢ هـ) وعرف باسم قاسارية درويش باشا. ولقد تم بناؤه كما هو مثبت نقشاً على حجارة بابه في عام ٩٨١ هـ/١٥٧٣ ـ ١٥٧٤ م. انظر: الريحاوي خانات دمشق. ص٦١.

وخان سليمان باشا ويقع في سوق مدحت باشا في أيامنا هذه في الجانب الجنوبي منه قريب من محلة الدقاقين. كان يطلق عليه قديماً (خان الحماصنة) لنزول تجار حمص فيه، بناه سليمان باشا العظم الذي ولي على دمشق عام١١٤٥ هـ/١٧٣٢ م.

وخان العامود، ويقع في سوق البزورية قبالة خان أسعد باشا العظم وهو قائم إلى وقتنا الحاضر، ←

/١٥٧١ ــ ١٥٧٤ م) وهو ما سمي بخان الحرير أو قيسارية الحرير وتم بناؤه في بسنة

ولا توجد معلومات عنه قبل ذكره من قبل نعمان القساطلي ، وهذا الخان صغير إذا ما قيس بالخانات الأخرى في دمشق .

وخان المرادية ، ويقع عند باب البريد ، وله واجهة على سوق الحميدية في وقتنا الحاضر وواجهة أخرى على سوق الحرير ، وهندسة هذا الخان حديثة العهد تعود إلى مطلع القرن العشرين ، وربما تهدم في الزلازل التي ضربت دمشق في العهد العثماني ، فأعيد ترميمه ولقد ورد ذكره في كتاب (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر) بأن الوالي قام ببنائه عام ١٠٠٢ هـ/١٥٩٣ م ــ ١٥٩٤ م .

وخان الجمرك ويقع جوار خان المرادية وبابه مفتوح على سوق القلبقجية ، وله هندسة خاصة فهو عبارة عن زاوية قائمة مسقوفة بست قباب وعلى جانبي الممر منه فتحت سلسلة من المخازن التجارية . ولا نعلم شيئاً عن تاريخ بنائه . انظر : الريحاوي . خانات دمشق ، ص٦٢ . أما نعمان القساطلي فيذكره في كتابه «الروضة الغناء في دمشق الفيحاء» على أنه كان مركزاً لجمرك دمشق حتى عام ١٨٦٤ م/١٢٨٠ ــ ١٢٨١ هـ .

وخان قطنا ويقع بين خان الجمرك وخان المرادية ، وبابه مفتوح على سوق القلبقجية ، ولا نعلم شيئاً عن تاريخ بنائه ، إلا أن عبد القادر الريحاوي يعتقد أن بناءه تم قبل بناء خان الجمرك . انظر : الريحاوي ، خانات دمشق ، ص٦٣ . ثم خان الزعفرجية في سوق القلبقجية إلى الجنوب من خان الجمرك ، هندسته شبيهة بخان قطنا . ولا نعلم تاريخ بنائه . ثم خان الحرمين أسماه القساطلي «خان الجواري» ويقع في سوق الحرير في الطرف الشرقي منه قبالة خان قطنا ويذكر «بورتر» الذي زاره في سنة ١٨٥٥ م أنه مخصص لبيع الجواري والعبيد . انظر : كتابه Five years in Damascus. VOL.I.PP.33.

أما البديري الحلاق الذي عاش في منتصف القرن الثامن عشر يذكر هذا الخان على أنه في باب البريد . وأحد سجلات محاكم دمشق / لعام ١٠٤٠ هـ/١٦٣٠ ــ ١٦٣١ م عين مكانه في سوق الجراكسة باطن دمشق ولعله جدد بعد القرن الثامن عشر واحتفظ باسمه . انظر : الريحاوي . خانات دمشق ، ص٦٣ ثم : السجل رقم ٣٢٣/المحكمة الكبرى بدمشق/ص١٨ .

وخان التتن : والتتن كلمة تركية تعني التبغ . ويبدو أنه خصص عند انشائه لتجارة التبغ ، ويقع إلى الجنوب من الجامع الأموي شرقي خان الحرير ، وبابه مفتوح على سوق السلاح وهو من النموذج المسقوف صحنه بالقباب .

وخان الصدرانية : يقع بالقرب من قصر أسعد باشا العظم في صدر سوق البزورية ، وبابه مفتوح على هذا السوق ، مسقوف بعقد وثلاث قباب وأقدم خبر عثرنا عليه من هذا الخان هو في الوثائق التاريخية التابعة لمحاكم دمشق لعام ١١٧١ هـ/١٧٥٧ م انظر : السجل رقم ١٤٦/محاكم دمشق ص ٣٠٨ وص٣٢٥ . ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٣/ص٥ . ثم سجلها رقم ٢٦٠/ص١٠ . وربما هو خان معاوية الذي تصفه سجلات محاكم دمشق بأنه معد للفتالة وجاري في دايرة أسعد باشا العظم . ثم خان السفرجلاني ، ويقع في سوق السلاح بين الصاغة المحروقة وخان الصدرانية وهو خان صغير من طابقين ، له صحن مسقوف بثلاث قباب وحوله رواق . انظر السجل رقم ١٤٦/محاكم دمشق/ص٢٩١ . وخان المغاربة ثم خان اسعد باشا العظم وهو أوسعها وأفخمها على الإطلاق .

٩٨١هـ/١٥٧٤م[1] ثم خان سليمان باشا العظم الذي يقع في محلة القماحين، وكان يسمى خان الحماصنة بناه سنة ١١٤٥ هـ/١٧٣٢ م ثم خان مصطفى باشا الذي بناه خارج باب الفرج بمحلة العقيبة بالقرب من حمام المحتسب[2] . ثم خان أسعد باشا العظم في سوق البزورية بدأ ببنائه سنة ١١٦٥ هـ/١٧٥١ ـ ١٧٥٢ م . وتم بناؤه في سنة ١١٦٧ هـ/١٧٥٣ م ويقول البديري الحلاق : «اشترى أسعد باشا سوق الدق وما حوله من الدكاكين ومراده أن يعمل بهم قيسارية ليس لها نظير في قيساريات الشام»[3] وتعرض سقفه للانهيار بعد بنائه بستة أعوام نتيجة للزلزال الذي ضرب دمشق في ربيع الأول والثاني سنة ١١٧٣ هـ/١٧٥٩ ـ ١٧٦٠ م .

ولقد كان هذا الخان أفضل ما بني من الخانات في دمشق على الإطلاق من حيث اتساعه وهندسته وزخرفته . وعندما زاره «لامارتين» في سنة ١٨٣٣ م/١٢٤٩ هـ وصفه بأنه «أجمل خان في الشرق وقبته الفخمة تذكر بقبة بولس في روما فهي محمولة على عضائد من الغرانيت ... أما بابه فيعتبر قطعة من العمارة الإسلامية التي لا نظير لها في العالم من حيث الزخارف»[4] .

ولقد أدخل العثمانيون الفن الرومي في بناء الخانات . فأصبحت خاناتهم في دمشق مسقوفة بالقباب والعقود بدلاً من الجملون الذي كان سائداً في بناء الخانات قبل عهدهم . وعنوا بزخرفة الخانات بالحليات المعمارية والحجارة الملونة (الأسود والأبيض بالتناوب) سواء في جدرانها أو أقواسها . وهذا الفن كان استمراراً للفن السلجوقي الممزوج بالفن المملوكي بالإضافة إلى الفن البيزنطي . وحل في بناء الخانات القوس الرومي محل القوس الفارسي الذي استخدم في بناء الخانات السابقة في دمشق . وتميز القوس الرومي الجديد برأسه المقعر قليلاً نحو الخارج والجزء السفلي منه محدب . وازداد استخدام القوس نصف الدائري المجزوء أي الذي تقل فتحته عن نصف الدائرة ، في الأبواب والشبابيك . أما الأعمدة فقد شاع فيها استعمال التيجان المقرنصة ورسمت في الزخرفة العروق النباتية والأزهار .

---

(١) انظر : الريحاوي ، عبد القادر ، خانات دمشق . ص٦٠ .

(٢) سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣/سنة ١٠٣٩ ـ ١٠٤٢ هـ/١٦٣١ ـ ١٦٣٤ م/ص٤٥ . ثم : سجلها رقم ٢٦/ص١٦٩ .

(٣) انظر : حوادث دمشق اليومية . ص١٥٩ وص١٧٤ وص١٧٩ ثم : القساطلي نعمان . الروضة الغناء في دمشق الفيحاء . ص ١١٠ .

4 - See: Voyage en Orient. VOL.2.P.14.

وعندما احتل المصريون دمشق طرأ على خاناتها بعض التبديل فاستخدموا الصالح منها لايواء جنودهم قبل بناء الثكنات لهم ، وأشرف بعض مهندسيهم على ترميم المتهدم منها . ونسوق مثالاً على ذلك تكليف ابراهيم باشا المصري أحد المهندسين بالكشف على بعض القيساريات وإعداد بيان عن اللازم لاصلاح قيسارية أبي العجوز وقيسارية قسطل الحرامي[1] . واضطر المتضررون من جراء ذلك لتقديم شكوى إلى مجلس الشورى فكلف المجلس بالنظر في شكاوى أصحاب الخانات والحوانيت فيها . وأوكل أمر ذلك إلى متولي الجهات الخيرية المحبوسة لها . فكان ينصفهم ويدفع لهم أجور هذه الخانات . ولدينا مثال على ذلك أحد خانات دمشق الذي كان تابعاً للطريقة المولوية حيث استخدم من قبل الجيش المصري كمخزن لوضع القش والصابون ولم تدفع أجرته ، فاضطر شيخ التكية المولوية (عبد الغني الدرة) لتقديم شكواه إلى الحكمدار . فقام الأخير بإحالة الشكوى إلى المجلس لدراستها واصدار حكم بها . ووافق المجلس على إعطائه الأجرة المقررة عن المدة السابقة واللاحقة[2] . وبقي الحال إلى أن قام الجيش المصري ببناء الثكنات الخاصة به فأعيدت الخانات إلى أصحابها . وقام المصريون بتنظيم العمل فيها . ووضعوا دلّالا أو أكثر في كل خان ، وكان على الدلّال أن يحصل على براءة من المحكمة الشرعية في دمشق تسمح له بالعمل في هذه المهنة . كما وضعت الإدارة العسكرية المصرية ملتزمين من قبلها لجمع مال القبان من الخانات . وكان الملتزم (يأخذ من التجار مال الميري عيناً أي من نفس السلعة المباعة أو نقداً وعلى سبيل المثال كان يأخذ الزكاة من الزيت ثلاث بارات له وتسعة قروش لجهة الميري[3] . وأثرت السياسة التي اتبعها الحكم المصري في دمشق على وضع الخانات عندما قاموا بالسماح للقناصل والتجار والأوربيين بالإقامة في دمشق . حيث قام هؤلاء بترويج منسوجات دولهم ومنتجاتها الصناعية التي استطاعت أن تزيح من طريقها معظم المنسوجات والصناعات الدمشقية ، نظراً لتفوق الأولى على الثانية بسبب جودتها ورخص ثمنها . فأدى ذلك إلى تعطل أنوال النسيج وبعض الحرف المقامة في الخانات وبالتالي تحولت تلك الخانات وغرفها إلى

---

(١) انظر : رستم ، أسد ، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا . المجلد ٣ و ٤ . ص١٥٢ وص٢٢٦ .

(٢) انظر : رستم ، أسد ، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا . المجلد ٣ و ٤ ص ١٥٣ وص٢٠٠ .

(٣) انظر المصدر السابق ، ص١١٧ وص٢٠٠ .

متاجر لبضائع الغرب وأصبح بعضها الآخر زرائب للحيوانات . ونرصد عديداً من الخانات الصغيرة والكبيرة التي تغيرت أسماؤها نظراً لتغير النشاطات الإقتصادية فيها .

وأهم الخانات التي كانت تقع خارج دمشق : خان الشيخ عمر ظاهر دمشق بمحلة العاصية[1] ثم خان سوق الخيل[2] ثم خان المشعلجية بمحلة تحت القلعة غرب خان الباشا[3] وخان المليحي ظاهر دمشق[4] وخان الحنابلة في محلة العقيبة[5] ثم خان الآلاجا في الشاغور البراني بالقرب من جامع الشنباشية[6] وخان العكجية وقف بني البكري ظاهر دمشق[7] وخان الوقف بمحلة الشويكة ظاهر دمشق[8] .

أما ما كان منها باطن دمشق فهي :

خان الأقميم قرب حمام عيسى القاري[9] وخان الوقف بمحلة النصارى بزقاق جعفر البراني[10] وخان البترك الكائن بمحلة الخراب بزقاق الكنيسة المريمية . كان معداً للفتالة[11] وخان الرواس في محلة باب توما[12] وخان شيخ الحارة بمحلة باب توما وكان معداً لنسيج القطن[13] وخان المصبنة باطن دمشق بمحلة النصارى بزقاق التلة بالقرب من جامع التوبة[14] وخان حيدر الكائن بزقاق المسبك الجواني بمحلة النصارى بالقرب من خان شيخ الحارة[15] وخان قجماس باطن دمشق بالقرب من سوق الأروام[16] وخان البرنجك شرق جامع

---

(١) انظر : سجل محكمة الميدان رقم ٣٠٤/سنة ١٢٣٨ ــ ١٢٤٠ هـ ، ص١٣٠ .
(٢) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩/سنة ١٢٦٤ ــ ١٢٦٥ هـ ، وص٣٩ .
(٣) انظر : السجل رقم ٢٠٢/محاكم دمشق/سنة ١٢٠١ ــ ١٢٠٢ هـ ، ص٤٣٦ وص٤٦٦ .
(٤) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦/ص٢٨٧ .
(٥) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٣٦/سنة ١٢٥٠ ــ ١٢٥١ هـ ، ص١٧٣ .
(٦) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١٢٥٠/٣٤٠ ــ ١٢٥٤ هـ ، ص٤٧ .
(٧) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق ١٢١٠/٢٣٩ ــ ١٢١١ هـ ، ص٢٠٩ .
(٨) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١٢١١/٢٤٠ ــ ١٢١٦ هـ ، ص٤٧٥ .
(٩) انظر سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١٢٦٤/٤٠٩ هـ ، ص٤٢٨ .
(١٠) انظر : السجل رقم ٢٢٠/محاكم دمشق/١٢٠١ ــ ١٢٠٢ هـ ، ص٤٣٦ وص٤٦٦ .
(١١) انظر : سجل محكمة الميدان بدمشق رقم ٣٢٣/سنة ١٢٤٧ هـ ، ص٢١ وص٣٠ .
(١٢) انظر : سجل القسمة العسكرية رقم ١٢٥٠/٣٣٦ ــ ١٢٥١ هـ ، ص٢٠٣ .
(١٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٥٠/٣٣٤ هـ ، ص٢٣ .
(١٤) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٠/٢٣٩ ــ ١٢١١ هـ ، ص١٦٨ .
(١٥) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١١/٢٤٠ ــ ١٢١٦ هـ ، ص٤١٦ .
(١٦) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٦/٢٥٠ ــ ١٢١٧ هـ ، ص٢٧٢ .

الدغمشية[1] وخان الدهوار بمحلة الشيخ سيف الدين باطن دمشق[2] كما ورد ذكر لبعض الخانات في تلك السجلات إلا أنها لم تحدد أماكنها مثل : خان الحشاشة وخان بازرباشي[3] ويبدو أن تلك الخانات لم تكن بأهمية الخانات الكبيرة والتي لعبت دوراً في حركة تجارة دمشق الداخلية .

---

(١) انظر : السجل رقم ٢٣٥/محاكم دمشق/١٢١٠ ــ ١٢١١ هـ ، ص١٤٩ .
(٢) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٦/٢٥٠ ــ ١٢١٧ هـ ، ص٧ .
(٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٠/٢٣٤ ــ ١٢١١ هـ ، ص٤٧ .

المقابر الطائفية وهندسة القبور وكيفية دفن الموتى

إن اتساع المدينة بفعل تزايد السكان والهجرة إليها ، قد راعى حرمة المقابر فسار البناء بمحاذاتها ، كما نرى ذلك في حي سوق ساروجا والعمارة ، الذي ساير مقبرة الدحداح ، ثم الميدان الذي ساير مقبرة الباب الصغير من ناحية الغرب .

ووجد في دمشق عدد كبير من المقابر والترب العامة والخاصة آنئذ ولقد خصص لكل طائفة دينية فيها مقبرة أو أكثر ، حتى أننا نرى مقبرة لكل مذهب من المذاهب في الديانة الواحدة . وكان للمسلمين مقابر عدة كما كان مثل ذلك للمسيحيين واليهود والسامرة . والملاحظ بشكل عام أن المقابر الخاصة بالطائفة كانت قريبة من أماكن سكنها . فمثلاً المقابر المسيحية في الجهة الشرقية والجنوبية من المدينة حيث يسكنون وكذلك مقابر اليهود وتقع خارج أسوار دمشق في جنوب الحي اليهودي مباشرة في الشاغور البراني . أما المسلمون الذين كانوا يشكلون الكتلة الأساسية من سكان المدينة ، والموزعون في سكنهم على معظم أحيائها وأرياضها . كانت مقابرهم منثورة في كل اتجاه خارج أسوارها فمثلاً : مقبرة الباب الصغير وهي أكبر المقابر الاسلامية والتي كانت في أصلها مقبرة رومانية ، تقع في خارج سور دمشق قبالة الباب الصغير ، وتمتد جنوباً مسايرة الطريق السلطاني . ثم مقبرة الميدان التحتاني من ناحية الشرق ثم مقبرة الميدان الفوقاني أيضاً من الشرق . وهناك مقبرة مرج

الدحداح التي تقع في شمال أسوار المدينة حيث كان يدفن فيها أبناء حي العقيبة وسوق ساروجة والبحصة وغيرها ــ ثم مقبرة الشيخ رسلان التي تقع إلى الشرق من أسوار مدينة دمشق ، وهي شطران : للشيعة وللسنة من المسلمين وتقع بالقرب من أول مسجد للإسلام في دمشق[1] وهو مسجد (خالد بن الوليد) الذي يقع بدوره وعلى وجه الدقة ما بين باب توما وباب شرقي ، ، وهناك العديد من المقابر العامة في الصالحية وسفح جبل قاسيون وهي في معظمها مقابر إسلامية . وتأتي أهمية هذه المقابر العامة من كونها تحوي في جنباتها أضرحة العديد من الصحابة وآل البيت والصالحين وأبطال الإسلام الذين قضوا ابان فتح مدينة دمشق من قبل المسلمين ، أو فيما بعد في ظروف مختلفة . فاختار لذلك أبناء دمشق دفن موتاهم بالقرب من هؤلاء تبركاً بهم .

ولقد أنشأ أصحاب اليسار والمتنفذون والقادة وغيرهم ترباً[2] خاصة بهم في دمشق وأرياضها وكانت تلك الترب ملحقة بالمدارس أو الزوايا أو التكايا أو الجوامع أو السبلان أو الربط وغيرها من المنشآت ذات النفع العام ، وكان منشؤوها من الرجال والنساء . ويعود معظمها إلى ما قبل العهد العثماني . إلا أن العثمانيين قد أقاموا مثيلاً لها . وتأثرت تلك المنشآت بما أصاب دمشق من المحن والكوارث الطبيعية كالزلازل والمحن الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية فأدى ذلك إلى تهدمها . وسطا على ما تبقى منها ومن أوقافها المختلسون ، واستغلوا ريعها لصالحهم الخاص ، وتحول ما تبقى منها عن الغاية التي انشىء من أجلها ، فأصبحت منازل خاصة ، وكنت ترى بعضها بيوتاً مسكونة وإلى جانبها أو داخلها أضرحة وقبور ، وقد يستغرب الرائي هذه الظاهرة ، إلا أن استغرابه يزول بالعودة إلى كتب التاريخ التي تدلنا على أنها مبانٍ تابعة للترب[3] أو من المنشآت العامة المسروقة ومع الزمن أصبحت ملكاً خاصاً .

---

(١) انظر : كرد علي ، محمد . خطط الشام . ج ٦ ، ص٦٤ ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/سنة ١٢٠١ ــ ١٢٠٢ هـ ، ص ٤٠٥ . ومن قائل ان قبره مع قبور بني أمية قد درست بعد سقوط دولتهم على يد العباسيين حيث قام هؤلاء بتهديم هذه القبور وطمس معالمها .

(٢) مثل فتنة تيمورلنك وتدميره لمدينة دمشق ومنشآتها العامة في نهاية القرن الخامس عشر للميلاد . ثم الهزات الأرضية التي ضربتها ، خاصة زلزال سنة ١١٧٣ هـ/١٧٥٩ ــ ١٧٦٠ م الذي دمر معظم منشآتها ومبانيها .

(٣) ولقد ورد ذكر هذه الترب في عديد من مؤلفات المؤرخين . وهذه الترب هي : الأفريدونية والأسدية الإيديكنتية ــ الايد مرية ــ بالقرب من اليغمورية ثم الأيدمرية بالقرب من الجسر الأبيض والأكزية ←

وما أنشىء في العهد العثماني من الترب كان قليلاً ، وألحقت بدورها بالجوامع والمساجد والمدارس والتكايا . وكانت أقل مما أوردناه سابقاً ، فمثلاً طاهر النابلسي المتوفى عام ١١٥٠هـ/ ١٧٢٧ ــ ١٧٢٨م قد دفن في حجرة الشيخ عبد الغني الكائنة يمين الداخل إلى داره في الصالحية[1] . ودفن العديد من المتصوفين في العهد العثماني في ترب الزوايا التي كانوا يقيمون فيها ، ودفن في ذلك العهد عدد من أعيان دمشق في ترب ألحقت بالمدارس التي أنشأوها . فمثلاً آل المرادي أنشأوا المدرسة النقشبندية وألحقوا بها تربة دفن العديد منهم فيها

والاستدارية والجيمانية ــ البزورية ــ والبهادرامية ــ والبلبانية في طريق الصالحية ــ والبلبانية غربي الزنجبيلية ــ والبصية والبدرية في ميدان الحصى والبدرية مقابل الشيخ رسلان ــ البهنسية ــ والبرسبائية البهائية والبزورية والبهادرامية والبدرية والتكريتية بالصالحية . التنكزية بالقرب من جامع تنكز ــ واتفريردمسية ــ والتوريزية ــ والشنبكمية والجمالية الاسنائية والجمالية المصرية . الجوكندارية والحافظية ، والخطابية ، والخاتونية والدوباجية الجيلانية والرحبية والزويزانية والناصري والسنقرية ــ الصلاحية والسلامية والسنبلية العثمانية والسودونية والخضيرية ــ والشهابية والشرابيشية ــ والعصرية والصوابية والصارمية البرغشية العادلية . والطوغائية الناصرية والعزية الحلبية . والعلانية الأميرية والمزية الايبكية والعديمية والعمادية والعزية البدرانية ــ الحمزية والعادلية البرانية والعادلية الجوانية والعزية والقراجية الصلاحية والقراجية بميدان الحصى والقيمرية والقطلوبكية والقطينية والقمارية والقانيانية البهلوانية والكركية الاباسية الفخرية . والكوكبائية والكندية والكابلية الصلاحية البرانية والكاملية الجوانية والمختارية والمؤيدية الشيخية والمؤيدية الصوفية والمراغية والمنكبائية والمزلقية والملكية الأشرفية والمحمدية الأمينية الغيثية الانهارية والمنجكية والنشابية وغيرها واليونسية واليونسية الدوادارية . انظر : تفصيل ذلك في القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية لابن طولون ، ص٢١٥ ، ص٢١٨ ، ص٢١٩ ، ص٢٢٣ ، ص٢٢٤ ، ص٢٢٥ ، ص٢٢٦ ، ص٢٢٧ ، ص٢٣٥ ، ص٢٣٨ ، ص٢٣٩ ، ص٢٤٠ .

ثم انظر : ابن بدران عبد القادر منادمة الاطلال ومسامرة الخيال . ص٣٣١ ، ص٣٣٢ ، ص٣٣٤

ومن جهة أخرى فقد أورد ابن طولون أسماء الترب في الصالحية على الشكل الآتي : التربة الداخوارية ــ القرشية ــ المهرانية ــ السراجية ــ الثقالية ــ الايبكية ــ الفاطمية ــ المنيحة الخواجكية ــ الساوية ــ المظفرية ــ المحمودية ــ التاجية ــ الستية ــ الطغريلية ــ الظهرية ــ الكرمانية العبيدية ــ الدايسية ــ الكججكرية ــ العلوية ــ الخيمية ــ العلانية ــ الصفوية ــ النظيفية ــ الشحاوية ــ الخوارزمية ــ العاتقية ــ التربة الناصرية البلبانية وتنسب إلى ناصر الدين محمد بن سيف الدين بلبان أنشأها سنة ٧٣٤ هـ تقع قرب دار الحديث بالصالحية تجاه زاوية علي الفرنتي وشرقها تربة ابن الرومي .. بها ساحة بها قبور عتقاء الواقف . ثم التربة الجامعية والمعتمدية . انظر : القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية . ص٢٣١ ، وص٢٤٢ .

(١) انظر : المرادي . سلك الدرر . ج ٢ ، ص٢١٨ . ثم : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص١٥١ .

[1] . ودفن العديد من علماء وأعيان دمشق في العهد العثماني في المقابر العامة التي ذكرناها إلى جانب أحد الأولياء أو الصحابة أو التابعين أو أحد أفراد آل البيت تبركاً بهم . والأمثلة على ذلك كثيرة وردت في كتب تراجم هؤلاء في فترة دراستنا .

وكان لبعض الأسر الدينية أو الثرية في دمشق مدافن خاصة بها وحسبنا أن نورد مثالاً على ذلك مدفن بني الزنكي في سفح قاسيون[2] ثم تربة تقي الدين الحصني في باب الله[3] جنوب دمشق . وتربة بني النابلسي في الصالحية[4] . ثم مقبرة بني السقطي في سفح قاسيون[5] . ثم مدفن بني مردم بك خارج سوق السنانية[6] . وهي ملاصقة لمقبرة الباب الصغير من الشمال ، ثم مقبرة آل سعد الدين في الميدان . ثم مقبرة آل العجلاني . ثم مقبرة آل القوتلي وهي ضمن مقبرة الباب الصغير من الناحية الشرقية . ثم مدفن بني المنير في تربة دار القرآن الرشائية ظاهر باب السلسلة المعروفة بالناطفيين[7] .

أما بالنسبة لرجال الدين المسيحيين فنرى مقبرة خاصة للبطاركة الأرثوذكس ضمن ساحة الكنيسة المريمية من الناحية الغربية ، وهي مقر بطركية انطاكية وسائر المشرق التي يستقر فيها البطريرك ، ووجدت مقابر خاصة للخوارنة ورجال الدين منفصلة عما عداها من مقابر أبناء مذهبهم أو طائفتهم[8] ووجدت مقابر خاصة بحاخامات اليهود في دمشق منفصلة بدورها عن المقبرة العامة الخاصة بهم .

كما وجدت في دمشق مقابر للارمن والأرثوذكس والموارنة والسريان والكلدان واليعاقبة واللاتين . وكانت هذه المقابر متجاورة وتقع جميعها إلى الجنوب من باب كيسان خارج

(١) المرادي ، سلك الدرر . ج ١ ، ص١٤٧ .
(٢) انظر : الشطي ، محمد جميل . أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ومنتصف القرن الرابع عشر . ص٣٤ .
(٣) المصدر السابق ، ص٨٢ .
(٤) المرادي ، سلك الدرر ، ج ٢ ، ص٢١٨ .
(٥) الشطي محمد جميل . المصدر السابق . ص١٤٣ .
(٦) المصدر السابق ، ص٢١٩ .
(٧) انظر : الحصني محمد أديب . منتخبات التواريخ لدمشق : ج ٣ ، ص٩٣٨ .
(٨) تحققت من ذلك أثر زيارتي لمركز البطركية الأرثوذكسية وكنيستها المذكورة والتي تقع في حي «طالع الفضة» كما أفادني غبطة بطريرك أنطاكية وسائر المشرق · بأن المقبرة المذكورة والكنيسة والمقر لم يتبدل وضعها منذ مئات السنين إلا من حيث حلول أبناء العرب في سلك رئاسة البطركية مكان اليونانيين وذلك بدءاً من مطلع القرن العشرين . علماً بأن زيارتي كانت بتاريخ ١٩٨١/٢/١٠ م .

أسوار دمشق . ثم هناك مقبرتان لليهود كانت الأولى منهما بالقرب من مقام سيدي بلال الحبشي وإلى الغرب من مقابر المسيحيين خارج أسوار دمشق ، أما الثانية فتقع إلى الجنوب الشرقي من المقبرة الأولى اليهودية ، وإلى الجنوب من نهاية المقابر المسيحية بحولي ٥٠٠ م وتمتد إلى مسافة كيلو متر . والمعتقد أن هذه المقبرة قد أحدثت بعد المقبرة الأولى بدلالة تواريخ الشواهد الموجودة على قبور الموتى فيها . إذ كانت مقابر اليهود مقسمة فيما بينهم على طوائفهم الثلاثة التي كانت تقيم في دمشق في العهد العثماني « الربانيون — والقراؤون — والسامرة » .

ولقد استخدم اليهود في دمشق اللغة العبرية في الكتابة على قبور موتاهم . بالإضافة إلى استخدامهم التقويم العبري في تأريخ سنة الوفاة . وأنزلوا الميت في لحد واحد . في حين قام المسلمون والمسيحيون بمخالفة هذه القاعدة فأنزلوا جثث الموتى على الرفاة مع مراعاة الفارق الزمني . فكانوا يقومون بفتح القبر ويجمعون الرفاة في زاوية من اللحد ثم بعد ذلك ينزلون الجثة إلى اللحد وهكذا . وكانت عادة بعض المسلمين انزال جثة الأبن على رفاة الأب وجثة الحفيد على رفاة الجد وهكذا ، إلا أنهم كرهوا إنزال جثة الأخ على رفاة الأخ طبقاً لمسألة فقهية[1] .

أما الأسر الخاصة الدينية البارزة فقد اتخذت لنفسها، أماكن محددة من المقابر الاسلامية وجعلتها مدافن خاصة بها . وتكونت تلك المدافن من ٣ — ٥ قبور . وأحيطت بجدران أو أسيجة حديدية ورفعت فوق بعض القبور مظلات مسقوفة . ونسوق مثالاً على ذلك ما كان في مقبرة الدحداح من مدافن لأسره التغلبي والحلبي والبخاري والحمصي والذهبي والعمري . وكان في مقبرة الباب الصغير مدافن لأسرة القوتلي والمرتضى والأيوبي ومردم بك وغيرهم .

أما الأسر المسيحية الغنية فسارت على هذا المنوال فأقامت مدافن خاصة بها في المقابر المسيحية العامة وكانت عبارة عن غرف تحت الأرض بها رفوف حجرية توضع عليها توابيت الموتى . وعند امتلائها تزاح الرفاة لتوضع مكانها توابيت موتى جدد ويعاد سدها بالحجارة والطين وهكذا . ولقد زينت المقابر بالصلبان الخشبية أو الحجرية .

---

(١) عندما قمت بزيارة ميدانية لمقبرة مرج الدحداح بتاريخ ١٩٨٣/١/٣ قابلت تربدارها وهو من أسرة توارثت حفر القبور في هذه المقبرة . فأراني عدة قبور على شواهدها نزول الأبناء على الآباء . فمثلاً أحد قبور آل الحمصي كتب على الشاهدة أن الجد قد توفي في سنة ١١٨٥ هـ ، ودفن في لحده ابنه سنة ١٢٠٠ هـ ثم حفيده في سنة ١٢١٥ هـ .

وكانت طريقة المسلمين بدفن موتاهم وما زالت حتى وقتنا الحاضر ، أن توضع جثة المتوفى في كفن من القماش الخام ، الأبيض غالباً ، وينزل إلى اللحد على جانبه الأيمن غرباً بشرق بحيث يستقبل المتوفى بوجهه الكعبة المشرفة ، في حين يضع النصارى الميت على ظهره ووجهه إلى الأعلى ويداه متصالبتان فوق صدره . أما اليهود فكانوا يضعون الميت على ظهره ووجهه إلى الأعلى . وكان اتجاه قبور المسيحيين شرقاً بغرب على حين كان اتجاه قبور اليهود شمالاً بجنوب[1] .

أما شكل أضرحة الموتى في دمشق من الخارج فكان يختلف من دين إلى آخر ، فأضرحة المسلمين كانت على نماذج ثلاثة آنئذ وهي العادي ـــ والمشايخي ـــ والحنبلي[2] وعلى كل ضريح شاهدة كتب عليها اسم المتوفى ، أو أسماء المتوفين في القبر الواحد ، وسنة الوفاة والتاريخ الهجري ، كما وجد جرن صغير في أعلى الضريح لوضع عيدان الآس . وتختلف هذه الأجران من ضريح إلى آخر ، فالبعض منها منصوب من الحجارة المزيّة والبعض الآخر من الرخام والقليل منها من حجارة البازلت . وأما الجرن فتوجد به فتحة صغيرة لزرع بعض الزهور أو الورود أو بعض النباتات الجميلة أو ذات الرائحة العطرة . أما هيكل الضريح فكان مبنياً من اللبن المطين بالترابة الدمشقية الحمراء والبعض الآخر كان مطيناً بخليط من ألياف القنب والكلس وغيرها . أما مقابر المسيحيين كمقابر المسلمين الفردي الجماعي أما الفردي

---

(١) قمت بعدة زيارات لمقابر المسيحيين واليهود في دمشق وشاهدت دفن موتاهم ، وسألت رجال دينهم عن ذلك خلال الشهر الثاني والثالث من عام ١٩٨١ م .

(٢) شاهدت تلك النماذج المختلفة من الأضرحة التي تعود إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر بحسب الشواهد المنصوبة عليها ولاحظتُ قبوراً تنبش الرفاة منها من أجل إنزال متوفين جدد من أبناء الأسر الدمشقية . أما الضريح العادي فشكله « جمالون » إلا أن أضلاعه منحنية قليلاً بدءاً من قمته إلى سطح الأرض ، وهذا النوع من الأضرحة هو الغالب . أما القبور المشايخية فهي أشبه في شكلها الخارجي بمتوازي المستطيلات مشطوفة من الأعلى مما تساعد على وضع السحلية أثناء انتزاع الجثة وإنزالها في اللحد . أما النوع الثالث فهو الحنبلي ويبدو أنه كان خاصاً بأبناء دمشق المسلمين الذين كانوا على مذهب أحمد بن حنبل بدلالة أن شواهد هذه القبور التي رأيتها كانت تدل على أسماء أسر حنبلية ، وأفادني حفار المقبرة بذلك ، وكان شكل الضريح الحنبلي مثل الضريح العادي إلا أنه مشطوف من أعلى في منتصف الحدبة ، والشطف لم يكن كاملاً على طول الضريح بل ترك جزء من أوله وجزء من آخره ولاحظت بناء بعض الأضرحة في تلك الفترة من الحجارة ، والقليل الآخر من الرخام الخالص ، مزخرف بأشكال وزهور نافرة مكتوب عليها ، بالإضافة إلى اسم المتوفى وسنة وفاته ، آيات من القرآن ، كالأضرحة في مقبرة آل مردم . شاهدت ذلك بزيارتي الميدانية لمقبرة باب الصغير بتاريخ ١٩٨١/٣/٧ م .

منها فكان على شكل قبر عادي به لحد توضع به الجثة على الوضعية السابقة ، وعندما يتم الدفن يوضع على الضريح صليب من الخشب أو الحجر . أما المقابر الجماعية فقد ذكرناها آنفاً . وفي فترة متأخرة أخذت مقابر المسيحيين أشكالاً متباينة وأدخلت عليها الزخارف المنحوتة على الرخام ، وذكر على كل مدفن جماعي اسم الأسرة صاحبة المدفن ، ، فمثلاً في مقبرة الروم الكاثوليك ترى مقابر جماعية للأسر التالية : مقبرة آل البطل وآل طعمة وآل شاوي وآل زخور وآل حمصي وآل نوفل وآل فرح وآل نادر وآل دمر وآل عبيد وآل ذهبية وآل شاشاتي .

أما قبور اليهود فاللحد فيها كلحد قبور المسيحيين والمسلمين تقريباً وكان اللحد يدعم بالحجارة الغشم من جوانبه الأربعة . ويكفن الميت بكفن خاص وينزل إلى لحده على ظهره ورأسه باتجاه الشمال وقدماه باتجاه الجنوب ، أما شكل الضريح من الخارج فكان عبارة عن كتلة صخرية بطول المتوفى ، مجوفة على شكل متوازي مستطيلات ، توضع الصخرة ووجهها المجوف إلى الأسفل وهي مقطوعة من مقالع صخر المزة الأبيض الصلب ، وينحت على ظهرها اسم المتوفى باللغة العبرية وسنة وفاته بالتاريخ العبري وينقش إلى جانب هذه الكتابة نجمة داوود أو صورة للأداة التي كان يستخدمها المتوفى في حرفته في الحياة الدنيا ، فمثلاً إذا كان المتوفى نقاشاً حفر على ضريحه صورة مطرقة ، وإذا كان خياطاً حفر على ضريحه صورة مقص وهكذا ، وكان طول الصخرة يتراوح ما بين ١١٠ ـــ ١٧٠ سم وبارتفاع من ٦٠ ـــ ٧٠ سم وبعرض ٤٠ ـــ ٥٠ سم ولم يكن وجه الصخرة من الأعلى مستوياً بل يلاحظ بعض الإرتفاع باتجاه رأس المتوفى . كما تحفر أحياناً بعض آيات من التوراة أو بعض أبيات من الشعر العبري . أو بعض عبارات التأسي والتفجع على المتوفى . ووجدت على بعض الأضرحة صورة منحوتة للشمعدان المقدس ذي الفروع التسعة التي تمثل وصايا موسى عليه السلام[1] .

وخصص داخل المقبرة مدفن خاص لحاخامات اليهودية . أضرحتهم متجاورة مرفوعة

---

(١) قمت بزيارات ميدانية عديدة لمقابر المسيحيين واليهود في دمشق ولاحظت أنه لم يدخل أي تعديل يذكر على هندسة أضرحة اليهود في الفترة الحديثة ، التعديل الوحيد هو استخدام الكتابة العربية بالإضافة إلى العبرية ، في حين كانت الكتابة على تلك الأضرحة التي تعود إلى «فترة دراستنا» باللغة العبرية فقط . أما بالنسبة للأضرحة المسيحية فقد أدخل عليها مجدداً استخدام التماثيل من الرخام والكتابات وبعض التزيينات التي تختلف عما كانت عليه القبور السابقة والتي تعود إلى فترة دراستنا .

على مصطبة (قاعدة) مستطيلة الشكل مرتفعة عن الأرض تنتصب عليها الأضرحة . وكان الضريح على شكل جملون ويشبه (النوع العادي) لدى المسلمين الذي ذكرناه آنفاً . ولا نرى أية كتابة على تلك الأضرحة بل نشاهد لوحة رخامية تشير إلى ذلك منفصلة عن الأضرحة . والبناء الذي يضم هذه الأضرحة عبارة عن بناء مثمن الأضلاع بقبة عالية وشبابيك علوية وسفلية . كما توجد مصطبة بارتفاع /٦٠/ سم تحيط بالأضرحة وتساير جدار البناء من الداخل .

ولقد أقام اليهود ضمن المقبرة كنيساً صغيراً لإقامة الصلاة الجنائزية ، وقد علق على جداره الشرقي من الداخل سجادة من الحرير الأسود السميك مطرزة بالقصب الأصفر بأشكال جميلة وفي داخلها كتابة عبرية ثم صورة لتاج مملكة اسرائيل وصورة للتوراة وتحيط بها نجمة داوود السداسية وفي الأسفل بعض تعاليم موسى «لا تزن ولا تسرق ... الخ» وفي الأسفل صورة الشمعدان المقدس الآنف الذكر مطرزة بخيوط القصب . ومن جهة أخرى كان يكتب على ضريح المتوفى من اليهود اسمه وكنيته وسنة وفاته بالتقويم العبري كما يذكر اسم الشهر الذي توفي فيه . أما المرأة اليهودية المتوفاة فيذكر اسمها واسم زوجها (فلانة زوجة فلان) ولا يذكر اسم والدها أو أسرتها .

ولقد استطعنا رصد أسماء بعض الأسر اليهودية الدمشقية التي كانت تعيش في دمشق في تلك الفترة وهي : (لاطي ــ سروكو ــ ساعاتي ــ قواص ــ كمخ جي ــ بغدادي ــ سلمون ــ خليفة ــ حمرة ــ شديد ــ حصوة ــ نكاش ــ عطار ــ آرازي ــ صايغ ــ شللوح ــ بقاعي أرليل ــ منه ــ داية ــ خالع ــ جرادة ــ سرور ــ شعليا ــ حاصباني ــ شما ــ دانيال ــ طوطح ــ قطش ــ ميخا ــ كدع ــ سلامة ــ خمري ــ مبزيز ــ سعد) .

وبشكل عام فقد وجد في مقابر دمشق على اختلاف المذاهب والأديان حفارون لحفر القبور ففي المقابر الاسلامية كان حفاروا القبور يمنحون أجراً معيناً من قبل آل الميت . وكان الحفارون يثرون في فترات النكبات العامة التي كانت تصيب دمشق ببلوائها كالزلازل والأمراض الوبائية . هذا ناهيك عن أنهم كانوا يأخذون مبالغ كبيرة من أهل المتوفى إذا كان ثرياً أو من الأمراء ، وكانت تلك المبالغ فوق ما يريدون كأجرة دفن وأجرة مظلة وأجرة كرسي أيام الصباحيات وأجرة تفتيش على القبر إلى السنة غالباً .

«وقد يخصص لهم معاش عن كل شهر شيء معلوم من الدراهم ، وخاصة إذا ما حصل موت متتابع بسبب طاعون أو ريح وخيم أصفر كما حصل سنة ١٢٦٤ هـ/١٨٤٧ ــ ١٨٤٨ م . حيث كانت الوفيات أكثر من ألف انسان فيحصل لهؤلاء الغنى والثروة »[١] .

وقد اعتبر أهل دمشق العديد من قبور رجال الدين والمتصوفين والأشراف وآل البيت والأولياء الذين يتبرك بقبورهم وتستجاب الدعوات عند أضرحتهم . وكانت هذه القبور والمقامات عديدة كما كانت موزعة في داخل دمشق وخارجها وفي سفح قاسيون والصالحية وغيرها .

(١) انظر : القاسمي ، محمد سعيد ، قاموس الصناعات الشامية . ج ١ ، ص ١٠١ .

الفصل الثاني

الحاكمون والمحكومون في مجتمع دمشق

آ ــ الهيئة الحاكمة

الوالي ــ الدفتردار ــ الكاخيا ــ المتسلم والسوباشي ــ ضباط الجيش أو (الأغوات والزعماء) ــ أصناف الجند :

١ً ــ الانكشارية : ثكنات الانكشارية وتسليحها وتموينها وطريقة قتالها

القابي قول واليرلية في دمشق

٢ً ــ الجند المرتزقة

٣ً ــ السكبان

٤ً ــ اللاوند

٥ً ــ الدالاتية

٦ً ــ الجند المغاربة

٧ً ــ التفنكجية

٨ً ــ الهوارة

٩ً ــ قوات الاقطاع أو السباهية

١٠ً ــ القوات الرديفة

محاولات إصلاح الدولة العثمانية للهيئة العسكرية وأثر ذلك على دمشق.

ب ـــ هيئة المحكومين

تجار دمشق ــ الحرفيون وطوائفهم ــ البنية التنظيمية للطائفة الحرفية ــ التخصص الحرفي في دمشق ــ الطوائف مابين نهاية القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر ــ الفلاحون ــ ملكية الأرض والفلاح ــ البدو ــ سياسة السلطة العثمانية في دمشق تجاه البدو ــ أهل الذمة ــ كنائس النصارى وأديرتهم في دمشق ــ اليهود في دمشق ــ الأقليات الأوربية وقناصلها في دمشق ــ معيشة القناصل وحماياتهم ــ الرقيق .

تمهيد

سنتناول في هذا الفصل شريحتين رئيستين من مجتمع دمشق شكلتا معظم سكانها آنئذ، أولاهما هيئة الحكام المتمثلة بأهل السيف وبعض عناصر أهل القلم، ثم الشريحة الثانية والتي شكلت بتعدادها معظم سكان دمشق، وهي ماأطلقنا عليها هيئة المحكومين. على اعتبار أنها لم تملك من السلطة شيئا يذكر.

فالعثمانيون الفاتحون لم يغيروا من بنية المجتمع الدمشقي عرقياً أو لغوياً أو حتى في طريقة معيشته أو تنظيماته المحلية. وكل ماحصل من تغيير هو حلول العثمانيين كهيئة حاكمة محل الهيئة السابقة المملوكية. فسعت الدولة العثمانية لتوطيد الأمن وجباية الضرائب والخطبة للسلطان العثماني. وقامت بوضع حامية من الانكشارية (القابيقول) في قلعة مدينة دمشق ورفعت العلم العثماني[1] محل العلم المملوكي. كما لم تختلط العناصر العثمانية بأبناء مدينة دمشق اختلاطاً كافياً، وحتى العناصر التركية التي استقرت في مدينة دمشق كانت قليلة في البداية، ومن جاء إليها بطبيعة منصبه، لم يطل مقامه فيها إلا لنقله إلى منصب آخر في الامبراطورية أو لعزله من منصبه[2]. وإذا ماحاولنا تلمس فئات الهيئة الحاكمة في فترة دراستنا لرأيناها مكونة

(١) يقول ابن طولون: إن العلم العثماني كان في رأسه هلال به صنوبرة من فضة مطلية بالذهب انظر: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان. ج٢. ص٦٩.

(٢) انظر: عانوتي، أسامة الحركة الأدبية في بلاد الشام خلال القرن الثاني عشر. ص٨.

من فئتين رئيسيتين أولاهما.فئة أهل السيف وأبرزها الوالي وكبار ضباط الإنكشارية (القابيقول واليرلية) ثم ضباط السباهية الاقطاعيين والمرتزقة . أما الفئة الثانية فمكونة من أهل القلم وأبرزها : الدفتردار وقاضي القضاة الحنفي ونوابه من قضاة مذاهب السنة الأخرى ، ثم نقيب الأشراف والمفتونَ وغيرهم ، ولقد شكلوا صلة الوصل بين أبناء دمشق والسلطات العثمانية الحاكمة وكانوا في معظمهم من أصول محلية ، عدا قاضي القضاة الذي كان رومياً ، لهذا آثرنا دراسة هذه الفئة عدا الدفتردار في الفصل الثالث مع الهيئة الدينية .

والملاحظ أن علاقة هاتين الفئتين ببعضهما البعض لم تكن وثيقة رغم أن الولاية تتشكل منهما . كما لم تكن العلاقة وثيقة في أغلب الأحيان بين أعضاء الفئة الواحدة حيث أثرت في ذلك طبيعة المصالح الشخصية المتضاربة ، ولم يكن ذلك بعيداً عن تأثير السلطة المركزية نفسها في استانبول ، حرصاً منها على بقائهم جميعاً في قبضتها ، خاصة وأن تعيينهم جميعاً يأتي عن طريقها .

وحسبنا هنا أن نورد مثالا على طبيعة العلاقة السيئة بين الوالي والدفتردار (رأسا الفئتين المذكورتين (أهل السيف والقلم) فلم يكن لأحدهما سلطة على الآخر إلا في حالة العزل ، أو الموت ففي سنة ١١٥٦هـ/١٧٤٣ ـــ ١٧٤٤م كان دفتردار دمشق فتحي أفندي ابن القلانسي وصادف آنئذ أن مات واليها سليمان باشا العظم ، فقام الدفتردار بختم دور الوالي المذكور وخزائنه ، وحجز على أملاكه ، ووضع حرسا عليها ليل نهار ، وكتب عرضا وأرسله إلى الدولة العلية[1] . ولم يكتف بذلك بل قام بضرب جواري سليمان باشا لمعرفة مخبآته من الأموال . فتغلظ كبد أسعد باشا العظم من جراء ذلك على الدفتردار المذكور إلا أنه كان عاجزا عن عمل أي شيء ضده لطالما لم يأته من استانبول مايساعده على ذلك إلى أن أتت الفرصة في سنة ١١٥٩هـ/١٧٤٦ ـــ ١٧٤٧م حيث تمكن أسعد باشا والي دمشق من استصدار أمر من السلطة المركزية في استانبول (بقطع رأسه ومصادرة أمواله)[2] .

وجرت صدامات أخرى بين أصحاب المناصب الدينية من الهيئة الحاكمة مع الولاة ،

---

(١) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص٤٥ .

(٢) البديري . حوادث دمشق اليومية . ص٤٥ .

فمثلا في سنة ١١٩٩هـ/١٧٨٤ ـــ ١٧٨٥م تمكن مفتي دمشق محمد خليل المرادي من استصدار خط شريف همايوني بعزل والي دمشق أحمد باشا الجزار (قهرا عنه)[1].

أما بقية فئات المجتمع من هيئة المحكومين فقد بقيت على حالها السابق في ظل الاحتلال العثماني، وحافظ العثمانيون على تنظيماتها ولم يتدخلوا في شؤونها إلا فيما يتعلق بتأمين مصالح الدولة ومصالحهم الشخصية أحياناً.

ولم يتمكن النظام البيروقراطي للدولة العثمانية من التغلغل في مجتمع دمشق. وإذا ما لاحظنا تأثيراً ما لهذا النظام فكان ذلك في الغالب في المناطق الشمالية من بلاد الشام. وحتى الأسر الارستقراطية في دمشق التي أقامت علاقات متينة بتزاوجها من أسر ارستقراطية تركية، أبدت سخطها على تسرب اللغة والعادات التركية إلى بيوتها[2]. ويجب ألا يخطر على بال أحد أن المجتمع الدمشقي كان منسوجاً نسجاً متداخلا آنئذ وإنما كان مركبا من عدد من الجماعات المتماسكة فيما بينها، إما على أساس طائفي، أو على أساس عشائري أو عائلي أو إقليمي، وبدرجة أقل في الطوائف الحرفية المختلفة والطرق الصوفية والأشراف، وكان اتصال السلطة العثمانية بعناصر هذه الفئات عن طريق رؤسائها أو شيوخها.

ومن جهة أخرى لم تكن الهيئة المحكومة في دمشق على درجة واحدة من النفوذ السياسي، أو الاجتماعي، أو الإمكانات الإقتصادية، بل توضعت في الهرم الاجتماعي على درجات متفاوتة، وحتى عناصر الفئة الواحدة لم يكونوا على درجة واحدة من النفوذ السياسي والوضع المادي. كما تغير حال الفئة الواحدة بحسب الظروف التي أحاطت بالدولة العثمانية سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي، وكذلك بحسب ظروف مدينة دمشق الخاصة بها خلال فترة دراستنا. ولقد استطاع العديد من أفراد مجتمع مدينة دمشق تغيير وضعهم الاجتماعي، لأن المجتمع الاسلامي بأسسه العامة لم يكن متزمتا كمجتمع الهند الـذي لا يسمح بصعود فرد من طبقة إلى طبقة أخرى، بل كان العكس من ذلك في المجتمع الدمشقي، إذ استطاع حتى المماليك (العبيد) بعد عتقهم أن يخترقوا سلم الهرم الاجتماعي صعدا إلى سدة السلطة، كأحمد باشا الجزار الذي حكم ولايتي دمشق وصيدا عدة مرات ولمدة تجاوزت ربع قرن من الزمان.

---

(١) انظر: العبد، حسن آغا. تاريخ حسن آغا العبد. ص٩ و ص١٠.

2 - Gibb. H.A.R. and Bowen.H. Islamic Society and the West. VOL.1.P.211.

آ ــ الهيئة الحاكمة

وضعت بيدها السلطة كاملة وتملكت الاقطاعات الواسعة وبعض المصالح الاقتصادية الأخرى. وكانت إسلامية بكاملها إلا نفراً قليلا من أهل الذمة، الذين كان منهم الكاتب والمدبِّر واليازجي والصرّاف. ولقد تحكمت هذه الهيئة برقاب المحكومين وخاصة الفلاحين والمستضعفين حيث امتدت اقطاعاتها على كامل صناجق الولاية، وتجاوزتها إلى ولايات الشام الأخرى.

وانصب اهتمام هذه الهيئة على تأمين مصالحها الشخصية ولو كان ذلك على حساب المصالح العامة. وإذا ماجأرت بعض فئات الهيئة المحكومة بالإحتجاج على مايقع عليها من مظالم، كانت تقابلها الهيئة الحاكمة بالقمع والقهر وسفك الدماء، مما زاد من محن هذه الفئات ومعاناتها.

ومن جهة أخرى تأثرت بعض فئات هذه الهيئة بالأحداث التي جرت في داخل الدولة العثمانية وخارجها خلال فترة دراستنا، فوجهت لها ضربات عدة كان أشدها إلغاء أوجاق الانكشارية على يد السلطان محمود الثاني سنة ١٨٢٦م. مما ترتب على ذلك إلغاء امتيازاتها. أما الضربة الثانية فكانت باحتلال ابراهيم باشا المصري لدمشق سنة ١٨٣١م/١٢٤٦ ــ ١٢٤٧هـ ومناداته بالمساواة بين أهل الذمة والمسلمين ووضعه بعض

عناصر اليهود والمسيحيين في مجلس شورى ولاية دمشق. ثم جاءتها الضربة الثالثة بقيام الثورة الصناعية في أوربة وما نتج عنها من نهب للمعادن الثمينة في بلاد الشام. وهذا أدى بدوره إلى بروز فئات من أهل الذمة وغيرها سهلوا الطريق لبضائع الغرب إلى دمشق الأمر الذي أدى ذلك إلى سرعة غناهم وزيادة ثرواتهم. فازداد نفوذهم السياسي كما أدى إلى سقوط شريحة اجتماعية في وهدة الفقر والحاجة من الهيئة المحكومة التي كانت تعتمد في معيشتها على بعض الحرف. ومع ذلك بقيت السلطة وملكية الأرض تجعلان ممن يمتلكهما في صف الهيئة الحاكمة التي بيدها الحل والربط في المدينة. وبعد ماتقدم دعونا نتعرف على مكونات الهيئة الحاكمة ولنبدأ برأس الهيئة الحاكمة في دمشق، وهو:

الـوالـي

ممثل السلطان في دمشق. اتخذ ألقاباً عدة في هذه الفترة، منها: (الوالي أو الباشا أو الوزير)، وكان يرأس الصناجق التي تتكون منها الولاية، والمرؤوسة بدورها من المتسلمين أو بكوات الصناجق (مفردها صنجق بك). ويعين الوالي لمدة سنة واحدة فإما أن يجدد له أو يعزل من منصبه ليحل محله وال جديد. وكان العزل يتم في الغالب بعد عودته من الحج كأمير للقافلة.

وفي مثل هذه الحالة تجرى له الحسابات اللازمة لتسلّم الولاية لخلفه. ويقوم بمهمة الحسابات الدفتردار. ويقوم الوالي الجديد بإرسال أو تكليف متسلم منه لإدارة شؤون الولاية ريثما يصل إلى دمشق، وإذا ماعزل الوالي ولم يعين بديل عنه، يجتمع ديوان الولاية ليعين قائمقام عنه، وكان التجديد للوالي في منصبه يأتي من استانبول بفرمان جديد يطلق عليه اسم (المقرر).

وكانت للوالي حاشية كبيرة تشبه حاشية الصدر الأعظم في استانبول[1]. وترأس ديوان

(١) كانت حاشية الوالي تتكون من الموظفين والقادة العسكريين الكبار في الولاية، ويأتي على رأس هؤلاء الكتخدا ثم المتسلم ويجمع من الموظفين المختلفين (مدنيين وعسكريين)، فمن الفئة الأولى المكتوبجي وكاتب الرسائل وحامل الأختام أو المهردار وأمين الصندوق وربما المقصود به هو وكيل الخرج، حيث ورد في سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٥ ص١٨٤ أن الحاج عمر آغا بن عمر كان وكيلاً للخرج سنة ١٢١١هـ لدى والي دمشق عبد الله باشا العظم ثم مدير غرفة الوزير ثم البقجه جي والمبصرجي. وورد في سجل المحكمة الكبرى بدمشق المذكور آنفاً ص٧، أن الحاج باكير آغا البزجكلي كان محضراً في باب السرايا لدى والي دمشق سعد الدين باشا العظم. ثم الخزندار أو وكيل الخزنة وهو غير الصراف مدير المالية، ثم حامل ←

الولاية أو مجلسها المكون من المحصل أو الدفتردار، والقاضي والمفتي ونقيب الأشراف، وسردار أو آغا الانكشارية أعضاء بالاضافة إلى الشهبندر أو رئيس التجار. أما التجار فلا يدعون للاجتماع في هذا الديوان إلا من كان منهم على صلة أو احتكاك بالباشا أو من كان منهم، خاصة في المرحلة الأخيرة، على صلة بعدد من ضباط النظام في الباب العالي. وكان الديوان يجتمع كلما دعت الحاجة إلى ذلك، وكانت الدعوة توجه من قبل الباشا، ويحملها إلى الأعضاء شواش (الخدم). وفي الغالب يتم اللقاء كل جمعة ظهرا في السرايا حيث يلتقي الأفندية أولا في المحكمة ثم يركبون في موكب مع القاضي، والأفندي الأصغر سنا يسير أولا والقاضي في النهاية. وكانت كل الأعمال والمشاكل التي تتعلق بالولاية تبحث وتحل في الديوان[1]. إلا أن مجلس الشورى أو الديوان[2] تبدل وضعه في ظل الحكم المصري إلى حد كبير، حيث أدخلت إليه عناصر من أهل الذمة (يهود ونصارى) بالإضافة إلى العناصر الإسلامية الأخرى، التي تمثل معظم فئات الهيئات الحاكمة السابقة وذات النفوذ السياسي والاقتصادي في دمشق. وشكل المصريون أول مجلس للولاية من الشخصيات التالية: أحمد بك اليوسف والياً على دمشق يساعده مجلس شورى مكون من أشهر عائلات دمشق وأكابرها وأعيانها وشيوخها وهم: محمد حافظ بك العظم وسليم أفندي كيلاني ومحمد أفندي عجلاني ومحمد نسيب أفندي حمزة وعلي آغا كاتب الترجمان وصالح آغا المهايني وعلي آغا كاتب الخزينة كيلاهلي وأحمد أفندي البكري وأحمد أفندي المالكي ومحمد راغب أفندي حسني وأحمد أفندي انسي وابراهيم بك المسودن والحاج نعمان آغا باشجي. ومن التجار: الشيخ سعيد والحاج ابراهيم متولي. ومن أغوات الاختيارية صياح آغا الحكيم ومحمد آغا

السلاح أو السلاحدار والبيرقدار والتشريفاتي (احتشامات آغاسي)، ورئيس الاسطبل، وأمير آخور أو الحاجب (وقبجلر آغاسي). ولقد ورد في سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠ لعام ١٢١١ — ١٢١٢هـ —، ص٤٠٦، أن حسن آغا كان في سنة ١٢١٢هـ (خدم آغاسي) لوالي دمشق عبد الله باشا العظم. وآغا البوابين. كما ورد في سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/ سنة ١٢١٦ — ١٢١٧هـ، ص٨٤ أنه كان لوالي دمشق يوسف باشا شمعدنجي باشي واسماعيل آغا جومر. كما كان للولاة موظفون آخرون. انظر: حول ذلك مجهول. مذكرات تاريخية. ص٢٩ ثم: غرايبة، عبد الكريم. مقدمة تاريخ العرب الحديث. ج١. ص٦٠.

1 - Russell. op.cit. VOL.1.PP.32.393.

(٢) كلف المعلم بطرس كرامة وحل الحكمدار المصري بدلاً من الوالي العثماني وخضع تنفيذ قرارات مجلس الشورى لموافقته. انظر: الحصني، محمد أديب. منتخبات لتواريخ دمشق. ج١. ص٢٦١.

الكبير ومحي الدين آغا خير، وعبد القادر آغا خطاب، ومن اليهود روفائيل فارحي ومن النصارى ميخائيل كحيل. وبعد خروج المصريين ١٨٤٠م عينت الدولة العثمانية أحمد آغا يوسف متسلما على الشام الذي قام بترتيب ديوان الشورى على الشكل التالي : المفتي ونقيب الأشراف وأغوات وتجار، والخواجا حنا عنجوري روم كاثوليك، والخواجا جبران ميداني روم أرثوذكس وأحد اليهود[١]. وكانت مهام المجلس في العهد المصري، النظر في القضايا المعروضة عليه وسماع الدعاوى وتحويل الشرعية منها على الشرع الشريف، أما مايتعلق بالأمور الأخرى فكان الفصل فيها برأي الحكمدار بعد التشاور مع أرباب المجلس واتفاق الآراء. وبعد اتخاذ القرار يرفع إلى مجلس «سردار العسكرية» للتنفيذ[٢]. وإذا مالمس الحكمدار إهمال المجلس بتراكم الأعمال لديه يقوم بحبس أعضائه في قاعة المجلس الى أن يتموا رؤية الشؤون المعروضة.

ومما يسترعي انتباهنا أيضا في هذه الفترة عدم تعيين والٍ على دمشق دون مرتبة الوزير[٣]. ذي الأطواغ الثلاثة[٤]، بل زادت الدولة العثمانية على ذلك فعينت ولاة على دمشق ممن كانوا صدورا عظاما في استانبول، مثل درويش باشا (١٢٤٤ — ١٢٤٦هـ/١٨٢٨ — ١٨٣٠م) ومحمد سليم باشا (١٢٤٦ — ١٢٤٧هـ/١٨٣٠ — ١٨٣١م)[٥] ويمكن تفسير ذلك بما لدمشق من أهمية في وقت كانت الدولة العثمانية تعاني فيه الهزائم المتكررة والمتعددة على الأصعدة العسكرية والسياسية والاقتصادية. فكان لابد لها من رأب بعض الصدوع في سمعتها أمام المسلمين. وكان تأمين قافلة الحج من الأمور الحساسة والهامة. لهذا سعت لتعيين ولاة أكفياء على دمشق ليؤمنوا سلامة القافلة ويزودوها بما تحتاج من الرجال والسلاح والعتاد والتموين، إلا أن معظم هؤلاء الولاة عجزوا عن تحقيق تلك الأماني بشكل دائم

---

(١) انظر : مجهول . مذكرات تاريخية. ص٢٣٥ و ص٢٣٦ .

(٢) انظر : قدامة ، أحمد. معالم وأعلام في بلاد العرب . ج١ . قسم ١ . ص٣ .

(٣) انظر : ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا. ص١٢٤ . ثم انظر : جيب وباوون، المجتمع الإسلامي والغرب . ج١ . ص١٩٩ . ثم الوثائق التارخية بدمشق المجلد ٢ الوثيقة رقم ٨٢ و ٨٤ . لعام ١٢٤٦هـ . ثم انظر : ميخائيل الدمشقي حوادث الشام ولبنان . ص١١ و ص١٧ و ص٢١ و ص٣٠ و ص٣١ و ص٣٢ و ص٤٣ و ص٤٦ و ص٥٨ و ص٦٢ و ص٦٧ و ص٧١ و ص٧٢ و ص٧٥ و ص٧٦ و ص٨٠ ثم : سالنامه در العثمانية . سورية ولايتي . ص٩٣ .

(٤) الطوغ : ذنب حصان أبيض معقود على صعدة تعلوها أكرة من نحاس مذهب . انظر : الغزي كامل . نهر الذهب في تاريخ حلب . ج١ . ص٩٣ و ص٣١٥ .

(٥) سالنامة در العثمانية . سورية ولايتي .

نظراً لضخامة المصاعب التي اعترضتهم، والناتجة عن الظروف الخارجية والداخلية. ففي هذه الفترة تعرض ولاة دمشق لزحف قوات المماليك في مصر بقيادة أبي الذهب بهدف استعادة السلطنة المملوكية، وأعقب ذلك نزول نابليون بونابرت على أرض مصر وزحفه على بلاد الشام، وبرزت على أرض الجزيرة العربية الحركة الوهابية واستفحل أمرها في مدن الحجاز المقدسة وحالت دون أداء مناسك الحج، ووصلت طلائع قواتها إلى جنوب دمشق (مزيريب من حوران). وزاد الصراع الدولي للحصول على الممتلكات العثمانية فتقلصت ممتلكاتها سواء في الشمال والغرب أو شمال أفريقيا والخليج، ناهيك عن تزايد تعدد القوى المحلية في دمشق ودخولها في صراعات مع قوات القابيقول وقوات المرتزقة التابعة للولاة، وماجرته على دمشق من ويلات، وعجز السلطة المركزية عن تأكيد سلطتها من خلال ولاتها بالإضافة إلى تقييد نفوذهم بما وضعته من قيود قضائية وعسكرية ومالية بيد رجالاتها[1]، المفروضين على الولاية والمرتبطين بها مباشرة، مما خلق نوعا من الازدواج في السلطة أدى إلى إضعافها خاصة في فترات اصطدام مصالح الطرفين. كل ذلك شكل مصاعب كبيرة في وجه الولاة عجزوا عن تذليلها مما اضطرهم لسلوك أحد سبيلين، أولهما: العمل بشكل روتيني دون الالتفات إلى الاصلاح الجذري ومعاملة الناس بالحسنى بقدر المستطاع، والسعي لتأمين مصالحهم الشخصية ريثما يأتي العزل.

في حين سلكت الفئة الثانية من الولاة السبل الآخر المتمثل بالبطش وفرض سلطتهم بالقوة. وتدرج العنف والظلم بدءا منهم نحو الأسفل، ليشمل من هم دونهم من الحاشية والأتباع. فأرهقوا الأرواح بلا حساب ولأتفه الأسباب. واستطاع بعض هؤلاء أن يفرضوا أنفسهم على الدولة نفسها، فأبقوا في وظائفهم حتى وفاتهم، كأحمد باشا الجزار كما سنرى.

ويمثل الشريحة الأولى من الولاة محمد باشا العظم الذي نال رضى السلطة المركزية والقوى المحلية على حد سواء، ثم عبد الرؤوف باشا (١٢٤٤ ــ ١٢٤٦هـ/١٨٢٨ ــ ١٨٣١م) ويصف المرادي محمد باشا العظم بقوله: «أكثر الوزراء عفة وكمالاً وعدلاً وديناً

---

(١) كانت قيادة قوات القابي قول وقوات اليرلية بيد أغوات عينوا من قبل آغا الانكشارية في استانبول وكانت الأمور المالية بيد الدفتردار الذي عين من استانبول من قبل الدفتردار العام فيها. ثم قاضي القضاة الحنفي وتوابعه، والمفتون عينوا بدورهم من شيخ الإسلام في استانبول. وكذلك نقيب الأشراف من نقيب الأشراف في استانبول.

ومروءة وكان واسع الرأي مهابا بحيث أنه لمجرد وقوف المتخاصمين بين يديه يحل المشكلة وكان يحب العلماء والصلحاء والفقراء ويميل إليهم وكان له ميزات كلية وصدقات جلية »[1].

أما الوالي الثاني عبد الرؤوف باشا الذي كان صدراً أعظم سابقاً، فعندما تلقى أمراً من استانبول في سنة ١٨٢١م/١٢٤٦ ــ ١٢٤٧هـ لجباية الضرائب انكفأ في بيته ولم يحاول أن يفرض ذلك على الشعب الدمشقي مما أدى إلى استبداله بمحمد سليم باشا. وكذلك علو باشا الذي كان « حسن التدبير والسياسة وعلى جانب عظيم من المروءة واللطف والاستقامة فجذب القلوب إليه ونفذت كلمته وجعل له اعتبار جميع الناس على اختلاف مذاهبهم وقد انتفعت البلاد به »[2].

أما الشريحة الثانية من الولاة فهي التي حكمت بقوة السلاح وسفك الدماء وعلى رأس هؤلاء أحمد باشا الجزار الذي حكم ولايتي صيدا ودمشق بشكل متقطع (أربع مرات) على امتداد ربع قرن من الزمان، وفاق جميع أقرانه بمظالمه وقضى على حياة أكثر من ٤٠٠ شخص معظمهم من الأبرياء، وشوّه أجساد المئات بجذع الأنوف وصلم الآذان وقطع الألسنة وبتر الأطراف وفقء العيون والحرق بالنار[3] ولم يرتح الشعب شهراً واحداً من طلب المال ظلما فأرهق زبانيته « الريف والمدينة بالطروحة والاكراميات »[4] ويذكر ميخائيل الدمشقي أن الناس « ماارتاحت ولا شهراً واحداً من طلب القرش ظلما[5] » وأن « الذي عمله الجزار بالشام من المظالم والمقاهرات أبلغ من كل ماتقدم. وهرب أغلب المستورين إلى حلب والجبل والذي وقع انضام جداً »[6].

ويبدو أن الدولة العثمانية لم تعر اهتماماً كبيراً لطريقة حكم الولاة ومظالمهم، وجل ماكان يهمها تأمين الاستقرار وإنجاح قافلة الحج ولو كان ذلك مبنياً على الجماجم. لهذا نرى أن أكثر من استمروا في مناصبهم من الولاة هم السفاحون كأحمد باشا الجزار، والولاة

---

(١) انظر: المرادي. سلك الدرر. ج٤. ص٩٧.

(٢) القساطلي، نعمان. الروضة الغناء في دمشق الفيحاء. ص٩٠.

3 - See: Browne J.op.cit.P.402.

(٤) انظر: مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد الأول. ج٩. ص٣٦٥. سنة ١٩٢١م.

(٥) انظر: تاريخ حوادث الشام ولبنان. ص٦ و ص٧.

(٦) المصدر السابق. ص٢٧.

العادلون المحنكون الذين أرضوا أبناء دمشق والبدو على حد سواء ووفروا سلامة قافلة الحج، وعلى رأس هؤلاء محمد باشا العظم الذي بقي في منصبه عشر سنوات حتى وفاته. أما ماتبقى من الولاة فقد تراوحت مددهم في مناصبهم مابين عدة أيام وثلاث سنوات[1]. ونلاحظ سرعة تبديل ولاة دمشق في الفترة مابين (١٨٠٤ ــ ١٨١٨) أكثر من الفترة السابقة، وتُعزى هذه الظاهرة، إلى فشلهم في تأمين قافلة الحج والتصدي للوهابيين وانتزاع الأماكن المقدسة من أيديهم.

ونلاحظ أيضا تراجع أهمية والي دمشق بالنسبة لولاة صيدا، على عكس ماكان الحال في النصف الأول من القرن الثامن عشر، حيث كان والي دمشق يلعب دوراً في تعيين من يراه من الولاة على صيدا وبقية ولايات الشام، كأبنائه وأقربائه أو أتباعه. وكانت العادة عندما يعين والٍ جديد على دمشق أن يقوم والي صيدا بتهنئته وتقديم الهدايا له والتي كانت تسمى «التقادم». إلا أن هذه القاعدة قد تغيرت في عهد والي صيدا أحمد باشا الجزار فانعكست الحال في هذه الفترة، وأصبحت الهيمنة لولاة صيدا. ولم تبرز في عهد الجزار فحسب بل استمرت في عهد من جاء بعده من الولاة. ويمكن تفسير ذلك بضعف السلطة المركزية من جهة والمستجدات في مصر وفلسطين من جهة ثانية، حيث تمكن الجزار من صد قوات نابليون عن عكا وأمن بما لديه من قوات خاصة سلامة قافلة الحج، في حين عجز ولاة دمشق عن تحقيق ذلك في معظم الأحيان. ثم بروز قوة المماليك في مصر ودخولها في تحالفات مع حكام فلسطين من جهة ثالثة، ثم بروز محمد علي باشا على أنقاضهم كحاكم قوي في مصر وقضائه على الحركة الوهابية ومد نفوذه إلى بلاد الشام. كل ذلك قد غير المعادلات السياسية في المنطقة وأدى إلى تراجع أهمية ولاة دمشق.

---

(١) بلغ عدد ولاة دمشق مابين عام ١١٨٤هـ إلى احتلال ابراهيم باشا المصري لدمشق ١٨٣١م / ٢٣ / والياً وكان منهم من حكم لعدة أيام أو من حكم لعدة مرات، فمثلاً محمد باشا العظم عين من ١١٨٤ إلى ١١٨٥هـ ثم عزل وعين مرة أخرى في سنة ١١٨٧هـ إلى وفاته سنة ١١٩٧هـ. ثم أحمد باشا الجزار الذي عين من سنة ١١٩٨ إلى ١٢٠٠هـ حيث عزل وعين مرة ثانية من ١٢٠٥ ــ ١٢١٠هـ ثم عزل وللمرة الثالثة من ١٢١٣ ــ ١٢١٤هـ وللمرة الرابعة من ١٢١٨ ــ ١٢١٩هـ ثم عبد الله باشا العظم عين من ١٢١٠ ــ ١٢١٣هـ ثم عزل عنها وعين من ١٢١٤ ــ ١٢١٨هـ ثم عزل ثم عين للمرة الثالثة من ١٢٢١ ــ ١٢٢٣هـ. ثم الصدر الأعظم صالح باشا من ١٢٣٨ ــ ١٢٣٩هـ ثم عين مرة ثانية من ١٢٤٣ ــ ١٢٤٤هـ انظر: سالنامة در العثمانية. سورية ولايتي. ص٩٣.

أما فيما يتعلق بدخل والي دمشق فلم تخصص الدولة راتباً محدداً له أو لحاشيته، وإنما كانت الأموال تأتيه من مصادر مختلفة من الولاية. ففي عهد أحمد باشا الجزار كانت قرية حران العواميد تدفع مبلغ / ١٢١٦١ / قرشا ميريا للسرايا في دمشق مما هو مرتب عليها من شعير وتبن وذخاير وقطاني ومعبوك وغير ذلك[1]. وقرية الحرجلة خصص دخلها للأوردي فكان عليها تأمين ذخاير وتين ومعبوك وخدم أو عوارض ومال ميري وعوايد للسرايا [2].

ومنحت الدولة الوالي أقطاعا على شكل ساليانه لسد نفقاته مع حاشيته. وكان هذا الإقطاع من درجة « خاص » يدر مالا يقل عن ستمائة ألف أقجة ومع ذلك فإن هذه الدخول لم تكن لتكفي الوالي في أحسن الظروف أكثر من ٢ ــ ٣ شهر في السنة. ناهيك عن الأموال الواجبة عليه لاستانبول لارضاء الأصدقاء الذي يثبتونه في منصبه[3]. كما كان عليه أن يحسب حساب الأيام بعد العزل، لهذا كان لا بد له من جمع مبالغ ضخمة لسد تلك النفقات من جهة، ولتأمين القرش الأبيض للأيام المقبلة التي قد تكون سوداء بعد العزل. فسلك الولاة طرقاً مختلفة لجمع المال. وفرضوا المغارم في كل مناسبة، واحتكروا بعض الصناعات في دمشق، وهاجموا الفلاحين عند الحصاد وعلى البيادر، والأمثلة على ذلك كثيرة[4] ولم تكن تلك المغارم كما يقول كرد علي « لحفظ الأبدان وإنما هي مجرد ظلم وعدوان وكانت لتأمين غالب مصارف الوالي وأتباعه بعمارات منزله ومنزل عساكره[5] ».

---

(١) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٥ / ١٢١٠ ــ ١٢١١هـ. ص٢٤ ص٣٥ ص١١٦.

(٢) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ / ١٢٢٦ ــ ١٢١٧هـ. ص٩٧. أما فيما يتعلق بتأمين الوالي لقافلة الحج الشامي فكان يجمع الأموال اللازمة لها من خلال جولته على الصناجق التابعة لولايته، وكان يطلق عليها اسم « الدورة ». وكان يخرج من دمشق قبل خروج قافلة الحج بمدة ثلاثة أشهر أو أقل، وقد تدوم عدة أشهر والعادة أن يخرج الوالي في أواخر رجب أو أوائل شعبان ويعود إليها في أوائل شوال. انظر: رافق. العرب والعثمانيون. ص٢٠٢ ثم: حوادث دمشق اليومية. ص٥٠. وكانت نفقات الحج تقدر بـ (٦٠٠) كيساً أو (٧٥٠٠٠٠٠) سبعة ملايين ونصف ليرة فرنسية للتموين بالحنطة والشعير والأرز. واستئجار الجمال المطلوبة لجنوده الذين سيرافقونه في الرحلة بالإضافة إلى مايجب عليه دفعه لبعض القبائل الكائنة على طريق القافلة لتأمين سلامتها وكانت بحدود / ١٨٠٠ / كيساً.

3- See: Russell. A., op.cit. PP.315,316

(٤) انظر: البديري. حوادث دمشق اليومية. ص٨٨ و ص٩٤ و ص٩٥ ثم: بريك ميخائيل ص٤٥ و ص٤٩ ثم: رافق، عبد الكريم. مجلة دراسات تاريخية العدد الأول، ص٨٤.

(٥) انظر: مقالة له في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. المجلد الأول. ج٩. ص٣٦٥. سنة ١٩٢١م.

ولقد خلف بعض الولاة قصورا استرعت انتباه الرحالة والسياح كقصر عبد الله باشا العظم والكنج يوسف باشا[1] كما جمعوا أموالا طائلة[2].

ونتساءل بعد كل ماعرضناه من وضع ولاة دمشق كيف كان مصيرهم بعد عزلهم؟ وهل كانت حياتهم هنيئة؟ وهل انتهت نهاية حسنة وطبيعية؟ أم أنها كانت نهاية محزنة؟ ويمكن الإجابة على ذلك بأن معظم ولاة دمشق قد نفوا أو قتلوا، وصودرت أموالهم وممتلكاتهم حتى في حال وفاتهم الطبيعية، فاسماعيل باشا العظم الذي حكم دمشق ست سنوات سجن وصودرت أمواله، وسليمان باشا العظم الذي توفي بشكل طبيعي صادرت الدولة أمواله بعد وفاته، وعذبت أهله ونساءه. وأسعد باشا العظم قتل بعد أن نقل من ولاية دمشق وصودرت أمواله. وعبد الله باشا الجتجي قتل وصودرت أمواله. وغيرهم كثيرون[3] والكنج يوسف باشا شلح أمواله وفر هاربا إلى مصر حيث مات فيها.

الدفتردار[4]

هو الشخصية الثانية في الهيئة الحاكمة وعضو رئيس في ديوان ولاية دمشق. وهو رأس

---

(١) كان دار عبد الله باشا العظم بها كثير من المقاصر والقاعات والحجر البديعة العلوية والسفلية والبرك الكبيرة

(٢) وقيل إن فيها ثلاثمائة وستون حجرة. انظر: عبد الرحمن سامي. القول الحق في بيروت ودمشق. ص٨٩.
يقول بريك: بلغ الذهب الذي اصطحبه معه الكنج يوسف باشا عند عزله عن ولاية دمشق اثني عشر صندوقاً والبياض عشرة أحمال انظر: تاريخ ميخائيل الدمشقي المسمى: تاريخ حوادث الشام ولبنان، ص٤٥.

(٣) انظر: عبد الكريم، أحمد عزت مقدمته لحوادث دمشق اليومية. لأحمد البديري الحلاق. ص٢٩ منها.

(٤) كلمة دفتردار: فارسية تركية وتعني على وجه الدقة (حافظ السجلات) وكان هذا الاسم يطلق في الدولة العثمانية فيما مضى على المشرف على المالية ولا يزال يطلق على مدير المالية في كل ولاية. ولم يكن في عهد محمود الثاني سوى دفتردار واحد هو دفتردار الروملي وكان له معاون خاص في كل ولاية الآسيوية وكان ثمة أربعة أشخاص يحملون لقب الدفتردار في عهد متأخر. و- أنشأ سليم الأول منصب الدفتردار الثالث ليشرف على مالية مصر والشام وأنشأ سليمان الأول المنصب رابع للمجر وولايات الدانوب وفي عهد سليم الثالث كان الدفتردار الأول هو وزير المالية والثاني هو المـ ـف على الضرائب التي فرضت باسم النظام الجديد أما الثالث فقد عهد إليه بأمر تمويل العاصمة (حبر ات ناظري) وفي القرن الثامن عشر أصبح من مهام الدفتردار أن يقدر دخل كل قرية وأن ينظم التزامها طبقاً لذلك وأن يضعه في يد أحد الأشخاص الأثرياء المستقيمين حتى يمكنهم من الاشراف على التزام أكثر من قرية في نفس الوقت. انظر: جيب هاملتون وباوون هارولد. المجتمع الإسلامي والغرب. ج١. ص١٧٧ و ص١٨٤ و ص٢١٠ و ص٢١٢. ثم انظر: سجل محكمة الميدان رقم ٣٠٤ / سنة ١٢٣٨ ـــ ١٢٤٠. ص٣ ثم: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦ / ص٣٢٦ القضية رقم ٦٥٧.

فئة أهل القلم. كان يرأس دائرة تسمى الخزينة وكان تعيينه من استانبول وبيده موارد الولاية المالية. يقوم بجمع ضريبة الأرض (الميري). والجمارك وضريبة الخراج ويكلف بنظارة أوقاف بعض المنشآت الدينية. وكان يساعده في مهامه عدد من الضباط والموظفين والكتاب ينتشرون في مركز الولاية وسناجقها لهذا الغرض[1].

وكان في كل صنجق تابع لدفتردار ولاية دمشق يطلق عليه اسم «محصل»، ويرأس الملتزمين في الصنجق. ففي سنة ١٢٥١هـ/١٨٣٥ ـــ ١٨٣٦م عين على محصلية صنجق حماه محمد زهني أفندي وفي سنة ١٢٥٩هـ /١٨٤٣ ـــ ١٨٤٤/م وكلف بتحصيل الأموال الميرية وساير المرتب المطلوب من الصنجق بجانب الميري بموجب دفاتر الخزينة[2]. وكان يساعده في الجباية جنود يطلق على الواحد منهم اسم (توفنكجي). كما كان للدفتردار قيم مقام أيضا. ففي سنة ١٢١١هـ/١٧٩٢ ـــ ١٧٩٣م كان حسن أفندي قيم مقام دفتردار دمشق، الذي كان والده حسين أفندي الروزنامه جي[3].

وكان هناك عدد من الموظفين الصغار مثل: مباشر الخزينة وجابي الخراج وخزينة كاتبي[4] بالإضافة إلى موظفين رئيسيين هما: خزندار أول وخزندار ثاني[5].

وكان للدفتردار يدكات وخيول وأغوات ومهتار خانة، وساعده صيارفة يهود[6] كانوا يعطون رتبة صنجق بك. وكان يطلق على الدفتردار مع موظفيه لقب (أفندي)، باعتبارهم من «أهل القلم»، وأطلق على دائرته اسم (الخزينة العامرة) أو الميرية أو أموال الميرة وباختصار الميري، وكان يقوم بضبط واردات ومصروفات الولاية[7]. واعتبر الدفتردار مسؤولا أمام الباب العالي عن أموال الولاية، فلم يسمح للوالي أو أي موظف آخر، بمغادرة منصبه في ولاية دمشق، إلا بعد أن يُجري له حسابا دقيقا ويمنحه بعد ذلك براءة ذمة تعلن في ديوان

---

1 - See: Russell, op.cit. VOL.1.P.322.

(٢) انظر: سجل محكمة حماه رقم ٥٠/ ١٢٥١ ـــ ١٢٤٤هـ. ص٢٢ و ص٢٢١.

(٣) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم /٢٣٨/ ١٢١١ ـــ ١٢١٢هـ. ص٢٧.

(٤) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٤٠/ ١٢٥١ ـــ ١٢٥٤هـ. ص١٣٤ ثم انظر سجلها رقم ٣٣٦/ ١٢٥٠ ـــ ١٢٥١هـ. ص٧١ و ص٤٠.

(٥) انظر: الحلاق أحمد البديري حوادث دمشق اليومية. ص٨.

(٦) انظر: تاريخ حسن آغا العبد. ص٦٤.

(٧) المصدر السابق ص١٦ الحاشية.

يعقد بحضور الوالي الجديد[1]. وكان الدفتردار يجبي المكوس في الولاية ويدفع منها رواتب الانكشارية وحراس الحصون والقلاع القائمة على طريق الحج إلى مكة[2].

وبانحطاط نظام الاقطاعات وأصحابها انحطت بالمقابل الدوائر المتعلقة بهم، وبلغ هذا الانحطاط الذي بدأ في القرن الخامس عشر ذروته في القرن الثامن عشر، فنتج عن ذلك دمج كثير من وظائف الدفترخانة أو إلغاء بعضها، وتناقصت تبعاً لذلك أهمية الدفترأميني، في حين تزايدت أهمية دفتردار الشؤون المالية بازدياد اعتماد الدولة على الموظفين والجند الذين يتقاضون المرتبات منها بدل الاقطاعات. ولقد بلغ بعض الدفتردارين درجة كبيرة من السلطة والنفوذ في ولاية دمشق. وحسبنا هنا أن نسوق مثالاً على ذلك الدفتردار فتحي القلانسي (١١٤٨ ــ ١١٥٩هـ/١٧٣٥ ــ ١٧٤٦م)، الذي وصفه معاصره أحمد البديري الحلاق الذي بقوله: «كان السلطان في الشام صاحب نفوذ الكلام وكلامه يقضي الاشغال»[3]. ولكنه قتل على يد أسعد باشا العظم بعد أن استصدر الأخير أمراً بذلك من استانبول سنة ١١٥٩هـ/١٧٤٦م/ وحل محله دفتردار على دمشق فيض الله الأخسخوى إلى سنة /١١٥٩هـ/١٧٤٦م/، ثم عزل من منصبه ليحل محله محمد أفندي بن فروخ الرومي الأصل الدمشقي المولد حيث استقام دفتردار على دمشق ثلاثين سنة (١١٥٩هـ/ ١١٩٠هـ/١٧٤٦ ــ ١٧٧٦م)، وتخلل ذلك فترة عزل له حيث جاء مصطفى الحموي في عهد والي دمشق محمد باشا العظم. ولما مات مصطفى الحموي عاد بن فروخ دفتردار إلى أن طلب بنفسه إعفاءه من منصبه من الدولة العثمانية فنزلت عند رغبته[4].

وفي سنة ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠ ــ ١٨٠١م كان دفتردار على دمشق حسن أفندي الرزمنجي الذي كلف، بالاضافة إلى منصبه هذا، بأغوية اليرلية في دمشق إلا أنه قتل على يد الجزار خنقاً مع عبد الرحمن المرادي في قلعة دمشق عام ١٢١٨هـ/ ١٨٠٤م[5]. ويلاحظ

---

(١) انظر: غرايبة، عبد الكريم. مقدمة تاريخ العرب الحديث. جـ١. ص٦٢.

(٢) انظر: السيوفي حبيب سورية ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. ص٤٦.

(٣) انظر حوادث دمشق اليومية ص٤٩.

(٤) انظر المرادي، محمد خليل. سلك الدرر. ج٣. ص٢١١. ثم ج٢. ص٨. ثم العبد حسن آغا. تاريخ حسن آغا العبد. ص٦٥.

(٥) انظر: العبد، حسن آغا. تاريخ حسن آغا العبد. ص٨٧. ص٨٩.

أن الدفتردارين أقاموا في مناصبهم مدة أطول من إقامة ولاة دمشق . ويمكن تفسير ذلك بأمرين أساسيين أولهما : أن منصب الدفتردار لم يكن ذا صفة عسكرية لهذا لم يكلف بحماية قافلة الحج في وقت قطع طريقه على يد البدو والوهابيين ، فلم يسبب ذلك له حرجا أمام السلطة المركزية في استانبول والأمر الثاني : كان لدفتردار دمشق المال الكثير بحيث يستطيع أن يرضي سادته في استانبول للبقاء في منصبه[١].

ومن جهة أخرى ، فقد ورث منصب الدفترداريه ، من الأب إلى الابن وإلى الحفيد أحياناً . وأبرز الأسر التي توارثته هي : أسرة القلانسي والرزمنجي وباكير وإمام والبستاني والأزمرلي[٢] وغيرها .

ولقد عاش الدفتردارون حياة مرفهة في دمشق إذا ماقيسوا ببقية أفراد الهيئة الحاكمة ، فامتلكوا الثروات الطائلة والقصور والجواري والعبيد وتمتعوا بالغناء والموسيقى ، وقام البعض منهم بتمتين آواصر الصداقة الشخصية ، فتحالف مع القوى اليرلية في دمشق التي كان لها نفوذها السياسي . واستعدوها على الوالي ليوطدوا بذلك نفوذهم السياسي .

وكان بلاط الدفتردار يضم الأغوات وملاك الأراضي وكبار التجار الذين كانوا أعضاء في هيئة ديوان الولاية[٣] . وشكل هؤلاء في بعض الأحيان دعامة قوية له .

ولم يكتف الدفتردارون بذلك ، في تدعيم مراكزهم السياسية ، بل انتسب بعضهم إلى اليرلية ، كما فعل فتحي القلانسي ، حيث قام بوضع أتباعه في المناصب الهامة بالشام[٤] . ولقد قام بعضهم ببناء العديد من المنشآت ذات النفع العام كالمدارس والحمامات وتعمير الطرق ورصف الشوارع في دمشق وذلك تقرباً من الشعب[٥] .

---

(١) كان في سنة ١٢١٥هـ/١٨٠١م دفتردار على دمشق حسن أفندي الرزمنجي . ثم كان من قبله والده حسين دفتردار واستلم محمد ابن عثمان بن حسن أفندي محاسبه جي خزينة الشام ..

(٢) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ . ص١٦٤ . ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٣ . ص١٣١/١٢٤٧هـ.

3 - Alex Russell. op.cit. VOL.1.P.312.

(٤) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص١٧ الحاشية .

(٥) المصدر السابق . ص١٧ .

وفي حال عزل الدفتردار من منصبه أو نقله إلى مكان آخر كانت الدولة ترسل من استانبول أحد الروزناجية لاجراء الحساب له[1]. وإذا ماقتل الدفتردار لسبب ما تحتجز أمواله لصالح الدولة العثمانية، كما حصل بعد مقتل فتحي القلانسي سنة ١١٥٩هـ/١٧٤٦ ـــ ١٦٤٧م، ولقد استغل بعض موظفي الضرائب حالة الفوضى بدخول المصريين إلى دمشق فتلاعبوا بما لديهم من سجلات لجر منافع شخصية. وكان السلطان يصدر أوامره بإرسال سجلات الضرائب إلى استانبول سنوياً لتدقيقها. ونتيجة لحاجة المصريين الشديدة للأموال للإيفاء بالتزاماتهم تجاه السلطان من جهة ولسد حاجتهم إليه من جهة أخرى، قاموا بضبط الأمور المالية في دمشق على أسس جديدة وعينوا لذلك موظفين خاصين «مسلمين ونصارى يهود» وفتحوا سجلات للضريبة تحت إشراف مجلس الشورى. وأطلق على خزينة دمشق اسم «الخزينة العامرة[2]».

الكاخيا

أو الكتخدا. كلمة تركية محورة من الأصل الفارسي (كتخدا) وتعني بالأصل (سيد البيت) ولقد عنت هذه الكلمة أكثر من معنى مثل: المدبر ووكيل أعمال في عرفنا الحاضر أو النائب، واستخدمت في أكثر من مجال فيما يخص مناصب الهيئة الحاكمة، سواء من أهل السيف أو القلم. فهناك كتخدا أوجاق اليرلية الذي يمثل الأوجاق في اتصاله بالآغا ويحل محل الآغا في المجالس الرسمية، ويحول أوامر الآغا إلى حراس القلاع وصغار ضباط القوات في الميدان وأثناء القتال[3]، كما أطلقت على قائد البولكات في أوجاق القابيقولاري (القول كيخياسي) وهو أحد أعضاء ثلاثة يكونون ديوان الفرقة الانكشارية[4]. ووجد كيخيا للمتسلم في الولاية، وكيخيا للدفتردار (دفتردار كيخياسي) وكيخيا الزعامت. وكان يعيش من دخل الزعامت شأنه في ذلك شأن بكوات الألايات[5]. إلا أن مايهمنا من هؤلاء هو

---

(١) المصدر السابق. ص٨٤.

(٢) انظر: سجل الوثائق التاريخية بدمشق ـــ المجلد ٢. الوثيقة رقم ٦٨ و ١٠٩/ص٧١ و ص١١٣. ثم الحصني. منتخبات ... ج١. ص٢٦١. ثم سجل القسمة البلدية بدمشق رقم ٣٢٧/ص٧٣.

(٣) انظر: المعلوف، عيسى. دواني القطوف في تاريخ بني معلوف. ص٢٣٢ ثم: عانوتي، أسامة. الحركة الأدبية في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر. ص١١.

(٤) جيب. وباوون. المجتمع الإسلامي والغرب. ج١. ص٨٨. الترجمة.

(٥) المصدر السابق. ج١. ص٢١٢ و ص٢١٣.

كيخيا الوالي الذي لعب دوراً هاماً في دمشق وأصبح في عديد من الفترات والياً على دمشق أو على غيرها من الولايات العثمانية .

فقد كان للوالي من المرتبة المتوسطة كاخيا خاص به أو مدبر لمكتبه الخاص يشبه الكاخيا بك الخاص بالصدر الأعظم في استانبول . كما كان أيضاً للوالي كاخيا تشريفاتي[1] . وكان الكاخيا أقرب الناس إلى الوالي ، ويمثل صلة الوصل بينه وبين الناس وهو نائبه ومتسلمه في حالة مرضه أو غيابه .

ولقد اختلف وضع الكاخيا من ولاية إلى أخرى . وكان يسير في ركاب الوالي إلى باب ديوانه في السرايا ليفتح له الباب ، وينحني أمامه باحترام ، ويبقى واقفاً حتى يأذن له بالجلوس ، ويقدم الكاخيا بعد ذلك تقريراً للوالي عن أعماله المنجزة في اليوم المنصرم وجدول أعمال اليوم الجديد ، ثم يتناول القهوة معه ويغادر السرايا في موكب رسمي قاصداً دار الكتخدائية ليباشر النظر في قضايا اليوم بحسب توجيهات الوالي[2] .

وكان الكتخدا يعين في منصبه لعام واحد[3] . إلا أن العديد من الكتخدات استطاعوا البقاء في مناصبهم طيلة ولاية الوالي على دمشق ، وبعضهم استمر في فترة الوالي الجديد[4] . ولقد استلم الكتخدا منصب المتسلم لدى الوالي ، فالكيخيا موسى أصبح متسلما لدى أسعد باشا العظم عندما كان الأخير أميراً على قافلة الحج الشامي . والكيخيا غالبا مايكون عسكرياً من أهل السيف ، وفي مثل هذه الحالة يكون بمرتبة آغا[5] . وقد رافق الكيخيا والي دمشق في الدورة السنوية لجباية أموال الميري من الصناجق التابعة له ويقود في مثل هذه الحالة القوات العسكرية المرافقة للوالي[6] . وكلف الكتخدا بقيادة قافلة الحج الشامي في بعض السنوات كما حصل في عام ١١٦٩هـ/ ١٧٥٥ ــ ١٧٥٦م/ عندما كان والياً على دمشق راغب باشا[7] .

(١) جيب هاملتون وبارون هارولد . المجتمع الإسلامي والغرب . ج١ . ص٢١٤ و ص٢١٥ .

(٢) انظر غرايبة ، عبد الكريم ، مقدمة تاريخ العرب الحديث . ج١ . ص٦٠ و ص٦١ و ص٦٢ .

(٣) انظر : جيب وباورن . المجتمع الإسلامي والغرب . ج٢ . ص٧ .

(٤) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص١٥٨ و ص١٨٣ .

(٥) ورد في سجل المحكمة الكبرى بدمشق أن الحاج حسن آغا كتخدا لسعادة أفندينا ولي النعم اسماعيل آغا وذلك مابين عامي ١٢٢٢ ــ ١٢٢٣هـ . انظر : سجل المحكمة المذكورة رقم ٢٦٠ . ص٣٥ .

(٦) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص١٧٦ .

(٧) المصدر السابق . ص١١٧ .

ولقد تدرج بعض الكتخدات في المناصب الادارية من آغا إلى متسلم على أحد الصناجق إلى كتخدا للوالي . ومنح بعض الكتخدات اقطاعاً بطريق المالكانة ثم البكوية أو رتبة بيلر بك أي وزير بطوخين ، وقد يعين بعدها والياً على إحدى الولايات فمثلا حسين باشا مكي عمل كيخيا لدى أسعد باشا العظم وأصبح باشا بطوخين على القدس ثم باشا على صيدا بثلاثة أطواخ ثم باشا على دمشق سنة ١١٦٩هـ/ ١٧٥٥ — ١٧٥٦م/ خلفا لسيده أسعد باشا العظم[1]. ومنح كتخدا أسعد باشا العظم (موسى) طوخان من الدولة العثمانية كأمير لجردة الحج ومات في سنة ١١٧٠هـ/١٧٥٧م[2].

ومن جهة أخرى سعى بعض الكتخدات في تعيين أبنائهم متسلمين على الصناجق ، مستغلين نفوذهم في ذلك لدى الولاة الذين يعملون لديهم[3]. وسعى بعض الولاة في تعيين أحد أبنائهم كتخدا لديهم ففي سنة ١٢١١هـ/ ١٧٩٦ — ١٧٩٧م/ عين عبد الله باشا العظم ابنه خليل بك كاخيا[4]. له . وبطبيعة منصب الكتخدا أوكلت إليه العديد من فروع إدارة الولاية مما أتاح له المجال لابتزاز أموال الشعب والإثراء على حسابه ، خاصة في فترات ضعف الولاة وانتشار الفوضى . إلا أن ذلك لم يكن عاماً فقد وجد العديد منهم ممن تصرف بالقناعة والعدل . ويقول أحمد البديري الحلاق : إن موسى كيخيا أسعد باشا العظم المتوفى عام ١١٧٠هـ/١٧٥٦ — ١٧٥٧م/ «كان عنده شفقة ورأفة ويحب المسالمة ومصالحة الخصوم»[5].

المتسلم

قسمت إيالة دمشق إلى عدة صناجق كان مركز كل منها عبارة عن مدينة أو بلدة . وسميت هذه الصناجق باسم المتسلميات . وكان يحكم كل متسلمية (متسلم) يعين من قبل الباب العالي ويطلق عليه صنجق بك ، وأحياناً يعين بمسعى من الوالي نفسه لدى السلطة المركزية في استانبول . ويعتبر المتسلم في المتسلمية كالوالي في ولايته ، ويساعده القاضي ونقيب

(١) انظر المرادي ، محمد خليل . سلك الدرر . ج٢ . ص٦٠ و ص٦٢ . ثم : بريك ، ميخائيل . حوادث الشام ولبنان ، ص٣٦ .

(٢) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص٢٠٤ .

(٣) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص٢٠٤ .

(٤) انظر : العبد ، حسن آغا . تاريخ حسن آغا العبد . ص٢٩ .

(٥) انظر : حوادث دمشق اليومية . ص١٨٣ .

الأشراف والمفتي وبعض الضباط والموظفين، ويعود في أموره إلى الوالي في دمشق وغالباً ماأسند هذا المنصب إلى زعماء القبائل أو أبناء الأسر الاقطاعية المشهورة ذات النفوذ الاجتماعي والسياسي والاقتصادي في الصنجق، كما أقر على القبائل البدوية شيوخها كمتسلمين عليها. ولقد كان لعظماء الأهالي نفوذهم الكبير لدى المتسلمين حتى أنهم كانوا يعاونونهم في كثير من الأمور أو يساعدونهم على إجراء مالهم من رغبة أو غايات خصوصية[1]. إلا أن متسلم ولاية دمشق كان وضعه يختلف عن السابقين من عدة وجوه، فهو يستقر في دمشق مركز الولاية وينوب عن الوالي في إدارتها. وكان في الغالب لمن أصول محلية أو من أصول غير عربية. وكانت العادة المتبعة عندما يخلو منصب ولاية دمشق، أن يعهد الوالي الجديد بإدارة الولاية إلى رجل يلقب بالمتسلم. وإذا لم يعين والٍ جديد يقوم بمهامه في الولاية القائمقام. ويقوم بتنصيب القائمقام أعيان الولاية وهو يمثل الوالي الشرعي وينوب عن السلطان في مثل هذه الحالة[2]. ويقوم المتسلم بتسيير أمور الولاية بمجرد وصول التكليف له من الوالي المعين على دمشق، وفي مثل هذه الحالة يتخذ الإجراءات التالية: يقوم القاضي باستدعاء المتسلم المعين من قبل الوالي الجديد ويعقد ديواناً لمجلس الولاية في المحكمة ويتلو على مسامع أعضاء الديوان التكليف ثم يلبس المتسلم فروة سمور عنواناً لاستلام المتسلم مهام منصبه الجديد[3]. ثم يتجه المتسلم بعد ذلك من المحكمة إلى السرايا يرافقه في موكبه القاضي والمفتي ونقيب الأشراف والأعيان[4]. وكان هذا الترتيب متبعاً بالنسبة لمتسلمي الصناجق عند مجيء فرمان تعيينهم[5]. وكان يرافق أمر التعيين للمتسلم، أوامر وتوجيهات من الباب العالي أو الوالي تتعلق بكيفية سلوك المتسلم وتصرفاته بشكل عام في متسلميته[6]. ويخاطب المتسلم من قبل السلطة الأعلى «بافتخار المشايخ المكرمين أو بقدوة الأماجد الأعيان[7]». وكان غالب متسلمي ولاية دمشق برتبة آغا. فمثلا في عهد أحمد باشا الجزار وفي سنة ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٤م عين متسلماً عليها أحمد آغا

---

(١) انظر: مجهول. حسر اللثام عن نكبات الشام. ص٢٦.
(٢) غرايبة، عبد الكريم. مقدمة تاريخ العرب الحديث. ج١. ص٥٩.
(٣) انظر: العبد، حسن آغا. تاريخ حسن آغا العبد، ص١٨.
(٤) المصدر السابق. ص٢٦.
(٥) انظر: رستم، أسد. الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ــ المجلد الأول. ص٢٧.
(٦) انظر: المصدر السابق ــ المجلد الثاني. ص٧١.
(٧) المصدر السابق. ص٣٠ و ص٣٥.

متولي أوقاف المرحوم سنان باشا، في حين عزل المتسلم السابق محمد آغا وسجن في قلعة دمشق[1].

وكان بعض المتسلمين من ضباط السباهية[2]، أو البكوات، مثل خليل بك العظم الذي أصبح متسلماً لوالده عبد الله باشا عندما عين والياً على دمشق سنة ١٢٢٠هـ/١٧٩٥ ـ ١٧٩٦م. وكان البعض الآخر من المتسلمين ترجماناً في المحكمة الشرعية في دمشق، مثل الحاج علي آغا الذيّ عين متسلماً على ولاية أخرى وهي ولاية طرابلس في ٢٩ جمادي الأخرى ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م[3]. وحصل في بعض الأحيان أن قام الدفتردار في دمشق بتعيين متسلم أو قائمقام عليها إثر وفاة الوالي، بشكل مؤقت، ريثما يعين والٍ جديد على دمشق، والذي يقوم بدوره بتعيين متسلم له[4] يتحول بعد وصول الوالي إلى دمشق كتخدا له[5]. وكلف بعض المتسلمين بالتولية على أوقاف إحدى المنشآت الخيرية في دمشق بالإضافة إلى منصب المتسلم، فمثلاً أحمد آغا متسلم أحمد باشا الجزار على دمشق سنة ١٢٠٩هـ/١٧٩٤ ـ ١٧٩٥م كان متولياً على أوقاف سنان باشا ومن بعده هاشم آغا وذلك في سنة ١٨٠٤م[6]. وكلف المتسلم بمهام الشوباصي أو المحتسب في أسواق دمشق وكان يقوم بمعاقبة اللصوص والنشالين[7].

---

(١) العبد، حسن آغا. تاريخ حسن آغا العبد ص٢٣ و ص٥٥.

(٢) كان من المتسلمين أغوات في أوجاق الانكشارية القابي قول أو اليرلية أو في قوات المرتزقة كالبغداديين والمغاربة والأكراد أو من الولاة فمثلاً: الكنج يوسف باشا كان دالي باش. وكان كردياً اشتراه ملا اسماعيل وأصبح في سنة ١٨٠٥م متسلماً لدى عبد الله باشا العظم ثم أصبح والياً على دمشق في سنة ١٨٠٦م بدلاً منه وفي سنة ١٨١٢م أصبح متسلماً لدى سنان باشا علي آغا البغدادي وكان قائداً لقوات قلعة دمشق. انظر: مجهول: حوادث الشام ولبنان. ص٢٩ و ص٣٢ و ص٣٦ و ص٤٨ و ص٥٠ و ص٥١.

(٣) انظر: رستم، أسد. الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ـ المجلد الثاني. ص١٩.

(٤) انظر: البديري. حوادث دمشق اليومية. ص٤٥ و ص٤٧. وفي حال وفاة الوالي أو عدم تعيين والٍ، يقوم ديوان الولاية بتعيين قيمقام أو متسلم قيمقام لتسيير أمور الولاية ريثما يعين وال جديد. فعندما خرج ابراهيم باشا المصري من سورية قام العثمانيون والإنجليز بتعيين أحمد آغا اليوسف الكردي الذي كان في صيدا متسلم قيمقام ليضبط البلد، وبعد أيام وردت أخبار ولاية الشام إلى علوش باشا سنة ١٢٥٦هـ/١٨٠٤م انظر: مجهول. تاريخ حوادث الشام ولبنان. ص٨٣.
المصدر السابق. ص١٨٣ و ص١٩٤. والكتخدا هو النائب يمثله وينفذ أوامره.

(٥) انظر العبد، حسن آغا. ص٢٢ ثم مجهول: تاريخ حوادث الشام ولبنان. ص٢٠ و ص٢١. تحقيق غسان

(٦) سبانو.

(٧) انظر: البديري. حوادث دمشق اليومية. ص١٧٣.

وساعد متسلم الوالي في دمشق وكيل كان يقوم بتعيينه المتسلم نفسه[1]. ولقد شملت سلطة المتسلم المناطق المحيطة بمدينة دمشق بدءاً من جبل قاسيون إلى الكسوة فالمرج، فشملت بذلك جميع قرى الغوطة الشرقية والغربية بما فيها المرج. وكان تعداد هذه القرى ثمانين قرية[2]. ومن مهامه أيضاً الضبط والربط في متسلميته والمساعدة على تحصيل أموال الميري وإجراء الأحكام الشرعية[3].

ولم يكن للمتسلمين رواتب يتقاضونها من الدولة، بل منحوا إقطاعات من الأرض وحصلوا على الأموال من مصادر عديدة، فكان لهم ضرائب على الشعب تدفع لهم باسم (عوائد متسلمية). وبقيت هذه العوائد على وضعها إلى عهد إبراهيم باشا المصري وكانت توزع على الشعب بشكل ساليانة (سنوية)[4].

إلا أننا لا نملك معلومات دقيقة عن دخل المتسلم السنوي، في دمشق، فغالباً ما كان يعزل المتسلم بمجرد وصول الوالي الجديد. ولكن هناك بعض الإشارات إلى دخول بعض متسلمي الصناجق التابعين لولاية دمشق. فمثلاً متسلم صنجق القدس كان دخله مئة ألف قرش حيث كان يتقاضى عن كل زائر أو حاج إلى القدس رسماً قدره عشرة قروش كما كان يتقاضى خفارة من الزوار الذين ينوون الذهاب إلى نهر الأردن، فضلاً عن المغارم التي كان يفرضها عليهم لدى كل سانحة وبارحة، وكان له على كل دير من أديرة الطوائف المختلفة، مبلغ معلوم من المال يأخذه باسم «رسم طواف أو إصلاح عمار». وبما أن التنافر كان مستحكماً بين أتباع الأديرة المسيحية، لهذا كان كل دير يقدم له المال كي يشمله بعطفه ويؤيده بنفوذه أو يغض الطرف عن مخالفة الدير للأنظمة المتبعة والقائمة عليها حقوق الطوائف والأديار. وهكذا كان متسلم القدس يتقبل الهدايا بدءاً من تقلده لمنصبه أو عندما يتولى عليها رئيس جديد ويتقاضى ضريبة على السلع المختصة بصنعتها مدينة القدس، كالسبح والصلبان وما إليها، التي يصدرون منها كل سنة ثلاثمائة صندوق، والتي كان الأوربيون يشترون منها شيئاً كثيراً. وكان دير اللاتين ينفق في سبيلها خمسين ألف قرش في السنة[5]. ومع ذلك

---

(١) انظر: رستم، أسد. الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا. ج٢. ص٩٦.

2 - Burckhardt. op.cit. P.28.

(٣) انظر: رستم، أسد. المصدر السابق — المجلد الثاني. ص٧١.

(٤) انظر: المصدر السابق. المجلد الثاني. ص٣١.

(٥) انظر: السيوفي، حبيب. سورية ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. ج٢. ص٦٦.

فإن بعض المتسلمين لم يكن لديهم وفر من المال بعد عزلهم من مناصبهم، كما لم يكن لهم إقطاع يدر عليهم أسباب الرزق. وهناك بعض الإشارات لمثل هذه الحالات في عهد الحكومة المصرية حيث قامت بتخصيص راتب شهري للشيخ جبر أبو غوش الذي كان متسلماً على القدس حيث صدر أمر من محمد شريف باشا بتخصيص ماهية له بمعدل ألف قرش لا غير شهرياً وذلك عام ١٢٥١هـ/ ١٨٣٤ ـــ ١٨٣٥م وسجل ذلك في دفاتر الخزينة[1].

ونتيجة لظروف الضعف وعدم الاستقرار، التي مرت بها الدولة العثمانية في تلك المرحلة من تاريخها، وانعكاس ذلك على معاش الناس، اضطر بعض المتسلمين شأن أعضاء الهيئة الحاكمة لابتزاز الأموال من الشعب بغية تغطية مصروفات مناصبهم، ودفع مايترتب عليهم للدولة، ثم إدخار بعض الأموال لأيام سوداء محتملة يعيشونها بعد عزلهم.

ولهذا سعى المتسلمون لتأمين الأموال لصالحهم الخاص أولاً، ثم لتأمين مصالح الدولة ثانياً ويقول صاحب كتاب (حسر اللثام عن نكبات الشام) إن المتسلمين لم يكن ليهمهم «خربت بلاد الشام أو عمرت وساروا بحسب الأهواء والأميال وكثيراً ماسعوا في تفريق الرعية حتى يساعد الانقسام بين أطرافها على نوال مايبتغون»[2].

ولهذا كان بعض المتسلمين يستغلون غياب الوالي عن دمشق لجمع أكبر كمية من المال من الشعب. ففي سنة ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠ ـــ ١٧٩١م قام محمد آغا آغا المزيريب الذي عين متسلماً على دمشق «بظلم الخلق كثير ويلص الخاص وسجن البعض... وعندما ذهب سيده أحمد باشا الجزار من دمشق إلى مقر عمله في صيدا قام هذا المتسلم بقتل وسلب أموال الخلق»[3].

وسعى العديد من المتسلمين للبقاء في مناصبهم مدة طويلة، فتزلفوا للقوى اليرلية صاحبة النفوذ في دمشق ووفروا لزعمائها الامتيازات الكثيرة على حساب الشعب، وكان من الطبيعي أن يلاقي ورود أمر تعيينهم في مناصبهم من استانبول استحساناً لدى هذه القوى في دمشق. فمثلاً عندما عين محمد آغا آغا مزيريب سابقاً كمتسلم على دمشق سنة

---

(١) انظر: رسعم، أسد. المصدر السابق ـــ المجلد ٣ و ٤. ص١٨.

(٢) انظر: مجهول: ص٢٦.

(٣) انظر: العبد، حسن آغا. تاريخ حسن آغا العبد. ص١٩.

١٢١٠هـ/١٧٩٥ ــ ١٧٩٦م «صار الدق والرقص في بيت المتسلم والطوايف»[١]. ومع ذلك فقد كانت نهاية العديد من المتسلمين في دمشق نهاية محزنة شأن بقية أعضاء الهيئة الحاكمة فلاقوا السجن والتعذيب والبلص ومصادرة الأموال وأحياناً القتل في النهاية[٢].

أما في العهد المصري فلم يُلغَ منصب المتسلم بل طُور بحيث أصبح المتسلم يتقاضى راتباً شهرياً[٣]. وقام المصريون بوضع متسلم على كل مدينة أو قرية كبيرة وعين من قبل الحكمدار بموجب أمر رسمي صادر عنه. وكان المتسلم يعنى بأمور الإدارة ويبت في الدعاوى الحقوقية البسيطة، ويتعاون مع مجالس المشورة في حل المشاكل الإدارية المهمة، وكانت تلك المجالس تتألف من عدد معين من أعيان تلك المدن أو القرى وتمثل جميع الطوائف تمثيلاً نسبياً. وعمل تحت إمرة المتسلم موظف أو أكثر مختص بالشؤون المالية وأطلق عليه اسم الصرّاف[٤]، حفظاً لأموال الدولة ودقة حساباتها في هذا المجال.

كما أمر عزيز مصر حكمدار دمشق محمد شريف بك بوجوب تعيين مساعد له في منصب المتسلمية لمساعدته في شؤونها، على أن يكون أحد أعيان دمشق، أو تعيين أحد المصريين إن لم يتوفر رجل كفء من الدمشقيين[٥].

وقام المصريين بفرض مال الإعانة على المتسلمين. وكانت تجمع هذه الضريبة من الشعب لصالح المستخدمين في الدولة بمصالح الميري. وصدر أمر من حكمدار دمشق بتاريخ ٢٨ آذار سنة ١٨٢٨م/١٢٥٢هـ لإعفاء المتسلمين القائمين على رأس عملهم من

---

(١) المصدر السابق. ص٢٤.

(٢) المصدر السابق. ص٢٥. ثم مجهول: تاريخ حوادث الشام ولبنان. ص٢٠ ص٥٦ ص٥٨.

(٣) ورد في كتاب: وجهه ابراهيم باشا إلى حكمدار دمشق مايلي: «إن الموظفين الملكيين مثل المتسلم والكاتب أصبحوا في حاجة إلى قوتهم اليومي من جراء عدم صرف مرتباتهم الموقوفة وحيث أنهم أصحاب أولاد وليس لهم مورد رزق آخر فلا يبتعد. والحالة هذه أن يفتروا عن أداء الواجب وأن يمدوا بضغط الضرورة أيدي العبث والتطاول إلى المصالح الميرية المحمولة إلى عهدتهم وإلى أموال الأهالي ولذلك فإني أقترح مايأتي: يصرف مرتب شهرين لمن أوقفت مرتباتهم ستة أشهر ثم يصرف شهر واحد في كل شهرين كما هو جار مع أفراد الجيش. أنظار: ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا. ص١٢٥ و ص١٢٦. ولم يكن دخل المتسلم ليعادل أكثر من ١/١٠ (عشر) ماكان يأخذه من الفلاحين سابقاً. فلاعجب إذا ماحقد هؤلاء على الحكم المصري وتحمسوا في عدائه.

(٤) انظر: ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا. ص١٠٠ و ص١٢١.

(٥) انظر: عابدين. دفتر ٢١٠ رقم ٤٢٢ المحفوظات: . ج٢. ص٢٨٠. نقلاً عن ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا. ص١١٤.

هذه الضريبة بحيث لاتؤخذ إلا من المتسلمين المعزولين وسجل ذلك في السجلات الرسمية[1].

وكثيراً ماكان يتأخر دفع رواتب المتسلمين والموظفين، مما يوقعهم في ضائقات مالية، لأنهم لا يملكون غالباً دخولاً أخرى واعتمادهم في معاشهم على رواتبهم، فلا عجب إذا ماحاول بعضهم استخدام طرق ملتوية لسد حاجتهم إلى المال. كما حصل لمتسلم غزة حيث اختلس مالا يقل عن ألف كيس[2].

السوباصي

أو (الصوباشي) (SUPASI) أو رئيس الشرطة، يجب ألا يراود الذهن اشتقاق هذه الكلمة من الكلمة التركية (SOU) التي تعني الماء[3]. ولقد درج العامة على ذكره باسم شوباصي، وجمعوه على شوابص. ونلاحظ ذلك في كتابات الإخباريين الدمشقيين الذين أرخوا لهذه الفترة، ولقد أطلقت التسمية على العناصر التي تعمل بإمرة الشوباصي فجمع على (الشوابص). وكلمة شوباصي عنت في بلاد الشام رئيس فرقة من السباهية[4]. وهو كبير موظفي الأمن في اللواء كأن نقول مدير الشرطة[5]. ولقد أطلق على هؤلاء في الولايات التي بها إقطاعات من نوع تيمار اسم (تيمار صوباشيليري) أو صوباشية أصحاب التيمارات. على حين صوباشية الولايات الأخرى كانوا يسمون (ميري صوباشيلري) أو صوباشية الخزانة. وكان لهؤلاء إقطاعاتٍ وكانوا، من الناحية الإدارية، خاضعين لسلطان الآلاي بك الخاضع بدوره لسلطان الصنجق[6]. ويتضح من هذه الأسماء أن الصوباشية الاقطاعيين كانوا يعيشون

---

(١) انظر: رستم، أسد. الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ـــ المجلد ٣ ـــ ٤. ص٨٥ و ص٨٦.

(٢) انظر: ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا. ص١٢٤.

(٣) انظر: رافق، عبد الكريم. بلاد الشام ومصر ص٦٨. الطبعة الثانية.

(٤) انظر: العبد، حسن آغا. تاريخ حسن آغا العبد. ص١٤٨. ثم: المنجد صلاح الدين. ولاة دمشق في العهد العثماني. ص١٠٩.

(٥) انظر: غرايبة، عبد الكريم، سورية في القرن التاسع عشر ١٨٤٠ ـــ ١٨٧٦ نقلاً عن د. أسامة عانوتي، الحركة الأدبية. ص١٢.

(٦) انظر: دائرة المعارف الإسلامية ـــ المجلد ١٤. ص٣٦٢. الترجمة.

على مصادر دخل الإقطاعات، إلا أنهم كانوا ملزمين بالقيام بالواجبات الإقطاعية العادية والخاصة وبتقديم (جبة لين) وما إلى ذلك بما يتناسب مع دخولهم.

وكان صوباشية الميري يتقاضون مرتبات من الخزانة. وبرغم ذلك فقد كان لكل من الفريقين حق في الأتاوات المتحصلة من الغرامات المفروضة على المذنبين. فلم يكن صوباشية الميري وحدهم ضباط الشرطة بل إن ذلك كان ينطبق على الصوباشية الإقطاعيين، وكان عليهم جميعاً أن ينفذوا أحكام القضاة المقيمين في مديرياتهم وأن يكونوا مسؤولين بوجه عام عن المحافظة على القانون والنظام. ومن الواضح أنه في الأماكن التي كانت تقيم فيه قوات الإنكشارية كانت القوات توفر دوريات من الشرطة تأتمر بأمر الصوباشي[1]. وإذا مافرضت ضريبة ما على الشعب كان الشوباصي يقوم بإرسال أحد العناصر للمناداة في الأسواق على ذلك، أو لإحضار أي فرد من الشعب إليه[2]. وكانت مرتبة الجري باشية أو الصوباشية ضباطاً تلي مرتبتهم مرتبة بكوات الآلايات (آلاي بك)، وكان هؤلاء يختارون من بين زعماء الوحدات الإدارية الصغرى التي كان منها مايسمى بالقضاء، وكانوا يقومون بمهام الشرطة أوقات السلم[3] ولقد زودت بهم الولايات في أواسط القرن السابع عشر، كما كان منهم (صوباشية) على الاقطاع في القرى[4].

أما الصوباشي في مدينة دمشق فقد كلف بمراقبة المدينة وأسواقها، وتطبيق الأحكام الشرعية فيها والحد من أي تصرف يخل بالشريعة[5] ومطاردة المجرمين والبحث عن الجناة[6]، وكلف أيضاً بمراقبة بنات الهوى (العاهرات) في دمشق كما حصل في سنة ١١٦٢هـ/١٧٤٨ ــ ١٧٤٩م[7] بالإضافة إلى المهام الأخرى الإدارية التي كانت توكل إليه من قبل والي دمشق. فمثلاً في عهد والي دمشق الكنج يوسف باشا الذي قام باحتكار

(١) انظر: جيب هاملتون وباوون هارولد. المجتمع الإسلامي والغرب. ج١. ص٢١٧. الترجمة.

(٢) ابن طولون، شمس الدين محمد، مفاكهة الخلان. ج٢. ص٧٧.

(٣) انظر: جيب، هاملتون، وباوون، هارولد. المجتمع الإسلامي والغرب. ج١. ص١٧٥.

(٤) انظر: المصدر السابق. ج١. ص٢١٠ وجاء في سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦. ص٣٥٩ أن علي بك ابن عبد الله كان صوباشياً على قرية العريقة.

5 - Gibb .H. and Bowen. op.cit. VOL. 1.Part.2.P.129.

(٦) انظر: رستم، أسد. الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا. ص٣ و ص٦.

(٧) انظر: البديري. حوادث دمشق اليومية. ص١٣٤.

صناعة الصابون في دمشق «كلف الشوابص في جميع غالب البلد بمزاقبة صانعي الصابون... وما أحد استرجا يطبخ صابون إلا هو ويبيعه من تحت يده»».[1] كما كان الصوباشي ينفذ أوامر المحتسب. وهكذا نرى أن الصوباشي كان يقوم بمهام الشرطة في وقتنا الحاضر.

أما دخل الصوباشي فكان بالدرجة الأولى من الإقطاع الذي خصته به الدولة، كما أعطي راتب سنوي (سليانة) في اللواء أو الصنجق الذي كان خالياً من التنظيمات الإقطاعية. أما إذا ماأعطته إقطاعاً فكانت درجة هذا الإقطاع (زعامت) ويتراوح إيراده السنوي مابين ٢٠ ـــ ٩٩ ألف أقجة وفرض عليه أن يقدم زمن الحرب رجالاً مسلحين بمعدل رجل واحد لكل خمسة آلاف أقجة من إيراد إقطاعه[2].

ولكن في ظروف الفوضى السياسية التي شملت مدينة دمشق كان العديد من الصوباشية يستغلون هذه الظروف لابتزاز الأموال من الشعب لصالحهم الخاص، وفقد بعضهم حياته إثر الصراعات الدموية التي نشبت في دمشق بين الأطراف المتناحرة[3].

ضباط الجيش أو الأغوات والزعماء

شكل أغوات الجند باختلاف صنوفهم، مع زعماء السباهية «العاملين منهم والمتقاعدين» شريحة هامة من الطبقة الحاكمة، لما لهم من سلطة عسكرية وإدارية ونفوذ سياسي، إذ كانوا يتمتعون بامتيازات سياسية واقتصادية في مدينة دمشق والصناجق التابعة لولايتها، وشكل بعضهم حاشية والي دمشق وأعضاء في مجلس الولاية وفي المناصب المختلفة[4]. وزاد في نفوذهم، حصولهم على الاقطاعات العديدة في الولاية[5]. وانخرط بعضهم في طوائف الحرف المختلفة في دمشق أو في التجارة، وبشكل خاص في تجارة الحبوب، وقام

---

(١) انظر: العبد، حسن آغا. تاريخ حسن آغا العبد. ص١٤٨ و ص١٤٩.

(٢) انظر: غرايبة، عبد الكريم. سورية في القرن التاسع عشر، ١٨٤٠ ـــ ١٨٧٦م. ج١. ص٦١.

(٣) انظر: المرادي، محمد خليل. سلك الدرر. ج٢. ص٨٤.

(٤) انظر: الذكرى المئوية الأولى لوفاة سعيد الذكر مكسيموس الثالث مظلوم سنة ١٨٥٥ ـــ ١٩٥٥. ص٣٠.

(٥) انظر: المرادي، محمد خليل. سلك الدرر. ج٢. ص٤٢ و ص٦٣ و ص١٠٧ و ص١١١ و ص١٩١.

العديد منهم باستئجار الأراضي، ومكنتهم صلتهم بسرايا الوالي في دمشق من النفوذ والجاه لدى العامة. فجمعوا الأتباع حولهم وأدى ذلك إلى زيادة ترسيخ نفوذهم السياسي.

ولقد استقر معظم من قدم من هؤلاء الضباط الزعماء في مدينة دمشق واصطبغوا بالصبغة المحلية، وسعوا بقدر مااستطاعوا لنيل المكاسب السياسية، ودفعتهم مطامعهم للجوء إلى القوة في أغلب الأحيان لفرض مايريدونه على الهيئة المحكومة، مستغلين بذلك نفوذهم وسلطتهم، في وقت ضعفت فيه الدولة عن فرض القانون وإقامة العدل.

وكان أكثر هؤلاء الضباط التصاقاً بالسلطة المركزية أغوات القابيقول، القادمون مجدداً إلى دمشق، حيث كانوا يعينون من قبل آغا الانكشارية في استانبول وهم غرباء عن دمشق ولم يكونوا بعد قد سعوا لتحقيق مصالحهم الشخصية داخل المدينة على عكس ضباط الانكشارية القدماء أو أغوات الانكشارية اليرلية، الذين أصبحوا مع الزمن من السكان المحليين والذين سعوا لتدعيم نفوذهم المحلي مستغلين رتبهم ومناصبهم في ذلك. وكانت اليرلية تجند من العناصر المحلية في دمشق، وأصبحت العضوية في أوجاقهم وراثية وحتى رتبة الأغوية فيهم أيضاً. ونرى أمثلة عديدة على ذلك وردت في «سجلات محاكم دمشق الشرعية» فمثلاً أحمد آغا ابن المرحوم عثمان آغا كتخدا سابقاً وأولاده سليم آغا ورشيد وابراهيم آغا[1].

ولم يكتف الأغوات بترسيخ نفوذهم في دمشق، بما حصلوا عليه من مكاسب سياسية واقتصادية، بل أقاموا علاقات متعددة مع الطرق الصوفية ونقابات الحرفيين. وربما كان الدعم متبادلاً مع الفئة الأخيرة. إلا أن طبيعة هذا الدعم. مازالت غامضة بالنسبة لنا، على الرغم من وجود بعض الاشارات إلى ذلك. ففي حي الميدان أصبح الأغوات حماة لنقابات التجار (خاصة تجار الحبوب)، وليس عجباً أن نرى بعض الأغوات يدخلون في هذه المهنة في نهاية القرن الثامن عشر فمثلاً عبد الله آغا سكر قد استخدم بنجاح زعامته المحلية كي يصبح في نهاية أمره أكبر تجار القمح في الميدان. ولا شك أن الظروف الإقتصادية العامة السيئة في الدولة العثمانية، وتدني قيمة النقد بدخول الغش إليه وارتفاع الأسعار، وتأثير الثورة الصناعية في أوربا بشكل سلبي على هذه الأوضاع، وعجز رواتب الجند عن مسايرة ارتفاع الأسعار، كل ذلك دفع بالمتنفذين من الهيئة الحاكمة (أهل السيف والقلم)

(١) انظر: السجل رقم ٤١١ / محاكم دمشق / لعام ١٢٦٥هـ. ص٦٧.

بالالتفات إلى الأرض والتجارة لتأمين سوية مرتفعة من المعيشة لأنفسهم ، ولهذا قام أغوات الجند وخاصة اليرلية منهم بالاهتمام بالحرف العديدة ، وذلك في أوائل القرن التاسع عشر ، كما سعوا للحصول على المالكانات من الأراضي . وتسبب ذلك في حدوث خلل عام في دمشق . ولقد عبر الكتاب المحليون من الوجهاء الدينيين الذين أرخوا للقرن الثامن عشر والتاسع عشر عن اشمئزازهم واحتقارهم لهؤلاء الأغوات ، لأنهم حسب رأي هؤلاء المؤرخين كانوا السبب في هذا الخلل .

وما أن أزف النصف الأول من القرن التاسع عشر حتى ترسخت سلطة هؤلاء الأغوات من جراء سلسلة من العوامل نوردها فيما يلي :

أولاً — أصبح الأغوات يسيطرون على تجارتي الحبوب والمواشي في الميدان وغيره من الأحياء الدمشقية . ويحصلون على الالتزامات والمالكانات في حوران .

ثانياً — من خلال تزاوج هؤلاء الأغوات مع أسر الأغوات الآخرين والوجهاء المحليين أصحاب النفوذ القوي في أحيائهم الخاصة بهم .

ثالثاً — عندما قامت الدولة العثمانية بتنشيط السلطة المركزية وإصلاح الإدارة فتحت الأبواب أمام هؤلاء الأغوات للعمل في الجيش والبيروقراطية المحلية وقوات الشرطة ، ومما وفر لهم المال والنفوذ .

رابعاً — مابين عام ١٨٠٠ — ١٨٦٠م استغل الأغوات تطورين اقتصاديين ليصبحوا جزءاً من فئة الوجهاء العلمانيين . فقد حصل الأغوات عن طريق المنح والاستغلال على أراضي حوران الواسعة وسيطروا على فلاحيها وتمكنوا من خلال هذه العملية من السيطرة على تموين دمشق بالقمح من مصدر رئيسي له وتحكموا بأسعار هذه المادة الحيوية ، خاصة وأن الصناعات التقليدية قد تعرضت لضربة ساحقة بسبب تسرب بضائع أوربة إلى أسواق دمشق ، والتي كانت تتفوق على مثيلاتها المحلية من حيث الاتقان والصباغة والسعر الأرخص ، وأدى ذلك إلى انهيار الصناعات المحلية ، فالتفت الكثيرون من الحرفيين والتجار والمرابين إلى المحاصيل الزراعية والمالكانات ، فاهتموا بها لجني الأرباح ، وحذا حذوهم العديد

من الأغوات وقام هؤلاء الأغوات بالمصاهرة مع الأسرة الدمشقية البارزة[1]. فمثلاً عبد الله الجركسي كان أحد أغوات أوجاق اليرلية وكان أيضاً جداً للمفتي العام محمد خليل المرادي[2]. وأسرة المرادي كانت أسرة بارزة آنئذ في دمشق ولها نفوذها. كما سعى بعض أغوات دمشق للحصول على مرتبة الباشوية.

ومن جهة أخرى لم يكن هؤلاء على درجة واحدة من الغنى المادي والثقافة أو النفوذ السياسي والاجتماعي، بل كانوا على درجات متفاوتة في ذلك فمثلاً: أحمد الكيواني الدمشقي أحد أعيان أوجاق اليرلية كان عالماً وأديباً وكذلك أحمد السلامي بن أغريبوزي المتوفى سنة ١١٢٦هـ/١٧١٤ ــ ١٧١٥م. كان أحد أعيان جند دمشق، وكان بالإضافة لذلك أديباً ونحوياً وصوفياً بارعاً له شرح على الشاهدي بالعربي وصار تذكرجي دفترخانة التيمارات وكان عليه تيمار قرية حلبون[3].

كما تزيت أسر بكاملها في دمشق بزي الأجناد لأنها رأت في عملها ذاك سبباً لمعاشها ونفوذها السياسي وجاهها الاجتماعي. فمثلاً حسين مصلي الدمشقي كان جندياً تزيا بزي الأجناد وأقاربه كلهم أجناد زعماء السباهية في أوجاق السلطان ولهم إقطاعات في القرى. ثم حسين بن حسن تركان التركاني الأصل الدمشقي الميداني أحد كبراء الجند بدمشق وأعيانهم وثراتهم كان من رؤساء الأجناد هو وأسلافه لهم خدمة في الرياسة وربما كانوا من توابعهم ولواحقهم (وأقاربهم يقاربون ربع العسكر)[4]. ثم عبد الله الجركسي كان آغا لليرلية ثم ابنه مصطفى وكذلك مصطفى الترزي بن أحمد باشا كان والده أمير الأمراء وكان أول أمره باش جاويش في أوجاق اليرلية في دمشق[5].

ومن جهة أخرى فقد اتصف بعض زعماء الجند بالتسامح مع أهل الذمة فقاموا بتقديم الحماية لهم. فمثلاً علي آغا الخزنكاتبي وهو من أكبر أغوات دمشق أخذ على نفسه صيانة

(١) انظر: خوري، فيليب طبيعة السلطة السياسية وتوزعها في دمشق. المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام. ج١. ص٤٥٠.
(٢) انظر: المرادي، محمد خليل. سلك الدرر. ج١. ص٤٤٨ و ص٤٤٩ و ص٤٥٠. ثم: ج٣. ص٩٠.
(٣) انظر: المرادي، محمد خليل. سلك الدرر. ج١. ص٦٩ و ص١٩٨ و ص١٨٣.
(٤) انظر: المصدر السابق ترجمة حسين بن حسن تركان.
(٥) المصدر السابق. ج٣. ص٩٠. و ج٤. ص١٦٦.

أهل الذمة من الأسافل قصانهم وحفظهم بحيث لم يلحق بهم ضرراً [1]. وفي فترة متأخرة عمل بعضهم قواصة لدى القناصل في عهد ابراهيم باشا المصري. وعندما زحفت قوات ابراهيم باشا المذكور على دمشق عام ١٨٣١م/١٢٤٦ ـــ ١٢٤٧هـ راسلهم قبل دخول المدينة فأجابوه بقولهم:

«ماعندهم غير رصاص وبارود وبدأوا يهيئون جميع حارات البلد ليتسلحوا ويتهيئو لمحاربته وبدأت كل حارة تمر بقواتها أمام والي دمشق العثماني الذي كان يستعرض وهو في السرايا».

ولكن ماأن بدأ الصدام بين قوات هؤلاء الأغوات والقوات المصرية الزاحفة على دمشق حتى بدأت جموعهم تتشتت ولاذ جمعهم بالفرار مع الوزير والقاضي والمفتي وكلارأميني والنقيب [2] ولكنهم بعد ثلاثة أيام فاوضوا ابراهيم باشا المصري على العودة إلى دمشق فأذن لهم. ويمكن تفسير ذلك، بأن أوجاق الانكشارية كان قد ألغي منذ فترة وجيزة وأنهم بتركهم دمشق واللجوء إلى الدولة العثمانية قد لا يوفر لهم مثلما كان بأيديهم من عقارات وأملاك ومصالح اقتصادية، الأمر الذي حقق لهم سوية من الحياة مرتفعة.

ولا تخلو المصادر التاريخية لهذه الفترة من تاريخ دمشق من بعض الإشارات إلى سوية حياة هؤلاء الأغوات المادية. فقد امتلكوا القصور الفخمة سواء في داخل المدينة أو في أرباضها ومنتزهاتها، وكانت قصورهم من الفخامة بحيث صارت في بعض الأحيان منازل لأغوات استانبول على سبيل الضيافة [3]. إلا أن حال العديد من هؤلاء قد تغير في عهد المصريين بفعل ماأقاموه من ترتيبات إدارية أدت بدورها إلى اضمحلال سلطتهم ونفوذهم مما دفعهم للاتصال بعملاء الدولة العثمانية سراً للإعداد للثورة في دمشق ضد ابراهيم باشا. فحرضوا العامة واتهموه بالميل إلى النصارى ضد الإسلام خاصة وأنه طرح المساواة بي أهل الذمة والمسلمين. مما وفر المناخ المناسب لهذا التحريض. وفيما يلي سنرصد أصناف الجند المختلفة في دمشق متوخين من ذلك تصنيفهم بحسب مواقفهم من سلمها الاجتماعي ونفوذهم

---

(١) انظر: القساطلي، نعمان. الروضة الغناء. ص٨٨.

(٢) انظر: مجهول: مذكرات تاريخية. ص٥٤ و ص٥٩ و ص٦٠.

3 - Russell. op.cit. VOL.1.P.231.

السياسي وإمكاناتهم المادية غير مبالين بتسلسل ظهورهم التاريخي إلا بما يخدم هذا التصنيف .

أصناف الجند

كانت القوات العسكرية في دمشق أصنافاً متنوعة ، ولم يشكل هذا التنوع مصدر قوة لها أو لدمشق بل عرضها للمخاطر من جراء تناحرها وإخلالها بالأمن العام في وقت ضعفت فيه السلطة المركزية وعجزت عن ضبطها . ومما يتقدم يأتي على رأس أصناف الجند :

أ ـ الانكشارية

وهي كلمة تركية مكونة من كلمتين (يني وجاري) وتعني (العسكر الجديد) ولقد أسس هذا الصنف من الجند حوالي القرن الثامن للهجرة من قبل السلطان أورخان العثماني (١٧٢٦ ـ ٧٦١هـ/١٣٢٦ ـ ١٣٥٩م) وتم ذلك باقتراح من الوزير قره خليل جندرلي . وكان قوام هذا الصنف من الجند أولاد البلدان المسيحية الأرثوذكسية التي تشكلت من خمس الغنائم التي فتحها العثمانيون في البلقان (كالبوشناق والروم والصرب والبلغار والألبان والأرمن وغيرهم[1]) . وكانوا يأخذون الفتيان من هذه الأقطار في سن العاشرة إلى الخامسة عشر فيربونهم تربية إسلامية ويقومون بتدريبهم على الحياة العسكرية الخشنة وكان يطلق عليهم قبل انتظامهم في المدارس العسكرية اسم (عجمي أوغلانلر)[2] .

وقال إن السلطان العثماني قد أخذ بركة الشيخ (حاج بكطاش) فدعا لهم الشيخ بالنصر على الأعداء وأطلق عليهم اسم (يكيجاري) أو الجيش الجديد ، كما أطلق عليهم اسم قابي قولاري (KAPI KULLARI) أي عبيد الباب أو عبيد السلطان . وارتقى العديد من هؤلاء حتى أصبحوا يتسلمون المناصب العليا في الدولة بما فيها الصدارة العظمى وحكومة الولايات رغم أصولهم الرقية . ولقد تمتع هذا الصنف من الجند بالطاعة العمياء والانسجام ضمن الفرقة والابتعاد عن كل مالا يليق بالجندي الباسل وشرفه من الإسراف بالملذات والرفاهية ولم يقبل في صفوفهم إلا غلمان الأسر (حصيلة الدفشرمة) كي لا يساء لهذه التربية العسكرية الصارمة ،

---

(١) انظر: عوض عبد العزيز . الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ ـ ١٩١٤م . ص٣ .

(٢) انظر : قدامة ، أحمد . معالم وأعلام في بلاد العرب . ج١ . القسم الأول . ص٧٧ .

وكان الترقي في المراتب يجسد الأقدمية العسكرية . كما منعوا من الزواج كي يبقوا في ثكناتهم على أهبة الاستعداد لأي طارىء وألا ينشغلوا بأسرهم دون واجبهم العسكري . وإذا ماأراد أحد منهم الزواج فكان عليه أن يحصل على ترخيص من الآغا فيسمح له بالنوم خارج الثكنة إلا أنه لا يرقى أبداً لرتبة رئيس غرفة (ODA BASHI) ولهذا أحجم معظمهم عن الزواج[1] . كما حظر عليهم تعاطي أي عمل سوى الجندية . وكانوا يقضون أوقاتهم بالتدريب العسكري والرياضة البدنية[2] . فلا غرابة إذا مارأيناهم في البداية سبباً في توسع الامبراطورية العثمانية ومنعتها .

قسم الأوجاق في الدولة العثمانية إلى /١٩٦/ فرقة سميت الواحدة منها (أورطة ORTA) ولما كانت كل واحدة من هذه الأورط تقيم في غرفة التي تسمى بالتركية (أوضة) أطلقت هذه التسمية بدورها على الأورطة . واختلف عدد الأورط من ولاية إلى أخرى . كما كان لكل أورطة شارة خاصة توضع على أعلامها وعلى أبواب ثكنتها . وجرت العادة لدى جنود كل أورطة أن يشموا أذرعتهم وسيقانهم بشعار الأورطة التي ينتسبون إليها[3] .

أما ضباط كل أورطة فكان أبرزهم (الجوربجي) (مطعم الاحساء) ثم قائد الأورطة والكتخدا ثم الأوضباشي وهو وكيل الكتخدا ويشكل صلة الوصل بين الآغا وجند الانكشارية ثم الباش شاويش والجاويشية . وكان الأوضباشي الذي يمثل الثكنة ملحق بالجوربجي ومهمته حفظ النظام أثناء العرض العسكري ويشرف على تنفيذ أوامر الجوربجي . ونلاحظ أن انكشارية حلب كانت تتألف قيادتها من السردار وكان يمشي أمامه اللواء الأحمر والأصفر والأخضر وكان يشتري وظيفته من الدولة بعشرة آلاف طالاري (قرش تركي ذهبي) أو أكثر . وكان عليه نفقات الفرمان وقد تبلغ ألفي طالاري ولم يكن له معاش من الدولة ولكنه يتقاضى أربع طالاريات عن كل مئة جمل محمل يأتي من الاسكندرون إلى حلب وأربع بارات عن كل دابة محملة أتى أتت وله منح من الدعاوى بين الانكشارية فيأخذ من المدعي والمدعى عليه ، ولا يفيدهما رفع الدعوى إلى القاضي ضد السردار بل يعود وبالا عليهما[4] .

ولقد ذكرت المصادر التاريخية بعض الوظائف والرتب الأخرى في أوجاق الانكشارية

(١) انظر : سويد ، ياسين . التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين . ج١ . ص١١٦ .

(٢) انظر : قدامة ، أحمد . معالم وأعلام في بلاد العرب . ج١ . القسم الأول . ص٧٨ .

(٣) انظر : دائرة المعارف الإسلامية ـــ المجلد الثالث . ص٧٩ . الترجمة .

(٤) انظر : قدامة ، أحمد . المصدر السابق . ج١ القسم الأول . ص٧٧ و ص٧٨ و ص٧٩ .

في الولاية مثل: وكيل الخرج وهو المشرف على الانفاق ويتولى أمور المؤونة، وربما قصد به الكلارأميني، ثم البيرقدار وهو حامل اللواء، والباش أسكي وهو رئيس الخيول، ويكون أكبر أفراد الأوضة (الغرفة) سناً. وكان حامل هذا اللقب يتمتع بتقدير عظيم لأنه كان رئيساً للقره قول (الحراس). ثم الأشجي باشي ورئيس الطهاة وبلك أمين الغرفة الذي كان تحت أمرته مساعدون (ياماق). وكان هناك رئيس غرفة الحراسة ورئيس سجن الغرفة وشارة منصبه هذا، سكين كبيرة، ثم سقا باشي وهو رئيس السقائين[1]. وهناك الوحدة الأصغر من الأورطة وهي الإيريق أو الإيرلق، وكان عدد أفراد الإيرليق من الانكشارية في النصف الأول من القرن الثامن عشر في دمشق حوالي خمسين شخصاً في حين كان عدده في النصف الثاني من القرن الثامن عشر عشرة أنفار[2].

والاختلاف بعدد عناصر الإيرليق ربما يعود لبعض التعديلات في تنظيم وحدات الانكشارية مابين زمن السلم والحرب[3]. أما عدد الأورطة فكان يتراوح مابين ١٠٠ و ٥٠٠ أو حتى ٣٠٠٠ جندي[4]. ولقد استخدم الجنود أثناء الحملات العسكرية الطبول والأبواق وهتفوا بالشعارات الدينية وباسم السلطان لتحريض الفعالية القتالية واستثارة النخوة فيهم. ولقد بلغ عدد الجنود الانكشاريين في دمشق بشكل عام من الفرسان والمشاة في هذه الفترة ١٦٠٠ جندي بالإضافة إلى ٤٠٠ جندي في فلسطين، وكان منهم ألف فارس أما البقية فكانوا ٦٠٠ من المشاة. وكان هذا العدد يزداد بالتحاق عدد آخر بهم عند الحاجة[5]. وخالط جنود دمشق عناصر كانت تعمل على العجلات وأطلق عليهم اسم العربجية[6] إلا أنه لا توجد لدينا معلومات دقيقة عما إذا كان هؤلاء من الانكشارية أو من أصناف أخرى غير الانكشارية.

---

(١) انظر: دائرة المعارف الإسلامية ــ المجلد الثالث. ص٧٨ و ص٧٩ كلمة (انكشارية) الترجمة.

(٢) انظر: العبد، حسن آغا. تاريخ حسن آغا العبد. ص٧٨. ثم ابن الصديق الأوراق. ص١١ب و ص٢٥ب.

(٣) انظر: رافق، عبد الكريم. مجلة دراسات تاريخية. العدد الأول منتصف ربيع الأول ١٤٠٠هـ آذار/مارس ١٩٨٠م.

(٤) انظر: دائرة المعارف الإسلامية ــ المجلد الثالث ص٧٠ الترجمة.

(٥) انظر: السيوفي، حبيب. المصدر السابق. ج٢ ص٨٤.

(٦) انظر: المرادي، محمد خليل. سلك الدرر. ج. ص١٤.

ولم يبق حال الإنكشاريين القابي قول قوياً بل أصابهم الضعف مع الزمن بفعل عوامل عديدة أوجزها المؤرخ العثماني أحمد جودت باشا في مقدمة تاريخية حيث يقول: «في عهد مراد الثالث ٩٨٣ ـــ ١٠٠٣هـ/ صار ندماؤه يتدخلون في إدخال سلك الانكشارية على غير قانونهم الأصلي من أولاد العجم مما أضر بالقاعدة وكان هذا في عهد يوسف آغا فأدخل الطوائف المرقومة في جند الانكشارية باسم (آغا جيراغي) وهكذا بذرت بذور الفساد. ثم أن خلفاء يوسف آغا الذين جاؤوا من بعده أحدثوا أنواعاً جديدة من الأسماء والألقاب، وأدخلوا أشخاصاً لا يعرف أصلهم ولا منشؤهم في سلك الانكشارية، فكانوا بذلك علة خراب هذا الأوجاق»[1]. والحقيقة لم يكن ذلك هو السبب الرئيس في خراب أوجاق الانكشارية في دمشق وبروز الانكشارية اليرلية فيها بل لعبت عوامل عدة في فساد هذا الأوجاق، وكان على رأس ذلك سوء الأحوال الاقتصادية بفعل عوامل داخلية وخارجية، وكذلك ضعف السلطة المركزية وتراخي قبضتها على دمشق في هذه الفترة، مما جعل العديد من الانكشاريين القابي قول يتركون أوجاقهم في قلعة دمشق ويتجهون للعمل في الحرف المختلفة في دمشق أملاً في الحصول على الدخول المرتفعة التي تفوق رواتبهم التي كانوا يتقاضونها من السلطة العثمانية، فانحط بذلك أوجاقهم وبرز إلى حيّز الوجود في دمشق أوجاقان الأول منهما: وهو القابي قول الذي كان يرسل من استانبول ويستقر في قلعة دمشق، أما الثاني فهو أوجاق اليرلية أو «الانكشارية المحلية» الذي التحق به بعض السكان المحليين بالإضافة إلى العناصر الجديدة التي دخلته بغية الحصول على ماكانوا يتمتعون به من امتيازات اقتصادية وغيرها. ولقد جرت الصدامات العديدة بين هذين الأوجاقين. وأسهمت هذه الصدامات إلى حد كبير في كتابة التاريخ السياسي لمدينة دمشق في هذه المرحلة. وكان هؤلاء شبه عساكر ينقصبهم الإنضباط، وجهلة بفنون القتال والحرب وينشرون لواء العصيان في كل سانحة وبارحة. وإذا ماطلبت منهم الدولة القتال تركوا ميدان المعركة. مما دفع الدولة في بعض الأحيان لإعدام زعمائهم. إلا أنهم سرعان ماكانوا يتخذون لأنفسهم زعماء آخرين[2].

ومع ذلك لم يتناقص عدد الانكشارية في دمشق بل ازداد عددهم مع الزمن، وازداد عدد الرجال الذين يدعون الانتساب إلى أوجاقهم، «وكان معظمهم من الآسافل والأجلاف

---

(١) انظر: تاريخ جودت. (المقدمة). ص١٠٤ و ص١٠٥. ترجمة عبد القادر الدنا. بيروت ١٣٠٨هـ.

(٢) انظر: السيوفي، حبيب. سورية ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. ج٢. ص٧ و ص٨.

فأرهقوا ميزانية الدولة وأصبحوا أسامي بلا مسمى»[1]. وكانت الدولة العثمانية ترسل دفعة بعد أخرى من القابي قول إلى دمشق أملاً في إثبات وجودها المادي كسلطة فيها[2]. ولتصبح هذه القوة أكثر خضوعاً للسلطان إلا أنها سرعان ماتذوب في مجتمع دمشق.

أما رواتب جنود الانكشارية فكانت بحسب تنظيمات السلطان القانوني على ثلاث درجات وهي:

أولا: الجنود الأحداث أو الكوجك (KOETSCHEK) وكان راتب الواحد منهم من ٣ ــ ٧ أقجة يومياً (جنود الخدمة الفعلية).

ثانياً: الجنود القدماء وهم الذين تميزوا بالشجاعة أثناء القتال أو أصيبوا بالحرب فكان راتب الواحد منهم من ٨ ــ ٢٩ أقجة يومياً.

ثالثاً: الضباط والجنود مشوهو الحرب أو المتقاعدون (OUTOURAC) فكان راتب الواحد منهم من ٣٠ ــ ١٢٠ أقجة يومياً[3]. ولكن في فترة دراستنا هذه يبدو أن الرواتب لم تعد تكفيهم لمعيشتهم مما دفعهم للسطو على أموال الشعب والقيام بأعمال أخرى، فاختل وضعهم[4] وعاثوا فساداً في دمشق.

ثكنات الإنكشارية وتسليحها وتموينها وطريقة قتالها

تمركزت قوات الإنكشارية في قلعة دمشق وبعض الثكنات الأخرى، وفي القلاع والحصون وعلى الطرق الهامة من بلاد الشام وعلى طريق الحج[5]. ووجدت ثكنات للإنكشارية في غربي دار السعادة، وكانت مقراً لسر العسكر في عهد ابراهيم باشا. وأوجد ابراهيم باشا المصري ثكنة جديدة خارج أسوار دمشق[6]. أما القوات التي كانت تأتي من استانبول بمهام عسكرية في المناطق الجنوبية من بلاد الشام كفلسطين والحجاز، فكانت تنصب خيامها في المرجة والعسالي، أو بالقرب من التكية السليمانية وأحياناً تبيت في التكية السليمانية أو في

(١) انظر: دائرة المعارفة الإسلامية (الانكشارية) ــ المجلد الثالث. ص٧٦ ومابعدها ــ الترجمة.

(٢) انظر: رافق. عبد الكريم. بلاد الشام ومصر. ص٧٦ الطبعة الثانية.

(٣) انظر: سويد، ياسين. التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين. ج١. ص٩٣ و ص٩٤.

(٤) انظر: كرد علي، محمد، خطط الشام. ج٥. ص٢٨.

5 - Porter, J.L.op.cit. VOL.1.P.51.

6 - Ibid .P.49.

خانات ومدارس وجوامع دمشق، وفي بعض بيوت الأهالي[1] وكانت عناصر الانكشارية تأوى إلى خيام واسعة ومستديرة، نقشت على واجهة كل خيمة شارة الأورطة المميزة لها عن غيرها من الأورط[2].

أما فيما يتعلق بتدريب قوات الانكشارية في هذه الفترة فليس لدينا معلومات وثيقة حول مستوى التدريب، إلا أن ثمة بعض الإشارات التي تدل على أن تدريبها كان شبه منعدم، بدلالة هزائمها المتكررة أمام القوى التي هددت دمشق، وكذلك هزائم عناصرها التي كانت تقوم بحراسة القلاع، أو بالمهام القتالية التي أوكلت لها إبان حملة نابليون بونابرت على فلسطين. ولقد تحولت مقراتهم (ثكنات وقلاع وحصون) أحياناً إلى مراكز تجارية بدلاً من أن تكون ثكنات تدريب للقتال[3].

واستخدم الانكشاريون أسلحة قديمة وحديثة. فمن الأسلحة القديمة المقلاع والترس والسهام التي بقيت في استعمالهم إلى جانب الأسلحة النارية الحديثة. كما استخدموا الخناجر والمخارط والمزارق والجريد (رمح قصير) والصولجان (كرزشيشبر) والطبوز والسياط ومدقة الحرب والبلطة والمنجل والرمح الطويل ثم الرمح الذي في رأسه بلطة صغيرة والرمح متعدد الأسنان والسيوف المستقيمة ذات الحد أو الحدين والحسام (قليج، بالاياتاغان) وخناجر القامة والتروس والزرد والدروع والخوذ النحاسية أو المصنوعة من الصلب والتي تشبه فتحتها الطربوش وتنتهي بالطرف المدبب. ومن الأسلحة النارية البندقية ذات الفتيل والبندقية ذات الزناد والبندقية الصغيرة والطبنجة والقربينة والغدارة واستخدموا الألغام والمتفجرات ضد الحصون والقلاع والأسوار[4]، وكذلك المدافع الكبيرة والصغيرة (الزنبركات)[5].

ولقد استخدم تعبير جبخانة في بلاد الشام للدلالة على الأسلحة ومستلزماتها، وأشير إلى البندقية (المشتقة من كلمة بندق الذي شابهه الرصاص) باستدارته وسمي بالتركية التفنك

---

(١) انظر: العبد، حسن آغا. تاريخ حسن آغا العبد. ص٥٥ و ص١٢٢. ويذكر محمد أديب تقي الدين الحصني أن ابراهيم باشا عندما دخل إلى دمشق قام ببناء ثلاثة مراكز للجيش هدمت في أواخر عهد الأتراك على يد جمال باشا مع مستشفى في أول الصالحية. انظر: منتخبات التواريخ لدمشق. ج١. ص١٠٩١.

(٢) انظر: دائرة المعارف الإسلامية ـــ المجلد الثالث. ص٧٨. الترجمة.

(٣) انظر: رافق، عبد الكريم. مجلة دراسات تاريخية. العدد الأول. ص٨٣ عام ١٩٨٠.

(٤) انظر: دائرة المعارف الإسلامية ـــ المجلد ٣. ص٧٩. الترجمة.

(٥) العبد، حسن آغا. تاريخه. ص٩٢ ـــ الحاشية.

وعرف حاملها بالتفنكجي ، كما استخدمت أحياناً كلمة بارودة أو بارود للدلالة على البندقية ... وأشير إلى قنبلة المدفع وهي إما من الحجر أو من الحديد باسم (قنبرة) أو كلّه وجمعها قنابر أو كلل ، وعرف صانعها بالهواويني .

أما طريقة القتال فترمي المدافع على الخصم من جانب القوات ثم يستخدم الجنود السلاح الناري ضده وفي مثل هذه الحالة قد يكون تشكيل الجنود علّا صفين . أحدهما في الأمام جاثياً على ركبتيه والصف الآخر واقفاً خلف الأول وكلاهما يطلقان النار في وقت واحد على العدو ، ثم بعد ذلك يبدأ الالتحام بالسلاح الأبيض . وكان على الفرسان الذين استخدموا السلاح الناري أن يترجلوا ليحسنوا استخدامه . وفي أواخر الخمسينات من القرن الثامن عشر أدخل عبد الله باشا الجتجي والي دمشق نوعاً من المدافع عرف بالشواهي أو الشاهيات مفردها « شاهي » تحمل على ظهر الجمال . وكان يستخدم هذا المدفع عنصر واحد ، ومن ميزاته سهولة إدارته إلى أحد الجانبين للتسديد والرمي[1] .

أما فيما يتعلق بصناعة الأسلحة والبارود في دمشق في القرن الثامن عشر فكان ثمة مصنع له ، وكان لهذا المصنع رئيس يطلق عليه اسم أسطة[2] ، إلا أننا لا نعلم مكان هذا المصنع ولا كمية البارود التي كان ينتجها ، كما لا نعلم فيما إذا كان يسد حاجة قوات الانكشارية من هذه المادة . ويبدو أنه كان يعجز عن سد حاجة القوات إليها ، فيما إذا جاءت إلى دمشق قوات إضافية .

ولقد استطاعت دمشق أن تصنع الأسلحة البيضاء ومستلزمات الخيول من نعال ومسامير وغيرها ، كما استطاعت أن تصنع البنادق ، واستخرجت الحديد اللازم لهذه الصناعات من أماكن متعددة من بلاد الشام . ولقد نشطت صناعة الحديد في القرن التاسع عشر وبقيت كذلك إلى أن أدخل الحديد السويدي إلى بلاد الشام في نفس القرن ، فأصيب الانتاج المحلي بضربة كبيرة[3] . واستخدم البقسماط والخبز المجفف في تموين الجند أثناء الطوارئ .

---

(١) انظر : مجلة دراسات تاريخية . ص٨٥ ص٨٨ العدد الأول لعام ١٩٨٠م.
(٢) انظر : البارودي ، فخري . مذكرات البارودي . ج١ . ص٩ .
(٣) انظر : رافق ، عبد الكريم . مقالة له في مجلة دراسات تاريخية . العدد الأول ص٨٨ و ص٨٩ .

وكانت كل أورطة مجهزة بثلاث طناجر كبيرة تستعمل لإعداد الطعام وتقديمه للجنود وكانت طناجرها تلك مساوية لكرامتها، وكانت غيرة الأورطة عليها معادلة تماماً لغيرتها على علمها أو شعارها. فإذا ماانتزع العدو طناجرها في القتال يعاقب ضباطها بتخفيض الرتبة (تكسير)، وإذا ماأعيد الاعتبار لهم فيما بعد فلا يمكن أن يعودوا إلى الأورطة نفسها، كما لا يحق لهذه الأورطة بعد ذلك إطلاقاً أن تحمل طناجرها في عرض عام وتلك إهانة تلحق بهم ولا تزول أبداً. ومن جهة أخرى فقد عمل الانكشاريون اليرلية في مختلف النشاطات الاقتصادية[1] فتعاطوا الربا وانتسبوا إلى الحرف واحتكروا تجارة الحبوب، وعمل بعضهم كملتزمين لجمع الضرائب ومساعدين للملتزمين، وعينوا «متوليين ونظاراً» على الأوقاف وشغلوا وظيفة المحتسب وعملوا في مصلحة الجمارك. وفي حلب سيطروا على طائفة القصابين. وجمعوا ثروات كبيرة، فعين أحدهم شيخاً لطائفة الصاغة واتخذ العديد منهم العبيد لأهمية ثروتهم ومكانتهم الاجتماعية[2].

القابي قول واليرلية في دمشق

برزت في دمشق قوتان من الانكشارية: أولاهما الانكشارية اليرلية (المحلية) والثانية قوات القابي قول المرسلة من استانبول والتي تأتمر بأوامرها وكان مقرها قلعة دمشق. وتشكلت اليرلية من قوات القابي قول التي تركت القلعة وبحثت عن الرزق في ربوع دمشق ضاربة عرض الحائط بالانضباط والتدريب العسكري، بالإضافة إلى العناصر المحلية التي انخرطت في صفوفها أملاً في الحصول على امتيازاتها وحمايتها. وكان من الطبيعي أن تحدث الاصطدامات بين القوتين (اليرلية والقابي قول) لأن قوات القابي قول كانت تسعى للبحث عن الرزق فتضيّق بذلك على اليرلية وتنافسها في مصالحها، خاصة وأن ظروف دمشق قد ساءت في نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر بفعل ظروف محلية ودولية.

وتوقفت استانبول عن إرسال قوات القابي قول إلى دمشق بدءاً من عهد الوالي عثمان باشا المحصل، سنة ١١٥٩هـ/١٧٤٦ ـــ ١٧٤٧م. حيث قام بطلبها الوالي أسعد باشا

---

(١) انظر: السويد، ياسين. المرجع السابق. ج١. ص٩٦ و ص٩٧ و ص١١٦.

(٢) رافق، عبد الكريم. مقالته السابقة في مجلة دراسات تاريخية. ص٩٢.

العظم بعد أن استفحل أمر اليرلية وتناست واجباتها في حفظ الأمن والنظام، فأرسلت الدولة العثمانية له الأورطة (أون طقز) أي الأورطة / ١٩، ودخلت هذه الأورطة بموكب عظيم «سرّت أناساً وكمدت أناساً»[١].

وأعد أسعد باشا العدة لضرب قوات اليرلية في معاقلها في مدينة دمشق، معتمداً في ذلك على قواته من المرتزقة وعلى قوات القابي قول، فهاجمها في حي الميدان ويصف البديري نتائج الصدام بقوله: «أنا سرت مع من سار فوجدناها قاعاً صفصفاً والقتلى بها مطروحة والأبواب مكسورة والدكاكين مخربة وجدرانها مهدمة والحاصل حالها حال تقشعر منها الأبدان وتشيب منها الأطفال»[٢].

كما جرى صدام آخر بين هذين الأوجاقين في سنة / ١١٧٠هـ / ١٧٥٦ ــ ١٧٥٧م، عندما كان والي دمشق حسين باشا مكي غائباً عنها كأمير لقافلة الحج. فقتل الكثيرون من القابي قول وحرقت حواصل الانكشارية اليرلية المليئة بالخشب في الدرويشية على يد أهل العمارة والقابي قول، وكانت تساوي عدة أكياس من المال[٣]. وعندما عزل حسين باشا مكي وجاء والياً على دمشق عبد الله باشا الجته جي زودته الدولة العثمانية بخمسة آلاف جندي من القابي قول[٤]. وما أن دخل دمشق في سنة ١١٧٠هـ/١٧٥٦ ــ ١٧٥٧م حتى قام بتوجيه ضربة جديدة لقوات الانكشارية اليرلية في حي الميدان ويصف أحمد البديري الحلاق ذلك بقوله: «لم يزل يضرب بالسيف هو وعساكره إلى أن وصلوا إلى خارج باب الله فقتلوا خلقاً كثيراً والذي ماأرادوا قتله أخذوه ووضعوه في الجنزير ونهبوا العساكر الميدان ولم يتركوا كبيراً ولا صغيراً إلا قتيلاً أو أسيراً ولم يتركوا بيتاً ولا دكاناً ولا امرأة ولا طفلاً إلا استعملوا النهب والسبي وهتك الأعراض من سلب النساء والحلي وسلب البنات الأبكار وغير ذلك مما يعمي الأبصار وتمنوا الموت الدوار ... وانتكبت أهل الشام نكبة في ذلك العام ماعهدت من عهد تيمور[٥]».

---

(١) انظر: البديري، حوادث دمشق اليومية. ص٧٢ و ص١١٠.
(٢) المصدر السابق. ص١٢٠.
(٣) المصدر السابق أيضاً. ص٢٠٢.
(٤) انظر: الدمشقي، ميخائيل. ص٤٩.
(٥) انظر: البديري، حوادث دمشق اليومية. ص٢١٤ و ص٢١٥.

ونظراً لما كانت تجره الصدامات بين أصناف الجند من ويلات وخراب على مجتمع دمشق، سعى القضاة للإصلاح فيما بينها في بعض الأحيان. وحسبنا أن نسوق مثالاً على ذلك ماحصل في سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢ ــ ١٨٠٣م بين أوجاقي الانكشارية (اليرلية والقابي قول)، ففي محرم من تلك السنة «حضر مفخر الأعيان مصطفى آغا سرطورناي آغاي ينكجريان ... ومفخر الأماجد الكرام حسين آغا وكيل آغاي يرليان بدمشق فالأول وكيل شرعي عن أوجقليوته الثانية وكالته عنهم لديه بشهادة محمد آغا بن علي آغا خنفس الخصكي بالأوجاق ... والثاني وكيل شرعي عن أوجقليوته الثابتة وكالته عنهم لديه بشهادة السيد اسماعيل آغا مهايني ... وتوافقا على أن الضغائن والفسادات الغير مرضية لرب البرية مرفوعة بين الأوجاقين وأنهم عبيد الله واخوانا لا يصدر من أحد من الأوجاق على الأوجاق الثاني تعدي ولا مناصرة وكل من عمل تعدي يطلع ضابطه من حقه وإذا احتمى أحد بمحلة من محلات الشام لا يحميه أهالي تلك المحلة وإن ظفروا به يوقعوا القبض عليه يسلموه لضابطه يطلع من حقه وينكله بأشد النكال على العادة القديمة»[1].

وعندما عين أحمد باشا الجزار بعد عزل عبد الله باشا العظم سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٤م قامت قوات الجزار بتوجيه ضربة أخرى إلى اليرلية في دمشق بالاعتماد على صنف قوات الدالاتية والسكبان من المرتزقة واستطاعت هذه القوات أن تذل قوات اليرلية وأن تسجن العديد من زعمائها مثل (سعيد آغا بن جعفر آغا ومحمد آغا بن طالو وغيرهم) ولم تتجرأ اليرلية أن تتصدى لهذه القوات ويقول حسن آغا العبد الذي عاصر هذه الفترة: «مابقا في الشام رجل كبير له تكلم يخلص مادة أو دعوة إلا حواشي أحمد باشا الجزار[2]». فانحنت قوات اليرلية لهذه العاصفة على مايبدو إلى أن مات الجزار عام ١٢١٩هـ/١٨٠٥م فقامت اليرلية وأخرجت المساجين وبدأت تصفي حسابها مع قوات الجزار فأجبرتها على اللجوء إلى قلعة دمشق والاحتماء بها وجرى تبادل لإطلاق النار بين الطرفين إلى أن اضطرت قوات الجزار إلى التسليم والانسحاب من دمشق بعد أن قتل عدد كبير منهم ومن قوات القابي قول[3].

---

(١) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ / ١٢١٦ ــ ١٢١٧هـ. ص١٧٠.
(٢) انظر: تاريخ حسن آغا العبد. ص٩٧.
(٣) المصدر السابق. ص١٠١ و ص١٠٧ و ص١١١ و ص١١٢.

ولم تستطع الدولة العثمانية القضاء على القوة اليرلية في دمشق إلا بعد أن ألغت أوجاق الانكشارية بشكل عام من جميع أرجاء الامبراطورية العثمانية سنة ١٨٢٦م ورغم ذلك بقي لقوات اليرلية نفوذها وسطوتها بعد هذا التاريخ في دمشق، حيث استطاعت في سنة ١٨٣١م أن تقتل واليها محمد سليم باشا ــ مستغلة فرض ضريبة الصليان على دمشق من أجل توفير المال لقوات النظام الجديد. فرأت اليرلية الفرصة مواتية لصب حقدها على من ألغى أوجاقها وبالتالي امتيازاتها. ويصف أحد كتاب الحكومة الدمشقيين ماذهب إليه زعماء اليرلية في تحالفهم ضد الدولة بقوله: «تحالفوا على الطلاق وعلى السيف والمصحف بأنهم يكونوا رأياً واحداً وحالاً واحداً وأن الصليان لا يمشي ولو هلكوا»[١]. ولقد توحدت قوات اليرلية في الميدان وباب السريجة والقنوات والعقيبة والصالحية والدرويشية وبعد أن قتلوا الوالي محمد سليم باشا استقاموا في بيت البكري يتعاطوا الأحكام[٢].

ورغم تبدل زعامة اليرلية بين فترة وأخرى إلا أن معظمهم كانوا من أسر معينة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وأبرز زعماء اليرلية الدماشقة في القرن الثامن عشر والذين برزوا أثناء حملة أبي الذهب على دمشق (١١٨٥هـ/ ١٧٧١ ــ ١٧٧٢م) هم: «فارس العضم أحمد العضم وحسين القطيفاني واسماعيل البكري، وعلي خير حسن الحواصلي، وعلي الحيدري محمد وعلي آقبيق وعمر القباني وأحمد الشحادة ومحمد مصطفى السقباوي واسماعيل البيطار ومحمد بكداش وأمين شيخ السروجية وعلي حسين وصالح شاويش وياسين ومحمد الصواف وحسين شبيب وابراهيم عابدون ومصطفى الدوجي وبكر ميرو وعبد الله سكر[٣].

وكان معظم هؤلاء من كبار تجار الحبوب في حي الميدان وحي سوق ساروجة (معقلا الانكشارية اليرلية)، كما عمل بعضهم في الحرف المختلفة، وكان لبعضهم إقطاعات من رتبة زعامت مثل محمد آغا طالو الذي كان زعيماً لقرية شتورة في ناحية الزبداني سنة ١٢٠١هـ، وكذلك محمد آغا الذي كان زعيماً لقرية حزرما، وأبرز الأسر التي تزعمت اليرلية في فترة دراستنا هي أسرة التركماني التي استقرت في الميدان. وكانت من الكثرة بحيث شكلت ربع

---

(١) انظر: مذكرات تاريخية. ص٨.

(٢) انظر: المصدر السابق. ص٢٢.

(٣) رافق، عبد الكريم. مجلة دراسات تاريخية ــ العدد الأول. ص٧٠.

أوجاق الانكشارية [1]. ومن زعمائها أيضاً أحمد آغا الزعفرنجي [2]. وأحمد آغا البغدادي ومصطفى آغا الأورفلي ومحمد البحطيطي [3]. ثم حسن آغا القباني وعدد من آل المهايني [4] وآل حيدر [5]. وغيرهم. ولقد أوكلت قيادة أوجاق اليرلية في بعض الأحيان إلى دفتردار دمشق [6] وكان العديد من الدفتردارين على علاقة جيدة بأوجاق اليرلية واعتمدوا على هذا الأوجاق في التصدي لقوات الولاة القابي قول.

٢ ــ جند المرتزقة

وهم الصنف الثاني من الجند الذين يأتون بأهميتهم السياسية والاقتصادية بعد الانكشارية بنوعيها في دمشق. وبرز هؤلاء على الساحة الدمشقية نتيجة لضعف السلطة العثمانية المركزية وتراخي قبضتها، ولتفسخ أوجاق الانكشارية وتمرده على الولاة، ولنمو القوى المحلية. كل ذلك دفع بالدولة العثمانية للسماح لولاتها بأن يجمعوا لأنفسهم مايشاؤون من الجند، الذين ينصاعون لأوامرهم، لسد الخلل في السلطة ولفرض هيبة الدولة في دمشق.

وكان بعض الجنود المرتزقة من أفراد العصابات التي تهتم بالسلب والنهب، فقام

---

(١) انظر: النمر، إحسان. تاريخ جبل نابلس والبلقاء. ج١. ص٢١. ثم انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠ / ١٢٠١ ــ ١٢٠٢هـ. ص٦٩. ثم سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١/٣/ص١٤٤.

(٢) انظر: العبد، حسن آغا العبد. ص١٦.

(٣) انظر: المصدر السابق ص ٨١ و ص٨٢.

(٤) المصدر السابق. ص١٠٦.

(٥) كان من آل المهايني أغوات عديدون في أوجاق اليرلية مثل: فتحي جربجي المهايني وخليل جوربجي المهايني ومحمد علي جوربجي المهايني وعماد جوربجي المهايني ــ وياسين جوربجي المهايني. انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩ / ١٢١٠ ــ ١٢١١هـ كما كان فيه آغاوات من آل حيدر في الميدان: مثل أحمد آغا حيدر ووحيد آغا حيدر ومصطفى آغا حيدر وبدر آغا حيدر وأسعد آغا حيدر وعباس آغا حيدر وموسى آغا حيدر ويوسف آغا حيدر. انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق لعامي ١٢٠١ ــ ١٢٠٣هـ. أما زعماء القابي قول في هذه الفترة فتعود إلى أصول غير عربية ونسبوا إلى الرتبة العسكرية أو الحرفة أو المدينة التي ينحدرون منها. فكان منهم على سبيل المثال لا الحصر: طالب آغا وأحمد آغا كتخداي والسيد محمد جوربجي بن باكير آغا ومحمد السروجي وعبد الوهاب القضماني وابراهيم آغا الموشلي ومحمد أفندي الترابزنلي وسكن هؤلاء في حي السنجقدار وكان لهم دكاكين في القميلة والدرويشية. انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ / سنة ١٢٦٤هـ. ص١٥ و ص٢٠٢.

(٦) انظر العبد. المصدر السابق. ص٨٦.

رؤساؤهم بعرض خدماتهم على ولاة دمشق وأصحاب العصبيات في الجبال والصناجق التابعة للولاية . ورغم أن الجند المرتزقة أصبحوا يتقاضون رواتب من الولاة إلا أنهم لم يتخلوا عما فطروا عليه من عمليات السلب والنهب[1] .

ولقد ازداد الاهتمام بهذا الصنف من الجنود في ولاية دمشق منذ الربع الأول من القرن الثامن عشر ، ولقد شابه هؤلاء الجنود المماليك من حيث طريقة الشراء والعلاقة بين الأستاذ والمعتوق ، إلا أن أنواعهم كانت مختلفة بحيث لم يكونوا من منشأ واحد ، بل كانوا من أقطار عربية متعددة أو من قوميات مختلفة. فمن الأصول العربية كان (البغدادي والموصلي والتكريتي والكركوكي ، ومن المغاربة كان المراكشي والدراوي والجزائري والتونسي والسوسي والطرابلسي والهوارة من صعيد مصر). ومن القوميات الأخرى كان (الشركسي والتركماني والكردي) وغيرهم .

ولقد صنف هؤلاء بحسب التسليح والمهام القتالية الموكلة إليهم . فكان منهم السكبان والدالاتية واللاوند . والملاحظ أن معظم الجنود المرتزقة الذين عملوا في بلاد الشام والذين كانوا من أصل مغربي أو عراقي عملوا فيها كشرطة[2] ، إلا أن الجند المرتزقة لم يلعبوا الدور السياسي الذي لعبه المماليك في مصر في نفس الفترة . إذ أصبح مماليك مصر أصحاب السلطة الحقيقية فيها .

ومعلوماتنا عن عدد الجند المرتزقة في ولاية دمشق غير دقيقة ، حيث كان عدد من استخدم منهم عائداً لدخل الوالي وحاجته إليهم . ويبدو أن أكبر عدد منهم كان قد استخدم لدى أحمد باشا الجزار ، الذي استطاع بهم أن يفرض سلطته القوية على ولايتي صيدا ودمشق ، فاستطاعت هذه القوات مع بعض قوى القابي قول أن تتصدى لقوات اليرلية الدمشقية بنجاح طيلة ولاية أحمد باشا الجزار . وكان أبرز زعمائها في سنة / ١٢١٩هـ/ هو الشيخ طه الذي كان كردي الأصل ، واستطاعت قواته من السكبان والدالاتية واللاوند «أن تذيق دمشق الويلات[3] » .

---

(١) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية ، المقدمة . ص٤٠ و ص٤١ .

(٢) انظر : رافق ، عبد الكريم . بلاد الشام ومصر . ص٨٠ .

(٣) انظر : العبد ، حسن آغا . تاريخ حسن آغا العبد . ص٩٦ و ص٩٧ و ص٩٨ و ص٩٩ و ص١٠٠ إلى ١٠٧

ومع ذلك فإن هذه القوات لم توفر الاستقرار والنظام في دمشق بل كانت عنصر فوضى وإرباك للحياة الاقتصادية فيها ، مما دفع بالقوى البرلية للتصدي لها وعندما استفحل أمر الجند المرتزقة اضطر بعض الولاة للاستغناء عن خدماتهم[1] . فتحولوا إلى قطاع طرق مما أجبر الولاة لإعادتهم إلى الخدمة[2] . وكان الجند المرتزقة يقسمون إلى خمسة أصناف هي : السكبان ـــ واللاوند ـــ والدالاتية ـــ والمغاربة ـــ والتفنكجية ـــ والهوارة .

٣ ـــ السكبـان

وهم أقدم أصناف الجند المرتزقة ولقد حرّفتها العامة إلى (السكمان) وفي الأصل فإن كلمة السكبان تعني (حارس الكلاب) وأصلها فارسي مكون من مقطعين « سك » وتعني كلب و « بان » وتعني حامي . ولقد أطلقت هذه التسمية في الأصل على فرقة المشاة العثمانية قبل إنشاء الانكشارية ، وبقيت إلى جانب فرق الانكشارية كفرقة مستقلة بعد إنشائها ، ولم توضع تحت سلطة قائد الانكشارية إلا بعد الاستيلاء على القسطنطينية[3] . وكان يساعد آغا الانكشارية سكبان باشي ، ويبدو أن هذا المنصب بقي في تنظيم أورط الانكشارية إلى فترة متأخرة من القرن الثامن عشر . أما في بلاد الشام فقد برزت أولى فرق السكبان في عهد علي باشا جانبولاد : الأمير الكردي الذي ثار على الدولة في منطقة كلس سنة ١٦٠٥ وحاصر دمشق في العام الثاني مع قوات الأمير فخر الدين المعني أمير جبل لبنان (١٥٩١ ـــ ١٦٣٥م) حتى قضت الدولة العثمانية عليهما .

وكان السكبان يحمل البندقية على ظهره ويقود الكلب في ساجورة ويمشي أمام الأمير أو الكبير حين يسير إلى الصيد ولقد أطلقت الكلمة على الذين يبيعون خدماتهم القتالية لقاء المال . ويقول « فون هامر » إن السكبان كانوا خليطا من الناس من كل البلدان . كما يستفاد من عبارات متعددة للإخباري الدمشقي الشيخ حسن البوريني المتوفى سنة ١٦١٥م ، أن السكبان في بلاد الشام كانوا من أصل رومي « أي المنطقة الواقعة ماوراء طوروس والفرات » ، وأنهم ظهروا في بلاد الشام ، لأول مرة في صنجق نابلس التابع لولاية الشام ، وذلك في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، في خدمة الوالي العثماني الذي استخدمهم لإخضاع سكان

---

(١) انظر : رافق ، عبد الكريم . مجلة دراسات تاريخية . ص٩٣ من العدد الأول .

2 - Maoz Moshe. Ottoman reform in Syria and Palestine. P.58.

(٣) انظر : جيب وباوون . المجتمع الإسلامي والغرب . ج١ . ص٨٧ الترجمة .

نابلس. ثم شاع استخدامهم في الربع الأول من القرن السابع عشر من قبل الأمراء والإقطاعيين في بلاد الشام. وقد وصف السكبان بأنهم متمرسون في فنون القتال، واستفيد من السكبان في بلاد الشام في حماية القلاع وفي الخدمة كمشاة وفرسان، كما سمح في بعض الأحيان للمتزوجين منهم بإيواء أسرهم معهم في القلاع. وحينما استخدم أحد الأمراء أعداداً جديدة منهم أشير إلى هؤلاء بأنهم الطائفة الجديدة بينما أشير إلى القدامى بأنهم الطائفة القديمة. وتألف السكبان من فرق متعددة أطلق على الواحدة منها اسم أورطة أوبلك وكان يقود كل واحدة منها سردار برتبة (بولوك باشي) كما أطلق على سردارهم في بعض الأحيان اسم الأقتجي، وحوّرت إلى الكنج. وكانت أعدادهم كبيرة إذا ماقورنت بأعداد بقية قوات المرتزقة الأخرى لدى الولاة. وذكر أن فخر الدين المعني كان في خدمته بعد معركة عنجر التي وقعت في سنة ١٦١٣م/ والتي أسر فيها والي دمشق مصطفى باشا، حوالي ثلاثة آلاف سكباني واستخدم منافسه يوسف باشا سيفا والي طرابلس مثل هذا العدد. وذكر البوريني أنه كان في خدمة علي جنبلاط (جانبولاد) عشرة آلاف من السكبان. أما فيما يتعلق برواتب هؤلاء (علوفات) فكانت تمنح لهم شهرياً، كما كانوا يمنحون أعطيات دعيت بخشيش.

وتجاوزت هذه الأعطيات في بعض الأحيان قيمة علوفاتهم. وذكر أنه كان من عادة كل فرقة من السكبان أن تجمع الغنائم على حدة وتقوم ببيعها، وبعد ذلك يقوم أفرادها باقتسام ثمنها فيما بينهم[1]. وكثيراً ماصادف أن عجز ولاة دمشق عن السيطرة عليهم فتحولوا إلى متمردين فوضويين يرعبون سكان دمشق وريفها[2].

أما دور هؤلاء فقد تضاءل مع الزمن ليبرز مكانهم جنود آخرون من المرتزقة، من المغاربة والقطر العراقي، إلا أن أحمد باشا الجزار كان قد أولى السكبان عنايته وشكلوا بذلك أكثرية قوات المرتزقة التي استخدمها.

ولقد روعت هذه القوات دمشق حتى وفاة الجزار سنة /١٢١٩هـ/١٨٠٤م.

(١) انظر: رافق، عبد الكريم. مجلة دراسات تاريخية مقالة له تحت عنوان. مظاهر الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام. العدد الأول. ص٧١ و ص٧٦. ثم العبد، حسن آغا. تاريخ حسن آغا العبد. ص١٣٣. و ص١٥٣.

(٢) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١٠/سنة ١٠٩١ ــ ١١٠٢هـ. ص١٩ /٢أيار/١٦٢٥م. ثم: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٣/ سنة ١١٢٤ ــ ١١٢٥هـ. ص٣٨٥.

فقامت ساعتئذ قوات اليرلية للتصدي لها، وجرت معارك كبيرة بين الطرفين «فسكرت البلد وأنشحت الخبز وصار حريق من طرف السكمان من العصرونية إلى دزج الأموي على الضبفين والسقف والخانات وأيضاً بعض البيوت واضطر السكمان للالتجاء إلى القلعة إلى أن تدخل أصحاب الأمر وأخرجوا منها وساروا باتجاه عكا عن طريق المزه»[1]. ويبدو أن عدد السكبان قد تضاءل في دمشق مع الزمن إلى عهد محمد سليم باشا، وعندما ألغي أوجاق الانكشارية في دمشق استقر السكبان برئاسة آغاتهم في قلعتها بدلاً عن قوات الانكشارية وكان عددهم آنئذ ٣٠٠ نفر[2].

٤ ـــ اللاوند

استخدمت هذه التسمية في الأصل للبحارة وذلك تحريفاً لكلمة (ليفانتينو Levantino) التي أطلقت من قبل البنادقة على الشرقيين (اشتقاقاً من كلمة الليفانت أي الشرق) الذين استخدموا في أسطولهم. وأطلق العثمانيون على بحارتهم الأوائل تسمية لاوند التي استعاروها من البنادقة وحرفوها بدورهم. وعندما تمرد هؤلاء البحارة من اللاوند وسرحوا واستبدل بهم آخرون، أطلقت الكلمة على المتمردين ثم عرف بها المرتزقة الذين باعوا خدماتهم.

وكان اللاوند من الفرسان بصورة رئيسة وجندوا مثل السكبان من بلاد الروم. وفي القرن الثامن عشر اقترن اسم اللاوند في دمشق بالأكراد، ومنهم: القوات التي عرفت آنذاك بلاوند الأكراد[3] وكان هؤلاء من أخلاط شتى، وقد عرفوا بالفساد والإفساد حتى أصدر السلطان فرماناً بإبطال طائفتهم فتفرقوا في الأقطار ودخلوا في خدمة الولاة وأصحاب العصبيات[4] ولقد استخدموا لتنفيذ المهام الصعبة في الجبال والمدن وكانوا من الفرسان لا يفارقون خيولهم[5].

ولقد ترأسهم في دمشق قائد عرف بالآغا أو المقدم. وكان لقاؤهم يتم في خان اللاوند

---

(١) انظر: تفصيل ذلك في تاريخ حسن آغا العبد من ص١٠٩ إلى ص١١١.

(٢) انظر: مجهول. مذكرات تاريخية ص١٦ و ص١٧ و ص٢٠.

(٣) انظر: رافق، عبد الكريم. مجلة دراسات تاريخية العدد الأول ص٧٦.

(٤) انظر: البديري حوادث دمشق اليومية. ص٣٢ الحاشية.

(٥) العبد، حسن آغا. تاريخ حسن آغا العبد. ص٧٨.

في دمشق المنسوب إليهم. وقامت الدولة العثمانية بمحاولات عديدة للقضاء عليهم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، إلا أنها لم تفلح في ذلك، واستطاع العديد منهم اللجوء إلى خدمة ولاة دمشق وغيرهم، فخدموا لدى محمد باشا العظم (١١٨٤ ـ ١١٩٦هـ / ١٧٧١ ـ ١٧٨٣م)، وأحمد باشا الجزار (١١٩٣ ـ ١٢١٩هـ/ ١٧٨٠ ـ ١٨٠٤م) ويذكر الأمير حيدر أحمد الشهاب أن هؤلاء كانوا يشكلون أوجاقاً في الدولة فقامت الدولة بإصدار خط شريف بنفيهم وكان تعدادهم ستة عشر ألفاً فما سلم منهم سوى ستمائة خيال قبسيس يقال لهم (لاوند) لجأوا إلى أحمد باشا الجزار. وكانوا يلبسون طرابيش طوال. وهم رجال أشداء في القتال لا يهابون الموت وكان المقدم عليهم بيق عبد الله آغا وأظن علي آغا والأمير خليل والأظن ابراهيم آغا، وكان منهم رجل يقال له علي آغا القيصرلي تحت يده ثلاثمائة خيال فتعين عند محمد باشا العظم في دمشق لأنه كان بينه وبين عبد الله آغا نفار فلم يصاحبه[1]. ولقد استخدمهم عبد الله باشا الجتجي بالإضافة إلى قوات القابي قول في ضرب قوات الانكشارية اليرلية في حي الميدان عام ١١٧١هـ وكان تعدادهم آنئذ خمسين بيرقاً[2]. كما استخدمهم أحمد باشا الجزار في جباية الضرائب فيما بعد.

٥ً ـ الدالاتية أو الدلاة

وكان يطلق على الجندي منهم (دالاتي). وهي مشتقة كما ترى من الأصل التركي DELI التي تعني الأهوج أو المجنون، أو المتهوّر أو الطائش. وكانت طائفة منهم قد استخدمت أول الأمر من قبل والي روميلية في مطلع القرن العاشر للهجرة /السابع عشر للميلاد/ ولكنها مالبثت أن دب الفساد في صفوفها في القرن الثامن عشر للميلاد. وكانت أصولهم من الأناضول والكرواتيين والبوسنيين والصرب وعرف قائدهم بـ (دالي باش).

وكان هؤلاء الكنج أو الأقانجي يعيشون على الغزو لأن الدولة لم تمنحهم رواتب محددة بل كانوا يقومون بمغامراتهم الحربية لتحقيق مجدهم الشخصي والمادي بما يكسبونه من الغزو. ولبس هؤلاء لباساً عجيباً تعمدوا فيه إظهار غرابتهم تجاه العدو لإدخال الرعب إلى قلبه، فوضعوا جلود الدببة والأسود على أجسادهم، واعتمروا بقلانس من جلود النمور والفهود

(١) انظر: نزهة الزمان في تاريخ جبل لبنان من ١١١٠هـ إلى ١٢١٦هـ. ج٢. ص٨٢٨.

(٢) انظر: البديري، حوادث دمشق اليومية. ص٢١٢.

وزينوها بريش زيل النسر وعلقوا على التروس التي يحملونها ريشاً من جناح النسر أيضاً . أما تسليحهم فكان كالآتي : (الصحائف والنبابيت والنبال والحراب والسيف القصير والغدارات والبنادق) . ولم يكتفوا بذلك بل لبّسوا خيولهم لباساً من جلد الأسد أو غيره من جلود الوحوش الكاسرة والمفترسة [1] .

أما شكل القلنسوة التي كانوا يعتصبون بها فكانت من جلود الحيوانات السابقة الذكر أو من اللباد الأسود . وكانت على شكل أسطواني ليس بها كفات طولها حوالي ٢٥سم ، ولكنها لا تقي العينين من أشعة الشمس وتنزلق بسهولة عن رؤوس هؤلاء الجند المحلوقي الرأس . وكانت أفراسهم متباينة القد واللون . كل ذلك جعلهم يشبهون اللصوص . وفي الحقيقة فإن معظمهم كانوا لصوصاً وقطاع طرق . وكان أفراد هذا الصنف في مدينة دمشق من الأكراد والتركمان والقرمان بالإضافة إلى أصول قومية أخرى . وربما كان العديد منهم قتلة في أوطانهم فروا من وجه العدالة ولجؤوا للاحتماء والعمل لدى ولاة دمشق وغيرهم ، ولم يكونوا ليتقيدوا بنظام عسكري ، لهذا بقيت أخلاقهم على حالها وأصبحوا آفة المدينة والريف ، واعتدوا على الجميع ولم يسلم من أذيتهم أحد لدى أية سانحة أو بارحة [2] .

وكان هؤلاء يتجمعون في قرية « رفينة » غرب مدينة حمص ثم يأتون إلى والي دمشق ليعرضوا خدماتهم عليه تحت إمرة آغا أو مقدم منهم . وشكل هؤلاء طائفة من الجند على غرار اللاوند والمغاربة وكان لهم في دمشق خان يلتقون فيه سمي بخان الدالاتية . ولقد اعتمد ولاة دمشق عليهم في حملاتهم ضد الحكام المتمردين التابعين لهم وفي ضرب الشيوخ الإقطاعيين ، وكذلك في حماية قافلة الحج الشامي ، وفي التصدي لقوى الانكشارية البرلية في دمشق[3] . ومن جهة أخرى . لم يكن هؤلاء الجند على علاقة جيدة مع بقية أصناف الجند المرتزقة في دمشق بل شاهدت دمشق الصدامات الكثيرة التي جرت بينهم وبين أصناف الجند الأخرى ، كما حصل في سنة ١١٥٥ عندما اصطدموا مع قوات اللاوند[4] وكذلك في سنة ١١٥٦هـ عندما اصطدموا مع المغاربة والانكشارية [5] . ولقد زاد جورهم شأن بقية

---

(١) انظر : سويد ، ياسين . المرجع السابق . ج١ . ص١١٩ .

(٢) انظر : السيوفي ، حبيب . المصدر السابق . ج٢ . ص٨ و ص٩ .

(٣) انظر : رافق ، عبد الكريم . مجلة دراسات تاريخية . العدد الأول . ص٧٧ .

(٤) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص٣١ .

(٥) البديري . ص٤٧ .

الجند المرتزقة على سكان دمشق وريفها. ففي عهد أسعد باشا العظم اشتكى الأهلون منهم فأصدر أمراً بإبعادهم وأرسل منادياً في شوارع دمشق ينادي «كل من أقام من الدالاتية في الشام أكثر من ثلاثة أيام.... فدمه مهدور». ويبدو أن أسعد باشا لم يكن جاداً في ضربهم أو أنه لم يقو على تصفيتهم ولقد لاحظ ذلك أحمد البديري الحلاق حيث يقول: (وبعد أيام ظهرت الدالاتية) وفي سنة ١١٦٠هـ حاول أحمد باشا استخدامهم في ضرب جبل الدروز إلا أنهم تقاعسوا عن تنفيذ المهمة الموكلة إليهم فغضب أسعد باشا العظم وقال: «تباً لكم من أعوان ولمن اتخذكم من أنصار تأخذون العلايف والمال وتهربون من الحرب والقتال[1]».

٦ ـ الجند المغاربة

أولى الإشارات لوجود حامية مغربية في دمشق تعود إلى العهد المملوكي حيث كانت لهم زاوية في دمشق بنيت عام ٧٠٢هـ/١٤٠٠م/. كما وجد مثل ذلك في القدس وطرابلس. ولقد ذكر الشيخ عبد الغني نابلسي في زيارته للقدس في القرن الثامن عشر ١١٠٥هـ/١٦٩٣م جامع المغاربة فيها.

وكان المغاربة من أقطار ومدن عدة فكان منهم الفاسيون والجزائريون والسوسيون والتوانسة والطرابلسيون والدراوة والمراكشيون. وعمل المغاربة المقيمون في بلاد الشام حراساً في الخانات والحارات والأسواق. ومراقبين في البساتين والحقول المجاورة لمدينة دمشق. وكان لكل فئة منهم شيخ. وكان ثمة شيخ بمشايخ لهم جميعاً مسؤول أمام السلطات العثمانية عن سلوك أفراد طوائفهم. وخضع العسكريون من المغاربة لآغا المغاربة. ويعتقد أن المغاربة أقاموا في دمشق بغية المجاورة وطلب العلم أو التجارة أو إيجاد عمل لهم مهما كان متواضعاً. أما عملهم كطائفة عسكرية فهو مايهمنا. فقد برزوا كطائفة في القرن الثامن عشر وهذا مايستلزم منّا تفسيراً. فمن الصحيح أن ازدياد اعتماد الولاة في ذلك القرن على القوات المرتزقة أدى إلى ازدياد اعتماد الولاة عليهم ولكن من الملاحظ أن تدفق قوات المغاربة إلى بلاد الشام ودمشق آنذاك لا يوازيه تدفق أية قوات أخرى لهذا نتساءل لماذا كان هذا التدفق؟ وماهي الأسباب والدوافع التي كانت وراءه؟

ويمكن الإجابة على ذلك بالآتي: كان المورد الأساسي للعديد من هؤلاء هو القرصنة.

---

(١) البديري أيضاً. ص٨٧ و ص٨٨ وص٩٦.

والغزو في البحر ولما توقف هذا المورد بضعف البحرية الجزائرية والمغربية بشكل عام لتعاظم القوى البحرية الأوربية وتصديها للبحرية المغربية بأقطارها الثلاثة، ومهاجمتها الموانىء المغربية نفسها، انقطع هذا المورد الضخم للعديد من المغاربة. وحتى الجنود الذين كانوا يعملون لدى الداي في الجزائر، والذين كانوا من أصول مشرقية اضطروا للعودة إلى المشرق للبحث عن الرزق، فقدموا خدماتهم لولاة بلاد الشام في المجالات العسكرية كما عملوا في المرافق الاقتصادية المتعددة[1] وقد وصل عدد قوات المغاربة لدى أحد ولاة دمشق في القرن التاسع عشر مابين ٥٠٠ و ٦٠٠ جندي، وكان منهم في حوران مابين ٣٠٥ ـــ ٤٠٠ جندي تقريباً في قلعة مزيريب وغيرها[2].

واستخدم عدداً كبيراً منهم أحمد باشا الجزار والي صيدا. ولقد استخدمهم الولاة في مهام متعددة، وكان أبرزها حماية قافلة الحج الشامي. ويبدو أن بعضهم قد عاش في دمشق حياة بائسة بدلالة أن بعضهم سعى للحصول على الرزق من خلال تشليح أو قتل الآخرين[3].

أما تنظيم الجنود المغاربة لدى والي دمشق فكان تنظيماً شبه بدوي. وكان جلهم من المشاة وقلة منهم من الفرسان. وكان الواحد منهم لا يمتلك سوى البندقية الصدئة والخنجر وحقيبة الجلد ويضع داخلها قميصاً وسراويل وطاقية حمراء وخفاً. أما راتب الواحد من هؤلاء فكان خمسة قروش في الشهر، وتقعُ نفقات أكلهم على عاتق الوالي هذا بالنسبة للمشاة منهم، أما الفرسان فكان راتب الواحد منهم ضعف راتب الجندي من المشاة، وكان تصنيفهم يجري على حسب الأسلوب التتري القديم فيجعلون شراذم، والشرذمة عشرة رجال وقلما تكون كاملة، وكان يقودها آغا. وكان الآغا المكلف بصرف الرواتب يحاول أن لا تكون الشرذمة كاملة لأنه كان يأخذ راتب عشرة ومن صالحه أن تكون الشرذمة دون العشرة، فالفائض من الرواتب يدخل إلى جيبه، وكان الرؤساء المسؤولون يغضون الطرف عن هذا المال المختلس على هذا المنوال لأنه في بعضه يعود إليهم[4].

---

(١) انظر: رافق، عبد الكريم. مجلة دراسات تاريخية. العدد الأول. ص٧٨ و ص٧٩.

2 - Burckhardt. J.L. op.cit. P.291.

(٣) انظر: البديري. حوادث دمشق اليومية. ص١٥٨.

(٤) انظر: السيوفي، حبيب. المصدر السابق. ج٢. ص٩.

وإذا ماترك الجندي المغربي الخدمة العسكرية لسبب ما أصبح في عهدة شيخ الطائفة المغربية التي ينتمي إليها [1] . وكان للمغاربة زاوية صوفية خاصة بهم وكان لهم خان في دمشق أطلق عليه خان المغاربة، وكانت الزاوية والخان ملقى للمغاربة في دمشق. ولقد استخدم المغاربة من قبل حكام صيدا وعكا، فكان للشيخ ظاهر العمر، حاكم عكا وبلاد صفد، قوات مغربية، وكثيراً ماصادف أن قاتل المغاربة في بلاد الشام، وفي أكثر من مناسبة في جهتين متعاديتين، وحسبنا أن نورد مثالاً على ذلك ماحصل في حملة أبي الذهب على دمشق في حزيران عام ١٧٧١هـ. ففي الوقت الذي كان بعض قواته من المغاربة كان لدى والي دمشق قوات مغربية تدافع ضدهم عن المدينة[2].

٧ ـــ التفنكجية

أطلقت هذه التسمية على صنف من الجنود المرتزقة، أغلبهم من المشاة، مسلحون بالبنادق. ولقد اشتقت التسمية من كلمة (التفنك) أي البارود، وكان يقودهم التفنكجي باشي. واشتهر هؤلاء في القرن الثامن عشر في بلاد الشام، ولكننا لا نعرف بالتأكيد المناطق التي جندوا منها [3] . ويلاحظ أن التفنكجي باشي في عهد أسعد باشا العظم (١٧٤٣ ـــ ١٧٥٧م) كان بغدادياً [4] ولقد انحاز التفنكجية إلى جانب البغداديين والمواصلة في صراعهم مع الأكراد في دمشق في عهد أسعد باشا العظم.

أما مهام التفنكجية في دمشق فكان ينصب على حفظ الأمن داخل المدينة[5]، وكلفوا في الأوقات التي تعرضت لها ولاية الشام بمهام عسكرية خارج دمشق، وكانوا على وجه العموم أكثر تنظيماً وانضباطاً من القوات العسكرية الأخرى، إلا أنهم كانوا أقل أهمية من الناحية العسكرية وحتى السياسية. وكان يرأس أوجاقهم الخاص تفنكجي باشي الذي كان بمرتبة آغا ويأتمرون بأوامر الوالي، وفي القرن الثامن عشر كان معظمهم من أصول عراقية (بغداد ـــ الموصل ـــ كركوك)، ووصل عددهم لدى والي دمشق من ١٠٠ ـــ ١٥٠ تفنكجي.

---

(١) انظر: السجل رقم ٥٩ / محاكم دمشق/ ص٢٢٠.

(٢) انظر: رافق، عبد الكريم: مجلة دراسات تاريخية، العدد الأول. ص٧٩.

(٣) رافق: أيضاً مجلة دراسات تاريخية، العدد الأول. ص٧٧.

(٤) انظر: البديري، أحمد. حوادث دمشق اليومية. ص١٤٨.

(٥) انظر: كرد علي، محمد. خطط الشام. ج٥. ص٢٨.

أما في حلب فكان تحت امرة التفنكجي باشي بيرقدار وأوضباشي وقهوجي ، ومن مائتين إلى ثلاثمائة توفنكجي ، وكان راتب التفنكجي ، «خمسون خرجاً من القهوة» وله نصيب من الجزاء النقدي الذي يفرضه الباشا على المتداعين[1]، ووجد هذا الصنف من الجند لدى والي صيدا . وفي دمشق كلف هؤلاء بمهام الشرطة وعملوا كمراسلين . لدى القضاة والمتسلمين ، وكانوا يتقاضون مقابل خدماتهم بعض النقود يطلقون عليها اسم الخدمة . ففي سنة ١٢١٣هـ استدعى متسلم دمشق ابن خير أحد زعماء اليرلية بواسطة أحدهم توفنكجي وقام بطلب الخدمة وكاد يحصل صدام بين اليرلية والمتسلم من جراء ذلك . ولقد كلف بقيادتهم في مدينة دمشق باش شاويش اليرلية[2] ، في حال غياب التوفنكجي باشي أو عزله أو وفاته ، ريثما يعين بديل عنه ، كما كلف توفنكجي باشي بدوره بقيادة قوات القابي قول في دمشق ، ريثما يعين آغا جديد للقابي قول من استانبول . فمثلاً سنة ١٢١٧هـ قام والي دمشق عبد الله باشا العظم بتعيين مصطفى آغا آغا التفنكجية آغا قول وعزل الآغا الضعيف[3] . وكان التفنكجية عندما يتركون الخدمة يستقرون في دمشق ويحتفظون بألقابهم السابقة . ولقد تعرض بعض هؤلاء لاضطهاد زبانية الجزار سنة ١٢١٨هـ . ففي السنة المذكورة كان السيد عبيد تفنكجي باشي سابقاً في السجن مع زعماء اليرلية وعندما توفي الجزار سنة ١٢١٩هـ أفرج عنه[4] .

٨ ـ الهوارة

عمل لدى ولاة دمشق صنف آخر من الجنود المرتزقة أطلق عليه اسم الهوارة ، ويعود هؤلاء في أصولهم إلى قبيلة هوارة التي تستقر في صعيد مصر أو إلى قبيلة الهوارة التي تستقر في المغرب . ومعظم جنود الهوارة كانوا من الفرسان . وكان يرأس هذا الصنف آغا . ففي سنة ١٢١٣هـ كان لدى والي دمشق ابراهيم باشا قوات من الهوارة . وفي سنة ١٢٣٧هـ استخدم هذا الصنف من الجند عبد الله باشا والي صيدا ، ولقد ورد ذكر لأحد آغواتهم وهو أبو زايد . وكان يطلق على قائدهم اسم هواري باشي أي رئيس الهوارة[5] . وعندما دخل ابراهيم باشا

---

(١) انظر : العبد ، حسن آغا . تاريخ حسن آغا العبد . ص١٠٧ . الحاشية .

(٢) انظر : العبد . ص٤٢ .

(٣) العبد . ص٨٢ .

(٤) العبد . ص١٥٧ .

(٥) العبد . ص٣٩ و ص١٧٦ .

المصري دمشق سنة ١٨٣١م، كانت ضمن تشكيلات جيشه مجموعة من قوات الهوارة الفرسان[١]، استخدمهم كطليعة تستطلع أمام قوات الجيش المصري، إلا أن معلوماتنا مازالت محدودة عن هذه القوات التي عملت كجنود مرتزقة في فترات مختلفة، كما لا توجد لدينا معلومات دقيقة عن أول استخدام لهذه القوات من قبل ولاة دمشق وعن سبب استخدامها، وإن كان من المرجح أن كلمة هوارة كانت تستخدم للدلالة على الجنود الذين ينحدرون في أصولهم من الهوارة في صعيد مصر أو للدلالة على الجنود المغاربة وبعض البدو بشكل عام.

٩ ـ قوات الاقطاع أو السباهية

يعتبر هذا الصنف أقدم أصناف الجند العثمانيين على الإطلاق وكان يطلق عليهم اسم السباهية (SIPAHIS) أي الفرسان الذين منحوا إقطاعات من الدولة مقابل خدمتهم في جيشها. وهذا النظام موروث من عهد السلاجقة. فعندما سيطرت الدولة العثمانية على بلاد الشام أقرت ثلاثة أنواع من الإقطاعات على الأراضي الميرية وهي (الخاص) ويقدر وارده بما يزيد على مائة ألف أقجة «الأقجة وحدة نقدية فضية» وأعطي هذا النوع من الإقطاع لأفراد الأسرة العثمانية وكبار الموظفين وألحق بمناصب الولاة لينفقوا من وارداته على مناصبهم. ثم هناك النوع الثاني من الإقطاع وهو (الزعامت) وهذا النوع من الإقطاع يزيد وارده عن عشرين ألف أقجة، وأعطي هذا النوع من الإقطاع للضباط الكبار. ثم (التيمار) الذي قدر وارده بأقل من عشرين ألف أقجة، ووزع على أفراد الجيش من الفرسان السباهية ليكون معاشاً لهم، ومازاد عن حاجة الفرسان جندوا به الأتباع. وعرف مجموع هذا الجيش الذي أعطي الإقطاع من النوعين الأخيرين (زعامت وتيمار) بجنود السباهية[٢].

ولقد عين قادة السباهية حكاماً على الولايات، حيث كان البيلربي (بك البكوات أو

---

(١) انظر: قرألي، بولس. فتوحات ابراهيم باشا المصري في فلسطين ولبنان وسورية. ص١١. وكان من قوات ابراهيم باشا مجموعات غير نظامية لقوات المرتزقة غالبها من الفرسان كلفت بمهام متعددة وكان لكل مجموعة أو جماعة رئيسها الذي كان يطلق عليه اسم «باش». كباش الهوارة، وقوات المغاربة والبغداديين والأكراد وقوات من الأناضول وبدو سيناء وغيرهم. انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم / ٣٤٠ / ١٢٥٠ ـ ١٢٥٤هـ ص٣٣. ثم ص٦٤ و ص٣٧ و ص١٢٢ و ص١٢٣ و ص١٩٢ من السجل المذكور. ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٥٧ / سنة ١٢٥٥هـ ١٢٥٦هـ. ص٨٤ و ص٩٧ و ص١٢٨.

(٢) انظر: رافق، عبد الكريم. مجلة دراسات تاريخية. العدد الأول. ص٧٢.

أمير الأمراء) أعلى هؤلاء الحكام رتبة، وكان هذا الحاكم هو الذي يمنح الإقطاعات إلى عام ٩٣٧هـ/ ١٥٢٠م أي في عهد السلطان سليمان القانوني، حيث قامت الحكومة العثمانية في استانبول بسحب هذه الصلاحية، وتركت لهم منح إقطاع فقط من درجة التيمار. ولكن بانحطاط جند الإقطاع أصبح بإمكان الإقطاعيين دفع مايعرف بمال البدل مقابل إعفاء الدولة لهم من الخدمة العسكرية.

وكان يقود السباهية إبان الحرب حكام الولايات وقيد هؤلاء من قبل التشرى باشي أو الصوباشي وكانت الوحدة الأساسية لهؤلاء الجند (الالاي) وكان يقود الالاي (آلاي بك). وكان هذا القائد يملك بدوره إقطاعاً. وكانت الوحدة العسكرية تلك متفرعة من وحدة أكبر وهي البلق (ببلوك) وكان يقود البلق (البلوك باشي) وكان يقود البلوكات قائد عام يطلق عليه اسم السباهي آغا. أما رواتب السباهية كجنود فكان يصرف عليهم من دخل الإقطاع التابعين له، بالإضافة إلى غنائم الحرب التي يحصلون عليها من ميادين القتال. وكان راتب الفارس يختلف باختلاف مدة خدمته، وكانت السباهية على نوعين من حيث الراتب: أحدهما يتقاضى راتباً والآخر يعتمد في معاشه على مايدره الإقطاع، وكانت هذه الإقطاعات متوارثة من الآباء إلى الأبناء[1]. أما سلاح قوات السباهية فكان الرمح والطبنجة والنبال والسيوف والبنادق والقوس والسهام والترس، ثم بنادق الفتيل والصوان، ويرتدون الثياب الخضراء والمخططة بخطوط بيضاء وفوقها يرتدون سترة الزرد، وكان لهم تدريب خاص[2]. وكان جنود السباهية من قوميات مختلفة فمنهم العربي والكردي والمملوكي والتركي.. الخ. وقد تناقص عدد السباهية بشكل عام في ولاية بلاد الشام في القرن السابع عشر حيث لم يكن ليتجاوز عددهم في دمشق وحلب وطرابلس سنة ١٦٨٧هـ / ١٤٠٠ / رجلاً[3]. وتفسير ذلك يعود لتعلق هؤلاء بالأرض دون الجندية، ودفعهم مال البدل للدولة. وكان للإقطاعيين السباهيين في مدينة دمشق دفتردار خاص وبك أو أمير معترف به من الدولة العثمانية، ولقد شكل هؤلاء جانباً من أعيانها، وكان يطلق على هؤلاء اسم (الزعماء). ورغم ضعف هذا الصنف من الجند في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فقد كلف ببعض المهام خاصة عندما كانت تتعرض الدولة العثمانية لتهديد خارجي، كما حصل في سنة ١٢١٣هـ عندما

---

(١) انظر: سويد، ياسين. المرجع السابق. ج١. ص١٠١.

(٢) انظر: سويد، ياسين. تاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين. ج١. ص١٠٣ و ١٠٤.

(٣) انظر: رافق، عبد الكريم. مجلة دراسات تاريخية العدد الأول. ص٧٢ و ص٧٣.

نزلت قوات نابليون بونابرت في مصر وزحفت بعدها على فلسطين، فكلفت آنئذ قوات السباهية الدمشقية بالتصدي للفرنسيين مع بقية القوات العثمانية الأخرى. ويقول حسن آغا العبد الذي عاصر هذه الأحداث: (طلع من الشام أيضاً عسكر آلاي بك والزعما وتوجهوا نحو الفرنسيين)[١]. في فلسطين.

وكلف سباهية دمشق بمهام أخرى تحت قيادة زعمائهم. ففي عام ١٢١٦هـ/١٨٠١ ـ ١٨٠٢م وعندما عاد الصدر الأعظم يوسف باشا من مصر باتجاه دمشق أصدر فرماناً خاصاً إلى آلاي بك في دمشق «بأن يطلعوا الزعما ويكوموا تلال تراب من الشام إلى أن يوصلوا إلى عند الوزير مابين التل والتل ساعة لأن هذا معتاد الاسفار لأجل يعلموا أن عرضي هامايون مرة من هذا الطريق بعد حين»[٢].

ولقد شكل زعماء السباهية جانباً من الهيئة الحاكمة في دمشق. فكان منهم الأعيان والزعماء، انطلاقاً من مناصبهم التي أوكلت إليهم، بالإضافة إلى الشوباصي الذي قام بدور رئيس الشرطة[٣]، وكان بعضهم عضواً في مجلس ولاية دمشق. فشارك هؤلاء في تسليم المتسلم الجديد منصبه[٤]. وكلف بعضهم بمنصب قائمقام الوالي[٥]، وشاركوا القاضي والمفتي ونقيب الأشراف في جرد تركات الولاة المتوفين وموجودات المعزولين منهم[٦]، وسعى بعض زعمائهم في دمشق للصلح بين اليرلية والقابي قول كما حصل في عام ١٢٢٠هـ[٧].

كما سعوا في إجراء الصلح بين والي دمشق وقوى الانكشارية اليرلية كما حصل في عام ١٢٢١هـ عندما عزل عبد الله باشا العظم عن ولاية الشام[٨].

ولقد امتلك زعماء السباهية قصوراً عديدة في دمشق، كانت بمثابة منازل لاستضافة العديد من الموظفين الكبار وأتباع السلطان العثماني القادمين إلى دمشق[٩]. واستطاعت أسر

(١) انظر: تاريخ حسن آغا العبد. ص٥١.
(٢) العبد. ص٦٥.
(٣) العبد. ص٢٣.
(٤) تاريخ حسن آغا العبد. ص٢٣.
(٥) المصدر السابق. ص٦٢.
(٦) المصدر السابق. ص١٦٠.
(٧) المصدر السابق. ص١٢٥.
(٨) انظر المصدر السابق. ص١٣٠ و ص١٣١.
(٩) المصدر السابق. ص٦٨.

عديدة في دمشق، أن ترسخ نفوذها السياسي والاجتماعي في دمشق، من خلال الإقطاعات، وأن يحصل أفرادها على الرتبة العسكرية الخاصة بضباط الإقطاع، فمثلاً أسرة أغريبوظ (أو أغريبوزي) كان منهم آلاي بك هو أحمد السلامي المتوفى سنة ١١٥٦هـ/١٧٤٣ ـ ١٧٤٤م، ثم مصطفى آغا بن أغريبوظ أصبح آلاي بك سنة ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠ ـ ١٨١١م في عهد والي دمشق يوسف باشا وتعاطى الأحكام فيها، ثم أحمد بك كان أحد أعيان دمشق وتوفي سنة ١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩ ـ ١٨٦٠م[1].

ولقد أصاب جند الإقطاع السباهية ماأصاب الإنكشارية في عام ١٨٢٦م/ ١٢٤١ ـ ١٢٤٢هـ، على يد السلطان محمود الثاني. وليحافظ زعماء السباهية وفرسانهم على امتيازاتهم، قاموا بالانضمام إلى النظام الجديد، وتبعاً لذلك كان على إقطاعيي الزعامت. أن يتنافسوا فيما بينهم في تقديم خدماتهم العسكرية للدولة، ولم يكن لهم مجال للتهرب من الإنضواء تحت لواء النظام الجديد للجندية. وإذا ماحصل وتهرب أحدهم من ذلك فإن إقطاعه كان ينتزع منه ليعاد توزيعه على أناس آخرين، بحسب رغبة السلطان، وذلك على قواعد التعاقد والالتزام. أما من كان ميتاً أو غائباً من مالكي الإقطاع دون أن يخلف ولداً فكان إقطاعه يخصص لأناس جدد، سنهم مابين ١٥ إلى ٤٠ سنة، وكان يفضل الشخص المقيم على الإقطاع. ولم يقم السلطان من ذلك التاريخ بتخصيص إقطاع الزعامت، وأصبح من كان من الإقطاعيين مريضاً أو مسناً أو مجروحاً بسبب الحرب يخصص له معاش تقاعدي.

وفي الحقيقة فإن القوانين الجديدة التي أصدرها السلطان محمود الثاني من أجل إنعاش القوى العسكرية للدولة العثمانية، كانت ذات مغزى هام من جهة أخرى بالنسبة للنظام الإقطاعي، حيث شكلت الضربة القاضية لهذا النظام الذي ساد لفترة طويلة من الزمن.

وطبقاً للتنظيمات الجديدة فإن ولاة دمشق، وعلى رأسهم صالح باشا، الذي كان في أصله صدراً أعظم في استانبول، ثم والي الدين باشا الذي كلف بمتابعة تنفيذ التنظيمات الجديدة في دمشق، قاموا بتكليف إقطاعيي القدس ونابلس بتقديم خدماتهم للحج، كما قام الوالي بتكليف العناصر الأخرى من الإقطاعيين بالخدمة العسكرية في النظام الجديد، وكلف

---

(١) انظر: قدامة، أحمد. معالم وأعلام في بلاد العرب. ج١. قسم ١ ـ كلمة أغريبوزي. ثم: العبد. تاريخه. ص١٥٠.

هؤلاء بمهام عسكرية من أجل السلطان . وأصدر السلطان أوامره إلى ولاة دمشق لتتبع مدى استجابة مالكي الإقطاع للنظام الجديد ، وتحرى مدى انسجام هؤلاء مع ماتريده استانبول من النظام الجديد[1] . وفي عهد ابراهيم باشا المصري توقفت إجراءات تطبيق النظام الجديد . وبقي الإقطاعيون على رأس إقطاعاتهم . لهذا قام ابراهيم باشا بتكليف هؤلاء بدفع أموال الميري للسلطة المصرية[2] .

١٠ ــ القوات الرديفة

وتشمل هذه القوات بصورة رئيسة على المجندين من القوى والقبائل البدوية . ومما تجدر ملاحظته ، أن الزعماء المحليين ، مثل المعنيين والشهابيين وآل سيفا وآل عساف وآل حرفوش وآل علم الدين والمتاولة والزيادنة وغيرهم ، اعتمدوا بالدرجة الأولى على دعم أسرهم وأبناء مذهبهم ومؤيديهم من الحزبيين القيسي واليمني ، ولكن مثل هذا التأييد لم يقو على مجابهة الجيوش النظامية . وأشير إلى قوات الدعم المحلية باسم العشير ، وإذا ماأسهمت منطقة بقواتها إلى جانب أمير ما ، عرفت هذه القوات باسم المنطقة التي خرجت منها ، مثل الشوافنة نسبة إلى الشوف . ولم يكن مثل هذه القوات لتتلقى مرتبات من الأمير الذي دعمته واقتصر عطاؤه لها على أعطيات مالية وعلنية لتكريمها ، وكانت تدعمه لأسباب أسروية أو دينية أو حزبية وغيرها . ولقد عمد الولاة العثمانيون إلى تجنيد القوات من بين الفلاحين وطالبوا سكان القرى بتقديم المؤونة والمرتبات لهم . وذكر أن والي دمشق سليمان باشا العظم أمر القرى المجاورة لدمشق بتقديم عشرة أنفار من كل قرية ، ليساهموا في إقامة النظام والأمن في المنطقة ، وذلك في صيف ١٧٤٣م بعد انقضاء موسم الحصاد[3] . وبعد ثلاثة أعوام وفي عهد أسعد باشا العظم وفي عام ١١٦٠هـ/١٧٤٦م عندما أراد مهاجمة جبل الدروز « كتب إلى حمص وحماة والمعرة والشام بأن يجردوا له الرجال وذلك من كل قرية خمسة عشر نفراً وعمل على أهلها كل واحد أجرته نصف قرش وأرسل فرض عليهم بعض أنفار[4] » كما حمل أهل دمشق السلاح في الحالات الطارئة للدفاع عن مدينتهم ، وحصل ذلك عندما زحف عليها محمد بك

---

1 - Koury. G.op.cit.PP.182.183.

(٢) انظر : رستم ، أسد . المصدر السابق ــ المجلد ٣ و ٤ /ص٢٢٢ .

(٣) انظر : ذكر هذه القوى في حوادث دمشق اليومية لأحمد البديري الحلاق . ص٤٢ .

(٤) المصدر السابق . ص٩٧ .

أبي الذهب وكذلك الأمير بشير الشهابي وابراهيم باشا المصري . ولقد لعب شباب دمشق والحرفيون دوراً بارزاً في حمل السلاح للدفاع عن المدينة ، ولعب رجال الدين دوراً في تحريض أبناء الشعب على القتال ضد مهاجمي دمشق إبان الحملات الأوربية على بلاد الشام . فعندما زحفت قوات نابليون بونابرت على فلسطين في سنة ١٢١٢هـ « اجتمعت أعيان البلد واعتمد رأيهم أن يعملوا ركبة من الشام ... وغالب أولاد البلد اعتمدت على المغازات في سبيل الله »[(١)] .

وكثيراً مالعب شباب الأحياء والحرفيون ، وهم أصحاب البأس ، دوراً هاماً في الدفاع عن بلدهم ، وكانوا يحملون السلاح بمعرفة الدولة . لأنها كانت مستضعفة في القرن التاسع عشر وغير قادرة على حماية السكان المحليين ... وكما حصل إبان ثورة دمشق ضد محمد سليم باشا ومقتله إثرها[(٢)] أو كما حصل في سنة ١٢٤٨هـ ، عندما تهيأت جميع حارات دمشق لمحاربة ابراهيم باشا المصري « فقامت أهل البلد جميعها بالسلاح الكامل ونظر الناس كل جوقة ألف ويعرضوا في البلد وكل حارة بحارتها تعرض وتدخل إلى السرايا حتى ينظر الوزير ويطمئن فبقوا على هذا الحال ثلاثة أيام إلى نهار الأربعاء رابع عشر محرم سنة ١٢٤٨ وصل ابراهيم باشا المصري وعساكره الظهر إلى سهل كوكب فطلعت أهالي البلد جميعها للمحاربة[(٣)] » .

وهناك قوات البدو ، التي لعبت دوراً إيجابياً وسلبياً ، وأخذت تسميات (عرب وأعراب وعربان) ، فقد سيطروا على المناطق في البادية ، وهددوا الحواضر ، وفرضوا الخوات على الفلاحين والقرى المتاخمة للبادية ، خاصة في المناطق الجنوبية من بلاد الشام . وهاجموا القوافل التجارية ، وفرضوا عليها أتاوات معينة ، ومن جهة أخرى وفروا الحماية لها مقابل مبالغ من المال . ومن القبائل العربية ماعملت في نقل وحراسة قافلة الحج ، واستخدم بعضهم ابراهيم باشا المصري في جيشه عندما احتل سورية وكلفهم بالتصدي للبدو .

ومن القوات التي لعبت دوراً هاماً في بلاد الشام ، المماليك الذين بلغ استخدامهم الذروة في عهد أحمد باشا الجزار ، الذي جمع بين ولايتي صيدا ودمشق ، حيث اصطنع جيشاً من المماليك ليدعم بهم سلطته . وبعد وفاته في ١٨٠٤م خلفه أحد مماليكه وهو سليمان

---

(١) العبد ، حسن آغا . ص٤٩ و ص٥٠ .

(٢) انظر : مجهول . مذكرات تاريخية . ص٢٣ و ص٢٦ و ص٣٦ و ص٣٧ .

(٣) انظر : مجهول . مذكرات تاريخية . ص٤٨ و ص٤٩ .

باشا في حكم ولاية صيدا . ولا علاقة لمماليك الجزار بالمماليك. الذين اشتهروا آنذاك في مصر أو في بغداد إلا بالاسم وطرق التجنيد والتدريب، وكانت كل كتلة منهم مستقلة عن الأخرى . ولكن مما يلفت الانتباه سيطرة هؤلاء المماليك الأغراب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر في كل من مصر وبلاد الشام والعراق ، مما يدل على ضعف السلطات العثمانية مما أتاح لهؤلاء السيطرة على تلك الأقطار[1] .

محاولات إصلاح الدولة العثمانية للهيئة العسكرية وأثر ذلك على دمشق

كانت أولى المحاولات لإصلاح أوجاق الإنكشارية وإقامة النظام الجديد على الأسس الأوربية العصرية في عهد السلطان سليم الثالث (١١٩٢ ـــ ١٢٠٢هـ/ ١٧٧٩ ـــ ١٧٨٧م)، حيث قام بإعلان النظام الجديد طبقاً للنظم الفرنسية وذلك مابين عامي (١٧٩٢ ـــ ١٧٩٣م/ ١٢٠٦ ـــ ١٢٠٧هـ) وبمساعدة من الحكومة الفرنسية ، إلا أنه جوبه بثورة الانكشارية في عام (١٨٠٥م/ ١٢١٩ ـــ ١٢٢٠هـ) ، الذين أجبروه على إلغاء النظام الجديد ، وقاموا بعزله في أيار سنة ١٨٠٧م ، حيث استصدروا فتوى من شيخ الإسلام بذلك ، وجاؤوا بالسلطان مصطفى الرابع إلى السلطة ، إلا أنه لم يستمر طويلاً حيث جوبه بثورة عنيفة عندما أراد تطبيق النظام الجديد ، وفقد السلطان مصطفى الرابع منصبه وحياته ليحل محله محمود الثاني (١٨٠٨ ـــ ١٨٣٩م/ ١٢٢٢ ـــ ١٢٤٤هـ). وقام هذا السلطان بتحاشي الوقوع في أخطاء السلطانين السابقين فيما يتعلق بالنظام الجديد وإلغاء أوجاق الانكشارية ، فقبل أن يلغي أوجاق الانكشارية قام بإعداد النظام الجديد وذلك ليمكنه من التصدي للإنكشارية فيما إذا ثارت ضده إذا ماأعلن إلغاء أوجاقها . وفي سنة ١٨٢٦م/ ١٢٤١ ـــ ١٢٤٢هـ أعلن إلغاء أوجاقها فثارت عليه كما توقع ، فتصدى لها في عدة معارك أطلق عليها اسم الوقائع الخيرية كما أطلق على قوات النظام الجديد اسم (الجيوش المنصورة المحمدية) .

ولقد قام بتدريب قوات النظام الجديد ضباط من إنكلترة[2] . أما فيما يتعلق بإلغاء أوجاق الانكشارية في دمشق ، فقد قامت السلطات العثمانية بتعيين الصدر الأعظم صالح

---

(١) انظر : رافق ، عبد الكريم . مجلة دراسات تاريخية . العدد الأول . ص٨٢ .

2 - Maoz. Moshe. op.cit. P.3.

باشا والياً عليها . وأرسل هذا الوالي متسلمه في سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٦ ــ ١٨٢٧م ، ولقد سبق له القيام بأعباء تنظيم « النظام الجديد » في العاصمة استانبول ، كما خطط لهذا النظام في دمشق على أن يرتكز في جميع قواته على التجنيد الإجباري للدماشقة ، وكان من الصعب تقدير ماسيلاقيه هذا الوالي من نجاح في تنفيذ مخططه في دمشق . وطبقاً لتقرير القنصل الروسي في دمشق والمؤرخ بتاريخ ١٨٢٧م إن هذا الوالي حاول عبثاً تطبيق ذلك واعتمد في التنفيذ على قواته الخاصة ، وضحى ببعض قواته في البداية بأن شكلوا نواة النظام الجديد ، كي لا يثير عليه شعب دمشق بتجنيد شبابها ، إلا أنه كان يدرك أن ذلك سوف يجزه إلى مجابهة مع أبناء دمشق ، قد لا تمكنه قواته من الصمود في وجهها ، خاصة وأن عناصر الانكشارية البرلية سوف تتضرر مصالحها وتهدد امتيازاتها في دمشق . ولم يستطع من جاء بعده أن يتم المهمة لأنه لم يتمكن من تأمين السلاح للجند الجديد[1] . وثار أوجاق الإنكشاريون في دمشق في سنة ١٨٣١م ضد والي دمشق محمد سليم باشا واعتبروه كصدر أعظم سابق ، مسؤولاً عن تنظيم الجيش في استانبول ، فحانت الفرصة لهم للانتقام منه في دمشق . متذرعين بفرض ضريبة الصليان لصالح هذا النظام الجديد . وفقد الوالي حياته إثر ذلك .

ومن جهة أخرى قامت الدولة العثمانية برفع الضرائب على الأراضي إلى أربعة أمثال ماكانت عليه في السابق ، لتأمين المال اللازم للنظام الجديد . ولم يفلح والي دمشق في جمع هذه الضرائب[2] ، كما لم يفلح من بعده محمد سليم باشا في فرض ضريبة الصليان على حوانيت وعقارات مدينة دمشق . وعندما دخل ابراهيم باشا المصري إلى دمشق قام باحتواء عدد كبير من صنوف الجند في الجيش المصري ، كما قام بإلغاء امتيازات جنود الانكشارية وغيرها . فلا غرابة إذا ماتحينت هذه القوى الفرصة للثورة ضد الحكم المصري . وفي سنة ١٨٣٣م عندما حاول مير لواء عمر بك المصري جمع الجمال من الأهلين لاستخدامها في نقل الجيش ، ثارت البرلية في حي الميدان ولكن ثورتها قمعت بمنتهى القسوة[3] . ثم وجهت

---

1 - Koury. George. op.cit.P.183.

(٢) انظر : مجهول ، مذكرات تاريخية . ص٨٥ و ص٨٦ . ثم : انظر : KOURY. OP.CIT. P184.

(٣) انظر : مشاقة ، ميخائيل . مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان . ص١٠٥ . ويذكر وليم بولك أن تعداد الجيش المصري في بلاد الشام كان يزيد على ٩٠ ألف رجل تحت السلاح وكان مسلحاً تسليحاً حديثاً واعتمد في تموينه محلياً مما أدى الى ارتفاع أسعار القمح في سورية . See: Opening of South Lebanon. P.169.

الضربة الثانية للقوى المحلية في دمشق بجمع السلاح من جميع حارات دمشق. وقد جمع « ٤٥٠٠ بارودة » إلا أن هذا العدد لم يرض ابراهيم باشا المصري فأمر « بأن يجمع من دمشق بارود قدر زلم الفرد والذي ماعنده بارود يلتزم يشتري بأغلى ثمن ويقدمها والذين عليهم العين طلب من كل فرد منهم عشرة بواريد حتى التم جميع البارود الذي في الشام[١] ». وشكل ذلك ضربة موجعة للقوى المحلية في دمشق. ولم يكتف ابراهيم باشا بذلك بل قام بفرض نظام التجنيد الإجباري على الدماشقة المسلمين دون أهل الذمة، حيث كان هؤلاء يدفعون مال الفردة. ويصف أحد كتاب الحكومة الدمشقيين عملية جمع عناصر التجنيد في دمشق بقوله: « يبادر يمسك النظام من العشرة واخد فصادف مسك النظام قبل حضور شريف باشا بيوم فصار في الشام شي مهول ومسكوا جملة من النصارى واليهود مع الإسلام لسبب أن اليهود كانوا يلبسوا الإسلام لفاتهم ويبرطلوا العسكر حتى ماينمسك الذي يكون اليهودي لبسه لفته فبلغ ذلك الحكم فنزل يوزباشي أسود اللون لعين المنظر صار ينبه على العسكر أنهم يمسكوا إسلام ونصارى ويهود وصار العسكر يدخلوا على البيوت وأيمن وجدوه وكان شب يمسكوه[٢] ». ويقول قنصل فرنسا آنئذ في دمشق في تقرير له مؤرخ في ١٥ كانون سنة ١٨٣٧م: « إن المصريين لم يكتفوا بالقبض على من يلاقونه في الطريق من الأفراد... بل كانوا يدخلون عنوة وحتى الحرملك في البيوت الإسلامية[٣] ». « ولم يراعوا في ذلك حرمة الكبير ولا الصغير فساقوا المثري قبل الفقير[٤] ». ورفض المصريون أخذ أموال البدل عن الخدمة الإجبارية، مما زاد في خنق الأهلين عليهم، فهرب العديد من أبناء دمشق إلى الريف والقرى والصحارى والواحات. كما تطالعنا سجلات محاكم دمشق لهذه الفترة بتزايد نسبة عدد الزوجات الدمشقيات اللواتي يطلبن الطلاق من القاضي أو نائبه لغياب أزواجهن عن دمشق في أماكن مجهولة، كما يجهلن وقت عودتهم. ومن جهة أخرى وتهربا من الجندية أجبر العديد من الآباء أبناءهم على التلوث بداء الزهري والأمراض التناسلية وخلافه من العلل التي تنهك الجسم وتقتل الحيوية فيه[٥]. ويصف هذه الحالة إخباري آخر عاش في هذه الفترة في اللاذقية

(١) انظر: مجهول. مذكرات تاريخية. ص١١٥ و ص١١٦.

(٢) المصدر السابق. ص١١٨.

(٣) كميد. ميشيل سليم. مجازفات اللادي استراستانهوب. ص٤٣ ص٤٤.

(٤) انظر: مشاقة، ميخائيل مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان. ص١١٦.

(٥) انظر: كميد، ميشيل سليم. مجازفات اللادي استراستانهوب. ص٣٨ و ص٤٣. ثم انظر على سبيل المثال: سجل القسمة العسكرية بدمشق. رقم ٣٣٦ / ١٢٥٠ ــ ١٢٥١هـ. ص١٥٣ و ص١٩٨.

وهو فتح الله بن أنطون الصايغ عملية تهرب الأهلين من التجنيد الإجباري « بتقليع العينين وقطع أصابع وتكسير أيادي شيء يقشعر الأبدان والتخباية تحت الأرض وفي المغاير المخفية وصارت الكبار تخبي أولادها في بيوت القناصل ومنهم يسفر أولادو خارج إيالة الحكم المصري مثل قبرص وكريد وأضاليا وبر الترك وإسلام وأزمير وغيرها » . وإذا ماوقع أحد المخبئين بيد السلطة المصرية أثناء البحث « يقوم الصياح والأصوات والولولات والضجيج والصراخ بالطرقات من أمهاتهم وأهاليهم تقشعر الأبدان ويغم القلب[1] » . ولم يكتف ابراهيم باشا بذلك بل أخذ العديد من أبناء الأعيان والزعماء والأغوات السابقين وأرباب المناصب ومن أرباب مناصب الشورى ومن العلماء والمشايخ وأكابر الإسلام رهائن لضمان عدم تعاونهم مع العثمانيين أو التمرد ، ويقول صاحب المقترب في حوادث الحضر والعرب « إن ذلك الرهن كي لا يخونوا عليه[2] » . ومع ذلك حاولت الدولة العثمانية بواسطة عملائها ، أن تتصل بالعديد من الزعماء ، كما اتصلت بالقوات التي انضمت إلى ابراهيم باشا ، لتترك الخدمة في جيشه ممنية إياها بإغراءات عديدة[3] . وبعد خروج الجيش المصري من سورية سنة ١٨٤٠ استمرت الدولة العثمانية بتطبيق النظام الجديد في دمشق وطبقت التجنيد الإجباري وهكذا اضمحل شأن أصناف الجند القديمة في دمشق وأصبح الجيش النظامي العثماني الجديد « الذراع الأيمن للسلطان[4] » .

---

(١) انظر : المقترب في حوادث الحضر والعرب . ص٨٠آ . ص٨٠ب / صورة للمخطوطة في مكتبتي الخاصة .

(٢) انظر المصدر السابق . ص٨١ .

(٣) انظر : رستم ، أسد . المصدر السابق . ص١٥٩ .

4 - Maoz. Moshe. op.cit. P.44.

ب ــ هيئة المحكومين

رغم أن فئات هيئة المحكومين كانت بصورة عامة هدفاً لمظالم الهيئة الحاكمة ، إلا أن هذه الفئات لم تشكل فيما بينها وحدة متماسكة ، كما لم تسكن في مراكز منعزلة عن الحاكمين . فنرى مثلاً أن جبال الشام وأطراف البادية . التي كانت في معظمها مناطق لجوء لعديد من الأقليات الدينية والمذهبية . قد استقرت فيها فئات الحاكمين والمحكومين على أسس عشائرية قبلية أو دينية مذهبية . وكنا نرى السكن مختلطاً بين الفئتين المذكورتين مع المحافظة فيه على الفروق الاجتماعية . أما وضع سكان أحياء مدينة دمشق وأرباضها فكان آنئذ في حالة مشابهة للحالة السابقة ، فأهل الذمة في دمشق كانوا يسكنون في أحياء خاصة بهم وضمن أسوارها ، ويقع الحي اليهودي في الزاوية الجنوبية الشرقية منها على حين أن النصارى بمذاهبهم المختلفة كانوا يقطنون غالباً في الأحياء المجاورة لليهودية ، وكانت أحياؤهم تقع في المنطقة الشمالية والشرقية من المدينة وقلة منهم كانت تقطن خارج أسوار المدينة في حي الميدان .

أما بقية أحياء دمشق سواء ماكان منها داخل الأسوار أو في الأرباض ، يسكنها المسلمون على اختلاف مذاهبهم وقومياتهم وأصولهم الإقليمية والطبقية . وعلى الرغم من ذلك فقد كان ثمة تمايز واضح في هذه الأحياء ، فبعضها ومنذ البداية سكن على أسس قبلية (عرب جنوب عرب شمال) ، أو على أسس عشائرية كحي الميدان وحي الشاغور ، أو على أسس

قومية كحي الصالحية وحي الميدان (أكراد). ووجدت بعض الأحياء وقفاً على أبناء بعض الأقاليم الشامية، أو بعض الأقاليم العربية، مثل حي السودان في دمشق الذي يقع في شمال المدينة خارج أسوارها، كما سكنت بعض الأحياء بالعناصر العسكرية مع أسرها من الأصناف المختلفة، كالأرباض التي تقع غرب القلعة وفي حي العقيبة وحي البحصة وسوق ساروجة والسنجقدار.

ومع ذلك بقيت الروابط الدينية هي أقوى الروابط الأخرى، في وقت سيطر على الأفئدة والعقول ظلام التعصب الديني مدعماً بالجهل. خاصة وأن الظروف التاريخية والخارجية المحيطة بالدولة العثمانية كانت تساعد على ذلك. فتركة الحروب الصليبية وعداء بعض الدول المسيحية الأوربية أسهما في ترسيخ روح التعصب وتأجيج نارها.

ومع ذلك كان استقرار العناصر الحاكمة والمحكومة لهذه الفئات في حي واحد، مع بقاء الفروق الاجتماعية بينهما. ومن من جهة أخرى برزت ظاهرة اجتماعية شملت طبقتي الحاكمين والمحكومين في مدينة دمشق على حد سواء، وتبدو في النفور من أبناء الريف، على الرغم من أننا نلاحظ بعض حالات المشاركة بين أبناء الريف والمدينة في الخصومات السياسية التي كانت تنشب بين الحين والآخر في دمشق، لطبيعة الروابط القبلية التي كانت تربطهما (أبناء الريف و المدينة) مع بعضهم البعض فمثلاً في عام ١١٧٠هـ «قامت أهل العمارة مع القابي قول ضد الانكشارية اليرلية وهاجمت الدرويشية وهجموا على حواصل الانكشارية الملانة أخشاب وأحرقوها وكانت تساوي عدة أكياس مال فقامت الانكشارية على أهل العمارة وشردت أهلها ونساءها وأولادها إلى الجامع الأموي وأحرقت أسواق هذه الحارة حتى صارت ساحة سماوية فاشتد الأمر على أهل العمارة من ظلم وعدوان الإنكشارية فأعانهم بالحمية الجاهلية أولاد الحقلة من الميدان ومعهم بعض رجال من الدروز[1]». وهكذا تغلبت العصبية على ماعداها من الروابط التي تربط أبناء الحقلة بأبناء الميدان «أبناء حي واحد من دمشق».

وعلى الرغم من وجود مصالح متبادلة بين أبناء الريف والمدينة، كالمزارعة وتربية المواشي أو حاجة الريف للعديد من الصناعات المدنية، إلا أنه كانت لكل مجتمع من هذين

(١) انظر: حوادث دمشق اليومية، ص٢٠٢.

المجتمعين سماته الاقتصادية والاجتماعية المتميزة ، .فمدينة دمشق شأن بقية المدن الأخرى كان اقتصادها أكثر تركيزاً بطبيعة التجمع والكثافة السكانية ، في حين لم يكن الريف المحيط بها في مثل هذا التركيز بل كان مشتتاً وانعكس ذلك على وضعه الاجتماعي وطبع كل مجتمع من هذين المجتمعين بصفات خاصة .

ونرصد هذا النفور بين بين مجتمعي المدينة والريف من خلال الوقائع التي يوردها مفتي دمشق الحنفي محمد خليل المرادي ، ففي النقاش الذي دار بين عبد الرحمن المنيني وفتح الله الداديخي حيث قال الأول للثاني : « كم ساعة بين داديخ وحلب فأجاب الثاني بالحال مقدار مابين قرية منين ودمشق فأفحمه وأراد أن أصلك كذلك مثلي قروي » كما يورد المرادي حادثة أخرى من هذا القبيل . إجابة المنيني المذكور لأحد تجار دمشق المشاهير ويعرف بابن الزرابيلي حيث سأله قائلاً : « مولانا متى خلعتم الزرابيل من أرجلكم قاصداً التنكيت عليه بأنه قروي فأجابه المنيني بالارتجال من حين تركتم صنعتها والاشتغال بها فأفحمه بالجواب[1] » . فإن دلت هذه الحوادث التي أوردها المرادي على شيء فإنما تدل على ازدراء ابن المدينة لابن الريف في تلك الفترة من التاريخ .

وعلى الرغم من وجود حالات من اللقاء المذهبي بين أبناء مدينة دمشق والريف فقد بقي ذلك أبعد من إقامة علاقات واسعة وروابط اجتماعية متينة بينهما ، وإن جرت بعض المحاولات لإقامة أية علاقة اجتماعية فقد قضى عليها (احتقار ابن المدينة للفلاح)[2] .

وساد شعور عام لدى أبناء ريف دمشق على أن أبناء المدينة هم مصدر معظم الظلم الذي كانوا يعانون منه وربما رسخت هذه القناعة إقامة أعضاء الهيئة الحاكمة وزبانيتها في المدينة .

ومن جهة أخرى ، فقد بقيت الفروق الاجتماعية مسيطرة على المجتمع الدمشقي إلى مجيء الزحوف المصرية ، حيث استطاعت أن تهز هذا البنيان الموروث منذ قرون عديدة هزاً عنيفاً . ولقد شكل العقد الزماني ، الذي حكم المصريون فيه دمشق وبلاد الشام ، نقطة بارزة في تاريخ بلاد الشام الحديث ، فقد تبدلت فيه طرق الحياة القديمة وبرزت فيه قوى جديدة ، ومطامح ومخاوف جديدة ، وأصاب التغيير فئات المجتمع وبدرجات متفاوتة ، لهذا اختل التوازن

---

(١) سلك الدرر . ج٣ . ص٢٧٦ . ترجمة فتح الله الداديخي .

(٢) انظر : جيب وباوون . المجتمع الإسلامي والغرب . ج٢ . ص١٣ .

المعهود بين البدو والحضر والقرويين وسكان المدن... الخ، فاندفع الحضر إلى السهول الداخلية وأجبر البدو على الاستقرار والتوقف عن غاراتهم على الحضر، وأصبح سكان المدن، بعد انقطاع، يمدون نشاطهم الزراعي إلى الريف والضواحي، ويشترون الأراضي أو يستأجرونها. ويقرضون المال واندمج الاقتصاد الريفي بتجارة المدينة، وقام الفرد المدني بتغيير زيه الموروث، وبقي الريفي أكثر عزلة وأقل احتكاكاً وتأثراً، وتمسك بطرقه القديمة في عالمه الصغير، وأزيحت السلطات القديمة أو كادت[1]. وذلك بتقويض أسس القيادة المحلية السابقة بانتزاع صلاحياتها وبوضعها بيد الموظفين المصريين الأقوياء، ثم قيامه بفرض التجنيد الإجباري، ونزعه السلاح من القوى التي كانت تعتمد عليها الطبقة الحاكمة في فرض نفوذها السياسي، بالإضافة إلى علمنة النظام القضائي، الذي أدى بدوره إلى حرمان هذه الفئة من الطبقة الحاكمة من مركزها المتسلط، كما لم تسمح السلطات المصرية للمحاكم الشرعية بالنظر إلا في القضايا الشرعية للأفراد أو التدخل في ملكية الأرض[2]. بالإضافة إلى تنظيم المصريين للمالية ووضعهم نظاماً جديداً للجباية ومعاملة الرعية أمام القانون بالتساوي، لا فرق بين ذمي أو مسلم، كل ذلك أثر إلى حد كبير على مركز الطبقة الحاكمة السابقة، وأنعش إلى حد ما الطبقة المحكومة. ويصف هذا الحال الدكتور ميخائيل مشاقة بقوله: «ابتسم وجه الضعيف للدولة المصرية لأنه شعر برفع حمل ثقيل كان يئن أنيناً محزناً تحته ولا مجير له منه وأصبح صوت المستضعفين المتقطع يبلغ آذان الحاكم ولو على مراحل عديدة بعد أن كان يذهب بالفضاء ويتلاشى[3]». وهكذا استبشرت أغلبية الشعب الدمشقي التي تمثل أوسع قاعدة في مجتمعها من المحكومين بالحكم المصري واستقبلوا ابراهيم باشا بفرح عظيم[4]. إلا أن المحكومين مالبثوا أن خاب أملهم من جراء العديد من الاجراءات التي اتخذتها الحكومة المصرية، وتسببت في تضييق أسباب الرزق، كاحتكارها لبيع الحرير وتحديدها لأسعار السوق، واحتكارها لبعض المنتجات وأخذ أبنائهم إلى الخدمة الإجبارية في الجيش المصري، بالإضافة لمصادرة الجمال والبغال وغيرها من الرواحل لنقل الجيش ومؤونته، واتخاذها لبعض بيوتها مأوى للجيش المصري وفرضهم لأنواع من الضرائب ورفع نسب

---

1 - See: Polk. William. op.cit. PP.213.214.

2 - Maoz. Moshe. op.cit.PP.14.15.

(٣) انظر: مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان. ص١١١.

4 - Douin. George. la. Mission du paron de boisle comte ouministre.

الضرائب السابقة ونزع السلاح منهم، فضاق فكر الناس وقصر عن استيعاب إجراءات السلطة المصرية في تحديث مجتمع دمشق وكانت أكثر الإجراءات إثارة لحنق هؤلاء مساواتهم بأهل الذمة وفرضهم التجنيد الإجباري. ورغم نفور الشعب الدمشقي من السلطة المصرية بسبب إجراءاتها تلك إلا أن إجراءاتها لم تذهب هدراً مع الزمن بل مهدت الطريق لتغييرات جذرية تبنتها فيما بعد السلطات العثمانية، التي استرجعت سلطتها على دمشق، وبرزت على المستوى الرسمي للدولة العثمانية في إصدارها التنظيمات الخيرية في عهد السلطان عبد المجيد، وذلك في أواخر رمضان عام ١٢٥٥هـ[1]. وتسارع تغلغل البضائع والرساميل الأوربية بعد سنة ١٨٤١م في الممتلكات العثمانية..

ولم تكن فئات الهيئة المحكومة على درجة واحدة من حيث دخلها المادي أو نفوذها السياسي أو اتساعها العددي، وحتى اضطهاد الهيئة الحاكمة عليها. بل اختلف وضع كل فئة عن الأخرى. وعلى ضوء ذلك فلنرصد تباعاً أهم هذه الفئات الاجتماعية التي تشكلت منها هيئة المحكومين في مدينة دمشق ونوردها بحسب أهميتها فيما يلي:

تجار دمشق

انضوى تجار دمشق في طوائف حرفية بحسب نوع التجارة التي مارسوها. وسبقت طوائفهم هذه في تنظيمها العهد العثماني، شأن معظم طوائف الحرف الأخرى، ولم يكن تجار دمشق على درجة واحدة من الثروة والغنى وحتى الاعتبار الاجتماعي، كما لم تكن التجارة وقفاً على أبناء مذهب ديني دون آخر في دمشق، بل كان منهم المسلمون واليهود والنصارى من الدماشقة أو من بعض الأقطار العربية أو من غير العرب المقيمين في دمشق كالفرس والأتراك والأرمن، وبعض الأوربيين في الفترة الأخيرة. وكان على التاجر أن يدفع رسماً عند تسجيله «المسلم من التجار إذا وصل رأسماله إلى ١٢٠٠ قرش والتاجر الذمي إلى ١٥٠٠ قرش[2]».

وغالباً ماكان لكل طائفة تجارية تنظيمها الخاص بها وشيخها المنتخب أو المعين، وكان

(١) انظر: رستم، أسد. المصدر السابق ــ المجلد ٤. ص٢٧١.

(٢) انظر: سجلات الوثائق التاريخية بدمشق ــ المجلد ٢ الوثيقة رقم ١٢٩ و ١٣٧ ثم الوثيقة رقم ١١٦ و ١٢١ /ص١٢٣ و ص١٤٢ و ص١٤٣ سنة ١٢٤٧هـ.

لطوائف التجارات المختلفة شيخ مشايخ يطلق عليه اسم (الشهبندر)، وكان له الحكم على جميع التجار وأهل الحرف والمتسببين في قضايا التجارة وقوانينها وله الأمر والنهي فيها [1].

وعلى الرغم من أن التجار بشكل عام قد صنفوا كفئة أساسية من هيئة المحكومين، إلا أننا نلاحظ عديداً من أبناء الفئة الحاكمة قد عملت في مجال التجارة وجنت أرباحاً طائلة. وكان يأتي على رأس هؤلاء بعض ولاة دمشق كأسعد باشا العظم الذي عمل مع شريكه يونس بتجارة الحج في مزيريب ١١٦٢هـ/١٧٤٨ ــ ١٧٤٩م [2]، وكذلك مفتي الأحناف حامد العمادي الذي عمل في تجارة القمح وقام باحتكاره في سنة ١١٦٢هـ/١٧٤٨ ــ ١٧٤٩م، ليحقق المرابح الطائلة من ذلك. ويعلق الإخباري أحمد البديري الحلاق على ذلك بقوله: (خزّن القمح مثل الأكابر والأعيان الذين لا يخافون الرحيم الرحمن) [3].

ومن جهة أخرى كان على التاجر الذي يريد ممارسة مهنة التجارة أو ممارسة صنعة يبيع منتجاتها في أحد أسواق دمشق، أن يحصل على امتياز من الدولة يطلق عليه اسم (الكدك). ولم يطلق هذا التعبير في مجال التجارة إلا بعد أن فقدت هذه الكلمة ارتباطها بأدوات إحدى الحرف [4]، ولقد كانت كلمة الكدك معروفة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وكانت تعني آنئذ حق استعمال وإيجار عقار معين بغرض انتاجي أو تجاري محدد. وكان عدد الكدكات مراقباً من قبل طوائف الحرف والتجار. كما كان مالكو الكدك من أعضاء النقابة التي تقوم بمراقبة ذلك. وكان الكدك يورث للأبناء من الآباء.

ونلاحظ ظهور النساء كمشتريات للكدك وبائعات أو وارثات له [5]. رغم أنه ليس لدينا مايثبت أن النساء قد مارست عمل التجارة في أسواق دمشق.

---

(١) انظر: الجبرتي، عبد الرحمن. عجائب الآثار في التراجم والأخبار ــ المجلد ٣. ص٤٠٢. العبد، حسن آغا. تاريخ حسن آغا العبد. ص١٣٨. الحاشية.

(٢) انظر: البديري. حوادث دمشق اليومية. ص١٣٣.

(٣) المصدر السابق. ص١٢٧.

(٤) انظر: جيب وباوون. المجتمع الإسلامي والغرب. ج١. ص١٣٢.

(٥) سجلات محاكم دمشق الشرعية ــ المجلد ٢١٣ /ص٢٠١ و ص٢٠٢ و ص٢٩٥. ويذكر محمد أمين عابدين أن الكدك هو مايبنيه المستأجر في حانوت الوقف ولا يحسب على الوقف فيقوم المستأجر بجمع لوازمه من عمارة وترميم وأغلاق ونحو ذلك ويبيعونه بثمن كثير فباعتبار ماينفعه المستأجر من هذا الثمن الكثير ــ

وكانت قيمة كدك الممتلكات التجارية في دمشق، أعلى من قيمة الأرض والبناء في أغلب الأحيان ولا سيما بالنسبة للدكاكين والمستودعات خاصة عندما كانت التجارة نشطة ومربحة.

وأطلق على موجودات الحوانيت والمخازن في الأسواق اسم الكدك. وكان شاغلو هذه الحوانيت والمخازن يدفعون سنوياً أجراً معيناً للدولة. وكان من حق هؤلاء بيع امتيازه أو التنازل عنه لأي فرد كفء ويتم ذلك في المحكمة الشرعية وأمام القاضي ويسجل في سجلاتها.

ولقد أدلت الانكشارية اليرلية بدلوها في تجارة دمشق، وكان انتزاع كدكاتها منها يسبب لها ضيقاً شديداً، ففي سنة ١١٥٥هـ/١٧٤٢ ــ ١٧٤٣م قام والي دمشق سليمان باشا العظم بمضايقة اليرلية في الميدان حيث أزال عنهم كدكاتهم ووجهها على غيرهم وأعطى أسماءهم للدلال[1] ليعلن الدلال بدوره على الملأ هذا المنع من ممارسة التجارة. ونرى أن الكدكات كانت تعني هنا الاذن أو السماح بممارسة التجارة أو الحرفة.

ومن جهة أخرى فقد كانت الغاية من إقامة التنظيمات الحرفية مراعاة الاحتساب والضوابط الأخلاقية في الأسعار، وعدم الغش ومراعاة الجودة في الإنتاج، والدفاع عن مصالح الحرفيين أيضاً، وكان المحتسب يقوم بمراقبة ذلك. ويسترعي انتباهنا في هذه الفترة غياب المحتسب المسؤول عن أسواق دمشق. وقام بمهامه القاضي وغيره من أفراد السلطة. ولم يظهر المحتسب إلا في العهد المصري. وسبب غياب المحتسب والاحتساب عن الأسواق يعود لفسخ الأجهزة الإدارية وضعف السلطة العامة في دمشق في هذه الفترة. الأمر الذي أدى إلى انتشار الفوضى وعدم تقيد التجار بالأسعار. وجلّ ماقامت به طائفتهم أن حاولت توفير الحماية لأعضائها وتوفير تدفق المرابح الكبيرة إلى جيوبهم، خاصة وأن بعض أبناء الهيئة الحاكمة قد عمل بالتجارة. فبدأ التجار يتلاعبون بالأسعار والأوزان والمقاييس، ولم يقو أبناء الشعب على ردعهم. وجلّ مااستطاعته العامة في دمشق أن تجمهرت في أكثر من مناسبة

ومايصرفه في المستقبل على أرض الوقف تكون أجرة المثل تلك الأجرة قليلة التي تدفعونها وقد تكون أصل عمارة الوقف من صاحب الكدك يأخذها منه الواقف ويعمرها بها ويجعلها للمستأجر ويؤجره بإجرة قليلة وهو المسمى بالخلو. انظر: رد المحتار على الدر المختار. ج٥. ص٢١.

(١) البديري. حوادث دمشق اليومية. ص١٩.

أمام الولاة أو القضاة وسارت في مواكب معينة لتشكو ظلامتها وإذا ماآنست من نفسها القوة ترجم القضاة بالحجارة وتقوم بمهاجمة المحكمة نفسها. ذلك لأن القضاة لم يقوموا بمهمة الاحتساب أو الضرب على يد التجار الذين كانوا يتلاعبون بقوت الشعب من خلال تلاعبهم بالأسعار والمقاييس والأوزان. فمثلاً قامت العامة في سنة ١١٥٦هـ بالهجوم على المحكمة فطردوا القاضي ونهبوا الأفران وسبب ذلك كثرة الغلاء والازدحام على الأفران[١].

كما قام الولاة العادلون والصدور العظام، الذين صادف مرورهم ارتفاع الأسعار في دمشق، بمهام المحتسب وذلك لكسب ود جنودهم والعامة في دمشق. فمثلاً في ١٢١٤هـ/١٧٩٩م تخفى الصدر الأعظم يوسف باشا، الذي كان في دمشق قائداً للحملة العثمانية ضد نابليون بونابرت «ونزل إلى الشام وصار للخلق وهمة فبسمر خبازين وبسمر سمبوسكاني[٢]». إلا أن ظاهرة الغلاء وارتفاع الأسعار بشكل عام في دمشق لم يكن التجار مسؤولين عنها فحسب بل لعبت في ذلك ظروف داخلية وخارجية على مستوى الامبراطورية العثمانية، ولم يكن البطش بالتجار والتنكيل بهم ليحل مشكلة اقتصادية عامة ومستعصية أدت بدورها إلى ارتفاع الأسعار.

وكان تعامل تجار دمشق مع زبائنهم يختلف من فرد إلى آخر، إلا أن بعض الأجانب الذين أقاموا في دمشق يصفونهم على أنهم مخادعون. ونسوق مثالاً على ذلك (بورتر) الذي أقام فيها في سنة ١٨٥٥م إذ يقول: «يجلس التجار مفتعلين الهدوء والوقار كالأمراء وسط مخازنهم وعندما يلمحون أحد الزبائن قادماً إليهم يجهزون أنفسهم مسبقاً لحلف الأيمان الغلاظ الكاذبة على أن أسعار كلفة سلعتهم أعلى مما طلبوه من الزبون، وقد يخسرون في بيعها، إذا ماكان الزبون افرنجياً فإنهم يطلبون منه خمسة أضعاف ثمنها الحقيقي في حين لو دفع هذا الزبون مثلين ونصف مما طلبه التاجر لباعه إياها مع قسمه له بأنه قد خسر فيها[٣]». كما لم تسلم السلع التجارية من الغش أحياناً، ويورد لنا المؤرخ الدمشقي محمد سعيد القاسمي الذي كتب عن ذلك في القرن التاسع عشر مايلي: (أن تاجر البزوهي أمتعة البيت من ثياب ونحوها غالب بضاعته مغشوشة، وصاحب هذه الحرفة لا يثري، لأنه لا يستعمل النصح في

(١) انظر: البديري. حوادث دمشق اليومية. ص٤٣.

(٢) انظر: العبد، حسن آغا. تاريخ حسن آغا العبد. ص٥٧.

3 - Porter. J.L. op.cit. VOL.1.P.50.

بيعه ، بل غالبهم يظن أن نفاق بضاعته يعم بالغش والكذب والايمان الفاجرة وغير ذلك من الخداع ، فيصير آخر أمره إلى ذهاب رأسماله »[1].

وكان من تجار دمشق من عمل في تجارة الجملة أو المفرق ومنهم من اختص بتجارة سلعة معينة كتجار الأقمشة والقطن والصوف والحرير والبز ، وهناك مَنْ تاجر بالتوابل والعطورات أو الحبوب والدقيق ، وهناك مَنْ تاجر في الأسواق الأسبوعية أو الفصلية أو السنوية ، كتجار قافلة الحج فكان منهم من يبيع للحجاج في المرجة وداخل أسواق دمشق أو على طريق الحج كمزيريب ومدائن صالح وبعض قلاع طريق الحج وفي الديار المقدسة نفسها . كما كان من التجار من هو صانع للسلعة التي يبيعها . وكان بعض التجار محط أطماع الولاة للاستدانة والابتزاز . ومع ذلك كان حال التجار أفضل من الفلاحين حيث كان الأخيرون موضع ابتزاز السلطة الحاكمة في معظم الأحيان[2]. ولقد وفر الحماية للتجار دخول العديد من عناصر الهيئة الحاكمة تحت لواء التجارة . كالانكشارية اليرلية والولاة وبعض القضاة والمفتين .

ورغم ماكانت تعانيه مدن بلاد الشام من الناحية الاقتصادية في تلك الفترة ، إلا أن دمشق بقيت في وضع أفضل من بقية تلك المدن . حيث استمرت ميناءاً داخلياً لقوافل تجارة فارس والهند[3].

وكانت بضائع هذه البلدان تشكل جانباً هاماً من قافلة بغداد ، التي أصبحت تتجه إلى دمشق بدلاً من مدينة حلب ، نتيجة لانهيار تجارة حلب بفعل عوامل عدة أهمها : تدهور العلاقات الفرنسية العثمانية بفعل غزو نابليون لمصر ، وبالتالي لسوء معاملة الفرنسيين في حلب ، الذين كانوا يسيطرون على جانب هام من تجارتها الخارجية ، ثم تزايد الفوضى في تلك المدينة نتيجة للصراع الدموي بين الانكشارية والأشراف ، وانعكاس ذلك بشكل سلبي على تجارتها واقتصادها ، ثم تعرض هذه المدينة للأوبئة والطواعين . ومثل ذروة المصائب الاقتصادية التي أصابتها الزلزال الذي ضربها سنة ١٨٢٢م ، حيث دمر قسماً كبيراً من أسواقها . كل ذلك جعل مدينة دمشق بديلة عنها ودخلت في ارتباط تجاري مباشر مع بغداد[4]. كما دخلت

---

(١) انظر : قاموس الصناعات الشامية . ج١ ص٤٣ .

2 - Volney. Voyage en egypte et en Syrie. P.381.

3 - Porter. op.cit. VOL.1.PP.147.148.

(٤) انظر : الحسني ، علي . تاريخ سورية الاقتصادي . ص١٧٢ . ثم كرد علي ، محمد . خطط الشام . ج٤ . ص٢٧٠ .

دمشق في تجارتها الخارجية مع أرمينيا ، هذا بالإضافة إلى تجارة قافلة الحج التي كانت تهتم بها بشكل خاص الدولة العثمانية لأنها تحقق سمعة دينية جيدة .

وفي نهاية القرن الثامن عشر كان في دمشق قوافل منتظمة تربطها بالمدن الساحلية والداخلية . وكانت تجارتها مع المدن الساحلية يسيطر عليها التجار الفرنسيون والإغريق والأرمن ، وأحياناً اليهود ، ونادراً مانرى في هذه المدن الساحلية تجاراً مسلمين يقومون بالتجارة مع أوربا ، ذلك لأن العثمانيين فرضوا ضريبة المكوس على التجار الأتراك ، وكانت مرتفعة تتراوح مابين ٧ ـــ ١٠٪ . على حين لم يفرضوا على التجار الإفرنج وعلى حماياتهم (براءتلية) من السوريين أكثر من ٣٪ . ناهيك عن أن هؤلاء (الحمايات) كانوا إذا مانشب خلاف تجاري بينهم وبين أي طرف آخر كانت تنظر في أمرهم محاكم قناصلهم[1] . ومن جهة أخرى لم يكن في دمشق إلا قلة من التجار الأوربيين . وكان يأتي على رأسهم الفرنسيون . وكان هناك تاجر واحد إنكليزي وهو (المستر روبرت وود) ، وكان ربحه لا يتجاوز ٧٪ . ولم يعامله الدمشقيون معاملة حسنة[2] .

وبقي الحال كذلك إلى دخول ابراهيم باشا المصري إلى دمشق ، حيث تغير الحال بعد ذلك كثيراً فتدفق العديد من التجار الأوربيين إليها بمعية قناصلهم . وأنشئت في دمشق محكمة تجارية للبت في الخصومات بين التجار . وحلت بذلك محل المحاكم الشرعية العادية .

كانت القضية تحال إلى الاستانة الطرفان المتخاصمان من رعايا الدولة العثمانية ، وكان المبلغ لا يتجاوز ٤٠٠ قرش ، أو إذا كان أحد المتخاصمين من رعايا إحدى الدول الأجنبية ودولته داخلة في معاهدة تجارية مع العثمانيين وكان المبلغ يربو على ٤٠٠ قرش ، وينظر فيها بإشراف الصدر الأعظم الذي يُنيبُ عنه شهبندر التجار في الاستانة . وكان شهبندر دمشق يحاول فض النزاع قبل إحالتها إلى استانبول .

---

1 - Volney.op.cit.P.382.

2 - Douin .G. op.cit. Troisieme partie.P.256.

ويذكر دوان أن ميناء صيدا بقي الميناء الرئيس لمدينة دمشق حتى وصول الحملة الفرنسية إلى فلسطين ولم تكن بيروت ذات أهمية في تجارة دمشق لقلة سكانها وقلة مستودعاتها ، وخصوصاً طريقها عبر الجبل الذي كان محفوفاً بالمخاطر ، إلا أن أهميتها زادت في ظل الحكم المصري وأصبحت مركز الاستيراد الرئيسي ، وارتفع وزن حمولة مايصلها من السلع والبضائع من ٥ر٥ مليون طن إلى ١١ مليون طن سنوياً . ولم تفقد صيدا أهميتها في هذه الفترة بالنسبة لدمشق نتيجة لما أدخله المصريون من تحسينات . انظر : DOUIN. Ibid. P.258.

ولقد تضاعفت أرباح مدينة دمشق من التجارة الخارجية، نتيجة لبيعها سلعاً آستيوية أكثر من بيعها سلعاً أوربية واستخدمت دمشق سنة ١٨٢٥م في نقل البضائع التجارية ٥٣٣٣٦ جمل و٢٢٨٧ بغل. والجدول التالي يوضح لنا حجم تجارة دمشق الخارجية وعدد القوافل وعدد الحيوانات المستخدمة فيها. وأثمان السلع التجارية المحمولة إليها :

المدينة	القافلة	الجمال	البغال	الثمن بالفرنكات	
بغداد	١	٣٤٤٠	—	٨٫٨٧٠٫٠٠٠	فرنك
مكة	١	٣٢٠	—	٢٫٨١٠٫٠٠٠	فرنك
القسطنطينية	٣	—	٢٦٤	٢٫٤٣٧٫٠٠٠	فرنك
أرزروم	١	—	١٢٠	٧٧٠٫٠٠٠	فرنك
أزمير	٣	—	١٤٨	٦٤١٫٠٠٠	فرنك

تجارة دمشق مع المناطق الداخلية والساحلية

المدينة	القافلة	الجمال	البغال	الثمن بالفرنكات	
حلب	١١	٤٧٨	٣٠٣	٥١٠٫٠٠٠	فرنك
نابلس	١٢	٥١٥	٤٢	٤٣٢٫٠٠٠	فرنك
بيروت	٥١	٥١٤	٩٨٦	٩٩١٫٠٠٠	فرنك
صيدا	١٨	٥١٤	١٦٩	٢٣٢٫٠٠٠	فرنك
طرابلس	٤	٥١٤	٦١	١٥٠٫٠٠٠	فرنك
عكا	٦	٥١٤	٦٩	٣٦٠٫٠٠٠	فرنك
صور	٥	—	٦٣	٧٫٣٠٠	فرنك
المجموع العام/ ١٢٤	٥١٢٤٦	٥٫٤٢٦	٢٫٢٣١	١٨٫٥٢٣٫٣٠٠	فرنك[1]

ورغم الحذر في قبول هذه الأرقام، إلا أنها بشكل عام تعطينا فكرة عن حجم تجارة دمشق الخارجية والداخلية في تلك الفترة. والملاحظ هنا ازدياد تجارة بغداد مع دمشق، حيث أرسلت في عام ١٨٢٦م ثلاث قوافل مؤلفة من ٤٧٤٤ جملا. قدرت قيمة حمولتها بـ

1 - Douin.G. op.cit. Troisieme partie. P.254.

/ ۷۰۰۰ر۱۰ / فرنك. وقبل الاحتلال المصري لدمشق اهتم الانكليز بالتجارة في بلاد الشام، فطلبوا من الباب العالي إقامة قنصلية لهم في دمشق، في الوقت الذي لم يكن لدول أوربا من قنصل فيها سوى وكيل قنصل لفرنسا. وبدخول المصريين رفع الحظر عن الممثلين والقناصل الأوربيين وإقامتهم في دمشق[1]. وقام ابراهيم باشا المصري بتشجيع إقامة الأجانب، وتنشيط تجارتهم، فيها حيث خفض الرسوم على بضائعهم، وكان مايدفعونه من رسوم دون مايدفعه تجار دمشق أنفسهم، مما دفع بالآخرين للحصول على حماية القناصل الأجانب فيها للتهرب من دفع الضرائب والحصول على مايمتاز به الأجانب[2]. وأدخل الحكم المصري تحسينات عدة على وسائل المواصلات والنقل والموانئ، وتدخل محمد علي باشا بنفسه في شؤون التجارة الأجنبية، خاصة فيما يتعلق بالتجارة الفرنسية ببلاد الشام، التي مالبثت أن تطورت فيما بعد[3].

والإسهام الآخر في تنشيط التجارة الذي قام به ابراهيم باشا هو توفير الحماية للمال والأرواح للناس جميعاً، مما دفع بالتجار لإظهار أموالهم التي كانت مخبأة في العهد العثماني، وذلك خوفاً من البلص والسلب والتعدي[4] فوفر للسوق سيولة نقدية وأسهمت في تنشيط حركة التجارة وقام الحكم المصري بإعادة المحتسب إلى الأسواق التي كان غائباً عنها منذ مدة طويلة، وعمل إلى جانب المحتسب مندوب من التجار، ولتسعير السلع التجارية ومراقبة الأسواق، وكان التكليف بهذه المهمة من قبل المجلس الإستشاري. واشترط الحكم المصري بالمحتسب أن يكون أخلاقياً وديّناً. كما قام المصريون بترميم العديد من الدكاكين لاستخدامها في التجارة[5].

وبلغ عدد المؤسسات التجارية في دمشق سنة ١٨٣٨م (٦٦ مؤسسة تجارية إسلامية)، دخلت في تجارتها مع الخارج، وقدر رأسمالها مابين (٢٠ ـــ ٢٥ مليون قرش)، ومن بين أصحاب هذه المؤسسات التجارية ثمانية تجار رأس مال كل واحد منهم مليون

1 - Ibid. PP.255.227.261.

2 - Bowring. John. reporton the commercial statistics of Syria. part.1.P.94.

3 - Douin. opcit. PP.253.254.

(٤) انظر: الصايغ، فتح الله. المقترب في حوادث الحضر والعرب. ص١٧٧.

(٥) انظر: رستم، أسد. المصدر السابق ـــ المجلد ٣ ـــ ٤. ص١٨٥ و ص١٩٣ و ص١٩٥.

قرش. وأبرز هؤلاء التجار عبد الرحمن هاشم ومحمود آغا البغدادي اللذان دخلا في تجارتهما الخارجية مع بغداد، وكان رأسمالهما مابين (٥ر١ إلى ١٢ مليون قرش)[1].

وفي سنة ١٢٤٥ ــ ١٢٤٧هـ/١٨٢٩ ــ ١٨٣٢م كان من تجار دمشق البارزين مع الخارج كل من: الحاج محمد صالح صواف زادة الذي كان شهبندر التجار[2]، ثم السيد مصطفى السمان الذي كان مقيماً في الاستانة وعين له وكيلاً في خان الزعفران في دمشق علي زاهدة[3]، ثم مصطفى الادلبي وعبد الرحمن بايزيد الحلبي الذي أقام في خان الحماصنة [4]، والسيد محمد طاهر الحريري الذي أقام في الاستانة وكان وكيلاً عنه في خان الجمرك السيد محمد الادلبي[5]، ثم أحمد قزيها الذي أقام في خان السفرجلاني[6] وسليمان فارحي سيف[7]، ثم حنا جبرا عنحوري الذي أقام في خان العامود[8]، ومحمد نجيب العقاد الذي كان مقيماً في خان المرادنة[9]، ومحمد قصاب حسن في خان الزعفران[10]، والحاج محمد سبانو ولقد عين وكيلاً عنه السيد طالب غبرة[11]، ثم سليم بن سان كرمونة الذي أقام في خان النجمة في الاستانة وكان وكيلاً عنه في دمشق أبراهام بن عبد الله[12]، ثم الحاج بكر قباقيبي الذي أقام في خان اللاز بالأستانة وكان وكيلاً عنه الشيخ عباس سليق وأقام الأخير في خان الزيت[13]. والسيد شاكر بلال الذي أقام في خان الزعفران[14]، والسيد عبد الرحمن

---

1 - Bowring. john. opcit. part.1. P.94.

(٢) انظر: سجلات الوثائق التاريخية في المتحف الوطني بدمشق ــ المجلد ٢ الوثيقة ٥٤/ص٥٩ و ص٦٠ ص٦١.

(٣) المصدر السابق ــ الوثيقة رقم ٥٨/ص٦٤.

(٤) المصدر السابق ــ الوثيقة رقم ٨٩/ص٩٠ ص٩١.

(٥) المصدر السابق ــ الوثيقة رقم ٩٠/ص٩٠ ص٩١ ص٩٤.

(٦) المصدر السابق ــ الوثيقة رقم ٩١/ص٩٥.

(٧) المصدر السابق الوثيقة رقم ٩٧/ص١٠١ و ص١٠٣. ثم الوثيقة رقم ١١٥/ص١١٦ و ص١٢٣.

(٨) المصدر السابق ــ الوثيقة رقم ٩٩/ص١٠٤ و ص١٠٦.

(٩) المصدر السابق ــ الوثيقة رقم ١٥٢/ص١٤٩ ص١٥٠ ثم الوثيقة رقم ١٠٧/ص١١٢.

(١٠) المصدر السابق ــ الوثيقة رقم ١٣٥/ص١٥٠ و ص١٥١ و ص١٥٢.

(١١) المصدر السابق ــ الوثيقة رقم ١٥٥/ص١٥٣ عام ١٢٤٧هـ.

(١٢) المصدر السابق ــ الوثيقة رقم ١٤٣/ص١٤٢ عام ١٢٤٧هـ.

(١٣) المصدر السابق ــ الوثيقة رقم ١٢٧/ص١٢٨ لعام ١٢٤٦هـ.

(١٤) المصدر السابق ــ الوثيقة رقم ١٢٨/ص١٢٩ و ص٣١ و ص١٣١.

خانجي الذي أقام في خان الزعفران[1] أيضاً . والحاج محمد القوتلي وكان وكيله في دمشق أحمد العريسي وأقام الأول في بيروت[2] .

أما الفئة الثانية من التجار فكانت أقل غنى من الفئة السابقة ودخلت في تجارتها مع القسطنطينية وأزمير والقاهرة والاسكندرية ، وبلغ عدد هذه البيوت عشرين بيتاً تجارياً ، ودخل بعضهم في تجارته مع الحجاز (مكة والمدينة) ومع القدس ونابلس ، ولكنهم كانوا قلة ولقد امتد تجار دمشق في تجارتهم إلى جزر الهند الشرقية[3] .

ولم يكن هؤلاء التجار الكبار المسلمون دمشقيين فحسب بل كانوا من استانبول أو بغداد أو غيرها . فمثلاً سليم آغا بن السقا أميني الذي كان تاجراً مشهوراً في دمشق عام ١٨٣٠م ، وكذلك جاسم آغا العقيلي البغدادي الذي ضمن ضريبة الصليان من الدولة العثمانية عندما حاولت فرضها على الدماشقة على يد والي دمشق محمد سليم باشا . وفقد هذا التاجر حياته في الصالحية من دمشق على يد البرلية الثائرة[4].

أما تجار دمشق المسيحيون فقد بلغ عدد بيوتهم التجارية البارزة / ٢٩ / بيتاً . وبلغ رأسمال هؤلاء التجار مابين (٤ر٥ ـــ ٥ر٥) مليون قرش . وكان أغناهم على الإطلاق (حنا عنحوري) حيث بلغ رأسماله الشخصي مابين (١ر٥ ـــ ٢) مليون قرش وقد دخل في تجارته مع انكلترة وفرنسا وإيطاليا ، وعمل أفراد أسرته بدورهم في تجارة دمشق الداخلية وكانوا أغنى تجار النصارى فيها على الإطلاق .

أما تجار دمشق اليهود فكانوا أغنى تجارها على الإطلاق على اختلاف مذاهبهم . ولقد بلغ عدد بيوتهم التجارية الشهيرة ٢٤ بيتاً ، وبلغ مجموع رأسمالهم مابين (١٨ ـــ ٢٦ مليون قرش) ، وكان المعدل الوسطي لرأسمال كل تاجر منهم يتراوح مابين (٦٠٠ ـــ ٧٠٠) ليرة ذهبية استرلينية . وكان من بينهم تسعة تجار ، رأس مال كل واحد منهم مابين مليون ومليون ونصف من القروش ، وكان لأكبر بيوتهم التجارية علاقة قوية مع إنكلترة[5].

---

(١) المصدر السابق ـــ الوثيقة رقم ١٣٠ / ص١٣٠ و ص١٣٣ لعام ١٢٤٧هـ .

(٢) المصدر السابق الوثيقة رقم ١٤٨ و ١٤٧ لعام ١٢٤٧هـ ..

3 - Douin.G. opcit. PP.267-270.

(٤) انظر : مجهول . مذكرات تاريخية . ص١٧ و ص١٨ و ص٢٠ .

5 - Bowring, John. op.cit.part.1.P.94.

أما قوافل التجارة فكانت تستخدم في نقلها الجمال والبغال في الغالب. وكانت تفضل الجمال في المناطق الصحراوية أما البغال فكانت تستخدم في المناطق الوعرة. وكان يقود القافلة المكارى الخبير بالطرقات والأماكن الآمنة منها، وأماكن الاستراحات ومصادر المياه خاصة في البوادي والصحارى. وكانت تقدم هذه القوافل العطايا والهدايا للبدو لضمان سلامتها. كما أدخل البدو أنفسهم في عملية النقل باستخدام جمالهم أو في حماية القافلة أو في إرشادها. ومع ذلك فقد تعرضت بعض قوافل دمشق التجارية لاعتداء البدو، ففي عام ١١٥٦هـ/١٧٤٤م «أخذ العرب قافلة بغداد وكان بها من الأموال ما لا يحصى بقلم ومن جملتها هدية وافية من حضرة سليمان باشا والي الشام إلى أحمد باشا ابن حسين باشا والي بغداد»[1]. وتعرضت أيضاً هذه القافلة للنهب على يد البدو في ١١٨٧هـ/١٧٧٢م، (وكان بها أرزاق غير محصية. كما نهبت قافلة مكة وأتهمت بذلك قبائل عنزة. وصار من جراء ذلك وقوف حال وذل في الشام).[2].

ولقد شارك البدو في تزويد قوافل التجارة بالابل عدد من المكارية الدماشقة، فكان الواحد منهم يملك مابين (٥ ــ ١٠) من الابل والدواب الأخرى يؤجرها للتجار والبوايكية والخاناتية[3].

ولقد أرسل بعض تجار دمشق عبيدهم ومماليكهم كمرافقين لبضائعهم ضمن هذه القوافل. وكان هؤلاء مسلحين بالأسلحة المختلفة للدفاع عنها، فيما إذا دوهمت من قطاع الطرق أو البدو.

وكان سفر المكارية بمواعيد منتظمة. وكان بعض المسافرين العاديين بين دمشق وغيرها من المدن يستغلون القافلة المنطلقة منها إلى هذه المدن ليسيروا ضمنها حفاظاً على مالهم وحالهم من الأخطار التي قد يتعرضون لها فيما لو سافروا فرادى أو قلة. وكان المكارية يتحكمون بدقة في خط سير القوافل واستراحتها، خاصة في المناطق التي تقع على أطراف البادية أو في المناطق الجبلية الوعرة. وكان على الجميع أن ينصاعوا لاوامر المكاري، حتى برز في دمشق مثل يقول: (هي ليلة يامكاري) وهذا المثل يضرب على الصبر على المكارة. كما

(١) انظر: البديري. حوادث دمشق اليومية. ص٤٤.
(٢) انظر: الدمشقي، ميخائيل بريك. تاريخ الشام. ص١٠١.
(٣) انظر: القاسمي، محمد سعيد. قاموس الصناعات الشامية. ج٢، ص٤٦٦.

كان بعض التجار الدماشقة يسافرون بصحبة بضائعهم المصدرة، أو يسافرون إلى مصادر إنتاج البضائع التي يريدون استيرادها، وذلك لشرائها بأثمان مناسبة من جهة، وليحافظوا عليها إبان نقلها إلى دمشق من التلف من جهة أخرى، فيحققوا بذلك مرابح كبيرة[1]، إلا أن بعضها كان يذهب إلى جيوب الحكام المحليين. وكان هؤلاء يبتزون التجار عند كل سانحة وبارحة فمثلاً في عهد الجزار في سنة ١٢١٨هـ/١٧٩٦ ـــ ١٧٩٧م قام زبانية من جنود السكبان والدالاتية باعتقال كبار تجار دمشق وفرضوا عليهم أموالاً كثيرة، وكان من بين التجار محمد الصواف وأمين القباقبي وابن شحادة، كما أرسل بعضهم إلى عكا، ولم يخل سبيلهم إلا بعد أن دفعوا مافرض عليهم من المبالغ الضخمة. وفرض على التجار في دمشق تجهيز قافلة الحج الشامي، وتوفير المال اللازم لها عندما تحدث الإضطرابات السياسية أو تسوء المواسم الزراعيـة. فمثلاً والي دمشق ولي الديـــن باشا فرض على تجار دمشق / ١٠٠,٠٠٠ / قرش لهذه الغاية، حيث عجزت مواسم فلسطين عن تموين وتمويل القافلة لسوئها في ذلك العام[2].

وعلى الرغم من هذه الظواهر السلبية بالنسبة لتجار دمشق فإن أوضاعهم كانت ممتازة رغم ماأحاط بدمشق من ظروف سياسية واقتصادية سيئة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. ولقد برزت بمجيء الحكم المصري إلى دمشق في سنة ١٨٣١م. وعلى امتداد عقد من الزمن حقائق اقتصادية عميقة وهامة أثرت بدورها على البنى الاجتماعية في دمشق وبلاد الشام.

قامت السلطات المصرية بتشجيع الزراعة إلا أنها زراعات مخصصة سلعها للتجارة، كالزيتون والحرير والقطن، وقامت باحتكار تجارتها لدعم الإقتصاد المصري، وقيدت نشاط التجار الأجانب الذين أنشأوا سوقاً للمحاصيل خصوصية. وأنشأ الجيش المصري سوقاً خاصة وضخمة للقمح والثياب والخشب لسد حاجته. فأسهم ذلك في النشاط التجاري وزاد من التخصص من جهة أخرى.

ونتج عن هذا أن اهتم المزارعون بانتاج سلع زراعية فاضت عن حاجة الاستهلاك المحلي

---

(١) انظر: فولني، نقلاً عن السيوفي، حبيب. سورية ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. ج٢ ص٨٣ و ص٩٤.

2 - See: Koury. George. opcit. P.180.

واحتاجت لسوق خارجية لتسويقها، واضطر المزارعون أن يعتمدوا في انتاجهم على صنف واحد مخالفين بذلك مااعتادوه قبل الفتح المصري من زراعة مايكفيهم ذاتياً من المنتجات، وأدى ذلك إلى شرائهم السلع الغربية (الأوربية) لسد حاجتهم من السلع الأخرى، كما فعلت مصر نفسها. ومارس الأوربيون ضغوطاً كبيرة للحصول على تسهيلات تجارية لبضائعهم، خاصة وأن هذه الفترة شاهدت توسعاً كبيراً في التجارة الانكليزية. ووصلت المنافسة في منسوجات مانشستر وبرمنغهام للمنسوجات السورية ذروتها. ولم تقو الأخيرة على الصمود فانهارت أمام ضرباتها القوية. كما لم تستطع سورية أن تنتج إلا القليل مما تريده أوربا أو تقدم سلعاً أجود من السلع الأوربية.

وقام رأس المال الأوربي بتأليل غزل الحرير المحلي ليصلح للصناعة الأوربية عند تصديره. وأجبر السوريون على الاستيراد بالنقد بدلاً من المقايضة، كما كان يجري في السابق[1]، خاصة مع الانكليز. وأدى ذلك إلى هجرة المعادن الثمينة من دمشق وبلاد الشام والدولة العثمانية.

وأدى ذلك إلى تضخم نقدي بدخول المعادن الخسيسة إلى النقود المسكوكة، مما نتج عنه ارتفاع كبير في الأسعار.

واستطاع التجار الأوربيون مع عملائهم، بعد كسرهم القيود المفروضة[2] على تجارتهم، من السيطرة على التجارة في سورية، وتوقف تجار دمشق عن التعامل مع الشرق تقريباً لانعكاس حركة التجارة (من الساحل إلى الداخل). وبقيت مشاغل وأنوال الحرفيين تنتج بعض السلع والأنسجة لسد حاجة أبناء الريف بأدواتهم البسيطة الموروثة عن السلف. وبقيت بعض الأقمشة تحاك وتخاط في القرى نفسها للاستعمال المحلي. إلا أن الثياب الفلاحية الثمينة التي تلبس في المناسبات الهامة كانت تشترى من مراكز المقاطعات أو المدن

1 - See: Polk. William. opcit. PP. 161. 223.

(٢) يقول الدكتور عبد الكريم رافق: لقد استاءت الدول الأوربية وخاصة بريطانيا من القيود التي فرضها ابراهيم باشا في بلاد الشام على التجارة الخارجية وكذلك من إعادته نظام احتكار الموارد الذي اتبعه كما في مصر وفرضه الأسعار التي يريدها. وبيعه السلع لمن يحب خاصة وأن نشاط الزراعة في بلاد الشام أثر الاستقرار الذي حققه المصريون في أول عهدهم قد زاد من الإنتاج وبالتالي رسمته التجار الأجانب في المتاجر مع بلاد الشام واضطرت شدة احتجاج الدول الغربية وخاصة الانكليز محمد علي إلى إلغاء الاحتكار في سنة ١٨٣٦م وفي سنة ١٨٣٨م وقعت بريطانيا معاهدة تجارية مع السلطان ولكن محمد علي رفض تطبيقها في المناطق التي يسيطر عليها مما زاد في عداء الانكليز له. انظر: العرب والعثمانيون. ص٤٠٩.

المجاورة[1]. ولقد انصب اهتمام صناعة النسيج البريطاني على حياكة الأقمشة الرمادية التي تخاط منها الثياب الوطنية الطويلة.

وبرز نتيجة لذلك، تجار جدد، تعاملوا مع السلع الأوربية والقناصل، وكان على رأس هؤلاء تجار مسيحيون وغيرهم، وزاد ذلك في ثرائهم في حين وقع تجار السلع الشرقية السابقون في عجز، ونقلوا في الفترة اللاحقة للحكم المصري، إلى مجالات اقتصادية أخرى ليحافظوا بذلك على سوية دخولهم المرتفعة، فزادوا من شرائهم للأراضي، وأقرضوا الفلاحين المحتاجين الأموال بالفائدة[٢]. وقام بعضهم بالاتجار بالسلع الأوربية. وحتى البدو الذين كانوا يلعبون دوراً اقتصادياً هاماً في نقل وحماية قوافل التجارة بغداد والشرق، بدأوا يلعبون دوراً مماثلاً في نقل التجارة الأوربية بشكل معكوس ويقول بولك: «هناك مجموعات قبلية صحراوية يعتقد أنها تعد حوالي / ٢٠٠ / ألف رجل عاشت على البضائع البريطانية»[٣]. ومهما يكن من أمر فإن الفترة التي أعقبت الحكم المصري قد شاهدت دخول الرأسمال الأجنبي إلى بلاد الشام وغيرها من المناطق العثمانية، وبدأ الاستعمار الغربي الفعلي وانعكس ذلك بشكل فعال على الوضع الاقتصادي والبنى الاجتماعية.

الحرفيون وطوائفهم

أورد محمد سعيد القاسمي، وهو أحد علماء دمشق، الذي عاش حتى أوائل القرن التاسع عشر / ٤٣٥ / صنعة فيها وقد ميّز بين الصناعة والحرفة بقوله «إن الانسان إذا سعى في تحصيل مايعيش به، جعل له سبباً فإذا كان السبب عمل يده فهو الصناعة وإلا فهي الحرفة وقال إن من الحرف ماهو ضروري كالفلاحة والبناء والخياطة والتجارة والحياكة، ومنها ماهو شريف كالتوليد والكتابة والطب الخ. وماسوى ذلك من الصنائع والحرف فهي متشابهة وممتهنة في الغالب[4]» إلا أن مايهمنا هنا هي التنظيمات الحرفية كظاهرة اجتماعية واقتصادية وسياسية، فمن المعلوم أن العديد من الصناعيين والحرفيين في دمشق كانوا ينضوون في

---

1 - Polk. PP.166.161.

(٢) كانت معدلات الربى قبل ١٨٣٠م لاتزيد في حدودها القصوى عن ٢٠٪ في حين بلغت في نهاية الحكم المصري معدلات مدمرة حيث تراوحت مابين ٣٥ — ٤٠٪ انظر: المرجع السابق .PoLK.225

3 - Polk. Ibid.P.224

(٤) انظر: قاموس الصناعات الشامية. ج١. ص٥ و ص٢٨ و ص٣٠.

تنظيمات حرفية خاصة بهم. أما أصول هذه التنظيمات الحرفية فتعود إلى عهود قديمة، ويعتقد أنها برزت في العهد الفاطمي لتسهل على الفاطميين الدعوة لأفكارهم في صفوف الحرفيين، وبهذا أخذت صفة سياسية بالإضافة إلى مهامها الإقتصادية والاجتماعية. وبزوال الدولة الفاطمية الشيعية برزت الدويلات السنية، فالتفتت هذه الدويلات إلى هذه التنظيمات واحتوتها بوضعها تحت إشرافها، لتبعد عنها الدعوة القرمطية المناهضة للسنة، ووضعت المحتسب ليشرف عليها وكان الصق الموظفين بالأسواق[1].

ولقد بلغت الطوائف الحرفية درجة كبيرة من التنظيم في الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية. إلا أن هذه الطوائف لم تكن متساوية العدد، كما لم يستمر معظمها إلى فترة دراستنا من العهد ثماني، فبعضها انقرض مع الزمن أو تضاءل شأنه بتناقص الحاجة إلى منتجاته، في حين أن البعض الآخر قد ازدهر وتعددت أنواعه، لازدياد الحاجة إليه. فمثلاً في دمشق وفي الربع الأول من القرن الثامن عشر «ظهرت طائفة الطواقية الذين يشتغلون الطواقي للقوالب. وبطلت ثلاث طوائف مقابل ذلك هي طائفة الطواقي الزربا، وطائفة الزرباتية، وطائفة طواقي المخمل»[2].

وتميّز التنظيم الحرفي بالتخصص وتوزيع العمل، فهناك طوائف عنيت بالانتاج وأخرى بالخدمات وثالثة بالتسويق وهكذا. ولقد أورد جمال الدين يوسف بن عبد الهادي المعروف بابن المبرد الدمشقي، الذي عاش في القرن العاشر للهجرة، ذكراً لـ /١٠٢/ حرفة في دمشق مع تفرعاتها في كتابه الحسبة، إلا أنه لم يذكر لنا عدد من دخل من هذه الحرف في تنظيمات حرفية، إضافة إلى ذلك فإن العديد من هذه الحرف التي ذكرها قد انقرضت مع الزمن وبرز غيرها من الطوائف الحرفية[3].

ولكن بمطالعة سجلات محاكم دمشق الشرعية لفترة دراستنا، وغيرها من المراجع، نرصد عدداً كبيراً من الطوائف الحرفية. ويجب الاعتراف بأن هذه الطوائف التي تلمسناها لم

---

(١) انظر: زيادة، نقولا. الحسبة والمحتسب في الإسلام. ص٣٢.

(٢) انظر: رافق، عبد الكريم. مجلة دراسات تاريخية. العدد ٤. ص٣١.

(٣) انظر: الزيات، حبيب. مقالة له حول كتاب الطباخة من ضمنه كتاب الحسبة في مجلة المشرق ــ العدد ٣٥/ص٣٨٤ إلى ص٣٩٠.

تكن وحدها التي تعمل في دمشق بل ربما غاب عنا العديد منها، وماستطعنا رصده منها بلغ / ٢٩٤ / طائفة تقريباً وهم :

الأبارون ــ الأديـون ــ الأساكفـة ــ الأشجيـة ــ الأقسماويـة (البقسماويـة) ــ الأمشاطيـة[١] ــ الأطرقجيـة ــ الأركلجيـة ــ الأكمكجيـة[٢] الالاجاتيـة الأساوريـة[٣] البارودية بائعو البن بائعو جلال الخيل (الجليلاتية) بائعو السختيان الملون بائعو العبي بائعو لحم الجاموس ــ بائعو النعال البذوريون[٤] البوابجيـة[٥] البندقجيـة[٦] والبطاينيـة[٧] البزيزاتيـة البويجية البساتنية[٨] البغجاتية وبائعو الزبيب ــ البوشية ــ البلطجية البوقسماطية[٩] البوايكية والبياطرة ــ البرادعية[١٠] البغالة والبقارون ــ البقالون البوزجية بنـات الهوى[١١] التكجيـون التذكرجيون[١٢] التنوريون[١٣] التختروانجية التوتنجية[١٤] التتكجيون التنكجيون[١٥] الجراكسيـة الجراحون[١٦].

---

(١) انظر : رافق، عبد الكريم. مقالته في مجلة دراسات تاريخية تحت عنوان (مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني) العدد الرابع. ص٣٢ و ص٣٣ دمشق نيسان ١٩٨١م.

(٢) انظر سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/ سنة ١٢٢١ ــ ١٢٠٣هـ. ص٣٢٥. ثم : سجلها رقم ٢٤٠/١٢١١ ــ ١٢١٦هـ. ص١٦٥. ثم : سجلها رقم ٣٢٤/١٢٤٧هـ. ص٧٢.

(٣) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩/١٢٦٤ ــ ١٢٦٥هـ. ص٢٧ و ص٧٧.

(٤) رافق، عبد الكريم. المرجع السابق. ص٣٢.

(٥) سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠/١٢٠١ ــ ١٢٠٢هـ. ص١٨٤.

(٦) سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦/ص٩١ و ص٣٣٢.

(٧) سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/١٢٠١ ــ ١٢٠٣هـ. ص١٨٤.

(٨) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/١٢١٦ ــ ١٢١٧هـ. ص١٤١ و ص٢٧١.

(٩) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩/١٢٦٤ ــ ١٢٦٥هـ. ص٤ و ص٧٤ ص٢٣٢ و ص٦٢.

(١٠) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/١٢١٦ ــ ١٢١٧هـ. ص١٩٠ و ص١٠٧ ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/ص٢٧٥.

(١١) انظر : رافق، عبد الكريم. المرجع السابق. ص٣٢. ثم انظر العبد، حسن آغا. (تاريخه). ص١٣٩.

(١٢) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠/١٢٠١ ــ ١٢٠٢هـ. ص٤٢٩ و ص٤٧٢.

(١٣) انظر سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩/ص٢٦٢ و ص١٦٤.

(١٤) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/ص٣٠٨ و ص٣٥٥.

(١٥) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩/١٢٦٤ ــ ١٢٦٥هـ. ص٨١.

(١٦) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/١٢١٦ ــ ١٢١٧هـ. ص٤٤.

الجمالون[1] الجبانون والجنباطون[2] **الجعيديون**[3] الجوهريون[4] الجزماتيون الجفانون[5] الحفارون الحطابون[6] الحدادون[7] الحسكيون الحمامية[8] الحكواتيون المحارون[9] الجبالون الحلوانية والحوارية والحواصلية[10] الحزيزانية الحناوية[11] الحمصانيون[12] الحريريون[13] الحياكون[14] الحوريون (بائعو الجلد الحور)[15] الحبوباتية[16] الحلاجون والحشاشون والحصاصون[17] الخاناتية والخبازون أو الخوامون[18] الخيميون الخريزاتيون الختانون[19] الخشافون[20] الخياطون والخراطون[21] الخرامون والخروجية الخشابون الخضرجية الخفافون[22]

---

(١) انظر: رافق، عبد الكريم. المرجع السابق. ص١٠٢.

(٢) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٢٠ / ١٢٠١ ـ ١٢٠٢هـ /ص٣٢ و ص٤٢٨.

(٣) أيضاً سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠ /ص٣٢١.

(٤) أيضاً سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ /ص١٣.

(٥) أيضاً سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠ /ص٢٢٦ و ص٩٧ و ص٢٦٤ ثم سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ /ص٢٨٣.

(٦) أيضاً سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠ /ص٢٧ و ص٤٣١.

(٧) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦ /ص١٧٧.

(٨) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ /ص٤٨ و ص٢١٨.

(٩) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ /ص١٩٥ و ص٢٨٤ ثم السجل رقم ٢٤٠ /ص١٥٨.

(١٠) انظر: رافق، عبد الكريم. المرجع السابق. ص٣٢.

(١١) انظر: السجل رقم ٤٢٠ /ص٣٣٩. ثم: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦٠ /ص٥٠.

(١٢) انظر: السجل رقم ٢٤٠ / محاكم دمشق/ ص٤٠٢.

(١٣) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩ / ١٢١٠ ـ ١٢١١هـ. ص٨٦.

(١٤) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١٨٢ /سنة ١١٨٣ ـ ١١٩٠هـ /ص٥٠٨. ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠ /ص٢٩٩.

(١٥) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ / ١٢٦٤ ـ ١٢٦٥هـ. ص١٨٣.

(١٦) المصدر السابق. ص٢١٩.

(١٧) المصدر السابق. ص٢٥٣ و ص٢٤٦ وص٦٢.

(١٨) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ /ص٤٥ ثم: رافق، عبد الكريم. مجلة دراسات تاريخية. العدد الرابع ص٣٢ وص٣٣.

(١٩) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ /ص٣١٢ و ص٤٤٥ وص٦٧.

(٢٠) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩ /ص٣٥٢.

(٢١) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ / ١٢١٠ ـ ١٢١١هـ /ص٩١ و ص٢٦١.

(٢٢) انظر: رافق، عبد الكريم. المرجع السابق. ص٣٢.

الدقاقون للقماش الدباحون[1] الدلالون[2] الدكاكون الدباسون الدواليبيون الدوجية الدمغجية دقاقو الدودة الدكدكجية[3] دلالو العفص ودلالو الخام الكلزى[4] صانعو الركاب الرماحون[5] الرهونجية[6] الزرنجيون الرواسون ورماة البخور[7].

الذهبيون[8] الزرابليون[9] الزنبركجية الزياتون[10] الزنانيريون[11] الزبالون[12] الزراميزية[13] السقالون[14] السجادون السراجون[15] (صانعو السراجات) الساعاتيّون[16] السمانون — السنكرية — السواطلية — السلالون — السرايجية[17] السرفجية — السعاة — السقاؤون — السكاكنية — السماسرة — السمرجية السنبسوسكيون (تذكر أحياناً مع الطباخين والشوايين) السيورية — السيوفية (أحياناً مع السكاكنية والقواسين والخناجرية والتروسية)[18]

(١) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠ / ١٢٠١ — ١٢٠٢هـ/ص٤٣٩ و ص٤٥٨.
(٢) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ /ص٤٣.
(٣) انظر : المصدر السابق. ص٦٠ و ص١٠٩ و ص٢٤٤ و ص٣١٥ و ص٣٤٣ و ص٣٩٨. ثم : سجلها رقم ٤٢٠ /ص٢٩٠. ثم : رافق، عبد الكريم. المرجع السابق. ص٣٢.
(٤) انظر : رافق، عبد الكريم. المرجع السابق. ص٣٢.
(٥) انظر : السجل رقم ٢٢١ / محاكم دمشق/ ص٣٠٣.
(٦) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ /ص٨٩.
(٧) انظر : سجل القسمة البلدية بدمشق رقم ٢٩٠ /سنة ١٢٣٢ — ١٢٣٧هـ. ص٩٢. ثم : رافق عبد الكريم. المرجع السابق. ص٣٢ و ص٣٣.
(٨) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩ /ص٤٢٠. ثم السجل رقم ٤١٩ /ص١٩٤.
(٩) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠ / ٤٢٩.
(١٠) انظر : السجل رقم ٢٢١ /ص٣٧٢ ص١١.
(١١) انظر : سجل محكمة الميدان رقم ٣٧٨ / ١٢٥٩هـ/ ص٤٨.
(١٢) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ / سنة ١٢٦٤ — ١٢٦٥هـ/ ص٢٣٢.
(١٣) انظر : رافق. عبد الكريم، المرجع السابق /ص٣٢.
(١٤) انظر : السجل رقم ٢٢١ /ص٥٩ ص١٠٠.
(١٥) السجل السابق ص٢٤ ص٣٨٦.
(١٦) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ /ص٥٦ و ص٥٥ و ص١٦٢ و ص١٦٣ و ص٢٤.
(١٧) انظر : سجل محكمة الميدان بدمشق رقم ٣٢٣ / سنة ١٢٤٧هـ. ص٦.
(١٨) انظر : رافق، عبد الكريم، المرجع السابق ص٣٢ و ص٣٣.

الشماطون الشالاتية ـــ الشماعون ـــ الشرباتيون الشحاذون[1] الشعالون ـــ الشعارون الشلاحون الشدودية الشراقطلية[2] الشاويون[3] الشبقجية[4] أو الجوبوقجية الشخشاريون[5] (الجخاجيريون) الصاجاتيون[6] الصيّاغون[7] الصابونية الصاغرجية الصبّاغون ـــ صباغو الأزرق ـــ صباغو الأحمر ـــ صباغو الألوان (غير الأزرق) الصرماياتية ـــ الصنادقية ـــ الطباخون ـــ الطحانون (طحانو الجلب ـــ طحانو الخاص) الطوافة ـــ الطواقية طواقي المخمل[8] الطباعون[9] الطوبجية[10] قطاعو النعل[11] الطرابيشية[12] الطوقطليون[13] العرقسوسية[14] العقادون[15] العلبيون[16] العربجيون[17] العنبرجيون[18].

العباجية ـــ العاباياتية ـــ العتالون ـــ العجانون ـــ العرقجية ـــ (أو العرقياتية)

---

(١) السجل رقم ٢٢٠ / ص٤٤٣.

(٢) السجل رقم ٢٢١ / ص٤٤ و ص٣٣٧. ثم: رافق، دراسات تاريخية. العدد الرابع ص٣٢ و ص٣٣.

(٣) سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩ / ص٤٣٥ ص٥٢٧. ثم: رافق، المرجع السابق. ص٣٢ و ص٣٣.

(٤) سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦ / ص٥٠٩.

(٥) السجل رقم ٤٠٩ / ص١٨٠.

(٦) السجل رقم ٢٢١ / ص٣٢٨.

(٧) السجل السابق. ص١٣٤.

(٨) انظر: رافق. المرجع السابق. ص٣٢. ثم: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦ / ص١٥٠.

(٩) السجل رقم ٢٤٠ / ص٣٢٧.

(١٠) السجل رقم ٢٣٩ / ص٣٨٥.

(١١) السجل السابق. ص٥٠٩.

(١٢) السجل رقم ٤٠٩ / ص٢٠٩.

(٢٣) السجل رقم ٢٩٠ / ص١٢.

(١٤) السجل رقم ٢٢٠ / ص٤٥١.

(١٥) السجل رقم ٢٤٠ ص١٩٧.

(١٦) السجل رقم ٤٠٩ / ص١٣٧.

(١٧) المصدر السابق. ص١٨٢.

(١٨) السجل رقم ٢٥٠ / ص١٠٢.

العطارون العقارون ـــ العلافون ـــ العناباتية[1] ـــ الغنامة ـــ الغزولية ـــ الغراوية[2] ـــ الغلاينيون[3] الفوالون[4] الفطايرية[5] الفتالة[6] ومنهم فتالة الحرير وفتالة الحرير العنداري والفتالون بالدولاب الكبير[7] الفاكهانيون[8] الفكاكون[9] الفراؤون ـــ الفواخرية[10] القريصاتية[11] القصيباتية[12] القربيون[13] القلبقجيون[14] القرداحيون[15] القساطليون[16] القندقجية[17] القوزمية[18] القطاينجية[19] القضمانيون[20] القباقجية والقبانيون[21] القصاصون[22] القزازون[23] صانعو القيشاني[24] القلاعون[25] القداحون[26] القصارون القصابون القاوقجية ـــ قطاعو

---

(١) انظر : رافق ، عبد الكريم ، المرجع السابق . ص٣٢ .
(٢) انظر : السجل رقم ٢٥٠ / ص٢١٥ . ثم : سجل رقم ٢٢١ / ص٢٣٦ . ثم : السجل رقم ٢٢٠ / ص٤٤٥ .
(٣) انظر : السجل رقم ٢٩٠ / ص٢ .
(٤) انظر : السجل رقم ٢٢٠ / ص٣١ . ثم : رافق ، المرجع السابق . ص٣٢ .
(٥) انظر : السجل رقم ٢٦ / ص٣٣٣ .
(٦) انظر السجل رقم ٢٢١ / ص١٨٤ .
(٧) رافق . المرجع السابق . ص٣٢ .
(٨) السجل رقم ٤٠٩ / ص٤٥ .
(٩) السجل السابق . ص٤٣ .
(١٠) رافق ، عبد الكريم . المرجع السابق . ص٣٢ .
(١١) السجل رقم ٢٢١ / ص٢٠٩ .
(١٢) السجل السابق . ص٤٣٢ .
(١٣) أيضاً السجل السابق . ص٢٧٢ .
(١٤) وأيضاً السجل السابق . ص٣٤٠ .
(١٥) السجل رقم ٢٣٩ . ص٣٨٥ .
(١٦) السجل السابق . ص٤٠٦ .
(١٧) السجل رقم ٢٦ / ص٢٨٧ .
(١٨) السجل السابق . ص٢٨٩ .
(١٩) نفس السجل / ٥١٢ .
(٢٠) السجل رقم ٤٠٩ / ص٦١ .
(٢١) أيضاً نفس السجل / ص١٦٣ .
(٢٢) وأيضاً نفس السجل / ص٢٢٩ .
(٢٣) السجل رقم ٤٢٠ / ص١١٩ .
(٢٤) السجل السابق . ص٩٥ .
(٢٥) نفس السجل / ص٢٩٢ .
(٢٦) أيضاً نفس السجل / ص١٣٧ .

النعل ــ القطانون[1] القلاشينية ــ القلفات ــ القنوية ــ القهوية ــ القوافـون[2] الكلابون[3] الكحالون[4] الكبابجية[5] (ربما اللحامون) الكتبيون[6] .

الكركجيون[7] (الفراؤون) الكعيكاتية ــ الكلاسون ــ الكوايون ــ الكونجية ــ الكياليون اللبابدية اللحفيون[8] المبلطون ــ المعماريون[9] ــ المنزلجية[10] ــ المكارية ــ المكلسون[11] المخللاتية[12] المجارفية[13] المحملجية[14] المغسلون[15] المهتارية[16] المعاجينية المعمارية المخلعون[17] المحليون المراياتية المخشنون المكتبيون المؤاسة ــ مقصصو الذراع[18] المطافجية ــ المسدية ــ المرادنيون ــ المراشحية[19] المعقّدون ــ المرجلية المراحلية ــ المنجدون[20] المقحطون المقومون ــ المزعبرون[21] الملاعبية[22] الملبنجية[23] المناديليون[24]

(١) رافق . المرجع السابق . ص٣٢ .
(٢) أيضاً رافق . المرجع السابق . ص٣٣ .
(٣) السجل رقم ٢٢٠ / ص٢١ .
(٤) السجل السابق ، ص٤٦٦ .
(٥) السجل رقم ٤٠٩ / ص٣٩ .
(٦) نفس السجل ، ص٢٨٨ .
(٧) السجل رقم ٢٤٠ / ص٢٦٨ . ثم : السجل رقم ٢٦ / ص٣٢٤ .
(٨) رافق . المرجع السابق . ص٣٣ .
(٩) السجل رقم ٢٢٠ / ص٤٣٥ و ص٤٤١ .
(١٠) السجل رقم ٢٢٠ / ص٤٧٠ و ص٤٥١ .
(١١) السجل رقم ٢٢١ / ص١١٠ . ثم : رافق . المرجع السابق . ص٣٢ و ص٣٣ .
(١٢) نفس السجل . ص١٦ .
(١٣) نفس السجل . ص١٣١ .
(١٤) نفس السجل . ص١٦٦ .
(١٥) نفس السجل . ص١٨٦ .
(١٦) نفس السجل . ص١٨٤ .
(١٧) نفس السجل . ص١٩٧ و ص٢٦ و ص٢٥٢ و ص٤٠٩ .
(١٨) نفس السجل . ص٤١٦ و ص٤٦٠ و ص٣٨٦ و ص ٢٣٦ .
(١٩) السجل رقم ٢٧٩ / ص٢٨٨ و ص٢٨٧ و ص ٢٢٠ و ص٢٨٩ .
(٢٠) السجل رقم ٤٠٩ / ص٤٢ ص١٩٠ ص١٣٧ . ثم : رافق . المرجع السابق . ص٣٢ و ص٣٣ .
(٢١) السجل رقم ٤٠٩ / ص٢٤٢ و ص٢٧٥ . ثم : رافق . المرجع السابق . ص٣٤ و ص٣٣ .
(٢٢) السجل رقم ٢٥٠ / ص١٠٥ .
(٢٣) السجل رقم ٣٢٥ / ص١٢٤ .
(٢٤) السجل رقم ٣٣٤ / ص١٢ .

المهاتـرة والمساميرية[1] مداحـو الـرسول وحكويـة السير النبويـة ــ المدادون ــ المرويصون ــ المزيكيون ــ المساخية ــ المسلاتية ــ المعاريكية[2] النعلية[3] النويلاتية[4] النطفجيـة[5] النایاتية[6] النحاتون ــ النحاسون[7] النشارون النشواتية والنعالون ــ نعالو البوابيج ــ نقاشو الجبس ــ النهودية ــ الهواونية[8] الوتارون والوزانة[9] الياطرجية[10] .

ويصعب تحديد نسبة الطوائف المعنية منها بالإنتاج إلى الطوائف المعنية بالتسويق ، لأن بعضها قام بالعمليتين معاً ، أي قام بصنع السلعة وبيعها ، كما في طائفة الحبالين مثلاً ، حيث أدى هذا الازدواج في العمل إلى منازعات بين الفريقين ، أما طوائف الخدمات فبعضها واضح الحدود وسهل فرزه ، كالدلالين والحمالين والعتالين والقنوية والكوايين . وبعضها مايجمع بين أعمال الخدمات والتسويق والانتاج ، مثل الخاناتية والمنجدين واللحفيين[11] .

ويصعب بالاستناد إلى المصادر المتوفرة معرفة عدد الأفراد الذين تشكلت منهم كل طائفة حرفية إلا في القليل النادر ، فمثلاً في أواخر عام ١٦٨٩م بلغ عدد طائفة النحاتين في دمشق ٢٧ نحاتاً[12] . ولو أمكننا معرفة عدد أفراد كل طائفة حرفية وعدد طوائف الحرف لقادنا ذلك إلى معرفة نسبة الذين يعملون في الانتاج إلى الذين يعملون في الخدمات ، وبالتالي معرفة الطوائف المزدهرة والطوائف التي آل أمرها إلى الانقراض ، ولعلمنا من خلال ذلك السمات الأساسية لحياة دمشق الاقتصادية في فترة دراستنا التاريخية هذه .

---

(١) السجل رقم ٣٥٧ / ص١٣٧ و ص٢٠٢ . ثم : السجل رقم ٢٢١ / ص٢٤٥ .
(٢) رافق . المرجع السابق . ص٣٣ .
(٣) السجل رقم ٢٢١ / ص٢٦٧ .
(٤) السجل رقم ٢٣٩ / ص٥١٨ . ثم : رافق . المرجع السابق . ص٣٢ و ص٣٣ .
(٥) السجل رقم ٢٤٠ / ص٨١ .
(٦) السجل رقم ٣٢٥ / ص٥٢ .
(٧) السجل رقم ٢٥٠ / ص٢٦٧ . ثم : رافق . المرجع السابق . ص٣٢ .
(٨) السجل رقم ٢٣٩ / ص٤٨٦ و ص٣٦٤ .
(٩) رافق . المرجع السابق . ص٣٣ .
(١٠) سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ / ص٢٨٠ .
(١١) انظر : رافق ، عبد الكريم . مقالة له تحت عنوان « مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني » مجلة دراسات تاريخية العدد الرابع ص٣٢ ص٣٣ / دمشق نيسان ١٩٨١م / .
(١٢) انظر : رافق . المرجع السابق . ص٣٣ .

والملاحظ في الطوائف التي ذكرناها غياب أسماء النساء بين أعضائها. وأن غياب طوائف خاصة بالنساء لا يعني أن المرأة لا تقوم بأعمال حرفية في دمشق أو ريفها، فقد قامت المرأة بأعمال حرفية هامة مثل نشر القطن وغزله، وتفريق قطع الآلاجة قطعاً حسب الصنف، ثم جعل كل صنف شموطة (أي مايطلق عليه العامة اسم شلة) على حدة، وهي مهنة خاصة بالنساء[1]. وكذلك قامت المرأة بحبك حبال القش لصنع الحصر وعملت كحالة وداية وفي الحمام في دور النساء، والتعليم إلا أننا لا نعلم فيما إذا انتظمت النساء ضمن طوائف خاصة بهن، ولو حصل ذلك لكنا وقعنا على ذكر لها في سجلات محاكم دمشق الشرعية، الخالية من ذكر طوائفهن، رغم أنها ليست خالية من ذكر نشاطاتهن المختلفة، سواء المسلمات منهن أو الذميات.

البنية التنظيمية للطائفة الحرفية

أطلقت كلمة طائفة على التنظيم الحرفي، كما استخدمت للدلالة على طائفة دينية أو طائفة قطرية (كطائفة المغاربة أو البغادة الخ) الأعجام، أو طائفة عسكرية، أو على قطاع الطرق من البدو أو الحرامية أو اللصوص أو الشحاذين. ولقد ورد ذكر لامرأة قامت بسرقة امرأة أخرى في سوق الأروام في دمشق واعترفت الامرأة أمام القاضي على أنها من طائفة السراقين وتتخذ ذلك حرفة ودأباً[2]. ولقد ترأس الطائفة الحرفية شخص عرف عادة بالشيخ، وكان ذلك يتم باختيار أعضاء طائفته وينصبه القاضي ويقر اختياره، ويصدر حجة بالواقعة ويسجل ذلك في سجلات المحكمة في دمشق. والعبارة المستخدمة في هذا السجل تذكر أن القاضي فلاناً نصب فلاناً شيخاً ومتكلماً على الطائفة الفلانية. وكلمة (متكلم) تعني أن صاحبها يتكلم في مصالح الطائفة. وأطلق عليه لقب «باشي» في بعض الأحيان، مثل طائفة القصابين التي عرف رئيسها «بالقصاب باشي»، وكذلك طائفة المعمارية التي عرف رئيسها «بالمعمار باشي» وأطلق على رئيس طائفة الدباغين «أخي بابا ـــ وأحياناً بابا» وكلمة أخي مشتقة من الكلمة العربية (أخ).

وهناك المعلمون والأساتذة أو الاسطاوات والباباوات في الطائفة، وهم الذين يشار إليهم باسم (اختيارية الطائفة). ويلاحظ أن بعض مشايخ الحرف ورثوا المشيخة عن آبائهم

---

(١) انظر: القاسمي، محمد سعيد. قاموس الصناعات الشامية. ج٢. ص٣٣٤ و ص٣٣٥.

(٢) انظر: رافق، عبد الكريم. المرجع السابق. ص٣٤.

أو اخوتهم، ومع ذلك كان عليهم الحصول على موافقة الاختيارية . ويقوم القاضي بالتنصيب رسمياً ، كما يجب على الشيخ أن يلم بأصول الحرفة وإذا ماتبين أنه غير ملم بها فإن اختيارية الحرفة، تقوم بعزله ، فمثلاً: عزل شيخ طائفة الدباغين في دمشق محمد بن السيد أحمد البابا (لأنه ليس له خبرة في أحوال الدباغة وليس له وقوف على معرفة الكار وليس له قدرة على تعاطي أمور البابارية) فتنازل هذا عن البابارية واختارت الطائفة بابا آخر لها ونصبه القاضي[1] .

واشترط في شيخ الطائفة أن يكون رجلاً ديّناً مستقيماً قادراً على أداء مهام المشيخة صالحاً لها وأن يكون أعضاء الطائفة راضين عنه . وعندما تشغر مشيخة حرفة تعين المحكمة شيخاً ، أو تصدر براءة سلطانية بتعيين شيخ جديد ، ويقوم القاضي آنئذ بالتأكد من صحة البراءة السلطانية التي حاز عليها صاحبها ويقوم بتنصيبه شيخاً على الطائفة[2] . ومن مهام الشيخ لم شمل الطائفة وإنزال العقاب بالمخالفين من أعضائها ، ويتدارس مع الحكومة الضرائب على طائفته ويوزع أموال هذه الضريبة بحسب دخل كل واحد من أعضائها[3] . ويقوم المعلمون بتعيين شيخ الطائفة عندما يجمعون عليه وإلا فيبقى الأمر بيد شيخ المشايخ . وهذا المنصب يدوم فيه مدى الحياة إلا إذا طلب المعلمون تبديله ، وقد يرغب في ذلك شيخ المشايخ .

وعندما يموت شيخ الطائفة يعين مكانه ابنه اعترافاً من الطائفة بجميل صنعه . ومن الشروط الواجب توفرها في الشيخ أن يكون كريماً وأميناً وصادقاً وشجاعاً وغنياً ، لأن شيخ الطائفة عليه أن يبر بتعهداته المادية والمعنوية لدى السلطة وغيرها ، ولا يستطيع أن يفي بذلك إن لم يكن غنياً ، وكان مقره في حانوته الذي يقع ضمن السوق أو في أحد المقاهي نهاراً أما في الليل فيكون مقره منزله[4] . وتطالعنا سجلات محاكم دمشق بعدد من مشايخ الحرف المختلفة وأغلبهم كان من الأشراف والانكشارية ، كشيخ سوق الأروام وطايفة البزازية والدلالين[5]

---

(١) انظر : رافق ، مجلة دراسات تاريخية . العدد الرابع ص٣٥ .

(٢) أيضاً رافق . المرجع السابق . ص٣٥ .

(٣) انظر : عانوتي ، أسامة . الحركة الأدبية في بلاد الشام خلال القرن السادس عشر . ص٢٠ .

(٤) انظر : كيال ، منير . فنون وصناعات دمشقية . ص٢٠٦ و ص٢٠٧ و ص٢٠٨ .

(٥) انظر : سجل القسمة العسكرية والعربية رقم ١٨٢ / سنة ١١٨٣ ـــ ١١٩٠هـ/ . ص١ .

وشيخ اللحامة[1] وشيخ طايفة البساتنة (أحياناً ترد باسم شيخ البستانيين)[2]، ثم شيخ العطارين[3] وكان شيخاً عليهم في سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢ ــ ١٨٠٣م السيد عبد الوهاب بن السيد نصري وفي سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١ ــ ١٨٣٢م السيد نصري، ثم شيخ المغربلين[4] وشيخ البزورية. وكان شيخاً عليهم سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١ ــ ١٨٠٢م الشيخ حسن الحلبي[5]. وشيخ المكارية[6] وشيخ الطحانة وكان شيخاً عليهم سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢ ــ ١٨٠٣م السيد عمر بحصاصة، ثم شيخ النحاسين، وكان في سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢ ــ ١٨٠٣م شيخاً عليهم سعيد آغا بن الحاج مصطفى، وكان له دكاكين في سوق الأروام. وفي سنة ١٢٥٤هـ/١٨٣٨ ــ ١٨٣٩م كان شيخاً عليهم محمد آغا بن محمد آغا[7]. ثم شيخ السروجية وكان شيخاً عليهم سنة ١٢١١هـ/١٧٩٦ ــ ١٧٩٧م السيد محمد سعيد الشهير بأبي أمين[8] ثم شيخ الدباغين والشلاحين والحدادين والقراوية[9] والحلوانية الذي كان شيخاً عليهم سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢ ــ ١٨٠٣م عبد القادر، ثم شيخ الحلاقين وكان شيخاً عليهم الأسطة محمد البوشي، وشيخ القواقجية الأسطة محمد[10]. ثم شيخ القفلة الذي كان عليهم السيد

---

(١) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ /سنة ١٢٦٤هـ/ ص١٠١.

(٢) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠/ ١٢٠١ ــ ١٢٠٢هـ. ص٥٥١. ثم سجلها رقم ٣٥٧/ ١٢٥٥ ــ ١٢٥٦هـ، ص١.

(٣) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٣/ ١٢٤٧هـ/ ص١٤٤. ثم: سجلها رقم ٢٥٠/ص١٥٩.

(٤) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٦ /١٢٤٨هـ/ ص٥٥ و ص٥٦. ثم سجلها رقم ٢٢١ / سنة ١٢٠١ ــ ١٢٠٢هـ. ص١٣.

(٥) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٦/ ص١٠٦. ثم سجلها رقم ٢٤٠ / ١٢١١ ــ ١٢١٦هـ. ص٩٤.

(٦) انظر: السجل رقم ٣٣٠ / محاكم دمشق/ سنة ١٢٤٨ ــ ١٢٦٦هـ، ص٣٨.

(٧) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ /١٢١٦ ــ ١٢١٧هـ. وأيضاً سجلها رقم ٢٤٠ / ١٢١١ ــ ١٢١٦هـ/ ص٥٤٣. ثم: سجلها رقم ٣٥٧/سنة ١٢٥٥ ــ ١٢٦٠هـ. ص٨٨.

(٨) انظر: سجل القسمة العسكرية رقم ٣٣٠ /١٢٤٨ ــ ١٢٦٥هـ. ص٩٢. ثم: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠ / ١٢١١ ــ ١٢١٦هـ/ ص٢٣٢.

(٩) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ /١٢١٦ ــ ١٢١٧هـ. ص٢١٥.

(١٠) انظر: سجل القسمة البلدية بدمشق رقم ٣٢٧/ ص٣٧.

اسماعيل[1] . ثم شيخ العقارين الذي كان شيخاً عليهم السيد محمد جلبي بن السيد أحمد ثم شيخ العقادين وكان شيخاً عليهم نفس شيخ العقادين المذكور سابقاً[2] ثم شيخ العلبية وكان في سنة ١٢٥٠هـ شيخاً عليهم السيد علي بن الحاج خليل[3] . ثم شيخ الصاغة (الساغة) وكان شيخاً عليهم صالح آغا بن يحي[4] . ثم شيخ الصباغين وكان شيخاً عليهم السيد محمد بن السيد ابراهيم[5] . ثم شيخ النجارين[6] ثم شيخ التوتنجية[7] ثم شيخ الجبالين وكان شيخاً عليهم الحاج صالح[8] . ثم شيخ الفحامة وكان شيخاً عليهم محمود آغا[9] . ثم شيخ الخياطين وكان شيخاً عليهم اسماعيل[10] . ثم شيخ المغربلين الذي كان شيخاً عليهم في سنة ١٢٠١هـ/ ١٧٨٦ ـــ ١٧٨٧م محمد عويرة[11] . ويبدو أن شيخ الحرفة كان وقفاً على المسلمين دون أهل الذمة . ويمكن تفسير ذلك بارتبا ط الشيخ الديني بإحدى الطرق الصوفية التي كانت تخص المسلمين دون غيرهم .

أما فيما يتعلق بتناول شيخ الطائفة لراتب ما ، فلا توجد إلا بعض الأدلة البسيطة على ذلك . فكان في الغالب يعيش من عمله إلا أنه تمتع ببعض الإمتيازات . ولقد ذكر أن طائفة المسالخية بدمشق والتي كانت تابعة (يمق) لطائفة القصابين ، قد دفعت لشيخ طائفة القصابين كل سنة عشرين قرشاً لقاء مال المشيخة[12] . ومن جهة أخرى كان لكل مشغل من الحرفة شيخ يطلق عليه اسم «أستاذ» ، والأستاذ كلمة فارسية الأصل حوّرت إلى (الاسطة) . وأشير إليه بكلمة (مِعلم) بالعربية . ويقول محمد سعيد القاسمي كان «لكل حرفة في دمشق معلم مخصوص يقوم بشؤون ومصالح أرباب حرفته وهو رئيس الصنعة أو الحرفة

---

(١) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص١٦٦ و ص٨٣ و ص٩٨ .
(٢) انظر : سجل القسمة البلدية بدمشق رقم ٣٢٧ / ١٢٤٧ ـــ ١٢٤٨هـ/ ص٢٢١ و ص٣١٤ .
(٣) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٤٠ / ١٢٥٠ ـــ ١٢٥٤هـ/ ص٦٦ .
(٤) نفس السجل السابق . ص٩٤ .
(٥) انظر : سجل القسمة العسكرية رقم ٣٤٠ / ١٢٥٠ ـــ ١٢٥٤هـ/ ص١٤٠ .
(٦) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٣٦ / ١٢٥٠ ـــ ١٢٥١هـ/ ص٢٤٧ .
(٧) انظر : سجل القسمة البلدية بدمشق رقم ١٨٢ / ١١٨٣ ـــ ١١٩٠هـ/ ص٦١ .
(٨) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠ / ١٢٠١ ـــ ١٢٠٢هـ/ ص٥٣٢ .
(٩) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٣٨ / ١٢١١ ـــ ١٢١٢هـ/ ص٧٠ .
(١٠) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ص١٦٩ .
(١١) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٥٧ / ١٢٥٥ ـــ ١٢٥٦هـ/ ص٨٨ .
(١٢) انظر : رافق . مجلة دراسات تاريخية العدد الرابع ص٣٣ .

ومتقنها ويشتغل تحت يده الصناع الأجراء»[1] وهو التاجر المستقل ويتمتع بحق ممارسة الحرفة ويشترك في إجتماعاتها واتخاذ قراراتها. ومسؤول عن أخلاق الأجراء لديه ونشاطهم وغذائهم، ويجب أن لا يفسد علاقته مع المعلمين الآخرين بالمزاحمة ويجب أن يكون مثال الاستقامة. ونلاحظ وجود أساتذة أو اسطاوات من المسلمين غير المسلمين، فمثلاً في سنة ١٢٥٠هـ كان المعلم الياس الذمي النصراني خواماً، ثم المعلم نسيم أبراهام ماير كان معلماً في (الفتالة) سنة ١٢٠١هـ. ثم المعلم موسى بن المعلم جرجس السيوري النصراني. ثم الاسطه حجازي الحلاق، والاسطه عبد الرزاق بن الاسطه عمر الحموي الخياط[2].

أما الصانع فهو من يحسن الصنعة ولم يصل إلى مهارة المعلم[3]. ولا نعلم إذا كانت هناك مدة زمنية لا بد له من أن يلتزم بها قبل أن يرتقى إلى مرتبة أستاذ (معلم أو اسطة). ويظن أن إتقانه للمهنة، بغض النظر عن المدة التي أمضاها في وضعية الصانع، هي الكفيلة بنقله إلى المرتبة الأعلى. ويبدو أن هناك استثناءات على عدم الإلتزام بهذا التدرج المهني. مما يدل على انهيار القواعد المهنية. فيذكر القدسي أن «من الصناع من يشد في النهار ذاته صانعاً ومعلماً»[4].

ولقد شكل الصناع العدد الأكبر من الحرفيين بالمقارنة مع عدد المعلمين والأجراء. وحاول المعلمون تأخير ترقية الصناع إلى رتبة معلم لتحاشي منافستهم. وكان يقع على عاتق المعلم دون الصانع أجرة الدكان ومصروفها وتصليح عدة الصنعة[5].

أما الأجير فيأتي في أسفل السلم المهني، وهو المبتدىء بالصنعة، ويكون عادة فتى يافعاً. ويتم استخدامه من قبل المعلم بموجب عقد رسمي، فمثلاً: «استأجر محمود الحلبي

---

(١) انظر: قاموس الصناعات الشامية. ج٢. ص٤٥٨.

(٢) انظر: كيال، منير. فنون وصناعات دمشقية. ص٢٠٩. ثم انظر: السجل رقم ٣٣٦ /محاكم دمشق/ سنة ١٢٥٠ ــ ١٢٥١هـ/ ص١٣٦. ثم انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/ ص٢٥٤. ثم انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ /١٢١٦ ــ ١٢١٧هـ/ ص٩١ و ص٩٢.

(٣) انظر: القاسمي، محمد سعيد. قاموس الصناعات الشامية. ص٣٥.

(٤) انظر: رافق، عبد الكريم. (مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني) مقالة له في مجلة دراسات تاريخية، العدد الرابع. ص٢٦ /دمشق نيسان ١٩٨١م.

(٥) انظر: سجل محكمة دمشق الشرعية رقم ١١/ ص١٢١ /٢٢ محرم ١٢٦١هـ/ ٣١ كانون الثاني عام ١٨٤٥م. نقلاً عن رافق. مجلة دراسات تاريخية. العدد الرابع. ص٥٣.

الطباع لدى القاضي الشافعي بدمشق ابن أخيه البالغ ـــ عبد الرحمن فأجره نفسه بإذن الحاكم ليشتغل عنده في صناعة الطباعة لعقدين كاملين ـــ مدة كل عقد منهما ثلاث سنوات تبدأ في يوم العقد وكان أجر عبد الرحمن اليومي ست قطع فضة مصرية أربع منها يحتفظ بها المستأجر السيد محمد الحلبي لتغطية نفقات عبد الرحمن من مأكوله ومشربه وزينته وسائر لوازمه التي لا بد منها ، والمصريتان الباقيتان تدفعان إلى عبد الرحمن . ولقد تم العقد بحضور عبد الرحمن[1] . ويجب على الصانع والمعلم لحظ الأجير بالعناية والتأديب ومشقات الخدمة لأجل أن يكتسب الصنعة[2] .

وهناك إشارات إلى وجود رئيس أعلى للطوائف ، وهو شيخ المشايخ . ولكن وثائق المحاكم الشرعية قلما أشارت إليه . إلا أن كتاب التراجم الدماشقة ، في القرن السابع عشر والثامن عشر ، وكذلك كتاب الحوليات أشاروا إلى ذلك[3] .

ويبدو أن هذا المنصب كان دينياً أكثر منه حرفياً . فهو الذي يقوم بالاحتفالات والطقوس الرمزية وكان على علاقة وطيدة بالطرق الصوفية أو بالإشراف أو بكليهما ، وهي أهم من علاقته بالمهن والصنعات . فمثلاً أحمد أفندي العجلاني لم يكن على شيء من صنعة أو حرفة ومع ذلك كان شيخ مشايخ الطوائف الحرفية . وكانت هذه الرتبة موروثة في آل عجلاني الذين اختصوا بنقابة الأشراف ومشيخة الطرق الصوفية[4] ، وبقيت فيهم إلى فترة متأخرة من القرن التاسع عشر .

وكان شيخ المشايخ يتمتع بسلطة واسعة أكثر من سلطة شيخ الطائفة ، فكان بإمكانه

---

(١) انظر : سجل محكمة دمشق الشرعية رقم ٥٠ / ص٢٨ ص٢٥ / ذي الحجة ١١٣٤هـ/تشرين الأول عام ١٧٢٢م . نقلاً عن رافق : مجلة دراسات تاريخية . العدد الرابع . ص٣٧ .

(٢) انظر : القدسي ، نبذة تاريخية للحرف الدمشقية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ص١١ .

(٣) يقول المحبي : إن السيد محمد بن السيد محمد كمال الدين بن عجلان الدمشقي الميداني الشافعي المتوفى سنة ١٠٠٤هـ/١٥٩٦م كان شيخ مشايخ الحرف ولكن اهتم كما يبدو بإقامة الذكر بانتظام أكثر من عمله كحرفي وكان لا يأكل إلا من كسب يمينه في نسج الحرير وكان هو الذي يعقد الشد والعهد لأهل الصنائع . انظر : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر . ج١ . ص١٤٤ و ص١٤٥ .

(٤) انظر : القدسي ، نبذة تاريخية للحرف الدمشقية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ص١٠ . ثم انظر : الحصني ـــ محمد أديب منتخبات التواريخ لدمشق . ج٢ . ص٥٩٤ .

إلقاء من يسيء من مشايخ الحرف بالسجن وضربه، وذلك حتى عهد السلطان عبد المجيد العثماني (١٨٣٩ ــ ١٨٦١م).

وكان شيخ الطائفة ينيب عنه النقيب في عملية الشد للأجير أو الصانع، ويكلفه بالسهر على حسن انتظام قواعد الطائفة وأخلاق أفرادها. ومما يدل على علو شأن النقيب في الطائفة أنه كان يرد ذكره في المحكمة بعد الشيخ مباشرة. وعلى غرار شيخ المشايخ، وجد لنقباء طوائف الحرف (نقيب نقباء). أعلى عرف (بنقيب النقباء) وذكر أحمد البديري الحلاق أن الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ محمد الحلاق القادري صاحب الحلقة في الجامع الأموي المتوفى / ٢٦ / ربيع الأول ١١٥٦هـ/ ٢٠ أيار عام ١٧٤٣م، كان نقيب النقباء في دمشق على الحرف والصنائع والطرق[1]. ويدل جمع نقيب النقباء للسلطة بين يديه على بقاء الحرف والصنائع والطرق على أهميتها الاجتماعية والدينية، كما يدل على الارتباط بين الحرف والطرق الصوفية. ولقد ضعفت أهمية النقيب كثيراً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر[2].

وإلى جانب النقيب وجد منصب (اليكيت باشي). والكلمة مشتقة من (يكيت) وتعني الفتى والرجل الأخلاقي في اللغة التركية، و(باشي) وتعني الرئيس. وعين اليكيت باشي للطائفة من قبل شيخها الذي اشترك معه أحياناً في عملية الإنتقاء لكبار أعضاء الطائفة، وروعي في اختياره أن يكون أهلاً لعمله قادراً على القيام به على الوجه المرضي. وذكر أن طائفة العطارين اليهود في حلب قد نصب القاضي عليها يكيت باشي يهودياً، وذلك بطلب من شيخ طائفة العطارين، وكان أعضاؤها من المسلمين واليهود[3]. وناب اليكيت باشي عن شيخ الطائفة في بعض الأحيان في الأمور المتعلقة بطائفته، ومع ذلك كان النقيب أكثر حضوراً وربما استمراراً من اليكيت باشي. بدليل أن القدسي الذي أرخ للحرف في الربع الأخير من

(١) انظر: حوادث دمشق اليومية. ص٣٩.

(٢) انظر: رافق، عبد الكريم. مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني. ص٣٨ من مجلة دراسات تاريخية. العدد الرابع / نيسان ١٩٨١م.

(٣) انظر: سجل محكمة حلب الشرعية رقم ١٥ / ص٦٨٨ تاريخ القضية / ٤ ربيع الثاني ١٠٤٣هـ/ الثامن من تشرين أول ١٦٣٣م. ثم: المصدر السابق. ص٨٥، منه تاريخ القضية / ٢٤ ذي القعدة عام ١٠٣٥هـ/ ١٧ آب ١٦٢٦م/. ثم: ص٧٦١ تاريخ القضية / ٩ ربيع الثاني ١٠٤٥هـ/ ٢٢ ايلول عام ١٦٣٥م.

القرن التاسع عشر لم يشر إليه[1]. كما ذكرت الوثائق صاحب رتبة أخرى في الطائفة وهو «الأنجي باشي» خاصة فيما يتعلق بطائفة طحاني الخاص بحلب، وقد نصب على غرار النقيب واليكيت باشي من القاضي بناء على طلب شيخ طائفة الطحانين وكبار أفرادها.

كما ورد ذكر لوظيفة (الكتخدا) لطائفة الدلالين في حلب. وتعني هذه الكلمة المساعد وربما كان أحد مساعدي شيخ الدلالين[2]. كما ورد ذكر وظيفة مقدم في أحد طوائف مدينة حلب في عام ٩٩٩هـ / ١٥٩١م وتعني هذه الكلمة رئيس سبع طوائف حرفية لكل منها شيخها وتعنى بالخدمات مثل: العتالين ـــ والحمالين ـــ والعكامين ـــ والسقائين ـــ والبغالة وكان أحد الأشخاص، هو تقي الدين بن الحاج محمد قد حصل على براءة سلطانية في منصب مقدم هذه الطوائف بديلاً عن مقدمها الحاج أحمد بن محمد. ولكن القاضي بناء على طلب عدد من أعضاء هذه الطوائف، أبقى عليها مقدمها الحاج أحمد بن محمد لأنه (رجل مستقيم في أمور المقدمية المذكورة وخبير بأحوالها أكثر من غيره وهو أولى بها من تقي الدين)[3]. ويبدو أن هذه الوظيفة قد شاعت في الفترة الأولى للعهد العثماني ولكنها لم تستمر بدلالة عدم وجود ذكر لها في سجلات محاكم دمشق وبلاد الشام الشرعية بعد هذا التاريخ.

ولقد عين شيخ واحد لأكثر من طائفة متقاربة في الاختصاص. فطائفة الحلاقين والجراحين كان لهما شيخ واحد، ففي سنة ١٢١٧هـ كان شيخاً للقصارين والعقادين في دمشق السيد محمد حلبي بن الشيخ أحمد.

وعرفت الطائفة التي اتبعت طائفة أخرى، رغم أن لكل منهما شيخاً مستقلاً، بأنها (يمق) أي أنها مساعدة لها. والتبعية هذه من أجل جمع الضرائب للدولة وتوزيعها فيما بينها فمثلاً: «طائفة المسالخية في دمشق كانت يمقاً لطائفة القصابين» واقتضى ذلك أن تدفع الطائفة الأولى عشرين قرشاً في السنة عرفت بمال المشيخة إلى القصاب باشي وذلك بالإضافة إلى ثلاثين قرشاً مساهمة في ضريبة الجيش (مال العرضي أو الأوردي)[4].

---

(١) انظر: رافق، عبد الكريم. مجلة دراسات تاريخية العدد الرابع. ص٣٨.

(٢) انظر: رافق، عبد الكريم. المرجع السابق. ص٣٩.

(٣) انظر: رافق، عبد الكريم. المرجع السابق. ص٣٩.

(٤) انظر: رافق، عبد الكريم. مجلة دراسات تاريخية. العدد الرابع. ص٣٩.

وكان في الطوائف الحرفية منصب (البابا)، الذي كان يعين بموجب براءة سلطانية. ويبدو أن من مهامه الأشراف على القاصرين من أبناء الحرفيين المتوفين، فمثلاً في سنة ١٢١٦هـ عين مصطفى بن محمد آغا الطيلوني بابا في دمشق بموجب البراءة السلطانية. وكان الحرفيون يبرئون ذمته لدى المحاكم عند وفاته[١].

التخصص الحرفي في دمشق

عرفت طوائف الحرف في دمشق تخصصاً دقيقاً، وهذا من صفات الاقتصاد المنظم. ففي مجال الصناعة وجد صباغون متخصصون بالصباغة بالأحمر وآخرون بالأزرق الغامق (الكحلي والنيلي) وآخرون ببقية الألوان، في حين اقتصر هؤلاء في عملهم على صباغة الخام القطني، ووجد هناك صباغون آخرون يصبغون الحرير الملون. ووجدت طوائف خاصة بالمسلمين، كالجزارة مثلاً، كما تخصص اليهود فيها بحرف عديدة منها البروكار والدامسكو والحفر والتنزيل بالذهب أو الفضة والعاج وفي النحاس (الظاهري) والحديد والخشب. وكان يتوارث هذه الحرف الأبناء عن الآباء[٢].

وتخصص بعض النزلاء العرب في دمشق بحرفة معينة، فالمغاربة مثلاً عملوا في الحراسة والبريد[٣]. كما وجدت أسواق متخصصة بحرف معينة على اعتبار أن الصانع هو البائع لسلعته التي يصنعها. فكان، مثلاً لطوائف الصباغة والسيوفية والسروجية أسواق خاصة بها. ولقد سهل ذلك على شيخ الطائفة مراقبة طائفته وقيامه بالمهام الأخرى المتعلقة بها. ووجدت بعض المصانع الحرفية في الأماكن اللائقة بها، فمثلاً حرفة الدباغين في دمشق كانت تقع محلاتها بالقرب من باب السلام وذلك لتوفر المياه اللازمة لها من نهر بردى من جهة، ولبعدها عن المدينة نسبياً. خوفاً من روائحها الكريهة من جهة أخرى. ولقد حرم على كل من حاول العمل بها منفرداً بأمر من قاضي المدينة[٤]. وهناك حرف كانت خطيرة على حياة السكان لذا اقتضى النظام عدم تركيزها في مكان واحد بل توزيعها على أماكن متعددة من المدينة كحرفة البارودية.

---

(١) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/ ص ٢١٤ و ص٢١٥. ثم: انظر سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٢٧ / ص٢٢١ ص٣١٤ سنة ١٢٤٧ — ١٢٤٩هـ.

(٢) انظر: كيال، منير، فنون وصناعات دمشقية. ص٢٧ و ص٣٠.

(٣) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٥٩ ' ١٠ رمضان عام ١١٤١هـ/ ٩ شباط ١٧٢٩م.

(٤) انظر: سجل رقم ٢٨ / محاكم دمشق / ص٢٢٠ / ١٠ محرم ١١١٤هـ/ ٩ تموز ١٦٩٩م.

أما فيما يتعلق بالدور **الأخلاقي لطوائف الحرف** فقد حافظت هذه الطوائف على بعض الميزات الأخلاقية التي كانت سائدة في مجتمع دمشق، وذلك من خلال تنظيماتها وأخلاقياتها المهنية. فقد حلت أخلاقياتها محل المحتسب الذي تضاءل شأنه في بلاد الشام في العهد العثماني وغاب في كثير من الأحيان عن الأسواق. وكان يقوم بدوره القضاة أو الولاة أو المتسلمون أو الصوباصي أو بعض الضباط، وحتى الصدور العظام إذا ماصادف وجودهم في دمشق لسبب ما. وقد قام الحكم المصري بإعادة المحتسب إلى أسواق دمشق، واختير لهذا المنصب من كان يتصف بالأخلاق والدين. ويقول صاحب «مذكرات تاريخية» «أنهم اختاروا مصطفى آغا بن شبيب حيث نبه على الأسعار جميعها ولم أحد عاد باع بسعر زايد مصرية الفرد لأنهم (التجار) حبسوا الأرزاق. يومين ثلاثة ظنوا مثل غير حكم كالسابق ولما نظروا أنه مافيه فايدة تواجدت الأرزاق. وصار المحتسب يدور كل يوم في البلد يمشي قدامه نحو عشرة أجواق ناس حاملين العصي وناس حاملين الفلق وناس حاملين جواب (السوط) وناس حاملين الميزان والأواق كل يوم على هذا الترتيب»[1]. إلا أن وجود المحتسب لم يكن عاماً طيلة فترة دراستنا في أسواق دمشق.

ومن جهة ثانية فقد طبعت الحرفة حياة الحرفيين بطابعها، وغدت بديلة عن كنيتهم الأصلية نظراً لوراثة الحرفة. وهكذا نرى العديد من أسر دمشق قد إكتسبت اسم الحرفة التي احترفتها مثــل: أسرة الخشاب ــ والمسالخي ــ والحواصلي ــ والحداد ــ والقنــواتي ــ والشاوي ــ والبقسماوي ــ والصباغ ــ والنشار ــ وغيرهم. كما نرى أن الحرفيين من رجال الدين عوملوا معاملة خاصة، ويستدل على ذلك من إعفاء الشيخ عبد الرحمن بن محمد من طائفة النشارين بدمشق من الكلف والمغارم المترتبة على هذه الحرفة لكونه إماماً وخطيباً ويتعاطى مهنة النشارة من أجل معيشته وأنه قبل تاريخه منع التعرض له بموجب حجة شرعية أبرزها من يده[2]. ولقي الفقراء والمفلسون من الحرفيين الاهتمام والرعاية. فالذي كانت بذمته ديون ولم يستطع الوفاء بها قسط عليه الدين بنسبة دخله أو ثروته. ولقد ورد في سجل محكمة دمشق أنه «تبين لدى القاضي فقر أحد العاملين في صناعة تحميل البضائع إذ كان مديناً

---

(١) انظر: مجهول. ص٧٧ ص٧٨.

(٢) انظر: سجل محكمة دمشق الشرعية رقم ٢١/ ص٢٧٦. /غرة جمادى الثانية عام ١١٠١هـ/ ٥ آذار عام١٩٥٣م.

لعدد من الناس بخمسمائة قرش. فقرر القاضي أن يدفع المدين خمساً وعشرين قرشاً من فاضل كسبه كل سنة ليوزع على أرباب الديون بنسبة ديونهم[1].

ولقد عرفت الطوائف الحرفية درجة متميزة من الأخلاقية المهنية التي ظهرت على مختلف المستويات، فشيخ الطائفة اشترط فيه إلى جانب معرفته بأمور الحرفة وقدرته على أداء واجبات المشيخة، أن يكون متحلياً بالعفة والاستقامة والتدين، واشترطت نفس الصفات في النقيب واليكيت باشي. وإذا ماأخل الشيخ ومساعده بالثقة التي وضعت فيهما، حق لأفراد الطائفة طلب عزلهما ويوافقهم القاضي على ذلك بعد إثبات صحة دعواهم.

واستطاعت الطائفة الحرفية أن تصهر الحرفيين على اختلاف مذاهبهم في بوتقتها. وبهذا الاعتبار فقد تجاوزت حدود التمييز المذهبي أو الديني، فشارك المسلمون والمسيحيون بانتخاب شيخ الطائفة على أساس المقدرة والاستقامة والتدين. وكانت الطوائف الحرفية على علاقة واشجة مع الطرق الصوفية ولقد لعبت هذه العلاقة دوراً مؤثراً من الناحية السلوكية، وكانت إلى حد كبير، طريقة تسليك المريد في الطرق الصوفية تشبه مايتم للأجير أو الصانع عند الشد في الحرفة، وارتبطت كل طائفة حرفية بشخصية دينية قديمة تدّعي لنفسها الانتماء إليها[2].

وبرز التعاون فيما بين أعضاء الحرفة في مجال دفع الضرائب للدولة. فإذا ماعجزت فئة منها أو تعطلت عن دفع ما ترتب عليها، كانت بقية الطائفة تدفع كامل المبلغ المترتب على كل الطائفة. فمثلاً في دمشق في الربع الثاني من القرن الثامن عشر كان في دمشق تسعة محامص للبن موزعة في أنحاء دمشق، وشكل أصحابها طائفة حرفية للبن وكان على الطائفة مائتا قرش ضريبة في الشهر. وقد تعهد أفراد هذه الطائفة لدى القاضي بدفع كامل المبلغ حتى ولو تعطلت إحدى المحامص بحيث لا ينقص مال الميري[3].

---

(١) انظر: سجل رقم ١٤٨/ ص١٥٧. القضية تاريخ /١٩ جمادى الأولى عام ١١٦٨هـ/٣ آذار عام ١٧٥٥م.

(٢) انظر: جيب وباوون. المجتمع الإسلامي والغرب. ج٣. ص١٢٣ الترجمة. ثم: قدامة، أحمد. معالم وأعلام في بلاد العرب. ج١. قسم ١. ص٤١.

(٣) انظر: سجل محكمة دمشق الشرعية رقم ١٠١/ ص٢ تاريخ /٢ جمادى الثاني عام ١١٥١هـ/٧ تشرين الثاني سنة ١٧٣٨م.

وعلى المستوى الاجتماعي نرى أن معظم الحرفيين كانوا يتزوجون من بنات رجال الحرفة الواحدة أو الحرف الأخرى. وتطالعنا سجلات محاكم دمشق بالأمثلة العديدة على ذلك ـ مع أخذهم بعين الاعتبار الانتماء الديني والمذهبي[1].

حال الطوائف الحرفية مابين نهاية القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر

حاولت الدولة العثمانية إبعاد التنظيم السياسي عن طوائف الحرف وذلك بالإشراف عليها. إلا أن هذه الطوائف لعبت دوراً سياسياً في فترة ضعف الدولة العثمانية في دمشق حيث انضمت إليها زمر الانكشارية اليرلية[2] ومحضت الطوائف الحرفية حماية معينة نظراً

---

(١) انظر: على سبيل المثال سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ /١٢١٦ ـ ١٢١٧هـ/ حيث تطالعنا معظم حالات الزواج والطلاق على طبيعة هذه العلاقة.

(٢) استطعنا أن نرصد بعض الحرف التي انصب اهتمام الانكشارية عليها وكذلك بالنسبة لأشراف دمشق. فالانكشاري عمل: قواصاً لدى القناصل وقضمانياً وغزالاً وقصاباً وسراجاً ولباناً ونحاساً ومرادنياً ودلال عقارات ومراشحياً ومقهوياً وجزماتياً وخانجياً وكيالاً وعطاراً وبياعاً وقوافاً وحبالاً ومكارياً وقطاع نعل ومعماراً وتختر وانجيا وشعاراً وقاطرجياً وقاوقجياً يبيع القواويق الملونة من الجوخ لليكجرية وكذكجياً يصنع الكديك الأسود المقصب، وشعالاً وسروجياً وخانجياً وبرادعاً وحمامياً وشالاتياً ومكلساً ونقلياً وزنبركجياً أو سلالاً وصاغرجياً وشاوياً وحبالاً وتاجراً للقماش الأسيوطي ومغربلاً وغيرها من الحرف.

أما الأشراف فعمل الواحد منهم شعاراً أو جنباظاً أو حجاراً أو عطاراً أو ركابياً أو مكتبياً أو كباريتياً أو حبالاً أو جليلاتياً أو دكاكاً أو ترجماناً أو. جباناً أو شاوياً أو قضمانياً أو بازرباشياً أو طحاناً أو حمامياً أو منادياً أو مجلخاً أو بقسماوياً أو قزازاً أو محايرياً أو سوقياً أو حكواتياً أو جوخياً أو ياسرجياً أو ذقاقاً أو دوجياً أو كعيكاتياً أو نعالاً أو صرماياتياً أو جعيدياً أو شعالاً أو دباغاً أو شعالاً أو زرابلياً أو معماراً أو قوافاً أو آلاجاتياً أو نحاساً أو صاجاتياً أو بياع المغربية أو حداداً أو عقاداً أو علبياً أو جراحاً أو بستانياً إلى غير ذلك من الحرف. انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠ / ص٥٤٢ و ص٥٤٢ و ص١٥٨ و ص٢٠٨ و ص٢٤١ و ص٢٦٦ و ص٢٧٤ و ص٢٧٧.

ثم: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ / ص٧٥ و ص١٥٩ و ص٢٧٩.
ثم: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٨ / ص١٦ و ص٣٤ و ص٥٠ و ص٧٥ و ص٨٠.
ثم: سجل محكمة الميدان رقم ٣٢٣ / ص١٤٩ و ص١٨٦ و ص١٩٥ و ص٢٣٥ و ص٣٣٦.
ثم: سجل محكمة الميدان رقم ٢٢١ / ص١٣ و ص١٨٦ و ص١١٠ و ص٢٥٠ و ص٢٦٥.
ثم: سجل محكمة الميدان رقم ٢٣٥ / ص١٨٥.
ثم: سجل محكمة الميدان رقم ٢٣٩ / ص٢٧٦ و ص٤٣٥ و ص٥٢٣.

لمصالحهما المشتركة، وكان يصعب التمييز بين قوى اليرلية والطوائف الحرفية في دمشق، ولقد حاول معظم الولاة الذين دخلوا في صراع مع قوى اليرلية، أن يفصلوا بينهما ليسهل عليهم ضرب اليرلية دون استعداء طوائف الحرف عليهم. فعبد الله باشا الجته جي والي دمشق في (١١٧١هـ/١٧٥٧م) سعى لتصفية اليرلية الدمشقية فطلب أشقياء اليرلية الخارجين عن الطاعة في حي الميدان دون أصحاب العرض (طوائف الحرف)، فتغلظت عليه أكباد

ثم : سجل القسمة العسكرية رقم ٤٠٩/ ص٤٢ و ص٤٧ و ص٥٥ و ص٦٥.
ثم : سجل محكمة الميدان رقم ١٩٨/ ص٥٤٥.
ثم : سجل القسمة البلدية رقم ٣٢٧/ ص٥٢ و ص٥٣ و ص٥٤.
ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق ٢٣٤/ ص٢٢١.
ثم : سجل القسمة العسكرية رقم ٣٤٠/ ص٦٦.
ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/ ص٢٥٨ و ص٢٨٠.
ثم : سجل سجل محكمة الميدان رقم ٣٢٣/ ص٦٤.
ثم : سجل القسمة العسكرية رقم ٣٤٠/ ص١١٩ و ص١٢٥.
ثم : سجل سجل رقم ٢٣٥/ ص٤٣.
ثم : سجل رقم ٣٧٨/ ص٧٩.
ثم : سجل سجل القسمة العسكرية رقم ٢٦/ ص٢٢٠.
ثم : سجل القسمة العسكرية رقم ٢٦/ ص٢٨٧ و ص٢٨٩ و ص٢٩٤ و ص٤٣٥ و ص٤٣٦.
ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠/ ص٤٩١.
ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٤/ ص٣٩.
ثم : سجل القسمة العسكرية رقم ٢٣٨/ ص٧٦.
ثم : سجل القسمة العسكرية رقم ٢٦/ ص١٣٩.
ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/ ص٣٥ و ص٥٠.
ثم : سجل القسمة العسكرية رقم ٢٦/ ص٢٦٠ و ص٣٤٨ و ص٣٥٠ و ص٣٧٤ و ص٤١١.
ثم : سجل رقم ٢٣٥/ محاكم دمشق/ ص٣٧ و ص١٧٥.
ثم : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٣٨/ ص٣٢ و ص٤٦ و ص٥٤.
ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/ ص١٨٠ و ص٢٦ و ص٤٤ و ص١٠٩.
ثم : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦/ ص٢٢٧.
ثم : سجل رقم ٣٢٤/ ص١٣٠.
ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠/ ص٤١١ و ص٢٧٧.
ثم : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦/ ص١٣٩.
ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠/ ص٥٤ و ص٢٣٢.

الانكشارية[1] . بسبب ذلك . كما وجهت ضربة أخرى إلى طوائف الحرف على يد والي دمشق وصيدا أحمد باشا الجزار « حيث أمر بتحضير أرباب الحرف والصنائع إليه فحضر إليه التاجر والفاعل والاسكاف والسمان وكل صاحب حرفة من المدينة فأمر أن يدخلوا عليه فرداً فرداً وكان الداخل إليه يكشف عن رأسه ويتقدم من الجزار وكان يطلق سراح البعض ويبقي على البعض الآخر . وكان عدد الباقي عنده مائتين وثلاثين رجلاً على اختلاف عملهم وحرفهم ، وفي مؤخر النهار أمر بذبحهم ظهرياً على شاطىء البحر ، وأبقاهم طعاماً للوحوش إلى ثاني يوم »[2] . وكان من الطبيعي أن يفر العديد ممن تبقى من الحرفيين خوفاً على حياتهم .

هذا ناهيك عن ابتزاز العديد من الولاة وبطرق شتى لأموال طوائف الحرف والحرفيين . وحاول بعض الولاة احتكار بعض الصناعات ومنع حرفييها من ممارستها بغية جني أرباحها لنفسه ، فوالي دمشق الكنج يوسف باشا في عام ١٢٢١هـ-١.٢٢٣ / ١٨٠٦ ـــ ١٨٠٨م أبطل الشهبندر ثم الزنانير الطرابلسية ومنع المومسات من ممارسة أعمالهن وكن يشكلن طائفة حرفية معترفاً بها [3] . كما أبطل عدداً كبيراً من صناعات الحلوى ومنع تناولها من قبل الشعب كالكنافة والبغاجة ـــ والبقلاوة ـــ والقطايف ـــ والعوامة ـــ وغيرها ويقول حسن آغا العبد معلقاً « حصل لأهل الشام كدر لأن ماسبق مثل هذا الأمر من قديم الزمان »[4] ولم يكتف هذا الوالي بذلك بل قام باحتكار صناعة الصابون دون حرفييها في دمشق ويقول حسن آغا العبد : « مأأحد استرجا يطبخ صابون إلا هو يبيعه من تحت يده »[5] . كما أبطل العديد من الحرف كالملاهي والملاعيب والنوبات والآلات فحرم حرفييها من التكسب بها ، وفرض على الحرفيين مائة وخمسين كيساً من المال[6] .

والحقيقة أنه عندما كانت طوائف الحرف تأنس في نفسها القوة ، كانت تتصدى لمظالم الهيئة الحاكمة فتفرض ماتريده ، فمثلاً في عام ١٨٣١م وعندما حاولت الدولة العثمانية

---

(١) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص٢١٤ .
(٢) انظر : مشاقة ، ميخائيل . مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان . ص٤٨ ثم شهاب ، حيدر تاريخ أحمد باشا الجزار . ص١١٣ .
(٣) انظر : العبد ، حسن آغا ، ص١٣٩ .
(٤) المصدر السابق . ص١٤٣ . وربما الشنبر بدلاً من الشهبندر وهو نوع من غطاء الرأس للنساء .
(٥) انظر : المصدر السابق . ص١٤٨ و ص١٤٩ .
(٦) انظر : المصدر السابق . ص١٤٠ ص١٤١ ثم الدمشقي ، ميخائيل ، حوادث الشام ولبنان . ص١١٠ .

فرض ضريبة الصليان على يد واليها محمد سليم باشا، نصبت طوائف الحرف وبقية أبناء الشعب المتاريس في شوارع مدينة دمشق وأعلنت الثورة وقتلت الوالي . وعندما عين بديلاً عنه الوالي علو باشا «قامت أهل البلد الصَّناعية مرادها تقب وتثور على مادة غلا الخبز فنزل التوفكجي بالدورة وقصد يكمش الناس المتظاهرين وتبين له أن الحرف ثائرة لأنها تريد تزويد أجرة الصنعة من أجل الغلاء فأخذ الصنايعية زود دورة (حياكة القماش) القطني كانت ٦ صارت زود ٦ والفتالة (للغزل) كانوا يأخذوا على رطل الحرير أحد عشر صار اثني عشر الالاجة زادت نصف قرش . وحرفة الكريشانية (نشارو الخشب) طلبت زود »[١] .

وعندما بدأت قوات ابراهيم باشا تزحف على بلاد الشام واقتربت من دمشق اضطربت أحوالها وغلت الأسعار فيها فاضطرت طوائف الحرف لرفع أسعار منتجاتها كي توازن بين دخلها ومصروفها[٢] .

وبالرغم من كل ماتعرضت له طوائف الحرف من مظالم فقد بقي دخل أصحابها يؤمن لهم معيشتهم إلى قيام الثورة الصناعية في أوربا . نتيجة لاختراع ريتشارد كرايت أولى آلات غزل القطن في سنة ١٧٦٧م/ ١١٨٠ ـــ ١١٨١هـ، ولاستخدامه طاقة الماء في إدارتها بديلاً عن طاقة الانسان في ١٧٧١م/ ١١٨٤ ـــ ١١٨٥هـ، ولاختراع آلة تمشيط الغزل في ١٧٧٥م/ ١١٨٨ ـــ ١١٨٩هـ، وإدخال تحسينات على آلات الغزل في ١٧٩٠م/ ١٢٠٤ ـــ ١٢٠٥هـ، بإدخال طاقة البخار في إدارتها . فعندما عم استخدام هذه الآلات أدى إلى زيادة في إنتاج النسيج في الدول الأوربية ، وفاض عن حاجتها المحلية ، مما دفع بهذه الدول للبحث عن أسواق لتصريف فائض إنتاجها ، فرأت في الأسواق العثمانية القريبة ضالتها ، واستغلت المعاهدات التجارية مع العثمانيين . وقامت بتطوير وسائل النقل البحري بإدخال طاقة البخار في تسيير السفن ، وأدى ذلك إلى زيادة في حمولتها وإمكانية سفرها في مختلف الظروف والأجواء[٣] ، ونتج عن ذلك أن أغرقت موانىء شرق المتوسط (بلاد

---

(١) انظر : مجهول . مذكرات تاريخية . ص٢١ و ص٤٤ و ص٤٥ و ص٤٦ .

2 - Koury.G. opcit. P.196.

3 - Chevallier. D. «Beginning of modernization in the middle east the nineteenth Century» partie4. PP.206-207.

ثم مجلة المعرفة . ص١١٢ إصدار سويسرة ـــ ترجمة مصر سنة ١٩٧١م.

الشام) بمنتجاتها ، ونقلت إلى الداخل لتنافس المنسوجات المحلية ، لرخص ثمنها وثبات ألوانها وجودة صناعتها .

وعجزت المنسوجات المحلية عن الصمود في وجه المنافسة الأوربية . وزاد في الطين بلة اتباع الأوربيين الأساليب الجديدة في تعاملهم التجاري مع الدولة العثمانية ، ومنها بلاد الشام . ففرنسا مثلاً اصطفت لنفسها المواد الأولية ، كالأصباغ وخيوط الغزل والألياف والزيت والجلود مقابل بضائع مصنوعة لديها ، كما أخذت مافاض عن ذلك نقداً . أما إنكلترة فقامت ببيع أقمشتها من القطن الرقيق ببلاد الشام مقابل المعادن الثمينة في ، وأصبح الانتاج السوري باستثناء الحرير لا يلائم الصناعة الأوربية ، وحتى الحرير المنتج ، لم يتوفر منه أكثر من حمولة ٣ ــ ٤ بواخر أوربية . وماتبقى من السلع الشامية قد أهمل ، وأصبح ميزان التجارة العثماني في عجز دائم لصالح دول أوربا [1]. وجاءت الضربة القاضية للصناعات الشامية في عهد ابراهيم ا المصري ، فبالرغم من أنه أنعش بعض الحرف التي كانت تعمل لصالح الجيش المصري ، إلا أنه من جهة ثانية فتح أبواب دمشق على مصراعيها للقناصل الأجانب وتجارهم ، وشجع تجارتها مع أوربة ، فلم تقو حرفها وصناعاتها على مقاومة الصناعات الأوربية التي أدخلت منتوجاتها إلى السوق الدمشقية على نطاق واسع ، فأفلس العديد من تجارها وصناعييها ، وكنست بضائع أوربا من طريقها العديد من منتجات أنوالها النسيجية ، فزاد عدد العاطلين عن العمل وانخفض ثمن الخلو (كدك الحوانيت) ، وعجز معظم الحرفيين عن دفع الضرائب المترتبة عليهم للدولة . وسجلات محاكم دمشق الشرعية لتلك الفترة ، مليئة بالإشارات التي تدل على ماآل إليه حالة الحرفيين من جراء ذلك .

ومما كتبه بوال كومت لحكومته في سنة ١٨٣٣م «إن قدوم الأقمشة الانكليزية قد تسبب في تعطيل / ١٠،٠٠٠ / عامل عن العمل في سنة واحدة . ومابين عامي ١٨٢٨ ــ ١٨٢٩م وجد في مدينة دمشق وحدها /١٠٧/ مخازن تبيع المنتجات الانكليزية . وكان إدراك تأثير ذلك على الصناعات المحلية سهلاً وواضحاً . وكان عدد أنوال القطن والحرير في حلب بحدود / ١٢٠٠ / نول تنسج في اليوم / ١٢٠٠ / قطعة تقريباً ، وكان يعمل فيها في سنة ١٨٢٩م مابين / ٥٦٠٠ ــ ٦٠٠٠ / عامل وكانت تنتج نوعاً من

1 - Chevallier. op.cit. PP.209-210.

القماش المرتفع الثمن سواء أكان من الحرير أو القطن، ولم يبق منها عاملاً في مجال نسيج القطن سوى / ٥٠٠ / نول »[1] .

وفي إحدى القضايا المسجلة في ٥ محرم عام ١٢٦١هـ/ ١٤ كانون الثاني عام ١٨٤٥م، يطلب أحد كبار الملتزمين للضريبة على بعض طوائف الحرف النسيجية في دمشق، من السلطات المسؤولة، تخفيض قيمة الالتزام لهذه الضريبة بسبب «حالة الكار وقلة تشغيله من قبل تكاثر وجود أجناس بضائع افرنجية. فالأقمشة الشامية كل مالها على تدني ومن ذلك يزيد بالاقلام (الالتزام) المذكورة تتدنى حاصلاتها، وهذا شيء معلوم عند حضرتكم»[2] .

وهكذا اضطر معظم حرفيي صناعة النسيج في دمشق لترك حرفتهم والبحث عن مصادر أخرى للعيش «لوقوف حال أغلبهم أصبحوا يبيعوا خبز وخضر من قلة السبب»[3]، في حين استطاع العديد من تجار دمشق أن يكيفوا أنفسهم مع الواقع الجديد، فبدأوا يبيعون البضائع الأجنبية في متاجرهم، وأصبح تعاملهم مع (لوندرا) وغيرها مألوفاً، وبرزت نتيجة لذلك طبقة برجوازية تجارية محلية أثرت على حساب اقتصاد دمشق وقوت حرفييها. وكان هؤلاء التجار من مختلف المذاهب الدينية. ولقد أدى التداخل بين الاقتصاد الأوربي والاقتصاد الدمشقي إلى تعقيدات عدة، فاقتضت الحاجة إنشاء محكمة تجارية في العهد المصري، ثم ألغيت، إلى أن أقيمت بشكل دائم في عام ١٨٥٠م[4]. وترتب على هذه التحولات الكبيرة أن أصبح الاقتصاد المحلي تابعاً للاقتصاد الأوربي. وأدى ذلك بدوره إلى تحولات عميقة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في بلاد الشام.

الفلاحـون

شكل هؤلاء قاعدة عريضة في الهرم الاجتماعي لبلاد الشام، لأن مجتمعها كان زراعياً تخدمه بعض الحرف والتجارات. وعاش الفلاحون على الزراعة وتربية المواشي. وكان فلاحو

1 - See: Polk. William. opcit .P.166.

(٢) انظر: السجل رقم ١١ / محاكم دمشق/ ص٩٩ / ٥ محرم ١٢٦١هـ/ ١٤ كانون الثاني سنة ١٨٤٥م.

(٣) انظر: مجهول. مذكرات تاريخية. ص١٦٣.

(٤) انظر: رافق، عبد الكريم. مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني. مقالة له في مجلة دراسات تاريخية. العدد الرابع. ص٥٥ / نيسان ١٩٨١م.

دمشق يعتمدون في زراعتهم على مياه بردى وبعض الينابيع المتفرقة، كما كان البعض الآخر يعتمد في ذلك على ماتجود به السماء من الأمطار (الزراعة البعلية). إلا أن ذلك كان خارج غوطتها وفي المناطق الجنوبية منها بشكل خاص.

ورغم أن الفلاحين كانوا أكثر عدداً من بقية السكان إلا أن نفوذهم السياسي كان من الضحالة بحيث لم يأت بعدهم في الترتيب الاجتماعي سوى البغايا والعبيد.

استقر الفلاحون في دمشق وضواحيها وأريافها، وفي المناطق الجبلية المحيطة بها وسهولها الجنوبية، وقامت تجمعاتهم في الغالب على أصول قبلية عشائرية أو أسرية (ضمن القرية الواحدة أو مجموعة من القرى المجاورة) أو على أساس طائفي، وفي القليل النادر على أساس عرقي (قومي) كمحتيتة التركمان في غوطة دمشق أو سريان جبعدين ومعلولا، وأكراد ربض ركن الدين وقرية قلدون والزبداني. ومع ذلك لم يحرم الفلاحون الروابط الحرفية كغيرهم من الحرفيين الآخرين في دمشق. إلا أن شيخ حرفتهم كان شيخ القرية، كما كان للبساتنة شيخ يطلق عليه اسم شيخ البساتنة.

وكان شيخ القرية رئيس الأسرة القوية فيها، وينظر إلى الشعب نظرة السيد فيسلبه راحته فضلاً عن ماله أنى شاء وكيف شاء[1]. هذا إذا أرضى سادته من هيئة الحكام التابع لهم كالمقدمين والأعيان أو القضاة أو المفتين أو الأغوات، الذين كانوا يضمنون مال الميري من الدولة بالمزاد العلني. وكان هؤلاء السادة يحاولون وبشتى الوسائل جمع أضعاف مضاعفة مقابل مادفعوه للدولة من جيوب الفلاحين. لهذا قاموا بافتعال الخلافات بين مشايخ القرى وغرمائهم، وأزكوا نار الفتنة بينهم، وتوجوا ذلك بعزل شيخ الضيعة بغية ابتزاز الأموال منه ومن غريمه الطامع للمشيخة. ويذكر صاحب «المقترب في حوادث الحضر والعرب»: بأن الآغا الملتزم يرسل «وراء كبار الضيعة ويقول له أنا أعملك شيخ على الضيعة وأعزل فلاناً ماذا تعطيني؟ فيرغب التعيس بهذا الكلام ويدفع ألف قرش أم ألفين الذي يرتضوا عليه فيعزل الشيخ الحاضر وينصب الجديد. ومن المعلوم أن الشيخ الذي انعزل من منصبه وترزل لا يسكت ولا يقبل عليه الذل والعار قدام أهل الضيعة فينزل على البلد ويترامى على الآغا الضمان ويدفع أكثر مما دفع الشيخ الجديد فحينئذ الضمان يعمل ذنب إلى الشيخ الجديد

---

(١) انظر: مشاقة، ميخائيل، مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان. ص٣٠.

ويرجع القديم إلى المشيخة يكون كسب بهذه الحركة مقدار نصف الضمان ويوجد من الضمانة الطماعين الذين يعملون هذه الحركة مرتين في السنة »[1].

ومن جهة أخرى ترأس شيوخ القرى شخص يطلق عليه اسم « شيخ مشايخ القرى أو المقاطعة » واعترفت الدولة العثمانية بسلطته. وكان شيخ المشايخ غالباً من الإقطاعيين أو من رؤساء القبائل أو العشائر القاطنة في تلك المقاطعة، أو من زعماء السباهية أو رجال الدين أو الانكشارية أو شيخ قرية. وكان يقوم بجمع الضرائب للدولة من مشايخ القرى التابعة له، كما كانت له قوات خاصة مسلحة تساعده في ذلك[2]. وكان شيخ المشايخ يقيم له معاونين ووكلاء يطلق عليهم اسم مشايخ تعزيزاً لهم. وكان يفرض عليهم مالاً محدداً ولا يسألهم عن أعمالهم، فيمرحون ويطلقون لمطامحهم الأشعبية الأعنة في مص حياة الشعب من عروقه بلا شفقة، وكانوا يستعبدون ويأتون المنكرات في أكثر أعمالهم الجائرة، والفلاحون يؤدون الطاعة العمياء[3].

أما الفلاحون فيمكن تصنيفهم آنئذ إلى درجات، يأتي في أدنى المراتب الفلاحون الخاضعون لنير الإقطاعي مباشرة. وكانوا أفقر فئات الفلاحين، حتى أن زواجهم خضع لموافقة الآغا أو البك أو الشيخ. ثم هناك الفئة الثانية من الفلاحين، وهم العمال الزراعيون الذين تمتعوا بحرية التجوال للحصول على لقمة العيش. والفئة الثالثة من الفلاحين، الفلاحون الفقراء، الذين كانوا يملكون قطعة أرض صغيرة لاتكفيهم للحصول على لقمة العيش فاضطروا لتقديم خدماتهم لأغنياء الفلاحين، أو عملوا في المدينة أعمالاً مختلفة. ثم الفئة الرابعة وهم الفلاحون متوسطو الحال، وهؤلاء ملكوا قطعة من الأرض تغل عليهم مايكفيهم لمستوى حياة متواضعة في القرية. أما الفئة الخامسة من الفلاحين فهم الفلاحون الأغنياء. وهؤلاء كانوا يقومون بتشغيل فلاحين آخرين في أرضهم وتحت إشرافهم مباشرة. وهم غير منتجين ولكن مصاريفهم لا تعرف التبذير. ثم الفئة السادسة من الفلاحين وهم فلاحو الدولة الذين عاشوا في قلق دائم، إلا أن أحوالهم المادية كانت أحسن من الفلاحين الذين عملوا لدى الإقطاعيين[4].

(١) انظر: الصايغ، فتح الله ص٦٧أ و ٦٧ب.
(٢) انظر: السيولي، حبيب. سورية ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. ج٢. ص٦٠.
(٣) انظر: مشاقة، ميخائيل. المصدر السابق. ص٣٠.
(٤) انظر: حنا، عبد الله. القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان. القسم الأول. ص١٢٧ ص١٢٨ ص١٢٩.

ومن جهة أخرى فقد ساد البرود علاقة الفلاحين بالمدينة ، وكانت علاقة اقتصادية ذات منفعة متبادلة وبالنقد [1]. على حين كانت علاقة الفلاحين مع بعضهم تقوم على النقد أو على أساس المقايضة . ورغم المنفعة المتبادلة بين أبناء الريف والمدينة فلم يكن الفلاح ليحظى بالاحترام من أبناء المدينة بل كان محط سخريتهم [2].

ومع ذلك فإن فلاحي الغوطة شاركوا بعض أبناء مدينة دمشق في الصراعات السياسية . وانتصروا لهم بتأثير روابط العصبية الجاهلية . فمثلاً أهل الحقلة انتصروا لأهل العمارة في صراعهم مع أهل الميدان ، كما اعتمد أبناء دمشق على الفلاحين عندما ثاروا على محمد سليم باشا بسبب ضريبة الصليان في عام ١٨٣١م ، حيث « نبهوا على أهل الضيع بأن الذي ماعنده بارود يشتري ، والذي ماعنده سلاح يشتري . وحينئذ جميع الناس صاروا يشتروا بواريد والسلاح صار عند جميع الناس » [3].

وبالرغم من أن الروابط العشائرية أو العائلية بشكل عام قد وفرت الأمن والتعاون بين الفلاحين ، إلا أنها من جهة أخرى قد جرّت الويلات عليهم . ولم تكن السلطات العثمانية بعيدة عن إثارة النزاعات العشائرية بين الفلاحين لتبتزهم جميعاً . ويقول صاحب (المقترب في حوادث الحضر والعرب) « كان ديدبان الحكام وكبار البلد إلقاء البغضى وعدم الوفق والمحبة بين الفلاحين .. ولو لا وجود البغضى بينهم لما كان أحد قدر شرب ماء من عندهم » [4].

وجرّت الصدامات ، على الفلاحين ، الويلات والكوارث . فأزهقت الأرواح وهدمت البيوت ونهبت المواشي والأرزاق وقطعت الأشجار وحرقت البيادر وردمت آبار المياه ، فهجر العديد منهم قراهم . ولم تحدث الصدامات بين فئتين تنازعتا في القرية الواحدة ، بل نراها أحياناً تجري بين قرية وأخرى ، أو بين عدة قرى في المقاطعة الواحدة . هذا ناهيك عن ضغط البدو على فلاحي قرى منطقة المرج من دمشق أو القرى التي تقع على حوافي البادية بشكل عام ، ففرضوا الخوات على هذه القرى ورعوا كل أخضر ، خاصة في السنين العجاف ، وزاد في الطين بلّة ضعف السلطة العثمانية وعجزها عن دفع أذية البدو ، مما أجبر الفلاحين على

(١) انظر : جيب وباوون . المجتمع الإسلامي والغرب . ج٢ . ص٨ و ص٢٣ ـــ الترجمة .

(٢) انظر : المرادي ، محمد خليل . سلك الدرر . ج٣ . ص٢٧٦ .

(٣) انظر : مجهول مذكرات تاريخية . ص٣٥ .

(٤) انظر : الصايغ ، فتح الله بن أنطون . ص٦٠ ب و ص٦١آ .

هجر قراهم. ويقول الرحالة بوركهارت: «قليلاً مانرى من الفلاحين الذين ولدوا في قرية من حوران يموتون فيها لكثرة ترحالهم كالبدو تقريباً فلا يستقرون في قرية ما حتى يمارس عليهم نوع من الاضطهاد والعسف فيدفعهم ذلك للهجرة إلى قرية أخرى». وكثيراً مالعب ضغط شيخ القرية دوراً في هذه الهجرة، وأدى ذلك بدوره إلى بروز ظاهرة عدم تشجير الأراضي الزراعية في حوران، وانتفاء الأرض المزروعة بالخضروات. حيث يقول الفلاحون: «نحن لا نزرع هذه الأرض من أجل الغرباء»[1] أي أنهم لن يقطفوا ثمار مازرعوا لاضطرارهم للهجرة بسبب تلك المظالم والخلافات.

ولقد أسهم في بلاء الفلاحين الذين عاشوا في الأراضي الزراعية البعلية، شح الماء في بعض السنين العجاف، وانتشار أسراب الجراد والفئران الحقلية والأمراض الوبائية والصقيع والسيول في أحيان أخرى، وإذا ماحاول الفلاح مجابهة هذه الآفات والأدواء، فبأساليب لم تستطع، في أحسن الأحوال، أن تنقذ إلا القليل من مواسمه، ولم تقو مواسمه حتى الجيدة منها في أحسن السنوات على أن التصدي لحالات الطوارىء الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية التي كانت تجابهه.

والحقيقة أن وضع الفلاحين كان مختلفاً إلى حد ما بين غوطة دمشق التي ترويها مياه بردى وفروعه معظم فصول السنة، والمناطق البعلية الأخرى التي تعتمد في زراعتها على مياه الأمطار، إذ أن حال فلاحي الغوطة كان أفضل، لإمكان زراعة أرضهم بأكثر من موسم واحد في السنة. مما يوفر دخلاً جيداً إذا ماقيس بدخول فلاحي المناطق الأخرى خارج الغوطة. وأدى بدوره إلى وضع اجتماعي أفضل. ولقد زرع فلاحو الغوطة أرضهم مرتين في السنة، واستخدموا في ذلك أساليب الزراعة الحثيثة الموروثة منذ أجيال، كما لعب التشجير المثمر في تلك الغوطة دوراً في رفع سوية دخل الفلاح المادية، على عكس المناطق البعلية في حوران مثلاً.

ومن جهة أخرى فإن نظام توزيع مياه بردى على القرى كان يتم بشكل دقيق، فلكل قرية من الغوطة أيام مخصوصة تعرف بالعدان. ولتحافظ كل قرية على عدانها عينت عدة

1 - Travels in Syria and the Holy Land, P.299.

أشخاص لهذه الغاية، وكان يسمى أحدهم «الشاوي»[1] ولهم أجرة معلومة يتقاضوها سنوياً. وكانت مهمة هؤلاء تسريب المياه بنسب معينة، ومنع أي اعتداء على هذه النسبة من المياه، وهم الذين يحددون أدوار سوق المياه من قرية إلى أخرى. وكان شيخ البساتنة والشوباصي يلعبان دوراً في تحديد البساتين ويشهدان على بيعها في المحاكم[2] وكان على كل نهر عدد من «الماصّات» لصرف المياه بنسب معينة تقدر بالقراريط، ومن الماصّات إلى مجاري لتروي بدورها البساتين من خلال الطواريق. ويقسم الطاروق إلى أشعاب (مفردها شعب)[3].

ولقد استخدم فلاحو الغوطة الذين لا تقع أراضيهم تحت مياه الأنهار، أو الذين لا تصل إليهم مياه الأنهار في فترات التحاريق من السنة، مياه الآبار لري أراضيهم، واستخدموا في رفع مياهها النواعير العادية أو الفارسية التي تقوم بتدويرها الحيوانات، كما

(١) انظر: سجل محكمة الميدان رقم ١٩٨، ص٣٢. وكان هناك نوعان من العدان عدان كبير وعدان صغير فمثلاً قرية الخيارة كانت ترتوي من نهر الزلف لها عدانان كبير وصغير، الكبير كل ١٤ يوم نهار الخميس وليلة الجمعة كامل النهر أما عدانها الصغير فكان يوم الجمعة الثانية وليلة السبت نصف النهر وكما ترى فقد حدد العدان بأحد أيام الأسبوع وساعات من اليوم. ونسوق مثالاً على ذلك بستان الزاغة من أراضي القنية والحمرية شربه من نهر المعلقات ومن ماء الخرق ومن الخلخال يوم الاثنين من الفجر إلى غروب الشمس في كل أسبوع ومن المعلقات والكلّاب نهار الجمعة من الفجر إلى غروب الشمس وليلة الأربعاء في خمسة عشر يوماً من غروب الشمس إلى فجر نهار الخميس. انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٣/ ص١٢٩.

وكذلك أراضي التطابع بالجورة بها أراضي فواكه وزيتون تروى من نهر الأنباط عدانان في كل سبعة عشر يوماً على نوب أهله وفي كل أربعة وثلاثين يوماً خمس ساعات من نهر الأنباط والشاغور على نوب أهله أربعة أيام وثلثا يوم مع لياليها وفي أوائل تشرين السبت من نهر الأنباط والأحد من نهر بانياس. انظر: السجل رقم ٣٣٦ / محاكم دمشق / ص٧٢.

كما كان مستأجر وبساتين الوقف في دمشق والتي كانت تروى من فروع بردى. يدفعون للدولة مبلغاً من المال مقابل مايدخل إلى بساتينهم من الماء من ماهية النهر.

انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/ لسنة ١٢٠١ ــ ١٢٠٣هـ. ص٤٩٠.

(٢) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٥/ ص١٨٩ تاريخ القضية / محرم ١٢١١هـ/ ثم: ص٥ من نفس السجل.

(٣) وهي فروع من بردى مثل: يزيد ــ قنوات ــ بانياس ــ الداراني ــ تورا ــ العقرباني ــ الداعياني ــ المليحي ــ الزبديني ــ الزابون ــ البيلاني ــ الملك ــ الشعراني ــ الأبيض ــ وغيرها وكان كل واحد من هذه الفروع يروي جهة معينة من غوطة دمشق. أما تقسيمها فكان يعود إلى عهود قديمة وكان لكل قرية أيام مخصوصة تعرف بالعدان.

انظر: القاسمي، محمد سعيد. قاموس الصناعات الشامية. ج٢. ص٢٤٩.

استخدموا في تسميد أراضيهم القمامة واشتروها من كناسي القمامة وبعض الخانات في دمشق. واستخدم الفلاحون الأقنية القديمة في مناطق القلمون، وهذه القنوات كانت عبارة عن آبار متتالية محفور كل واحدة منها على مسافة محددة عن الأخرى بحيث تسمح المسافة لمياه البئر الأولى للوصول إلى البئر الثانية تحت الأرض وهكذا، إلى أن تخرج في النهاية على شكل نبع ماء متدفق يروي الأراضي التي تقع تحت منسوبه بالراحة.

وكان يشرف على هذه القنوات والآبار في القلمون شخص يطلق عليه (السواط) ويتناول أجراً عن ذلك مبلغاً من المال سنوياً[1]. وفي غوطة دمشق كان الفلاحون يملكون مساحات قليلة من الأرض. وكان منهم الحراس أو الأجراء، وكانوا يستخدمون البغال والجمال والحمير والبقر في جر المحراث الروماني القديم. وكان الفلاح يقوم بسوق هذه الحيوانات بعد الانتهاء من الحراثة إلى المعالف الخاصة بها حيث يقدم إليها التبن والكرسنّة أو الفول أو الجلبان، والماء لسقايتها. وكان لبعض هؤلاء أجر سنوي على ذلك. وكان من الفلاحين (الشداد) أو المستأجر أو المزارع للحرث. كما وجد منهم الخولي، وكان يعمل لدى شداد الفلاحة أو مستأجرها، وهو ذو خبرة ومعرفة بسائر متعلقات الفلاحة، وكان يلاحظ مزروعات سيده الشداد ويقوم بالتفتيش على أشجاره خوفاً من التكسير ويراقب المرابعين، ويستأجر الفعلة في أيام الزبر والعزق والتجبير والتعشيب والتنكيش ويقدم لهم، بديلاً عن سيده، أجورهم. ويسلم قطعة خشبية محفورة يطلق عليها اسم (الروشيم) منقوش عليها اسم سيده أو كلمة: ياكريم — أو ياحافظ — أو بركة — فيرشم بها أكوام الحنطة أو الحبوب الأخرى[2]. فإذا ماسرق أي شيء من هذه الكومة كان ينفرط عقدها ويختفي الرشم، فيكشف ذلك ويعاقب الفلاح الذي قام بالسرقة.

ولقد تنوعت أشكال المزارعة واختلف الاستغلال من منطقة إلى أخرى. فكان الزراع يقومون بخدمة الأرض وحرثها وزرعها وحصد محصولها ودرسها وذريها، ولهم على ذلك ثلث المحصول[3]. وكانت طريقة المرابعة من أشهر أشكال المزارعة فيها يقدم الإقطاعي أو المعلم

---

(١) انظر: القاسمي، محمد سعيد: قاموس الصناعات الشامية. ج٢. ص٢٤٩، ص٢٥٠، ص٢٤٢، ص٢٤٣.

(٢) انظر: خنشت، يوسف..موسى. طرائف الأمس غرائب اليوم. أو صورة من حياة النبك وجبل القلمون في أواسط القرن التاسع عشر، ص٤٨.

(٣) انظر: القاسمي، محمد سعيد. قاموس الصناعات الشامية. ج١. ص٩٦.

(البقر والبدارات الميري وجميع المصارف والفلاح يحط تعبه فقط ويأخذ ربع الرزق من جميع الأشياء من حبوب وتوتون وحرير وقطن وذرة وسمسم وغير ذلك لهذا اسمه مرابع يعني شريكه في الربع)[1]. ثم هناك طريق الشراكة الحموية وفيها يقدم المالك السكن والأرض في حين يقدم الفلاح العمل، أما النفقات الأخرى من بذار وغيره فكانت تدفع مثالثة وبعد دفع الضرائب وغيرها من النفقات يقسم المحصول مناصفة.

أما النوع الثاني (فالمعلم يحط النصف والفلاح النصف من جميع الأمور من الميري إلى كل مصروف ويقتسم الرزق مناصفة وبعد القسمة يأخذ الفلاح الربع من حصة شريكه نظير أتعابه عليها)[2] والنوع الثالث (المعلم يحط كل شيء من كيسه من غير الميري إلى شيخ الضيعة عليها مبلغ معلوم يطلب من الشيخ والشيخ بدوره يطلبه من الرعية وقبل تقسيم الرزق فيما بين الفلاح ومعلمه يأخذ الشيخ الحاصل من جميع الذي يطلع الستة واحد وفي محلات أخرى من الخمسة واحد وهذا يتبع الأراضي الجيدات والخسعات أما النوع الرابع في الجبال والمقاطعات المحيطة بدمشق إذا أحد أراد يضمن ضيعة من المقدم فلا يتكلف إلى شيء كلياً ولا يحط الفلاح شيء كلياً فقط عليه يدفع الميري المرتب على الضيعة من الفلاحين ويأخذ من الحنطة والشعير وكامل الحبوب الربع ومن الحرير والتوتون النصف ومن الزيتون والفواكه كلها وله على الفلاحين أشيا راتبة أربعة مرات في السنة زخاير معلومة كبار من فحم وحطب وخواريف وجاج وبيض ولبن وحليب وهكذا أشيا فهذه ظاهرة لكن دائماً متصلة الزخاير الخدمات إلى بيت الضامن ولكن لا يقدر الضامن يعمل حركات مثلما يصير في الضيع الساحلي مثل حكاية العرايس خوفه من المقدم بل يقتضي يمشي بكل ضبط مع الفلاح)[3].

وكانت نسبة الميري في قرى الغوطة تقدر بـ /١٢٫٥٪، في حين كانت في قرى حوران تقدر بحسب الفدان وهكذا كانت القرية تدفع ١٢ كيساً للميري، فإذا كان هناك ٣٠ زوجاً من الثيران فإن صاحب كل زوج من الثيران يدفع جزءاً من ثلاثين جزء. وكل قرية مسعرة بالنسبة لضريبة الميري في سجل ضريبة الأرض الموجودة لدى الباشا أو الدفتردار

(١) المصدر السابق. ج١. ص١٢٨، ص١٥٥.

(٢) حنا، عبد الله. القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان. القسم ١، ص١٢٠ ثم: القاسمي، قاموس الصناعات الشامية. ج١. ص١٥٦، ص١٦٣، ص١٦٨.

(٣) انظر: الصايغ، فتح الله بن أنطون. المقترب في حوادث الحضر والعرب. ص١٠٠ب و ص١٧١.

وبمبلغ محدد وهذا المبلغ ينسجم مع تعداد سكان القرية ، وفي كل ثاني أو ثالث ربيع كانت، أرض القرية تقاس بحبال طويلة ، وعندما يترك أي فلاح القرية ، فإن المبلغ المترتب عليه يوزع على مجموعة سكان القرية من قبل شيخها ، وكان الفلاحون يتحملون كامل الضريبة المترتبة على الأفدنة المزروعة في ذلك العام . ويمكن أن تزداد أو تنقص كمية المال فيما إذا كانت الثيران قوية أو ضعيفة ، أو إذا كانت كمية البذار المزروعة أو الأرض التي زرعت بواسطة أصحابها . فإن كل ذلك لا يؤخذ بعين الاعتبار ولهذا كان على الفلاح أن يحوي قطيعاً قوياً من الماشية وعليه أن يحرث مايستطيع من الأرض . فالبعض كان يزرع ٦ غرارات من القمح أو الشعير في الفدان الواحد ، والبعض الآخر يزرع ٥ غرارات أو ٧ غرارات . أما حدود الحقول فكانت تحدد بواسطة حجارة ضخمة . وكان الميري يدفع عيناً أو نقداً ، بحسب رغبة الباشا ، إلا أن الفلاحين كانوا يفضلون دفعه نقداً لأنهم كانوا الرابحين بذلك .

وأما قرى جبل حوران فكانت تدفع مغارم أكثر من فلاحي سهل حوران المحيط بهم ، لأنهم كانوا يدفعون بالإضافة إلى الميري الخوات للبدو . فمثلاً قرية « عمارة » كانت تدفع عن الفدان الواحد ١٥٠ قرشاً وقرية ازرع من حوران كانت تدفع ١٨٠ قرشاً . وكانت بعض قرى سهل حوران تدفع ١٢٠ قرشاً . وفي عام ١٨١٢م وصل ريع الفدان الواحد إلى ٥٠٠ قرش[1] . وبشكل عام فقد ارتبط وضع الفلاحين بالظروف السياسية لولاية دمشق ، لهذا مر وضعهم في مرحلتين متميزتين ، أولاهما مابين بداية القرن الثامن عشر ونهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر ، والمرحلة الثانية من نهاية المرحلة الأولى إلى بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، أما المرحلة الأولى فتبدأ من أوائل القرن الثامن عشر (١١٢٠هـ/١٧٠٩م) حيث كلف ولاتها بإمرة الحج وتجهيز قافلته بما تحتاجه من مواد تموينية . وكان ذلك يعتمد على ماتغله أرض الولاية . ولضمان زرع الأرض كان لا بد من توفير الأمن للفلاح وتوفير أسباب الاستقرار له . ولقد استطاع ولاة دمشق الأقوياء في هذه المرحلة أن يوفروا ذلك ، خاصة وأن معظمهم قد طالت مدة إقامته في منصبه وكان معظم الولاة في هذه الفترة من آل العظم حيث استطاع هؤلاء أن يدفعوا غائلة البدو عن الفلاحين واعتداءات الجند . ويقول البديري الحلاق : إن أسعد باشا العظم « قد أرهب الكبار والصغار وعظم صيته في البراري والقفار »[2] .

---

1 - Burckhardt. J.L. PP.299.300.301.

(٢) انظر : حوادث دمشق اليومية . ص٧١ .

أما المرحلة الثانية بالنسبة لوضع الفلاحين فتبدأ بانتهاء فترة ولاة دمشق الأقوياء حيث أعقبهم ولاة كان للأحداث الخارجية والداخلية دورها في عجزهم عن تحقيق ما حققه الولاة السابقون للفلاحين ، من توفير الأمن والاستقرار ، حيث سادت الفوضى في عهدهم ، وانعدم الأمن وزاد تعدي الأقوياء من الجند والبدو والهيئة الحاكمة على الفلاحين . وعجز الولاة عن التصدي للحركة الوهابية التي اشتد ساعدها في الجزيرة العربية وسيطرت على الأماكن المقدسة في الحجاز ، ومنعت الحجاج من الدخول إليها ، فانصب جام غضب الدولة العثمانية على ولاة دمشق الذين عجزوا عن تسيير قافلة الحج إليها ، فقصرت لذلك مدة بقائهم في مناصبهم . وهكذا سادت الفوضى وزاد التعدي على الفلاحين فمثلاً : عام ١٢١٨ / ١٨٠٤م عندما خرج السكبان والدالاتية من دمشق نهبوا في طريقهم « قرى المزة والمعضمية والجديدة وعرطوز .. وهكذا جميع البلاد هلي في طريقهم من حمير وخيل وأواعي وغير ذلك »[1] . وفي العام التالي قام جند والي دمشق ابراهيم باشا بعد عودته من الحج بنهب القرى[2] . وكان الجند يتصرفون مع الفلاحين كسادة مستبدين ، فيطلبون الخبز والقهوة والتبغ واللحم ويذبحون الدواجن ويرافق ذلك الإهانات والإذلال ، فكان سيف الجنود مسلطاً فوق رقاب الفلاحين يجبرون على السكوت على مظالمهم[3] . وكثيراً ماأجبروا فلاحي الغوطة المحيطة بدمشق للجوء إلى أسوارها خوفاً من الاعتداء . فمثلاً عندما جرى الصدام بين والي دمشق ووالي صيدا في عام ١٢٢٥هـ / ١٨١٠ ـ ١٨١١م « انتقلت أهل القرى والميدان إلى داخل الصور خوفاً من النهب والحرق »[4] .

ولم تكن عناصر الهيئة الحاكمة وزبانيتها مصدر المتاعب والمظالم التي تعرض لها الفلاحون فحسب ، بل أسهم تجار دمشق بدورهم في هذه المظالم ، فكانوا يستغلون وضع الفلاح وحاجته للمال لشراء البذار والحيوانات أو لدفع غائلة الجوع عن أسرته في بعض السنين العجاف ، فتتلقفه في مثل هذه الحالة أيادي المرابين من التجار وعناصر الهيئة الحاكمة الثرية ليسلفوه على مواسمه فلا يبقى للفلاح « بعد عذابه في الفلاحة والزراعة والحصاد والدراس وغير ذلك من المشاق العظيمة ودفع الضرائب للدولة من غلاله سوى النذر اليسير

---

(١) العبد حسن آغا . تاريخ حسن آغا العبد . ص١١٢ .

(٢) المصدر السابق . ص١٢٠ .

3 - Volney. op.cit. p.379.

(٤) انظر : العبد ، حسن آغا المصدر السابق . ص١٥٢ .

وحتى الأوزان لم تسلم من تلاعب التاجر عندما يستلم الحبوب منه فتصبح عشرة الفلاح تسعة وإذا مااشترى الفلاح الغلال من التاجر تصبح عشرة التاجر إحدى عشر، فيرجع الفلاح المسكين صفر اليدين بعد أتعابه طول السنة وتعاد الكرة مرة أخرى وهكذا »[1] .

ويذكر الرحالة فولني الذي زار بلاد الشام في مطلع القرن التاسع عشر، أن المرابين كانوا يفرضون على الفلاحين نسبة من الفوائد تتراوح مابين ١٢ ــ ١٣٪ . ويقول فولني : «إن حالة الفلاح أصبحت بائسة وأصبح مأكله الذرة والشعير مع البصل والعدس ... وإذا ماتوفر له الزيت والشحم فيعتبر ذلك من المآكل الشهية »[2] أما ضريبة الأعشار فكانت أشد الضرائب وطأة على الفلاح لما يضاف إلى هذه الأعشار من الزوائد للسماسرة والملتزمين وأرباب النفوذ . وكانت تجبى منه هذه الأعشار سواء أثمرت أرضه أو لم تثمر. بالإضافة إلى دفعه ضريبة الخراج التي بقيت على الفلاحين المسلمين إلى أن ألغيت في ٧ أيار ١٨٥٥م[3] . ولقد استطاع ضامنو الأعشار من الدولة أن (يحصلوا) من الفلاحين نصف حاصلاتهم[4] . أما صيارفة اليهود فقد لعبوا دوراً أمر وأدهى في ظلم الفلاحين، إذ استطاعوا أن يملكوا حتى نهاية منتصف القرن التاسع عشر جزءاً كبيراً من أراضي الغوطة والربوة والمزة[5] واستخدموا طرقاً ملتوية للحصول على الأموال عندما كانوا مكلفين، كصيارفة، بتمويل قافلة الحج وجنود حراستها .

وكانوا ينصبون حبائلهم الخبيثة لابتزاز أموال الفلاحين على الشكل الآتي :

١ ــ يقومون بتخفيض سعر النقد قبل موعد خروج قافلة الحج، وكان أمر ذلك بيدهم بطبيعة عملهم .

٢ ــ ثم يسلفون جنود حراسة قافلة الحج على شكل سندات تؤخذ منهم على حساب الضرائب التي ستجمع من الفلاحين من أموال الميري بعد نضج محاصيلهم .

---

(١) القاسمي، محمد سعيد. قاموس الصناعات الشامية. ج١. ص٥٥، ص٥٦.

2 - Volney. op.cit. p.379.

(٣) انظر : الرافعي، مصطفى. الإسلام نظام إنساني. ص١٢٥. ثم : حنا، عبد الله، القضية الزراعية. قسم ١ ص١١٠.

(٤) القاسمي المصدر السابق. ج٢، ص٣١٠.

(٥) انظر : حنا، عبد الله. المرجع السابق. ص١٠١ و ص١٠٢.

٣ ــ ولحاجة الجنود الماسة إلى المال يقوم سماسرة اليهود الذين كانوا يترصدونهم خارج السرايا ، فيشترون منهم هذه السندات مع أخذهم عمولة على ذلك ، على أن يحصل هؤلاء السماسرة على أموال السندات المشتراة فيما بعد من الفلاحين .

٤ ــ يقوم الصيارفة اليهود بالتواطؤ مع أبناء دينهم السماسرة برفع سعر النقد ، قبل جمع أموال الميري من الفلاحين .

٥ ــ يضطر الفلاحون عند دفعهم ماعليهم من أموال الميري للدولة للدفع بالسعر المرتفع فيجني اليهود بذلك الأرباح الطائلة من هذه العمليات . ولا غرابة إذا ماأصبح بعض اليهود أغنى سكان دمشق[١] ، كما أضحى الفلاحون أشقى فئات الهيئة المحكومة . وارتضى الفلاحون الاستعباد على أن يكونوا أحراراً مالكين الأرض ، وذلك تخلصاً من الأعباء والضرائب الثقيلة التي لا تتحملها نفس بشرية[٢] ، فهجر العديد من الفلاحين قراهم حتى أصبح تدهور الإنتاج الزراعي مشكلة خطيرة ، مما دفع بالسلطات العثمانية في استانبول لإصدار أوامرها إلى والي دمشق في سنة ١٢٤٤هـ للاهتمام بالأرض والفلاحين وعدم السماح لهم بالتسكع بالشوارع[٣] .

ملكية الأرض والفلاحــون

شكلت ملكية الأرض ونوعيتها دعامة أساسية في الوضع الاجتماعي . لهذا كان لا بد من التعرف على أنواعها ، بحسب ماكان منها تحت تصرفهم وبحسب مساحاتها . ولكن تحقيق ذلك بالنسبة لنا يبدو صعباً نظراً لتعقيد نظام الملكية ، ولاختلافه من مقاطعة إلى أخرى في ولاية الشام . كما لا تسعفنا في هذا المجال إحصاءات دقيقة . ونستطيع مع ذلك رصد أربعة أصناف من الملكية هي :

١ ــ أراضي الدولة أو الأراضي الأميرية أو الميرية : وكانت هذه الأراضي تعتبر ملكاً للسلطان (أمير المؤمنين) .

---

(١) انظر : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق العدد ٩ / ص٦٤٥ ، ص٦٤٦ / ١٩٢٩م .

(٢) انظر : كرد علي ، محمد . جباية الشام في الإسلام مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق العدد ١ / ص٢٦٥ . سنة ١٩٢١م .

(٣) انظر : الوثائق التاريخية في دمشق ــ المجلد الثاني / ص٣٦ ، ص٣٧ ــ الوثيقة رقم ٣٠ / سنة ١٢٤٥هـ دار الوثائق التاريخية ــ المتحف الوطني بدمشق .

٢ ـــ أراضي الأوقاف : وحبست هذه الأراضي على وجوه خيرية عديدة، وكان منها الإسلامي والمسيحي واليهودي، كما كان منها أوقاف ذُرية، حبست على ذرية الواقف .

٣ ـــ أراضي الملكية الخاصة : وكانت قليلة إذا ماقيست بسابقاتها من الملكيات ولصاحبها حق التصرف بها من بيع وشراء أو إهداء، وكانت الدولة تتقاضى عنها ضريبة العشر والخراج . وتجبى الضريبة منها على أساس الغلة ويسمى في مثل هذه الحالة (خراجاً مقسماً) أو على أساس المساحة ويسمى (خراجاً موظفاً)[1] .

٤ ـــ وهناك نوع من الأراضي لا عشرية ولا خراجية وهي ماكانت تسمى « بأرض الحوز » وهي : مامات أربابها عنها بلا وارث وآلت إلى بيت المال، ويجوز للإمام دفعها للزراع بإحدى طريقتين : إما بإقامتهم مقام الملاك في الزراعة ويدفعون الخراج عنها، وإما بإجارتها لهم بقدر الخراج . فيكون المأخوذ من حق الإمام خراجاً، وإن كان دراهم فهو خراج موظف، وإن كان بعض الخراج ثمراً فهو خراج مقاسمة.[2] وينتج عن تأجير مثل هذه الأراضي إقامة المتأجرين بيوتاً عليها أو زرعهم شجراً .

وبقيت أصوله وأطلق على ذلك تعبير (القمامة والكراب) ولقد استفتي في شأنه عدد من المفتين في دمشق في هذه الفترة[3] .

ولكن أوسع المساحات من الأراضي الزراعية كانت تنضوي تحت نظام الإقطاع . ولعجز الإقطاعيين عن تلبية حاجات الدولة في المجالات العسكرية، أصروا على الاعتماد على صنف جديد من الجند خصصت لهم الرواتب . وكان لا بد من توفير المال لهؤلاء . لذلك فرض العثمانيون نظام الإلتزام للضرائب الميرية بتحصيلها من الأراضي . إلا أن هذا النظام قد

---

(١) انظر : لوتسكي . تاريخ الأقطار العربية الحديث . ص٩ .

(٢) انظر : ابن عابدين، محمد أمين . رد المحتار على الدر المختار . ج٣ . ص٣٥٣ .

(٣) يذكر محمد عابدين الذي كان آنئذ أحد أمناء الفتوى في دمشق، أن المفتي محمد خليل المرادي قد استفتي أكثر من مرة بشأن مثل هذه الأراضي، وأصدر فتواه في ذلك . انظر : رد المحتار على الدر المختار . ج٥ . ص٢١ . ووجد في غوطة دمشق نوع من المزارعة في مثل هذه الأراضي أطلق عليها (مشد السكة) وكانت الأرض تبقى بيد المزارع مدى حياته ويسجل ذلك في سجلات محاكم دمشق، وكان تركها والفراغ عنها لفلاح آخر يتم مقابل مبلغ من المال وعن طريق المحكمة . وهذا حق يورث للأبناء . انظر : السجل رقم / ٣٣٦ / محاكم دمشق سنة ١٢٥٠ ـــ ١٢٥١هـ/ص١٤٠ .

فسد بدوره، نظراً لما سببه من مظالم للفلاحين، ونتج عنها تقلص المساحات المزروعة بسبب هجرها من قبل الفلاحين، وتناقص الإنتاج الزراعي فاضطرت الدولة لاتباع نظام ثالث جديد في هذا المجال وهو نظام «المالكانة» وحيث أعطت للإقطاعي حقاً في استثماره للأراضي الميرية مدى الحياة، وذلك من أجل رفع المظالم عن الفلاحين والسعي لاستزراع الأراضي وزيادة الإنتاج. وخصصت المالكانات في دمشق لزعماء الجند والسباهية ورجال الدين وغيرهم. فمثلاً: حسين الموصلي المتوفى سنة ١١٥٢هـ/١٧٢٩م كان من زعماء السباهية له إقطاعات في القرى[١] ثم درويش آغة اليرلية في دمشق المولود سنة ١١٢٦هـ/١٧١٥م تولى بطريقة المالكانة قرية معلولا النصارى وقرية عيتا وقرية غزة وقرية قبر الياس[٢]. وأراضي غيضة السلطانية بناحية المرج من غوطة دمشق كانت مالكانة محمد خليل أفندي الصديقي[٣]. وعلي العجلاني (من أشراف دمشق) كانت له إقطاعات وقرى بطريقة المالكانة[٤]. ثم شاكر العمري الحنفي المذهب الدمشقي المولود في سنة ١١٤٠هـ/١٧٢٧م، والذي كان مدرساً. حصل على رتبة «أتمشلي» وتولى قضاء جبلة بطريق «الأربلق» وتولى القسمة العسكرية ونيابة محكمة الباب في دمشق مراراً رست عليه قرية بسيمة من نواحي دمشق بطريقة المالكانة[٥].

وكان بعض أصحاب المالكانات يقيمون في دمشق أو في الاستانة، ويلزمون مالكاناتهم لاناس آخرين مقابل مبلغ من المال، وعقد يكتب في إحدى محاكم دمشق. فمثلاً كان لأحمد بك بن حافظ علي باشا مالكانات كفر بطنه وخرزمة، وكانت هذه المالكانات بتلزيم حافظ عثمان آغا بموجب شرطنامة مؤرخة في ١٢٥١هـ/١٨٣٦م. ولما توفي الملتزم المذكور لزمت لحسين آغا كمخلي الشهير بالبلطجي من طرف الشرع الشريف، ودفع بدل الالتزام على المنوال السابق لتركة المرحوم حافظ آغا وقدره / ٦٥٠٠ / قرش وتوجهت إليه جميع ما بتصرف حافظ آغا من ملك المالكانة على جري العادة والقانون[٦]. وكذلك مالكانة عين

---

(١) المرادي. سلك الدرر. ج٢. ص٤٣.

(٢) المرادي. المصدر السابق. ج٢. ص١٠٧، ص١٠٨.

(٣) انظر: سجل رقم ٢٢١/محاكم دمشق. ص٣٨٢.

(٤) انظر: المرادي، المصدر السابق. ج٣. ص٢٠٦.

(٥) انظر: المرادي، المصدر السابق. ج٢. ص١٨٢.

(٦) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٤٠/١٢٥٠ — ١٢٥١هـ ص٥٣ القضية بتاريخ ٢١/صفر/سنة ١٢٥٢هـ.

التينة كانت للحاج سليمان أفندي العلمي «كلار أميني» والذي كان يقيم في الاستانة وكان وكيله عليها في دمشق عبد الرزاق قباقيبي[1].

وكان على تلك القرى موظفون مثل الصوباشي والأستاذ. أما الصوباشي فكان له على كل قرية عدد من غرائر الحنطة والشعير نظير مكيول الشوبصة فمثلاً: في سنة ١٢١٧هـ كان على قرية العمارة نظير مكيول الشوبصة (٨ غرائر حنطة و١٧ غرارة شعير)[2]. ويبدو أن منصب الأستاذ كان موروثاً من عهد الإقطاع في زمن المماليك وبقي في العهد العثماني سائداً، إلا أننا لم نعرف مهامه بدقة وجل ماعلمناه أنه يقيم في دمشق بدلاً من قرى المالكانات، وتجرى المعاملات المتعلقة بالمالكانة بمعرفته وبحضوره في محاكم دمشق.

واستطعنا أن نرصد عدداً من أساتذة هذه المالكانات التابعة لدمشق مثل: أستاذ قرية الجعيدية[3] وعين التينة[4] وأستاذ جبعدين[5] والبلاية[6] وأستاذ حوش عرب بالقرب من قرية العال بالجولان[7] ثم أستاذ قرية سكا وأستاذ زبدين ثم أستاذ الصنمين وأستاذ قرية حلبون[8] ثم أستاذ قرية الخناصر وكامد اللوز من البقاع[9].

وكان من جملة المحن التي أصابت الفلاحين، دفعُهم أموال الميري للدولة على الأشهر القمرية في حين تنضج محاصيلهم بحسب الأشهر الشمسية، ولهذا كانوا يضطرون للاستدانة من تجار دمشق، وبالفائدة وكان تجار دمشق يأخذون منهم فائدة مابين ٨ ـــ ١٠٪ بحجة بيع هؤلاء الفلاحين مقادير من الصابون أو البن أو القمح أو الشعير أو الآلاجة. وكان من

---

(١) انظر: سجل محكمة الميدان رقم ٣٧٨/١٢٥٩هـ. ص١.

(٢) انظر: السجل رقم ٢٥٠/ص١٤ و ص١٣٧ وفي سنة ١٢١٧هـ كان صوباشياً على قرية برزة السيد ناجي جوربجي.

(٣) انظر: السجل رقم ٢٢١/١٢٠١ ـــ ١٢٠٢هـ/ص٧٢ ص٣٨٨ ص٣٨٩ ص٧٢.

(٤) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦٠/١٢٢٢ ـــ ١٢٢٣هـ، ص٣٩ ثم سجلها رقم ٣٤٠/ص٣٨.

(٥) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/١٢١٦ ـــ ١٢١٧/ص٢١٧.

(٦) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٤١/١٢١٢ ـــ ١٢١٣هـ. ص٤٢.

(٧) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/١٢١٦ ـــ ١٢١٧هـ. ص٧٩.

(٨) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/١٢٠١ ـــ ١٢٠٢هـ. ص٧٢ و ص٢١٢ و ص٣٤٣ و ص٣٦٩ و ص٣٧٠.

(٩) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦٠/١٢٢١ ـــ ١٢٢٣هـ. ص١٤٩.

أبرز تجار دمشق في سنة ١٢٠٣هـ الذين سلبوا الفلاحين أموالهم عن طريق الفائدة هو خليل آغا ابن عبد الرزاق المسودن . ففي سنة ١٢٠٣هـ استدان أهل قرية سكا منه / ٩٦٩٦ / قرشاً فضة صحيحة معاملة شامية على حكم التفصيل الآتي ذكره / ٨٣٣٠ / قرشاً من جهة دين شرعي / ١٦٦٦ / قرشاً ثمن بن حجازي ، وتم ذلك في المحكمة وشهد شاهدان على ذلك[١] .

إلا أن نظام المالكانة لم يخفف بدوره الأعباء عن كاهل الفلاحين فاضطر العديد منهم لهجر قراهم طلباً للرزق في رحاب مدينة دمشق[٢] وغيرها ، واضطرت الدولة لالغاء جند الإقطاع مع جند الإنكشارية في عام ١٨٢٦م فألغت مع السباهية نظام التيمار في ١٨٣١م وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر عندما أصيب الاقتصاد المديني وخاصة القطاع الصناعي بضربة موجعة إثر منافسة البضائع الأوربية ، أدى ذلك بدوره إلى ضرب العديد من الحرفيين فاتجه بعض هؤلاء إلى امتلاك الأرض وقام العديد من الزعماء المحليين والتجار ورجال الدين في دمشق بالحصول على المالكانات من الدولة لأنفسهم ولعائلاتهم عن طريق المزاد العلني وذلك في الغوطة وحوران والبقاع[٣] والمرج والقلمون .

وقبل دخول المصريين ، وبحسب ماجاء في تقارير جون باورنج ، فإن عدداً كبيراً من سكنوا الريف قد هجروا قراهم ولجأوا إلى المدن ، تاركين أرضهم دون زرع . إلا أن المصريين حاولوا القضاء على هذه المظاهرة السلبية[٤] . ففي عهدهم أصبح وضع الفلاح أفضل من الفترة السابقة ، إذ قام هذا الحكم بتشجيع الفلاحين على الاستقرار في الأرض وزراعتها ، وضيق على بعض الزعماء السياسيين وخفض من هيبتهم وسلطتهم وبسط الأمن على الريف والمدن ، مما وفر الجو المناسب للفلاحين للاستقرار ، فعاد معظمهم إلى قراهم التي هجروها في السابق[٥] «ووزعت الأراضي البور كما قام الحكم المصري بإعطاء الفلاحين الدراهم من أجل

(١) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ص٣٨٨ . وكما ترى فإن الفلاحين لم يكونوا بحاجة لهذه الكمية من البن الأمر الذي اضطرهم في النهاية لبيع البن للتاجر الدائن وبأبخس الأثمان ، واعتقد التاجر أنه خدع الشرع ولكنه لم يخدع إلا نفسه .

(٢) خوري ، فيليب . مؤتمر تاريخ بلاد الشام الثاني . ج١ . ص٤٤٩ .

(٣) المصدر السابق . ج١ . ص٤٥٤ .

4 - Polk. op.cit.P.180.

(٥) انظر : رستم ، أسد ، المصدر السابق . ص٨٢ و ص٨٥ و ص٩٨ .

زراعة الأراضي البور وأدى ذلك إلى كثرة الخيرات في بلاد سورية مع كل ذلك ماكان يكلف البلاد شيء أبداً وكانت ذخاير دائماً متواصلة من مصر. من بكسمات وشعير وحنطة وعدس وفول وذرة وسمن وأرز وغيره ثم أوعد بتشغيل كامل أراضي البور وعمارة كامل ضيع الخربانة»[1] وتجفيف المستنقعات فتوسعت المساحات المزروعة. ولم يكتف الحكم المصري بذلك في مساعدة الفلاحين بل أعطاهم التقاوي والبذار للمحتاجين منهم «حتى لا يصير ولا يبقى غدر للفلاحين في أمر الزراعة ويفي الفلاح بما عليه من أموال الميري وإذا لم تستطع فلاحو قرية ما أو أكثر من دفع أموال الميري كان يعرض شأنها على المجلس ويدعى للمذاكرة»[2].

وقامت الحكومة المصرية أيضاً بنزع سلاح البدو وتشجيعهم على الاستقرار وترك حياة الترحال وزراعة الأرض فأعفت من أقام منهم على الأرض من الضرائب. والتفت الحكم المصري إلى ناحية هامة في الإنتاج الزراعي وهي عدم إثقال كاهل الفلاحين الذين استقروا مجدداً في الأرض بالضرائب. وأجل دفعهم للضرائب من سنة إلى أخرى كما حصل مثلاً «بقرية تلعران في ولاية حلب فكانت القرى المسجلة بدفتر الشواهي بثلاثة أرباع شاهية وحيث أنها عمار جديد وعمار الجديد يلزم له مساعدة لأجل ترغيب الفلاحين بالعمار فينبغي أن تتقيد القرية المرقومة بنصف شاهية يكون ترتيب المال عليها من ابتداء سنة ١٢٥٢هـ»[3] واستخدم الحكم المصري قواته، وخاصة الضباط، في زرع الأرض.

كما أتاح للفلاحين أن يتقدموا بشكواهم إلى الحكمدار، فيما إذا وقع أي ظلم عليهم في مجال تقدير الفدن في القرى والضرائب على الأشجار المثمرة[4]. وكانت شكوى الفلاحين تلقى آذاناً صاغية من قبل ذلك الحكم. وتساهل المصريون في جمع أموال الميري بحسب رغبة الفلاح الذي كان يفضل دفع أموال الميري نقداً، مما خفف عنه مسؤولية تموين الجيش

(١) انظر: الصايغ، فتح الله. المقترب في حوادث الحضر العرب. ص٧٦ب ص٧٧آ و ص٨١آ ثم انظر: POLK. OP.CIT. P.226.

(٢) انظر: رستم، أسد، المصدر السابق. المجلد ٣ ـــ ٤. ص٨١.

(٣) انظر: رستم، أسد، المصدر السابق ـــ المجلد ٣ ـــ ٤. ص١٥٠ ـــ ١٥١. ولقد سكنت / ٧٤ / قرية في منطقة حلب وزادت مساحة الأراضي التي غرست بالأشجار أو زرعت أراضيها، وزاد عدد القرى من ٢٣٨ إلى ٦٨٣ مابين عامي ١٨٣٦ ـــ ١٨٣٨م. انظر: Polk. op.cit.P.168.

(٤) انظر: رستم، أسد، المصدر السابق ـــ المجلد ٣ ـــ ٤ ص٢٢٦. ثم انظر: Polk. op.cit.P.223.

(الشونة) قدر الإمكان[1]. ووضع المصريون موظفاً خاصاً لتحصيل أموال الميري من الفلاحين وهو الناظر أو آغاسي، وحددوا لناظر القرايا المبلغ الواجب أخذه من الفلاحين دون أن يظلمهم. وكان ثمة دفاتر لشونة الجيش فإذا ماإضطرت الدولة لأخذ الشونة قامت بتوزيعها بالعدل على قرى الصنجق[2]. كما عين ناظر نظار في الصنجق وقسّام أموال الميري الذي كان يقوم بجمعها من الفلاحين.

والحق يقال إن ذلك كان بمثابة تحول كبير في حياة الفلاحين آنذاك، إذا ماقيس بعهود الظلام التي عاشها الفلاح في الفترة السابقة للحكم المصري. إلا أنه مع ذلك، بقي الفلاحون يشكون من بعض المظالم، وكان على رأسها ابتزاز الجند وبعض عناصر الهيئة الحاكمة وتأمين مبيتهم وطعامهم وتأمين عليق خيولهم والجراية.

وشكل التجنيد عقبة في وجه الإنتاج الزراعي، مما دفع بأبناء الفلاحين الشبان للفرار والاختفاء. وافتقرت بذلك الأرض لليد العاملة. وطلب مشايخ القرى من السلطات المصرية إرسال الجنود من القشلة إلى القرى لجني المحصول، وليتمكن المشايخ من دفع أموال الميري المترتبة على قراهم[3]. ومع ذلك بقيت شعاب الجبال والمناطق النائية بعيدة عن متناول السلطات المصرية. وأثر ذلك على حركة الهجرة فأصبحت بشكل معكوس من المدينة إلى الريف لتلافي السوق إلى الجندية. ومع ذلك فقد بقي حال الفلاحين والزراعة أفضل من الفترة السابقة للحكم المصري، وزادت المساحات المزروعة وعدد القرى المسكونة[4].

ومن جهة أخرى سعى الحكم المصري لتصدير المنتجات الزراعية إلى الخارج، فزادت المساحات المزروعة من الزيتون والقطن والحرير على حساب الزراعات الأخرى، فاضطر المزارعون الصغار لزراعة صنف واحد دون مايكفيه ويسد حاجته من المزروعات الأخرى التي كانت سائدة قبل دخول المصريين، فأوقعه ذلك في عجزه عن كفايته الذاتية واضطره لشراء السلع الأوربية والتعامل بالنقد بدلاً من المقايضة وأثر ذلك على مستواه المعاشي[5].

---

(١) انظر المصدر السابق، ص١٦٦.

(٢) المصدر السابق، ص١٦٨.

(٣) انظر سجل محكمة حماه رقم ٥٠ / ١٢٥٠ ــ ١٢٦٣هـ. ص١١١.

4 - Polk. op.cit.P.169.

5 - Polk. op.cit.P.223.

وحاول المصريون تخفيف وطأة المتغيرات الإقتصادية على الفلاحين فقام متسلمو الصناجق بالتخفيف من وطأة الجند المصريين على الفلاحين بأن خصصوا (قوناقات) في القرية لنزول الجند فيها عند الحاجة وصرفوا لهم العليق والجراية من مرتبات استحقاق الميري على القرية، وكلفوا ناظر الشونة بتسجيل ذلك في سجلات خاصة، وإذا ماحصل أي اعتداء من الجند على الفلاحين كان يوقع بهم «جزاء لا يق»[1].

وما أن استعاد العثمانيون بلاد الشام من المصريين، حتى أصدر السلطان فرماناً بإعادة الأراضي التي سيطر عليها المصريون، بشكل ما، إلى ملاكها الأصليين. وقام هؤلاء بابتزاز الفلاحين، وزادت الأحوال العامة من سوء أحوال الفلاحين، فاضطروا للاستدانة لسد ماعليهم من الأموال للدولة. وتطالعنا سجلات محاكم دمشق بما آل إليه وضع الفلاحين. ففي ١٢٥٩هـ/١٨٤٤م نرى مرسالة بين أهالي قرية الشفونية من غوطة دمشق إلى القاضي يطلبون فيها تقسيط ماعليهم من الأموال والديون[2].

---

(١) انظر: رستم، أسد، المصدر السابق ــ المجلد ٣ ــ ٤/ص١٧٥.

(٢) ولقد جاء في مراسلة أهالي قرية الشفونية إلى القاضي العام مايلي: «إعلاماً به لكل واقف عليه وناظر فيه ومستمع إليه من أسباب الديون المترتبة بذمة أهالي قرية الشفونية بوجه العموم يحيطون علماً ويدركون إذعاناً وفهماً أنه ثبت لدينا وتحقق عندنا كثرة ديون أهالي القرية وفرة مطلوباتهم واضمحلال أحوالهم وتلف مزروعاتهم وموت بقرهم وآل حالهم إلى الدثور والاضمحلال وخراب قريتهم وتعطيل الأموال الميرية المترتبة عليهم وإن عليهم ديون كثيرة ومطالب وفيرة لا قدرة لهم على أدائها إلا على حكم التقسيط بأن يدفعوا أولاً الأموال الميرية الذي عليهم وثمن مزروعاتهم وبقرهم ومصارف تمشية أحوالهم وبعد ذلك يدفعوا ماعليهم من الديون لأربابها في عشرة أقساط متساوية كل سنة عشر الديون الذي بذمتهم لأربابها لكل صاحب ماية غرش عشرة غروش من فاضل كسبهم بعد أداء مصاريفهم اللازمة وبعد أداء الأموال الميرية وبعد أداء الستة آلاف الذي بذمتهم لأيتام الشيخ محمود وبعد ماأبرزوا مافي يدهم عرضحال مشروح عليه لنا من قبل حضرة كتخدا أفندينا ولي النعم والي الشام حالاً».. عرض ذلك القاضي العام وقام بدوره برفعها إلى الوالي... تحريراً في تاسع عشر من شوال/ سنة ١٢٥٩هـ.

الـداعـي

السيد محمد نظيف القاضي بدمشق

انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٧٩/ ١٢٥٩هـ/ص٣٧ ومابعدها.

كما ترى مثيلاً لهذه العريضة في ١٦ شهر أيلول شوال ١٢٥٩هـ ثم ختام ذي الحجة ١٢٥٩هـ وثلاث عشر ربيع الأول سنة ١٢٦٠هـ.

ا البــدو

شكل البدو فئة اجتماعية متميزة في هيئة المحكومين . ومرد ذلك يعود لطبيعة حياتهم التي تتصف بالترحال ، بعيدين عن متناول سلطة الحكام ، كما كانت لهم تنظيماتهم الاجتماعية الخاصة . ولقد ساعدتهم طبيعة حياتها على التمتع بحرية كبيرة إذا ماقيسوا ببقية فئات الهيئات المحكومة .

ولقد أسهم البدو بشكل إيجابي أو سلبي في الحياة الاقتصادية لمدينة دمشق . فمن الناحية الإيجابية عملت بعض قبائلهم في خدمة قوافل الحجاج الشامية إلى مكة ، سواء بحمايتها أو بتأمين أدوات النقل الأساسية ، وكلف البعض منهم بحماية بعض القلاع المحيطة بدمشق .

ومن جهة أخرى شكل البدو ، بما لديهم من ماشية ، مصدراً هاماً من مصادر اللحوم والألبان والسمن والأجبان والأصواف وغيرها لمدينة دمشق ، كما وفر هؤلاء مورد رزق لبعض تجار دمشق وحرفييها ، فاعتمدوا عليهم في سد حاجاتهم من « الحنطة والرز والدبس والزبيب والتين والطحين والبرغل وآلات النحاس للطبخ مثل الدسوت والطناجر والمقالي والصحون والحلل وأنواع الملابس والمشالح والقمصان والمناديل والكفافي التي يستخدمها كافة البدو من أكبرهم إلى أصغر راعي وذلك لدرء وهج الشمس صيفاً والبرد في الشتاء وكذلك الجزمات وعدد الخيل من سروج ولجم وركابات والخرز للنسوان والمرايا والمقصات والإبر والدبابيس وغيرها .,. واسوارات وحراير ملونة وقمصان قز ملبوس النساء وأصناف عطارة من فلفل وقرفة وقرنفل وحب الهال .. وقهوة وسكر ثم كافة لوازم الحرب مثل سيوف وتفنك وطبنجات وبارود ورصاص ورماح وغير ذلك وشكل ذلك نفع كلي للناس وكثير الناسات من أهالي دمشق والمدن الشامية الأخرى عملوا كارهم على العرب . وكان الرابح دائماً هم أبناء دمشق ... » وكثيراً ماحصل هؤلاء على الثروة من جراء ذلك ، إذ أن عادة البدو هو الحصول على مايحتاجون دون المفاصلة بالسعر فلا يميزون (إن كان غالي أو رخيص)[1] . ولقد خرج بعض تجار دمشق بصحبة قافلة الحج للتجارة مع البدو ، في أماكن مختلفة من طريق الحج ، كمزيريب ومداين صالح . وأطلق على هؤلاء التجار اسم « الجرادون »[2] وذهب بعض التجار

(١) انظر : الصايغ المقترب في حوادث الحضر والعرب . ص٨ب و ص٩آ .

(٢) انظر : القاسمي . قاموس الصناعات الشامية . ج١ . ص٧٩ و ص١٣٠ثم . ج٢ . ص١٠٩ .

إلى البدو عندما كانوا يقتربون من أطراف الغوطة للمتاجرة معهم، وأطلق على هؤلاء التجار اسم «القبيسية»[1] وعمل بعض الحرفيين أمثال (الجزازين) الذين كانوا يخرجون إلى البدو عندما يقتربون بإبلهم وأغنامهم إلى أطراف دمشق في فصل الربيع فيجزون لهم الأغنام مقابل أجرة معينة[2] ولقد أقيمت أيضاً علاقات من نوع آخر بين بعض أبناء دمشق، الذين اهتموا بتربية الأغنام، وبين البدو ،وكانت علاقة الطرفين في ذلك مبينة على أحد الأشكال التالية :

أولا : الغنومية ـــ وهي أن يشتري الدمشقي الأغنام ويسلمها للبدوي، فيتنقل هذا بها بين المعمورة والبادية . وتقوم أسرة البدوي بتقديم كل ماتحتاجه الأغنام من العناية والخدمة وحلب نعاجها الرغوث وتحويل ألبانها إلى زبدة وسمن وخاثر . ويتناول الحضري عن كل نعجة رطلاً من السمن علاوة على حملها الصغير ويأخذ البدوي مازاد عن الرطل . أما الصوف فيعود كله للبدوي لقاء تعبه . أما الرسوم الأميرية المترتب دفعها على الأغنام فالحضري كان يدفع رسوم الأغنام الرغوث والبدوي يدفع رسم الحائل . وتطالعنا سجلات المحاكم بين الحين والآخر بمثل هذه العلاقة بين البدو والحضر[3].

ثانياً : شركة العظم أو الحلبية وهذه تكون على شكلين :

أ ـــ يبتاع كل من البدوي والحضري عدداً متساوياً من الأغنام فيأخذ البدوي بتربيتها واستثمارها وفقاً لما ذكرناه (في الغنومية) وتقسم الخسائر والأرباح والنفقات مناصفة .

ب ـــ أو يشتري الحضري مائة نعجة ويقدمها للبدوي بعد أن يأخذ عليه

(١) جاءت هذه التسمية من قرية بالقرب من بغداد تسمى (قبيس).. انظر : الصايغ فتح الله . المقترب في حوادث الحضر والعرب . ص٢٠ب و ص٢١آ و ص٢١ب وكان القبيسي يبيع للبدو ريش النعام والتفنك ويشتري الخيول والجمال والصوف والغنم والسمن وغيره..

(٢) انظر : المصدر السابق ص١٢٣آ. ثم : القاسمي، محمد سعيد. قاموس الصناعات الشامية. ج١. ص٧٨ .

(٣) فمثلاً : ادعت ـــ لدى قاضي حماه ـــ عائشة بنت الشيخ أحمد الوارثة لوالدها أنه قبل وفاته أقام علاقة تربية أغنام مع أحمد بن خلف من عشيرة بني خالد على ٣٠٠ راس بطريقة الشركة. وبعد وفاة والدها ادعى البدوي المذكور أن جميع رؤوس الأغنام المذبورة قد نفقت.. وأقام القاضي بالصلح بينهما على أن يدفع البدوي مبلغ ٣٠٠ قرش للمدعية المذبورة . انظر : سجل محكمة حماه رقم / ٥٠ / ١٢٥١ ـــ ١٢٦٣هـ. ص٣٣ .

سنداً بتسديد قيمتها حتى يتم تسديدها لمدة ١ ـــ ٣ سنوات ثم تصبح الأغنام مناصفة[١] .

ولقد قامت بعض العناصر البدوية المستضعفة والتي استقرت في ضواحي دمشق وأرباضها بالخدمات المتواضعة ، كالعمل في القيساريات أو في البيوت . وكان بعض النساء البدويات يلتحقن في حرملك الأعيان كخادمات إلا أنهن حافظن مع ذلك على زيهن وعاداتهن[٢] .

ومن جهة أخرى فإن علاقة البدو بأبناء دمشق ، لم تكن تتصف بالثقة المطلقة . فإذا مااضطرت أحدهم حاجة ما للنزول إليها ، كنت تراه متأهباً بسلاحه للتصدي لأي طارئ يعترضه .

ولقد انقسم البدو إلى قسمين أساسين أولهما : (البدو الأقحاح) وهم « أهل الإبل » وكانوا يضربون في أعماق بادية الشام إلى الجزيرة العربية ، ثم « الشوايا » الذين كانوا يربون الشياه وهؤلاء ينتقلون بالقرب من الحواضر ولا يتوغلون بعيداً في البادية كأهل الإبل . هذا بالإضافة إلى بعض البدو الذين استقروا في الحواضر وهجروا بيوت الشعر ، وأطلق عليهم اسم (الفلاليح) . وكانت بيوتهم متواضعة من الطين وانصرفوا إلى الزراعة بالإضافة إلى تربية المواشي[٣] . واعتبر هؤلاء منحطي القدر في نظر إخوانهم البدو الرحل[٤] أما مجتمع البدو فقد انقسم بدوره إلى (البيت) ويعنون به العائلة أو الأسرة ، ثم (الفخذ أو الآل) وهو مجموعة بيوت ثم (فرقة أو الفندة) وهي مجموعة أفخاذ . ثم تجمع الأفناد أو الفرق لتكّون (العشيرة) ، وتجمع العشائر لتكون (الضنأ) ، وتجمع الضنآت لتشكل (القبيلة)[٥] . وانقسمت العشيرة البدوية إلى أربع طبقات . طبقة الشيوخ ـــ حتى ولو كانوا حديثي السن . ثم الرواسي ـــ وهم يلون الشيوخ بالمنزلة الإجتماعية ، وطبقة العامة وهم سواد العشيرة ، ثم العبيد وهم أحط الطبقات في العشيرة لا يصاهرهم أحد ولو أعتقوا . ونلاحظ أن التمييز لم يكن على مستوى العشيرة وفي داخلها فحسب ، بل كان التمييز بار زاً بين مشايخ العشائر البدوية[٦] .

(١) انظر : ذكريا ، أحمد وصفي ، عشائر الشام . ج١ . ص٦٧ و ص٢٦٧ .

2 - Russell. Alex. op.cit. PP.162.163.

(٣) انظر : الصايغ المقترب في ... ص٢٢آ و ص٢٦آ و ص٢٦ب .

(٤) انظر : ذكريا ، أحمد وصفي . عشائر الشام . ج٢ . ص٧ و ص٨ .

(٥) المصدر السابق . ج١ . ص١٩٦ . ص٢٠٤ . ص٢٠٥ . ص٩٤ .

6 - Burckhardt. J.L. op.cit. PP.306.307.

وأبرز القبائل والعشائر التي أحاطت بدمشق والمناطق التابعة لها كانت في تلك الفترة هي : الفحيلي ــ السردية ــ بنو صخر ــ السرحان ــ وعرب اللجاة « السلوط » ــ وكان هؤلاء يتجولون في أراضي حوران واللجاة والجولان وشرقي الأردن . فمثلاً بنو صخر كانوا يتجولون بالقرب من سفوح جبال البلقاء والهيش أما السرحان فتجمعوا بالقرب منهم والفحيلي والسردية في وسط المناطق المزروعة أو بالقرب منها ، وسمي هؤلاء بأهل الديار لأنهم كانوا يدفعون الضريبة لوالي دمشق وكان البعض منهم يعيش في الجولان[1] . وهناك قبائل الفضل في الجولان وهذه القبيلة تنسب إلى طي من كهلان القحطانية ، وكان هؤلاء ثلاثة أفخاذ هي : آل فضل بن ربيعة وآل مرة وآل علي . كما وجدت لهؤلاء منازل في مرج دمشق وغوطتها .

ولكن الفخذ الأخير قد تبدل اسمه في العصور الحديثة إلى آل مهنا بن عيسى وآل حيار وأبي ريشة ، ولم يحتفظ بالاسم الأصل إلا آل الفضل في الجولان[2] . وكان آل الفضل يتجولون مابين الجولان وسفوح جبل الشيخ ، وكلف حاكم حوش خان أرنبة في مطلع القرن التاسع عشر بجمع أموال الميري منهم . وتجول بعض البدو في منطقة عدرا والمرج وكانوا يفرضون على المسافرين أموالاً وإذا مارفضوا دفعها تعرضوا للتشليح[3] . وأبرز عشائر البدو التي كانت حول دمشق في سنة ١٢٢٣ ــ ١٢٢٤هـ هي طائفة النعيم من الحديديين حيث كانوا بالقرب من قرية البحارية في أطراف المرج من ناحية الشمال الشرقي ، ثم عرب الحمامدة[4] .

وأكبر القبائل العربية التي كانت على علاقة قوية مع دمشق والتي لعبت دوراً سياسياً واقتصادياً ودينياً ، هي قبيلة العنزة العربية ، التي هاجرت من نجد خلال القرن الثامن عشر وفي حدود ١١١٢هـ/ ١٧٠١م ، ومن قائل إنها هاجرت قبل ذلك بقرن من الزمان . وألحق

---

(١) انظر : زكريا . عشار الشام . ج١ . ص٩٢ و ص٩٣ .

2 - Burckhardt. J.L. op.cit.P.31.

3 - Barker. Edward. B.B «Syria and Egypt under the last fivesultans of turkey VOL.1.PP.158.159»

(٤) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦٠ / سنة ١٢٢٢ ــ ١٢٢٣هـ/ص٩٧ . ثم سجل محكمة الميدان رقم ٣٢٣/١٢٤٧هـ/ص١١١ . ثم سجل القسمة البلدية بدمشق رقم ٣٢٧/سنة ١٢٤٧ ــ ١٢٤٩هـ . ص٢٩ .

بهذه القبيلة عدد من العشائر العربية الصغيرة أطلق عليها اسم (المحلف) أو (الأحلف).
وقبيلة عنزة من أعظم القبائل العدنانية ويرتقي نسبها إلى عنز بن وائل بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان. واستطاعت هذه القبيلة أن تسيطر على المنطقة الواقعة مابين الفرات والأردن ومابين حلب ونجد. واختلفت الأقوال أيضاً فيمن كانت أول عشائرها التي جاءت إلى بلاد الشام والمرجح أنهما عشيرتا الأحسنة (الحسنة) والولد علي. ثم بعد مدة لحقتهما عشائر الفدعان والأسبعة والعمارات، وآخر من جاء منها الرولة. وكانت كل واحدة من هذه العشائر تستطيع أن تقدم عدة آلاف من المسلحين المقاتلين، فلا غرابة إن شكلت أكبر تهديد للسلطات العثمانية والقبائل البدوية الشامية الأخرى، والفلاحين. ولقد تبنت المذهب الوهابي في ١٢٠٩هـ/١٧٩٥م، إلا أنها لم تدفع الضريبة للوهابيين، وكانت متقلبة الولاء على ضوء مصالحها[1]. وكانت الرولة أقرب عشائرها إلى مدينة دمشق، فقد كانت تضرب بعض خيامها بالقرب من قرية الضمير، وكانت تملك أعداداً كبيرة من الجمال، حتى ليخيل للناظر إليها وهي تسرح في البادية أنها سيل دافق من الجمال، فهي أكثر عشائر عنزة ثاغية وراغية. أما عشيرة الأسبعة فكانت تشتي في بادية السماوة بالقرب من دمشق في منطقة يقال لها الكعرة[2].

ولم تكن هذه العشائر واحدة في مواقفها تجاه الدولة العثمانية، ولقد حاولت بعض الدول الأوربية، كفرنسا وإنكلترة، والتي كان لهما مصالح في المنطقة، الإتصال بها. فمثلاً قام الفرنسيون في أوائل القرن التاسع عشر بإرسال قنصلهم العام في طرابلس المسيو لاسكاريس إلى مضارب خيامهم في الصحراء، واصطحب معه ترجماناً فتح الله بن أنطون الصايغ، وسار الرجلان في رحلة طويلة عبر بادية الشام إلى نجد، حيث قاما بالاتصال بشيوخ هذه العشائر، وحاولا أن يجلبا العديد منهم إلى صف الفرنسيين ويوغرا صدورهم ضد الحكومة العثمانية. ولم تأل الدولة العثمانية جهداً في تمزيقهم، بجلب بعض شيوخ عنزة إلى جانبها. وقام واليها سليمان باشا الذي كان والياً على دمشق وصيدا بعد وفاة أحمد باشا الجزار بإرسال مندوب من طرفه إلى ابن شيخ الحسنة ناصر لاستقدامه إلى دمشق ليسلمه قيادة

---

1 - Maoz Moshe. op.cit.P.130.

ثم زكريا عشائر الشام. ج٢. ص١٢ و ص١٥ و ص١٧.

(٢) انظر: الشبيبي، محمد رضا. رحلة في بادية السماوة المقدمة، ص٥.

البدو العامة على كل الصحراء وإعطائه لقب «أمير البدو» وكان ناصر متحمساً للتعاون مع العثمانيين حيث قام بمهاجمة مضارب عشيرة الدافير وسلب مواشيها وجمالها[1].

ولم يقتصر العثمانيون في سياستهم تجاه البدو على ذلك بل استخدموا بعضهم في أكثر من مجال، كقبيلة الموالي. واستقدم ولاة الشام عرب الهنادي من مصر في نهاية القرن الثامن عشر، ليعملوا كمرتزقة، كما فعل أحمد باشا الجزار في سنة ١٨٣٢م، وكان منهم حوالي ١٠٠٠ فارس ضمن قوات ابراهيم باشا المصري، التي احتلت سورية، والذي كلفهم بالدفاع عن الحدود الصحراوية، وبالتصدي لبدو الشام، ومنع اعتدائهم على الحواضر. وبقي هؤلاء في بلاد الشام بعد انسحاب قوات ابراهيم باشا من سورية، وقدموا خدماتهم للدولة العثمانية. وكان أبرز زعمائهم في هذه الفترة عقلة آغا[2].

سياسة السلطة العثمانية في دمشق تجاه البدو

لم تكن سياسة السلطة العثمانية، المتمثلة بولاتها على دمشق، ثابتة تجاه البدو. فأسعد باشا العظم استطاع أن يدخل في اتفاقات مع البدو، وأن يؤمن سلامة قافلة الحج، في حين عجز خلفه حسين باشا مكي عن تأمين ذلك، فأصيبت القافلة في عهده بنكبة لم تشهدها من سنين طويلة على يد البدو. واعتبرت الدولة العثمانية أسعد باشا العظم متواطئاً مع البدو، فدفع حياته ثمناً لهذه التهمة، وأرسلت الدولة العثمانية بديلاً عن حسين باشا مكي عبد الله باشا الجته جي والياً على دمشق، وكلفته بالتصدي للبدو، والانتقام منهم، وتأمين طريق قافلة الحج، وزودته بقوات إضافية. ورغم أنه استطاع في ذلك العام أن يشق طريقه إلى الديار المقدسة وأن يقتل من البدو عدداً كبيراً، إلا أن تأمين طريق الحج بشكل دائم، كانت مهمة صعبة للغاية، إن لم يكن ولاة دمشق على علاقة جيدة مع القبائل البدوية التي تتواجد على طريق الحج، وأسهمت سياسة العثمانيين العدوانية تجاه البدو في خلق الجفاء بين الطرفين. علماً بأن البدو لم يكن لهم غنى عن الحواضر ومن التعامل مع العثمانيين، كنقل قافلة الحج والقوافل التجارية وغيرها. فمثلاً قبيلة بني صخر كلفت بشيل قافلة الحج أكثر من مرة،

---

1 - Maoz Moshe. op.cit. PP.131.137.138.

2 - Maoz Moshe. op.cit. P.130.

ثم: زكريا عشائر الشام. ج٢. ص١٢ و ص٥ و ص١٧.

وحافظ باشا والي دمشق استأجر من البدو المحيطين بدمشق عشرة آلاف جمل لصالح هذه القافلة[1]، وذلك في عام ١٢٣١هـ/تموز ١٨١٦م، كما قدم الشيخ رحال العروق ٢٠٠ جمل في عام ١٨٣٢م لقافلة الحج[2]. ودخل ولاة دمشق في اتفاق مماثل مع قبيلة العنزة. وكان على رأس عشائر هذه القبيلة التي تم الاتفاق معها عشيرة ولد علي التي كان شيخها عطاير بن سماير[3]. وكلف البدو أيضاً بحمل بضائع القوافل التجارية الخاصة بدمشق. ففي عام ١٨٣٢م عقد سليمان باشا اتفاقاً مع قبيلة عقيل التي كانت تقيم في نجد لحراسة قافلة دمشق التجارية مابين بغداد وحلب ودمشق[4]. هذا ناهيك عن المصالح الأخرى التي كانت تربط البدو بالحضر والسلطات العثمانية. وكان من الواجب اتخاذ جانب الحكمة والتعقل في التعامل بين الطرفين للحفاظ على المصالح المشتركة بينهما. إلا أنه في الغالب لم يتحقق ذلك، كما لم تمنح السلطات العثمانية الثقة للبدو، وقامت بتوجيه ضربات متتالية لهم ودونما سبب في بعض الأحيان، كما حصل في عام ١٨١٨م عندما كان والي دمشق صالح باشا عائداً بقافلة الحج من الديار المقدسة، فوجد مجموعة كبيرة من البدو ضاربة خيامها بالقرب من قلعة مزيريب، فأمر جنوده باعتقال شيوخهم، وأطلق الحرية لجنوده في نهب خيامهم، ومطاردة من لاذ منهم بالفرار[5].

ويعتقد الإخباري فتح الله بن أنطون الصايغ الذي قام بزيارته المشهورة في النصف الأول من القرن التاسع عشر للبدو بصحبة المسيو لاسكاريس لمدة عشرة سنوات، أن السلطة العثمانية هي المسببة لمواقف البدو السلبية تجاهها فيقول: «إن الذي لا يعرفهم (البدو) صيتهم دني رزيل يفزع الناس لسبب كثرة غاراتهم سلبهم القفول من الطرقات وهجومهم على القرى وسلبهم أموال الناس والحال أن لا يفعلون ذلك إلا لأسباب فقد تأكد لنا سماعاً وعياناً أن جميع غاراتهم إن كان على القفول أم على القرى أم على البلاد من غباوة الحكام العثمانية. فأعيان البلد وأوجهها جميعهم لهم قرى ومحلات في البر وحقول ومصالح شتى وقديماً موجودة العداوة بينهم وبين العرب فيصيروا يتكلموا مايناسبهم ضد العرب مع الوزير أو المتسلم أملاً

1 - Koury. Ceorge. op.cit.F.154.

2 - Lamartine. Voyage en Orient VOL.2.partie.6. PP.271.272.

3 - Burckhardt. J.L. op.cit.P.308.

(٤) انظر: فريزر، جيمس، رحلة فريزر إلى بغداد عام ١٨٣٤م. ص١٧٨ ترجمة جعفر الخياط.

5 - Koury .G. op.cit.P.157.

بواسطة سطوة الوزير تحقيق مآربهم من العرب ويشتتوهم . ومن غباوة الوزير وبسبب غشمنته وجهله في حل الأمور فيقبل راياتهم ويمشي على مجرى مائهم وهواهم ويبتديء يركب عسكر عليهم ويفتح حروب معها وكلمالها تزداد العداوة » ثم يردف قائلاً « والحاصل أن عدم الوفق والمحبة الحاصلة فيما بين العرب والترك تسبب مضرة جسيمة للطرفين وأن البدو لا يثقون بالعثمانيين لأن العثمانيين في رأيهم مشهورين بالغدر والخيانة »[1] .

والحقيقة أن مواقف البدو السلبية لم تكن من مسؤولية السلطة العثمانية فحسب ، بل تحكمت فيها ظروف عديدة انعكست بشكل سلبي على معاش البدو . فشح السماء في السنين العجاف وندرة الكلأ في البوادي ، كانا يدفعان بهم للزحف غرباً باتجاه الحواضر ومزارعها طلباً للماء والكلأ ، كما اضطروا في مثل هذه السنوات للهجوم على مخازن الحبوب ونهبها لضمان غذائهم ، كما فعلت قبيلة عنزة عام ١٨١٥ ـــ ١٨١٦م ، عندما قامت بالهجوم على مخازن الحبوب في حماه[2] . وعندما كانت تنتشر الأوبئة والطواعين وتقضي على العديد من الناس وتشل الحركة الاقتصادية وبالتالي الإنتاج ، كانت القبائل البدوية تهاجم الحواضر كما حصل في عام ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م ، حيث قامت قبيلة عنزة بمهاجمة حماه أيضاً واضطر والي دمشق لإرسال حملة ضدها . إلا أن هذه الحملة قد فشلت وألحقت بها هزيمة منكرة[3] . وتأثرت القبائل البدوية بظهور الحركة الوهابية في الجزيرة العربية واحتلالها للمدينتين المقدستين (مكة والمدينة) . مما أدى إلى توقف قافلة الحج التي كانت تشكل مورداً رئيساً بالنسبة لقبيلة عنزة واضطرت بعض عشائرها لقطع الطرق ، وبقيت على هذا المنوال إلى أن استطاعت قوات محمد علي باشا أن تحرر هاتين المدينتين ، فعاودت قافلة الحج سيرها مابين عامي (١٨١٢ ـــ ١٨١٣م/١٢٢٦ ـــ ١٢٢٧هـ) وتغير بذلك حال قبيلة عنزة[4] .

وكان لضعف السلطات العثمانية وعجزها عن ضبط الأمن ، داخل دمشق ، وعلى طريق قافلة الحج ، دور بارز في دفع البدو للاعتداء على الحواضر ، وعلى ذلك الطريق . وبقي الحال كذلك إلى أن جاءت قوات ابراهيم باشا المصري إلى دمشق ، فشاهدت قبيلة عنزة تحرق الفلاحين وهم أحياء في منطقة القدس ، لامتناعهم عن دفع الخوة لها . وكان أمام ابراهيم

(١) انظر : المقترب في حوادث الحضر والعرب . ص٣آ و ص٣ب و ص١٠آ و ص١٠ب .

2 - Koury .G. op.cit. P.152.

3 - Ibid. P.185.

4 - Ibid. PP.143.144.149.

باشا خياران، أولهما: أن يسترضي هذه القبائل وثانيهما أن يستخدم القوة عند الحاجة ضدها. فاستطاع بحنكته السياسية أن يسترضي البدو، وأن يفرض الضرائب عليهم. إلا أن قبائل الأردن بقيت على حالها من التمرد[1]. وفي سنة ١٢٥٤هـ تمكن ابراهيم باشا من جمع ضريبة للقشلق والسمنية من عرب العبيد بالقرب من حلب، كما فتح أبوابه للنظر في شكوى القبائل[2]. وحاول أن يستخدم بعض عناصر البدو، كقوات غير نظامية في عمليات الاستكشاف، في قتاله مع الجيش العثماني. إلا أنه لم يستطع أن يعتمد على هذه العناصر البدوية في عمليات الدفاع لأنه يصعب عليهم التشبث بالأرض والاستقرار عليها[3]. وقام ابراهيم باشا من جهة أخرى بوضع العديد من قواته في القرى المتاخمة للبادية، لمنع غارات البدو، كما حاول أن يغري بعض القبائل البدوية بالاستقرار بالحواضر والمزارع. ومع ذلك فإننا نرصد بعض غارات البدو على الحواضر الشامية في هذا العهد ففي سنة ١٨٣٧م قامت بعض قوات عنزة بمهاجمة حاكم غزة وأجبرته على الفرار من وجهها وذلك رداً منها على ابراهيم باشا الذي قتل زعماء قبائل الأردن الذين استجاروا بهم[4].

ويبدو أن استرضاء ابراهيم باشا للبدو في بادية الشام، كان بإيعاز من والده محمد علي باشا، الذي كان يريد لتجارة أوربا عبرها أن تستمر ولا تصاب بأذى[5]. وأن البدو لم يقفوا مكتوفي الأيدي تجاه استقرار بعض أبناء جلدتهم بتخطيط من السلطات المصرية، بل كانوا يهاجمونهم. وهكذا لم يكتب لمستوطنات البدو الجديدة كبير النجاح. ومن جهة أخرى فإن المتغيرات الاقتصادية التي حصلت بالثورة الصناعية في أوربا، لم تؤثر تأثيراً كبيراً على البدو، فعوضاً عن نقل بضائع الشرق من بغداد إلى دمشق أصبحوا ينقلون البضائع الأوربية من بلاد الشام إلى بغداد. ويقول بولك: (لقد وجدت مجموعات قبلية صحراوية يعتقد أنها تعد / ٢٠٠,٠٠٠ / شخص كانوا يعيشون على نقل بضائع الإنكليز من الساحل عبر الصحراء

1 - Douin .G. op.cit. partie.3.PP.225.231.

(٢) انظر رستم، أسد، المصدر السابق ـــ المجلد ٣ ـــ ٤. ص١٧٤.

(٣) انظر: زكي، عبد الرحمن. التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير. ص٤٠٩. وأبرز القبائل البدوية التي استخدم رجالها ابراهيم باشا المصري ضمن قواته كانت قبائل عرب: العمايم ـــ وعرب الجوازي ـــ وعرب المنادي ـــ والموارة وغيرها. انظر: سجل محكمة حماه رقم رقم ٥٠/ ص٩٧ و ص٩٨ و ص١٠٩/ سنة ١٢٥١ ـــ ١٢٦٤هـ.

(٤) انظر: كاتا فاكو. أنطون. فتوحات ابراهيم باشا المصري في فلسطين ولبنان وسورية. ص٢٤ و ص٢٥.

5 - Douin. G. op.cit.partie.3.P.233.

وإلى الشرق)[1]. وبعد استعادة الدولة العثمانية للسلطة على بلاد الشام، حاولت أن تغير نمط حياة بعض القبائل البدوية الرحل، وأن تجعلها تستقر في القرى المهجورة أو المدمرة. ولم يكتب لهذه السياسة النجاح إلا في عام ١٨٤٥م[2].

أهل الذمة

هذا الاصطلاح عرفه الفقه الإسلامي، بأنه يطلق على من يجوز عقد الذمة معهم من أهل الكتاب، كاليهود والنصارى في ديار الإسلام، واعتبر المجوس أهل ذمة وأخذت منهم الجزية، واعتبر السامرة أيضاً أهل ذمة والصابئة أهل ذمة بشرط أن يوافقوا اليهود والنصارى في أصل عقيدتهم وكان دفعهم الجزية[3] مقابل حماية الإسلام لهم وكانوا يعفون من الخدمة العسكرية. ووجد في دمشق (ديوان الجوالي) لجمع مال الجزية من أهل الذمة، وكلف في بعض الأحيان ملتزمون بجمعها، إلا أن أموال الجزية لم تدخل في شروط التزام الميري[4]. ولقد ورثت الدولة العثمانية وضع الذميين من عهد المماليك وتركتهم على حالهم السابقة، وشكل أهل الذمة فئات متعددة من هيئة المحكومين في دمشق، فكان منهم النصارى واليهود والسامرة إلا أننا لم نرصد في كتب المؤرخين مايشير إلى وجود الصابئة أو المجوس في دمشق في هذه الفترة.

وكان ثمة شروط لدخول أهل الذمة في ذمة الإسلام. ومن هذه الشروط شروط مستحقة ومنها شروط مستحبة ــ أما الشروط المستحقة فكان على الذمي أن لا يذكر

1 - Polk .W. op.cit.P.224.

2 - Maoz. Moshe. op.cit.PP.141.142.

(٣) يقول بن عابدين: الجزية خراج رأس وهذا أمارة المجاز وبنيت على فعله دلالة على الهيئة التي هي الإذلال عند الإعطاء، أو تسمى جالية من جلوت عن البلد جلاء الفتح والجد خرجت وجليت مثله والجالية الجماعية ومن قيل لأهل الذمة الذين جلاهم عمر (ض) عن جزيرة العرب جالية، ثم نقلت الجالية إلى الجزية التي أخذت منهم واستعملت في كل جزية تؤخذ وإن لم يكن صاحبها جلى عن وطنه. فقيل استعمل فلان على الجالية والجمع الجوالي، فإطلاقها على الجزية مجاز بمرتين لأنها جزت عن القتل أي قضت وكفت عنه، فإذا قبلها سقط عنه القتل. وكانت الجزية تؤخذ من الذمي بنفسه فيعطيها قائماً والقابض قاعداً وتدفع الجزية بأول السنة على عكس خراج الأرض. انظر: ابن عابدين، محمد. رد المحتار على الدر المختار. ج٣. ص٣٦٨.

(٤) ويذكر المرادي: أن الشيخ حسن بن مصطفى البغدادي القادري النقشبندي المتوفى سنة ١١٨٢هـ. صارت له «عثا منه» أيضاً في الجوال الميرية من طرف الدولة. انظر: سلك الدرر. ج٢. ص٣٣.

الإسلام بذم، أو القرآن بطعن، أو الرسول بتكذيب، وألا يصيب مسلمة بزنى، وألا يثني مسلماً عن دينه، وألا يتعرض لمال المسلم، وألا يعين أهل الحرب على المسلمين[1].

أما الشروط المستحبة فكان على الذميين أن يلبسوا الزي (وهي ملابس ذات لون مخالف للون لباس المسلمين)، وألا تعلو أصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم، وألا يتجاهروا بشرب الخمر، وإظهار صلبانهم وخنازيرهم، وألا تعلو أبنيتهم فوق أبنية المسلمين، وألا يخفوا دفن موتاهم، وألا يجاهروا بالندب عليهم والإناحة، وأن يمتنعوا من ركوب الخيل[2]. ولكن لا تعتبر مخالفة الشروط المستحبة نقضاً للعقد، إلا أننا نلاحظ أن نقض أهل الذمة لهذه الشروط في دمشق في هذه الفترة، كانت صعبة عليهم، كما عرضتهم لأذية جهلة المسلمين، وبعض السلطات العثمانية. ولا غرابة في ذلك، فالعصر آنئذ عصر جهل وتعصب، ولعبت تركة الحروب الصليبية مع استمرار الصدام بين الدولة العثمانية المسلمة والدول الأوربية المسيحية، دوراً في إزكاء نار التعصب[3]. ولقد انصب في هذه الفترة جام غضب الحكام على المسيحيين من أهل الذمة أكثر من اليهود، وربما يعود ذلك لاعتقادهم بأن المسيحيين كانوا على صلة بالدول الأوربية التي تربطهم معها رابطة الدين. ولم يكن أهل الذمة في دمشق، على درجة واحدة في السلم الاجتماعي والدخل المادي. فكان منهم من استلم مناصب مالية أو كتابية حساسة لدى ولاة دمشق. ومنهم من عمل في أحط الحرف، فكان منهم الفقراء والأغنياء. إلا أن أحوالهم قد تغيرت بشكل ملحوظ إلى الأفضل، في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، كما اختلف وضعهم مابين مدينة حلب ومدينة دمشق. ففي الوقت الذي استطاع فيه أبناء أهل الذمة الحصول على البراءات السلطانية والحماية من القناصل في حلب كان أهل الذمة في دمشق محرومين منها، وذلك لانفتاح مدينة حلب على الأجانب والقناصل الأوربيين، في حين لم تكن دمشق كذلك في تلك الفترة، وما أن دخل ابراهيم باشا دمشق حتى بدأ حالهم يتغير إلى الأفضل، فدخل القناصل الأوربيون إلى دمشق ودخلت بضائع أوربا على نطاق واسع إليها ودخل التجار الأوربيون ليسهلوا تصريف

(١) انظر: رستم، أسد، المصدر السابق ـــ المجلد ٢ / ص٢٥.

(٢) انظر: الماوردي الأحكام السلطانية. ص١٣٧ ص١٣٨ و ص١٣٩. ثم: ابن قيم الجوزية. أحكام أهل الذمة. ج١. ص٢٢ ص٢٣.

(٣) انظر: عاشور، سعيد. الحركة الصليبية. ج١. ص١٤١ و ص١٤٤.

بضائعهم، أو اعتمدوا في ذلك على أبناء أهل الذمة. ووفروا لهم الحماية والبراءات السلطانية، وقام هؤلاء بالدخول في تجارات واسعة مع أوربا فتغير، حالهم وأصبحوا من أغنى أغنياء تجار دمشق.

ومن جهة ثانية لم يكن أهل الذمة، بأديانهم المختلفة على مذهب واحد. فالنصارى مثلاً كانوا أكثر عدداً من اليهود من جهة، وكانوا على مذاهب متعددة. وكان أكثر مذاهب النصارى عدداً الأرثوذكس، إلا أن عددهم بدأ يتناقص لصالح الكاثوليك وغيرهم من المذاهب المسيحية الأخرى، بفعل حركة التبشير التي نشطت في القرن التاسع عشر، والتي دعمت من قبل النمسة وفرنسا وغيرهما. ولم تعترف الدولة العثمانية بملة الكاثوليك إلا في فترة متأخرة من القرن الثامن عشر، على حين كانت ملة الأرثوذكس هي المعترف بها ولها بطريركها برتبة باشا بثلاثة أطواخ. كما اعترف العثمانيون بملة الأرمن وكان لهم بطريرك في القسطنطينية، واعترفت لليهود على أنهم ملة، وكان لهم حاخام في العاصمة يمثلهم.

أما الأرثوذكس فكانوا ينقسمون بدورهم إلى طوائف عدة، أبرزها في دمشق النساطرة واليعاقبة والسريان. أما اليعاقبة فهم أتباع يعقوب البرادعي أسقف أنطاكية في القرن السادس للميلاد، ويؤمن هؤلاء باتحاد اللاهوت بالناسوت، ويعرفون بأصحاب الطبيعة الواحدة، وسموا بالسريان القدماء أو السريان الأرثوذكس، وكانت لغة طقوسهم الدينية السريانية.

أما الروم الارثوذكس فكانت تسميتهم تطلق على مجموعتين من الكنائس المسيحية، الأولى هي: الكنائس المسيحية البيزنطية شق الكنيسة الرومانية وبرز أتباعها منذ القرن الحادي عشر للميلاد في كل من روسية واليونان ودول البلقان/والبلاد العربية ومنها دمشق، ثم المجموعة الثانية وتشمل أربع طوائف مسيحية تقول أيضاً بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح. وتتكون طوائفهم من السريان ــ والأقباط ــ والأحباش والأرمن، [1]. وكان منهم في دمشق السريان والأرمن أما الأقباط والأحباش فكانت لهم كنيسة في القدس.

كان للروم الأرثوذكس طقوس يونانية ولهم ثلاث بطريركيات هي (أنطاكية والقدس والاسكندرية) وأتباعها كانوا من العرب، وأصبحت دمشق مقراً لبطركية أنطاكية منذ القرن

(١) انظر: الخطيب، عدنان. مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مقالة له تحت عنوان: نظرات في المعجم الوسيط. ج٢ ــ المجلد ٣٩/ص٢٧١. دمشق نيسان ــ ابريل ــ ١٩٦٤م. ذو القعدة ١٣٨٣هـ.

الرابع عشر ، بعد أن استولى الظاهر بيبرس المملوكي على أنطاكية ١٢٦٨م ، حيث هجرها البطاركة إلى أن جاؤوا إلى دمشق ١٣٧٧م ، في عهد مرقس الأول أو خلفه باخوميوس الأول ، وهكذا أصبحت دمشق منذ تلك الفترة مركز أبرشية البطريرك الخاصة[١] . وفي ١٧٩٩م تعين لأول مرة على هذه البطريركية مطران عربي ، وهو المطران الدوماني ، وانتهت منذئذ سيطرة البطاركة اليونان ، وتعربت بعدئذ الكنائس الأرثوذكسية التابعة لها[٢] ، ولقد لاقى الأرثوذكس احتراماً من ولاة دمشق والهيئة الحاكمة فيها طالما أن الدولة العثمانية ليست في حالة حرب أو صدام مع روسية الأرثوذكسية ، وطالما أن حال السلطة العثمانية مستقر في اليونان ومناطق الروملي الأرثوذكسية . إلا أنه بنشوب ثورة اليونان ضد الدولة العثمانية ، ومطالبتها بالاستقلال عنها ، انصب غضب الدولة العثمانية على الأرثوذكس ، وأوعزت إلى والي دمشق بقتل بطريركها ، وتصفية رجال دينها والتضييق على أتباعها ، في حين نرى حالة معاكسة لذلك عندما وقعت بلاد الشام في قبضة ابراهيم باشا وكانت روسيا إلى جانب الدولة العثمانية ، فلاقى الأرثوذكس قبولاً من الدولة العثمانية ، وبعد إجبار قوات المصريين على الخروج من سورية ، بدعم من الإنكليز ــ والروس عام ١٨٤١م ، لاقى بطريرك الأرثوذكس أمتوديوس إكراماً كبيراً من والي دمشق العثماني ، وعندما توجه هذا البطرك إلى الشخصية الثانية آنئذ في دمشق وهو الدفتردار ، قام الأخير بالاحتفاء به ، مع أنه كان يونانياً لا يعرف لغة أهالي دمشق[٣] .

أما الملة الثانية من المسيحيين في دمشق ، والتي اعترفت بها الدولة العثمانية ، فهي ملة الأرمن ، وكان الاعتراف بها عشية سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م . وكان مطران الأرمن الأرثوذكسي يستقر في اسكودار ، وكان بطريركاً على جميع المسيحيين بما فيهم الأرمن ، حيث كان بعضهم يستقرون في حي خاص بهم في دمشق[٤] . وكان لهم خمسة رؤساء دينيون في أوائل القرن التاسع عشر ، ويرأسهم في دمشق بطريرك ، ولقد قام بزيارته ١٨٣٣م الشاعر الفرنسي لامارتين ويصفه بقوله : « شخص معتبر ذو ثقافة عميقة وواسعة ، ولقد اعتمده ابراهيم باشا المصري رئيساً على ملته في دمشق ، وممثلاً لها في المجلس البلدي ، ولم يغادر دمشق

---

(١) انظر : الذكرى المئوية الأولى لوفاة السعيد الذكر البطريرك مكسيموس الثالث المظلوم ١٨٥٥ ــ ١٩٥٥م . ص٩٨ .

(٢) انظر : قدامة ، أحمد . معالم وأعلام في بلاد العرب . ج١ . القسم الأول . ص٢١ .

(٣) انظر : مجهول ، حسر اللثام عن نكبات الشام . ص٢٢٣ .

4 - Lamartine. Voyage en Orient partie.2. PP.7.9.

على الإطلاق إلا أنه مع ذلك مفاهيمه محددة ومدرك بشكل عقلاني حالة أوربا السياسية، وخاصة الوضع في فرنسا. وله إطلاع على حركة الفكر الإنساني، ومدرك لطبيعة التغيرات في الحكومات الحديثة، ومتبصر بما سيؤول إليه مستقبل الحضارة، ومامن شبيه له في أوربا، لديه مثل هذه النظرات العميقة، إلا القلة، بالإضافة إلى أنه يتقن اللغتين اللاتينية واليونانية»[1].
إلا أنه كان فريداً بين كهنة الأرمن، الذين كانوا بشكل عام يغوصون في لجة الجهل. أما رهبانهم فكانوا أكثر علماً وثقافة. وكان الأرمن أكثر أبناء الطوائف المسيحية تمسكاً بدينهم في مدينة دمشق[2]، وكانوا يختارون رجال دينهم من أبناء طائفتهم. ويمكن تفسير ذلك بأنه لم يكن تمسكاً منهم بالدين فحسب بل كان تمسكاً قومياً شأن الأقليات العرقية آنئذ.

أما الكاثوليك فقد برزوا بوفاة تيودوسيوس الكبير عام ٣٩٥م، حيث تأصل الإنقسام في الكنيسة المسيحية، وبدأ النفور بين الكنيسة الشرقية في القسطنطينية والكنيسة الغربية في روما في القرن الحادي عشر[3]، وذلك قبل بدء الحروب الصليبية، واعتبر اللاتين الأرثوذكس غير مؤمنين كالمسلمين[4].

وبقي الكاثوليك ملة ملحقة بإحدى الكنائس الأرثوذكسية أو الأرمنية في ظل الدولة العثمانية، ولم يكن تعداد الكاثوليك كبيراً بين المسيحيين في دمشق حتى الربع الأول من القرن الثامن عشر، إذ بدأت حركة التبشير الأوربية بدعم الموارنة، وقام هؤلاء بنسل العديد من أبناء الطائفة الأرثوذكسية وضمهم إلى صف الكاثوليكية، وتم الانشطار علناً بانسلاخ شريحة كبيرة من الأرثوذكس في عهد المطران جراسيموس سمان عام ١٧٢٧م، الذي التحق بالكثلكة مع أتباعه، ويقول الخوري بطرس روفائيل: «لقد لعبت فرنسا والكرسي الرسولي عن طريق الموارنة دوراً في ارتداد الكثير من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية إلى الكنيسة الكاثوليكية في سورية. وكانت البداية عندما وحد اساقفة الكاثوليك صفوفهم وهم: ناوفيطس نصري أسقف صيدنايا وبرفانيوس أسقف بعلبك وسليفتروس دهان متروبوليت بيروت وبرثانيوس

---

1 - Ibid. PP.6.7.

2 - Douin .G. op.cit. Troisieme. partie. P.209.

(٣) انظر: مجلة المشرق. ص٧٧. الحاشية. من العدد الأول لعام ١٨٩٨م.

(٤) انظر: قاسم، قاسم. أهل الذمة في مصر في عصر سلاطين المماليك، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة في التاريخ الإسلامي. ص١٠٢ ــ ١٠٣ مارس ــ آذار ــ ١٩٧٥م القاهرة.

أسقف ديار بكر وباسليوس أسقف بانياس وأفتيموس فاضل ـــ فأقاموا عليهم في ١٧٢٤م بطريركاً باسم كيرلس السادس طاناس، وضموا بذلك ١٣ ألف إلى الكنيسة الكاثوليكية، وعقد الأساقفة مجمعاً في دمشق، فانتخبوا الأب سارافيم طاناس بطريركاً وهو بن أخت أفتيموس صيفي وكانت رسامته في ٢٠ أيلول ١٧٢٤م، فتوطدت بذلك الكثلكة رسمياً [١].

وكان رد فعل الأرثوذكس قوياً فقاموا بانتزاع العديد من الكاتدرائيات واضطر البطريرك الكاثوليكي لمغادرة سورية ولبنان تلافياً لشر عظيم قد يصيبه، واضطر الكهنة الكاثوليك لإقامة صلواتهم في البيوت الخاصة، وكانوا يقيمون اجتماعاً أسبوعياً لتنظيم أحوالهم الرعوية في مدينة دمشق. وفي أواخر عام ١٧٢٥م قدم سيلفستروس إلى دمشق، وقام بالبطش باتباع الكثلكة بشدة. مما دفع بالعديد من الكاثوليك لترك دمشق أو التراجع عن الطقوس الكاثوليكية، وانتحل البعض الآخر الطقس اللاتيني طمعاً في حماية الدول الأجنبية. فلجأ بطريرك الأرثوذكس للسلطة المركزية في استانبول يستعديها عليهم باتهامهم أنهم أتباع للإفرنج وأنهم متواطئون معهم لتمليكهم البلدان العثمانية، فقامت الدولة العثمانية باضطهادهم وأوعزت إلى ولاة دمشق للقيام بذلك، واستغل ولاة دمشق هذا الإيعاز لابتزاز الأموال من الكاثوليك والأرثوذكس على حد سواء، وإيقاد نار الفتنة بينهما [٢]. ولقد اعترضت سبيل الكاثوليك مشاكل عدة من جراء عدم اعتراف الدولة العثمانية بهم، كملة منفصلة عن الكنائس الأرثوذكسية، فأجبروا على استخدام الكنائس الأرثوذكسية وطقوسها في صلواتهم، مما دفعهم للجوء إلى بيوتهم الخاصة، لإقامة شعائرهم الدينية، ولم يستطيعوا إقامة كنائس خاصة بهم، لأن القوانين العثمانية الإسلامية لا تسمح بإقامة كنائس جديدة للمسيحيين، مما دفعهم للاتصال بالقضاة المسلمين والولاة لانتزاع بعض الكنائس من يد الأرثوذكس، وتخصيصها لصلواتهم في ساعات معينة[٣]. كما ضيق إكليروس الروم على الكاثوليك فاحتكروا حق دفن موتاهم والقيام بمراسم جنازاتهم، وتوزيع تركتهم مع قاضي الإسلام، وذلك استناداً إلى التخويل القانوني بموجب فرمانات سلطانية [٤].

---

(١) انظر : مجلة المشرق . العدد ٢٥ . عام ١٩٣٧م.

(٢) انظر الذكرى المئوية الأولى لوفاة السعيد الذكر مكسيموس الثالث المظلوم ١٨٥٥ ـــ ١٩٥٥م. ص٧٧ ص٧٨ ص١٣٠ ص١٣٥ ثم : Burckhardt.J.L.op.cit.P.28

3 - Koury .G. op.cit. PP.158,159.

(٤) انظر : المخلصي، قسطنطين الباشا استشهاد سمعان جبوز وبطرس نميرقب . ص١١ .

وفي عام ١٢٣٢هـ/١٨١٦ ـــ ١٨١٧م أصدر الباب العالي فرماناً إلى والي دمشق لمنع الكاثوليك من التبشير بين أتباع الكنيسة الأرثوذكسية، والحظر على الأرثوذكس الدخول إلى الكنائس الكاثوليكية، والحظر على رجال الدين الكاثوليك ومبشريهم الدخول إلى بيوت الأرثوذكس[1]. ولقد صدر هذا الفرمان بمداخلة بطريرك الأرثوذكس في القسطنطينية لدى السلطات العثمانية بعد أن تزايد عدد التاركين للأرثوذكسية لصالح الكاثوليكية.

ولقد حاول الكاثوليك الاعتماد على بعض المتنفذين من كتاب ولاة دمشق الكاثوليك لتوفير الحماية لهم، وحصل في عهد صالح باشا المعدنلي (١٨١٩ ـــ ١٨٢٠م/١٢٢٤ ـــ ١٢٢٥هـ). إلا أنه بعد عزله تغير حال الكاثوليك، ولكنهم لم ييأسوا بل سعوا لتوفير الدعم لأنفسهم من الدول الأوربية الكاثوليكية، وسعوا لانتزاع اعتراف الدولة العثمانية بهم، كملة منفصلة عن أخواتها، واستطاعوا بعد ذلك أن يعينوا ناظراً عاماً لهم، وفي عام ١٨٣٣م انتخب المطران مكسيموس الثالث المظلوم بطريركاً على الكرسي الأنطاكي للروم الكاثوليك، وأعلن ولاءه للبابا في روما. وبعد توقيع معاهدة كوتاهية عام ١٨٣٣م، والتي منح بموجبها محمد علي باشا ولاية مصر وصيدا وطرابلس ودمشق وحلب، أصبحت الفرصة مواتية للكاثوليك في دمشق لبناء كاتدرائية خاصة بهم، ووافق ابراهيم باشا على ذلك في ٥ نيسان ١٨٣٤م. وفي حزيران ١٨٣٤م أعلن كوب تشوكوريان بطريركاً مدنياً على الطوائف الكاثوليكية. وفي ٣١ تشرين الأول ١٨٣٧م صدر فرمان من الباب العالي في استانبول يقر بموجبه مكسيموس الثالث المظلوم رئيساً شرعياً على الكاثوليك، وفي ٧ كانون الثاني ١٨٤٨م استطاع مكسيموس هذا أن ينتزع من السلطان العثماني فرماناً يعترف بموجبه بسلطته المطلقة على كنيسته، ثم قام ببناء كنيسة للكاثوليك في باب المصلى والقرشي من الميدان، والمدرسة البطريركية في الحي المذكور[2].

أما المذهب الماروني فكان له أتباع في مدينة دمشق آنئذ، وكان لهم حي خاص بمحلة باب توما داخل أسوار دمشق. ولكن الكتلة الأساسية من الموارنة كانت تسكن في جبال لبنان، ووجد عدد منهم في المدن الشامية، كحلب واللاذقية وبعض قرى جبال العلويين[3].

---

1 - Koury .G. op.cit. P.159.

(٢) انظر: الذكرى المئوية لوفاة السعيد الذكر البطريرك مكسيموس الثالث المظلوم عام ١٨٥٥م ـــ ١٩٥٥م. ص١٣٠ ص١٣٥.

3 - Wright. Thomas. Early Travels in palestine. P.389.

ولم يقر هؤلاء بسيادة البابا في روما في الأمور الدينية إلى عام ١٤٣٨م/٨٤٢هـ، وكان معتمدهم من أشهر المقاومين للقول بعصمة البابا. ولقد شكل الموارنة شوكة في جنب الدول الإسلامية المتعاقبة على حكم بلاد الشام فتآمروا مع أعدائها وسببوا لها المتاعب.

وفي العصور الحديثة اهتم بهم ملوك فرنسا بدءاً من القرن السابع عشر، حيث أرسل لويس الرابع عشر منشوراً إليهم يبسط حمايته عليهم، وفعل فعله لويس الخامس عشر ولقد سعت فرنسا لتأمين مصالحها اعتماداً عليهم في بلاد الشام «فعد الموارنة أنفسهم من جملة الفرنسيين وهم إلى هذا اليوم، يكرمون هذه الدولة، ويحبونها حباً كبيراً، ويتظاهرون بالانتماء إليها، ولقنصل فرنسا نفوذ الكلام في بلادهم»[1]. ولم يكن للموارنة شأن كبير في دمشق، كما لم يكن لهم شأن يذكر في المجالات الاقتصادية المختلفة في القرن الثامن عشر. إلا أن حالهم قد تغير بعد ذلك بفعل المساندة القوية لهم من البابوية وفرنسا على حد سواء، فلعبوا دوراً كبيراً في نسل العديد من أبناء الطائفة الأرثوذكسية وجلبهم إلى صف الكاثوليكية، وتحسنت أوضاعهم بانفتاح دمشق على الغرب. فحصل العديد منهم على حماية الدول الغربية، وأعطاهم ذلك قصب السبق على غيرهم، خاصة في المدن الساحلية وفي المدن التي وجد بها قناصل وتجار أوربيون[2]، وأصبح بعضهم قناصل محليين لدول أوربا.

كنائس النصارى وأديرتهم في دمشق

كان لكل طائفة من طوائف النصارى في دمشق كنيسة أو أكثر، وكانت معظم هذه الكنائس تقع ضمن أسوار دمشق. فكان للأرثوذكس ثلاث كنائس اثنتان منهما في المدينة والثالثة في حي الميدان. وأكبر كنائسهم كانت كنيسة مريم العذراء أو الكنيسة المريمية، وكانت تضم كنيستين متجاورتين، الأولى على إسم السيدة، والثانية فكانت كنيسة مارنقولا. أما الكنيسة الثانية فكانت كنيسة مار يوحنا الدمشقي، وتقع إلى الشمال الشرقي من الكنيستين المذكورتين على مسافة قليلة، وكلها كانت في حي الآسية من دمشق، وكان هذا الحي مقراً للقنصل الروسي. أما كنيسة الأرثوذكس التي تقع خارج أسوار دمشق، فهي كنيسة الميدان في محلة القرشي، وهي صغيرة وكانت فيها مدرسة للذكور.

(١) انظر: مجهول. حسر اللثام عن نكبات الشام. ص٦٣.

(٢) انظر السيوفي، حبيب سورية ولبنان وفلسطين بالقرن الثامن عشر كما وصفها أحد مشاهير الغربيين (فولني). ج١. ص١٢.

أما الكاثوليك فكان لهم كنيسة واحدة في حي الزيتون، كانت في الأصل معبداً يهودياً. وكان لهم بالإضافة إلى ذلك كنيستان في حي الميدان. ولقد أقيمت هذه الكنائس في القرن التاسع عشر وسعى في بنائها أحد كتاب النصارى الكاثوليك (بحرى بك) لدى ابراهيم باشا وكان بناؤها مابين عام ١٨٣٣ — ١٨٤٠م. وكان أكبر هذه الكنائس كنيسة السيدة التي بني بجانبها دار للبطرك خانة في إحدى زواياها. وبنيت إلى جانبها مدرسة لذكور طائفة الكاثوليك. أما الكنيستان الأخريان فكانتا في حي الميدان، الأولى منهما في محلة باب مصلى على اسم القديس جاورجيوس، والثانية في محلة القرشي على اسم سيدة النياح، وهما صغيرتان. ثم كنيسة للسريان الكاثوليك باسم مارجرجس الحبشي، وكانت تقع على الطريق السلطاني، بالقرب من الباب الشرقي خارج أبواب دمشق، ورغم صغرها كانت جميلة وبدائرتها مركز للبطرك خانة ومدرسة لهذه الطائفة، ثم كنيسة مار سركيس التي تقع بجانب الباب الشرقي ملاصقة للسور، وهي مختصة بطائفة الأرمن القدماء. وهي قديمة العهد وكانت في دائرتها مدرسة صغيرة لذكور هذه الطائفة، ويقع بالقرب منها بيت يسكنه (مرتبيت الطائفة).

ثم كنيسة السريان اليعقوبيين، وتقع في حارة حنانيا وهي كنيسة صغيرة، ثم كنيسة الأرمن الكاثوليك، وتقع أمام دير الرهبان العازاريين في شرق المدينة، وهي صغيرة جداً، وقد أنشئت بعد عام ١٨٦٠م على اسم القديس غريغوريوس.

أما البروتستانت فلم يكن لهم من كنائس في فترة دراستنا هذه، لأن أتباعهم كانوا قليلين جداً، لا يتجاوز عددهم السبعين فرداً حتى منتصف القرن التاسع عشر، وأنشئت أولى كنائسهم في دمشق بعد عام ١٨٦٤م[1].

ورغم وجود معلومات تشير إلى أن نشاط البعثات البروتستانتية في بيروت وبلاد الشام بدءاً من عام ١٨١٨م، إلا أنها لم تحقق نجاحاً يذكر. ولقد جوبهت من قبل الموارنة والسلطات العثمانية على حد سواء. وانتعشت تلك البعثات في ظل الحكم المصري، وزادت من نشاطها. ولم يقتصر نشاطها على بيروت، بل امتد نشاطها إلى خارجها، وفتحت المدارس وجلبت المطابع لطباعة كتبها باللغة العربية للدعاية والتبشير، وعبر تأثيرها إلى حوران

(١) انظر: القساطلي، نعمان. الروضة الغناء... ص١٠١ و ص١٠٢ و ص١٠٣.

ودمشق، وعين أحد أعضاء البعثات التبشيرية الأمريكية قنصلاً لأميركا. ومع ذلك لم تحقق تلك البعثات الأهداف المرجوة منها، وجلّ ماحققته من أهداف، أن روجت البضائع الأوربية ووضعت الأسس الراسخة للأفكار الغربية[1]، ولم تبرز آثارها في دمشق إلا في منتصف القرن التاسع عشر[2] حيث وجدت لها مجموعة صغيرة في سورية وفلسطين في الفترة الواقعة مابين عام ١٨٣٠م وعام ١٨٤٠م[3].

ومن جهة أخرى فإن الأديرة في دمشق، كانت جميعها للطوائف المسيحية الباباوية. وتحتوي تلك الأديرة على كنائس شهيرة وحسنة، في حين كانت أديرة الطوائف المسيحية الشرقية خارج دمشق، كصيدنايا ومعلولا وغيرها. وأنشأ الأديرة في دمشق، في فترات مختلفة، مرسلون ومبشرون من العازاريين والكبوشيين والفرنسيسكان، كما أنشأوا إلى جانبها مستشفيات. ففي دير الكبوشيين كان يعمل البادري توما وأقام فيها منذ عام ١٨١٥م وحتى مقتله على يد اليهود في سنة ١٨٤٠م، وكان يلقح الناس ضد الجدري، وكان معروفاً لدى الجميع من أهل دمشق وريفها. كما أقام الأرثوذكس مدارس لهم ألحقوها بكنائسهم[4] فيما بعد.

وبالرغم من تخفيف بعض القيود عن أهل الذمة، فقد استمروا بدفع مال البدل عن الخدمة في الجيش العثماني، الذي حرم عليهم الانخراط في صفوفه، وبقيت بعض القيود مفروضة عليهم إلى سنة ١٨٥٥ ـــ ١٨٥٦م[5]. كما أن سياسة التسامح الديني التي طبقها ابراهيم باشا، ومحاولته نشر فكرة المساواة بين الطوائف الدينية، صعّب العودة إلى التمييز الطائفي بعد رحيله من بلاد الشام وكان لا بد من إلغاء الفروق بين المسلمين وأهل الذمة.

اليهود في دمشق

شكل اليهود بشكل عام أكثر من إحدى وسبعين فرقة، كل واحدة منها تضلل

1 - See: Polk .W. op.cit.P.163.

(٢) انظر: القساطلي، نعمان الروضة الغناء في دمشق الفيحاء. ص١٠٣.

3 - See: Maoz, Moshe. op.cit. P.212..

4 - See: Renaunin «histoire des relation in termaionaies». partie.5.P.266.

5 - See: Chevallier. dominique, western. development and eastern crisis in ninteeth century.PP.208-348.

الأخرى[1] . وارتكزت الاختلافات بينها على ادعاء كل فرقة على أنها أكثر التزاماً بأصول الدين اليهودي ، واختلفت حول الاعتراف بأسفار التوراة (العهد القديم) والتلمود . وكان منهم في دمشق آنئذ أربع طوائف هي : طائفة الربانيين ــ والقرائين ــ والسامرة ــ والمستعرب[2] . ويعتقد أن طائفة المستعرب كانت من أصول غير عربية ، وكانت قليلة إذا ماقيست بالطوائف اليهودية الأخرى ، وأكثر الطوائف عدداً كانت فئة الربانيين . وهجر القراؤون دمشق قبل ١٨٣٢م ، وبقي كنيسهم في حيهم (الزيتون) مهجوراً إلى أن جاء أحدهم وقام ببيعه للنصارى الكاثوليك في دمشق عام ١٢٤٨هـ[3] ، فأقام الكاثوليك كنيستهم مكان الكنيس اليهودي ، وضموا حارة القرائين إلى كنيستهم في عهد ابراهيم باشا المصري[4] ، وقد أثار ذلك خلافاً بين علماء المسلمين[5] . وسكنت كل طائفة من طوائف اليهود المذكورة في حي خاص من دمشق ، وأطلق على كل حارة اسم الثلاج[6] . وكان أكبر أحياء اليهود يقع في جنوب شرق دمشق وخارج أسوارها حين قام نور الدين زنكي بتطويقه بسور المدينة بما فيها كنائسهم . ولم يبق من كنائسهم خارج هذا السور سوى كنيسهم الأهم في جوبر الذي كانوا يقيمون فيه صلواتهم[7] .

وكان الربانيون أو الربيون طائفة من اليهود معروفة ، وكانوا الأكثرية اليهودية في دمشق . وسموا بالعبرية (ربانيم) وتعني الأحبار أو الفقهاء . وقد عربت هذه الكلمة ووردت في القرآن الكريم في قوله تعالى : «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحقوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء»[8] .

---

(١) انظر : زيات ، حبيب ــ مجلة المشرق العدد ١ ــ ٣٦ / ص ١٥٠ عام ١٩٣٨م .

(٢) انظر : سجل رقم ٢٦ / القسمة العسكرية بدمشق . ص١٥٨ .

(٣) انظر : ابن عابدين . رد المحتار إلى الدر المختار . ج٣ . ص٣٧٦ .

(٤) انظر : القساطلي ، نعمان . الروضة الغناء في دمشق الفيحاء . ص١٠٣ .

(٥) حيث طلب من ابن عابدين الافتاء في جواز ذلك فرفض وقال : (إن ذلك غير جائز فكتب لهم بعض المتهودين طمعاً في عرض الدنيا) انظر : كتابه السابق . ج٣ . ص٣٧٦ .

(٦) انظر : رستم ، أسد ، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا . ص٥ .

(٧) كرد علي . مقالة له تحت عنوان (الغوطة) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ــ المجلد ١٦ . ص١٦٩ . عام ١٩٦١م .

(٨) سورة المائدة الآية ٤٢ .

ويعتقد أيضاً أن أبناء هذه الطائفة قد أخذوا تسميتهم تلك نتيجة لاتباعهم تفاسير علماء اليهود وفقائهم في المشنا والتلمود[1].

وكانت السامرة الطائفة الرابعة من اليهود، وكانت قليلة العدد (تعد بالعشرات) في مدينة دمشق آنئذ، وكان يرأسهم الربيس ولم يعتبرهم القراؤون والربانيون منهم. إلا أنهم عوملوا من قبل السلطات العثمانية على أنهم فرقة يهودية ومن أهل الذمة. وأصل هذه الفرقة يعود إلى فترة تدمير مملكة اسرائيل في فلسطين، والتي انشقت عن سليمان بعد وفاته، على يد ملك آشور (تفلت فلاسر) عام ٧٣٨ ق. م. كما قام الملك الآشوري بإجلاء اليهود عن فلسطين إلى نواحي شمال إيران الحالية، وأحل محلهم بعض القبائل في سكن عاصمة المملكة، وهي مدينة السامرة القديمة، التي بنيت على أنقاضها مدينة نابلس فيما بعد[2]. ولهذا اعتبرتهم بقية فرق اليهود على أنهم حثالة من الأجانب المتعاونين مع أعداء اليهود، كما اعتبروهم وثنيين ومشركين وأطلقوا عليهم اسم (شومارونيم) أي السامرة. ولكن السامريين حرفوا هذه الكلمة إلى كلمة (شمرنيم) أي المحافظين بدعوى أنهم أصحاب الدين الموسوي الأصلي[3].

وانقسم اليهود السامرة إلى طائفتين، إحداهما تعترف بنبوة موسى وهارون ويوشع وتجحد من عداهم من النبيين، أما الطائفة الثانية منهم فتعتقد بنبوة كل الأنبياء ماعدا عيسى ومحمد عليهما السلام[4]. وقام السامرة ببناء هيكلهم فوق جبل جرزيم أيام السبي البابلي عام ٥٨٦ ق. م. وحين أذن قورش لليهود بالعودة إلى فلسطين عام ٥٣٨ ق. م، بدأوا في تجديد هيكل القدس (أورشليم) عام ٥٢٠ ق. م، وسعى آنئذ السامرة في تأخير بناء الهيكل، مما أحنق اليهود عليهم فحرموا الزواج منهم. وتعرض السامرة لنقمة اليهود في أكثر من مناسبة خلال تاريخهم[5].

ولقد اتخذ السامرة جبل جرزيم قبلة لهم ومحجاً، وكانوا يقدمون عليه الأضاحي بدلاً من تقديم ذلك على صخرة بيت المقدس، لاعتقادهم بأن الله كلم موسى على هذا الجبل.

(١) انظر: قاسم، قاسم. المرجع السابق. ص١٣٠ و ص١٣١.

(٢) انظر: قاسم، قاسم. أهل الذمة في مصر في عصر سلاطين المماليك. ص١٣٣.

(٣) المصدر السابق. ص١٣٤.

(٤) انظر: زيات، حبيب ـ مجلة المشرق العدد ٣٦/ص١٥٠ و ص١٥١ عام ١٩٣٨م.

(٥) انظر قاسم، قاسم ـ المصدر السابق. ص١٣٤.

وهم شديدو الحرص على حرمة السبت، وكانت لهم لهجة عبرية ولغة مخاطبة مغايرة لبقية اليهود يدعون بأنها من عهد موسى عليه السلام[1]، ولا يعتبرون غير كتب موسى الخمسة[2].

سكن السامرة في دمشق في حي خاص بهم فوق العنابة بالقرب من برج الروس، ووجد في دمشق درب يسمى بدرب السامري. وكان لهم كنيس خاص بهم في ذلك الوقت، إلا أننا لا ندري موقعه بدقة، وإن كان من المرجح وجوده في حارة العنابة[3].

وعمل أحد السامرة كاتباً أول في حكومة ابراهيم باشا المصري في دمشق، وكان لهم كاهن رئيس في دمشق، وطلبوا من فرنسا وضعهم تحت إلحماية في القرن التاسع عشر، رغم أن عددهم لم يكن ليتجاوز سبعين شخصاً في دمشق[4]. وأبرز كنائس اليهود في دمشق كان في حارة اليهود القرائيين في حيهم الخاص بهم، والمعتقد أنه كان لطائفة الربانيين، وكان يشرف عليه في عام ١٨٤٠م الحاخام يعقوب عينتابي الذي كان (ربي) لديانة اليهود في الشام. ولم يكن هذا الحاخام ليعرف الكتابة العربية. ومن حاخاماتهم المشهورين أيضاً في عهد ابراهيم باشا المصري ميشون بيخار يهودا وميشون أبو العافية، الذي أسلم إثر حادثة مقتل البادري توما في حي اليهود عام ١٨٤٠م[5].

وكان اليهود في دمشق آنئذ يستخدمون لغتين: العربية وهي لغة الحياة اليومية بينما ظلت العبرية مرتبطة إلى حد كبير بتراثهم الديني والعقائدي. ولقد استخدمها بعض صيارفتهم الذين عملوا في مالية ولاية دمشق وذلك في كتابة سجلات المالية حتى أصبحت هذه السجلات طلاسم لا يفكها سواهم، وكان ذلك منهم حيلة ليجبروا ولاة دمشق على

(١) المصدر السابق. ص١٣٥.

(٢) انظر: مجهول. حسر اللثام. ص٦.

(٣) انظر: زيات حبيب. المصدر السابق. ص١٧٠.

4 - Douin. Georges. op.cit. P.187.

(٥) انظر: رستم، أسد، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا. ج٥. ص٤ و ص١٧ و ص١٩ و ص٢٤. ثم انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٢٠/١٢٠١ ــ ١٢٠٢هـ. ص٤٥١ ص٤٩٤. ثم سجل محكمة الميدان رقم /٣٣٦/ ١٢٥٠ ــ ١٢٥١هـ. ص٥٢.

عدم الاستغناء عن خدماتهم في هذا المجال، وليتحكموا باقتصاد الولاية، وبرز من اليهود أسرتان كبيرتان لعبتا دوراً كبيراً في الحياة الاقتصادية والإدارية، وهما أسرتا آل فارحي وأسرة السكروج[1].

أما من حيث علاقة اليهود الاجتماعية مع بقية الطوائف الأخرى في دمشق، فكانت محدودة جداً، إذ كانوا مغلقين على أنفسهم، ولا يتزوجون من الطوائف الأخرى. وكان على رأسهم زعيم ديني يطلق عليه اسم الحاخام أو الربي كما أطلق على بقية كهنتهم بشكل عام لقب الحاخام، وميز الحاخام عن بقية أبناء اليهود بزيه الخاص، وحجم ولون التربان الذي يعتمره، كما تميز بأكمام جبته الطويلة والواسعة، وكان له سلطة دينية ودنيوية وقراراته محترمة في معظمها، أكثر مما نراه عند رجال الدين المسيحيين، رغم أن أحكامه القضائية المدنية كانت محدودة للغاية والخصومات غالباً ماتعرض على المحاكم الشرعية الإسلامية[2]. ودخل العديد من اليهود في حماية الدول الأجنبية خاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر شأن المسيحيين، وعندما دخلت البعثات التبشيرية إلى دمشق، وأقامت الأديرة والمدارس فيها، أصاب اليهود نصيب من ذلك، فوجدت بعثة تبشيرية عام ١٨٥٠م استقبلت في مدارسها أبناء اليهود، إلا أنها لم ترفض تعليم المسيحيين الدماشقة. وكانت تقيم الصلوات بلغتين أولاهما العبرية والثانية الإنكليزية كل يوم. وقد أنشئ في دمشق في فترة متأخرة مدرسة لبنات اليهود، حوت أربعين طالبة يهودية وعدداً قليلاً من غير اليهوديات. وكان معظم مدرسي هذه المدرسة أجانب ومن أصول أمريكية[3].

أما أبرز الأسر اليهودية في دمشق فكانت (آل هراري ــ وأبو العافية ــ وشناعة ــ واللاطي ــ ولنداوا ــ والفتال ــ وسلانيكي ــ ولزبونا ــ وفارحي ــ واسلام بولي ــ وبيجوتو ــ ونحماد[4] وشمعة ــ والشلاح ــ وكومان ــ وشحادة ــ وقوشة ــ كوراع

---

(١) انظر: غرايبة، عبد الكريم. مقدمة تاريخ العرب الحديث. ج١. ص٦٥.

2 - Russell. op.cit. VOL.2.P.64.

3 - Porter. J.L. five years in Damascuse .P.146.

(٤) انظر: رستم، أسد. الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ــ المجلد ٥ / ص٦ و ص١٧ و ص٢٠ و ص٢٢ و ص٢٣ و ص٢٧.

ــ والأزمـرلي ــ وأوديك ــ ودويّك ــ وخطـوب ــ وزقـزوق ــ وميرو ــ والشمـاع ــ ومراد ــ واللاوي ــ والترك ــ والرمانة ــ والحلبي[1] .

ويلاحظ أن هذه الأسر تعود إلى أصول مختلفة محلية وأجنبية . فمثلاً أسرة الفارحي كانت من أصل أندلسي حيث هاجر أجدادهم إلى الأناضول أثر حوادث التفتيش (محاكم التفتيش) التي أقامها الاسبان للمسلمين واليهود في الأندلس بعد ١٤٩٢م ، مما دفع باليهود للهجرة من الأندلس إلى البلدان الإسلامية وخاصة المغرب العربي أو البلقان فالأناضول .

ولقد عمل بعض اليهود كتاباً للحكومة في عكا ودمشق وعمل بعضهم كصيارفة وفي المجالات المالية المختلفة في الاستانة نفسها . وبلغ هؤلاء درجة من النفوذ مكنتهم من تقديم الدعم لأبناء جلدتهم في دمشق[2] خاصة في الظروف الحرجة .

ومن جهة ثانية لم يكن يهود دمشق في هذه الفترة على درجة ولحدة من الثراء المادي والنفوذ السياسي . ونلاحظ أن البعض منهم كان محتقراً قبل مجيء ابراهيم باشا المصري إلى دمشق . ولم يكن منهم إلا القليل ، من يملك رأسمالاً كبيراً ويعمل في التجارة[3] ، في حين كان قسم كبير منهم يعمل في حرف متواضعة لا بل محتقرة في دمشق كالبويجية[4] والمغنين في المقاهي ، أو المعزلين لحفر قاذورات المساكن والبيوت أو الجامعين للخرق البالية من المزابل وأقنية الماء والحارات ، فيأخذونها ويغسلونها ويعملون منها أكياساً تباع للعطارين لصر الأرز والسكر والملح ونحوهـا ، أو يبيعـونها للصرماياتيـة ليجعلوهـا حشوا للصرامي[5] وكان منهم السمكري (لحام التنك) ومنهم بياع الصوفان أو الأمشاط المصنوعة من الحديد في أسواق

---

(١) انظر : سجل رقم ٢٥٠ / محاكم دمشق/ ١٢١٦ ــ ١٢١٧هـ /ص٢٣٣ و ص١١٠ و ص١٤١ و ص٢٢ ثم : سجل القسمة البلدية بدمشق رقم ١٢٤٧/٣٢٧ ــ ١٢٤٩هـ /ص١٣٩ . ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠ / ١٢٠١ ــ ١٢٠٢هـ/ ص٢٨ و ص٤٥ .

(٢) انظر : المعلوف ، عيسى . مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ــ المجلد الخامس . ص٦ و ص٢٢٩ و ص٢٣٠ / عام ١٩٢٦م .

3 - Douin. George. op.cit. P.214.

(٤) انظر : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج٢ . ص٢٢٠ حيث يقول : كان شباب اليهود يدورون بالأسواق ومجتمعات الناس حاملين صندوقاً من خشب ضمنه أنواع الفرشايات والبوية متنوعة الألوان كالأسود والأصفر والأبيض وأنواع الزيوت كزيت السمك واللوز ويمسحون النعال بأجر معلوم .

(٥) المصدر السابق . ج٢ . ص٢٣٠ .

دمشق[1] . وعمل البعض الآخر في حرف أخرى ، كالنسيج والنقش على النحـــاس (الظاهري) وتنزيل الفضة فيه وفي الصناعات الخشبية كالموازييك . وكان منهم الصباغ والعقاد والشماع والطحان والصبان[2] ... الخ .

وكان اليهود متكاتفين بطبيعة انعزالهم وانغلاقهم على أنفسهم ، ولهم صلات قوية مع أبناء جلدتهم خارج دمشق ، وعلى مستوى الدولة العثمانية والدول الأوربية ، فإذا ماوقع أحدهم في مأزق كان الجميع يمدون له يد العون والمساعدة ، فعندما قتل البادري توما في دمشق عام ١٨٤٠م على يد اليهود ووقع الجناة منهم بيد السلطة المصرية ، سعى أبناء جلدتهم من الإنكليز لدى والي مصر محمد علي باشا لانقاذ أبناء دينهم من الإعدام . وترتب على ذلك أن أصدر أوامره إلى دمشق فحواها « لا أحد يضرب اليهود ولا يقارشهم وإن دعوتهم تنقام عند قونسلوس النمسا بالاسكندرية »[3] .

فأنقذ هذا التدخل قتلة البادري توما اليهود في الوقت المناسب من الموت المحقق . ويقول الدكتور ميخائيل مشاقة : أن المحامي الإنكليزي اليهودي قد اشترى حرية المتهمين من محمد علي باشا بستين ألف كيس[4] .

ومن جهة أخرى فقد برز عدد من اليهود في القرن التاسع عشر في المجالات الإقتصادية والتجارة الخارجية ، وفي الصيرفة وفي الإدارة المالية التابعة لولاية دمشق . فمسكوا سجلاتها وقاموا بالتزام أموال الجمارك وبعض الضرائب الأخرى . وقام بعضهم بالعمل في مجال الربا . فأقرضوا الشعب الأموال بفوائد عالية . وما أن أزف الثلث الأول من القرن التاسع عشر حتى أصبح اليهود أغنى أبناء دمشق على الإطلاق ، وأصبح لهم نفوذ الكلمة لدى ولاتها ، وامتلكوا الجواري[5] . وأصبح أبناء دمشق يرددون قول الشاعر فيهم :

---

(١) المصدر السابق . ج٢ . ص٢٣٩ و ص٢٧٤ .

(٢) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ص١٤٥ و ص٢٠٨ و ص٢٨٩ و ص٢٩٣ : ثم سجلها رقم ٢٤٠ / سنة ١٢١١ ـــ ١٢١٦هـ / ص٢٤٦ .

(٣) انظر : رستم ، أسد . الأصول العربية لتاريخ سورية ... ص٣٧ .

(٤) انظر : مشهد العيان في حوادث سورية ولبنان ص١٢١ .

(٥) انظر : رستم ، أسد . الأصول العربية ... ج٥ . ص٨٠ .

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
المال منهم والجاه عندهم ومنهم المستشار والملك
ياأهل ذا العصر قد نصحتكم تهودوا قد تهود الفلك[1]

ولا غرابة في هذا القول إذا ماعلمنا أن صيارفة اليهود أصبحوا يتحكمون بمالية دمشق ويتصرفون بها كما يشاؤون، مما دفع أهالي دمشق لرفع شكوى ضدهم إلى السلطان العثماني محمود الثاني، فاستجاب السلطان لشكواهم، وأصدر أوامره بعزل صيارفتهم من ديوان السرايا، والاستعاضة عنهم بغيرهم ممن يحسنون العمل في هذا المجال. ولقد حاول ولاة دمشق تنفيذ ذلك، إلا أنهم عجزوا لكون حسابات ولاية دمشق مكتوبة باللغة العبرية ولا يوجد من يتقن هذه اللغة إلا أبناؤها، فغدت دفاتر الديوان كأنما كتبت بالقلم القلفطيري[2]. وعندما حاول الوالي سحبها من بين أيديهم، وقع في الحيرة والعجز، فاضطر مكرهاً لابقائهم خوفاً من أن تقع مالية الولاية وحسابات الديوان في التشويش، خاصة وأن هذا الوالي سيقع تحت رحمة هؤلاء الصيارفة عندما يعزل إذ كان بيدهم الإيراد والمصرف وبالتالي سيسببون له شراً كبيراً حينئذ.

أما بالنسبة لمعاملة اليهود والنصارى من قبل السلطات، فلم تكن سواء بل كانت معاملة اليهود أفضل. ويمكن تفسير ذلك بكون اليهود لا يرتبطون بروابط دينية مع الدول الأوربية المسيحية المعادية للعثمانيين شأن النصارى. ولعبت تركة الحروب الصليبية ومطامع الدول الأوربية في الممتلكات العثمانية دوراً في ذلك. ولهذا لا نرى من اليهود من يترك دينه ويسلم، كما كان يحصل لبعض النصارى في دمشق، إلا في القليل والنادر. وتطالعنا سجلات محاكم دمشق بعباراتها المهينة التي كانت تستخدمها عند ورود أسماء أهل الذمة مثل (الصعلوك، الذمي الهالك)[3].

---

(١) انظر: مجلة المجمع العلمي العربي. ج١١ ــ المجلد ٩. ص٦٤٢/ ١٩٢٩م/ جمادى الأولى جمادى الثانية ١٣٤٨هـ.

(٢) هو خط اليهود الذين يكتبون به التعاويذ والرقي بآيات من التوراة وأطلق هذا التعبير على كل ماله علاقة بالطلاسم والرموز من الكتابات. انظر: مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. ج١١ ــ المجلد ٩. ص٦٤٤/ ١٩٢٩م.

(٣) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠/ ١٢١١ ــ ١٢١٦. ص٤٤. ثم انظر: سجلها رقم ٢٣٩/ ١٢١٠ ــ ١٢١١هـ. ص٦٠.

إلا أن النصارى لم يعاملوا في كل العهود بطريقة واحدة. بل اختلفت معاملتهم من والٍ إلى آخر، ففي عهد أسعد باشا العظم يقول ميخائيل بريك الدمشقي: «قرأت في تواريخ دمشق منذ حين تسلمها الإسلام إلى هذا الزمان فما رأيت تاريخاً يخبر بأن صار لهم (للنصارى) عز وجاه وسيط وسطوة وذكر مثل مدة العشر سنين الماضية في حكم أسعد باشا بن العظم»[1]. وكذلك الوالي محمد باشا العظم «عمل لهم حماية ورعاية كافية»[2] في حين نرى عكس ذلك في عهد الكنج يوسف باشا حيث عاملهم معاملة سيئة اعتقاداً خاطئاً منه أن التضييق على أهل الذمة هو من الدين. وكذلك الوالي درويش باشا الذي أوعز إلى حاكم صيدنايا عام ١٢٣٩هـ/١٨٢٣م بمنع النصارى فيها من تقليد المسلمين في لباسهم فأرسل مرسوماً إليه ليعيدهم إلى ما كانوا عليه[3]. أما معاملة أهل الذمة على المستوى الشعبي في دمشق، فكانت سيئة إذ عاملهم جهلة المسلمين أحياناً بالسوء. فمثلاً أجبروهم على (الإشمال) أي السير عن يسار المسلم، أو على الطورقة أي المسير في الطاروق (الطاروق منخفض مابين الرصيفين تسير فيه الحيوانات، وغالباً ماكان مملوءاً بالمياه الآسنة) كما استخدموهم في أعمال السخرة[4]. ولكن عقلاء المسلمين كانوا يدفعون عنهم الأذية بقدر مااستطاعوا، في وقت سادت فيه روح التعصب الديني بين الناس جميعاً. وبشكل عام كانت معاملة اليهود من أهل الذمة أفضل من النصارى. ويقول الحاخام موسى سيمسون الذي عاش في دمشق إبان الحكم المصري: «إن المسلمين يضطهدوننا ككل الناس بسبب طبيعتهم الجافية، في حين أن المسيحيين يضطهدوننا عمداً»[5].

وكثيراً ماانعكست علاقة الدولة العثمانية بالدول الأوربية على معاملة المسيحيين. فإبان الثورة اليونانية عام ١٨٢١م/١٢٣٦هـ، انصبت الكوارث على الأرثوذكس من النصارى، واعتبر رجال دينهم مسؤولين عن هذه الثورة، فأُعدم بطركهم في حي الفنار في استانبول، كما أعدم معه بعض المطارنة والقساوسة شنقاً في «أحد الفصح» من ذلك العام. وأصدرت السلطات العثمانية أوامرها إلى درويش باشا والي دمشق بأن يقتل ساروفيم بطرك الشام.

---

(١) انظر: تاريخ الشام. ص٦٢.
(٢) المصدر السابق. ص١١٠.
(٣) انظر: مجهول. حسر اللثام عن نكبات الشام. ص٤٣.
(٤) مجهول. المصدر السابق. ص٧١.

5 - Douin, George .op.cit.P.214.

ويصف حالة الأرثوذكس أحد الاخباريين الدمشقيين في تلك الفترة بقوله: «انكسرت شوكة الروم وبطركهم بسبب حادثة المورة»[1]. كما كان يقام على أهل الذمة الحد عندما يخالفون الشروط التي بموجبها أصبحوا في ذمة المسلمين.

الأقليات الأوربية وقناصلها في دمشق

بدأت دمشق عهداً جديداً في ظل الحكم المصري بالنسبة للقناصل الأجانب[2]، وبالنسبة لعلاقاتها التجارية والاقتصادية وغيرها. فجاءها قنصل من النمسا وهو السنيور ميلاتو[3]. ثم أرسلت الولايات المتحدة الأمريكية قنصلاً عاماً في عام ١٢٤٩هـ/١٨٣٧م وهو المستر جاسبر تشاسو (JASPER CHASSEAUD)، وشملت صلاحياته سورية بكاملها خاصة إيالتي دمشق وطرابلس، وأقام له وكيلين أحدهما في صيدا وهو المعلم ابراهيم نخلة والثاني في دمشق وهو الخواجة مراد بدور[4]. وقامت فرنسا بتعيين قنصل عام لها بدلاً من وكيل القنصل السابق. وحضر قنصل روسيا وقام أبناء الزيداني بحرق الكنيسة الأرثوذكسية

---

(١) انظر: الدمشقي، ميخائيل، تاريخ حوادث الشام ولبنان. ص٤٦.

(٢) كانت دمشق مقفلة في وجه الأوربيين وقناصلهم تقريباً قبل عهد ابراهيم باشا المصري. ولم يسمح لأحد منهم بالإقامة فيها إلا لوكيل قنصل فرنسا المسيو (بودان) والذي كان يتكلم العربية ويرتدي زي أهلها. وأولى المحاولات التي قامت بها دول أوربية لتعيين قناصل لها في دمشق كانت في سنة ١٧٨٧م/١٢٠٢هـ/ عندما وصل قنصلا روسية والنمسا إلى صيدا «فلم يقبلوهم أهل الشام قائلين هذه باب الكعبة فرجعوا من صيدا». انظر: (الدر المرصوف في تاريخ الشوف). ص٤٠٨. ثم انظر:

DOUIN. OP.CIT. PP.222.257.

وحصل الإنكليز بدورهم على موافقة استانبول لفتح قنصلية عامة في دمشق وعينوا المستر (فارن) لهذا المنصب في سنة ١٨٢٦م/١٢٤٢هـ/. وأعطي الإيعاز إلى والي دمشق عبد الرؤوف باشا (١٢٤٤ ــ ١٢٤٦هـ) ثم من بعده لمحمد سليم باشا (١٢٤٦ ــ ١٢٤٧) وقام محمد سليم باشا بعرض ذلك على أعيان دمشق ولكن هؤلاء قاموا بنشر هذا النبأ بين عامة دمشق ليثيروا بذلك غضبهم ضد الوالي الذي حاول تطبيق النظام الجديد وجمع ضريبة الصاليان فثارت ثائرتها وقتل محمد سليم باشا ولم يدخلها أي قنصل غربي حتى احتلالها من قبل ابراهيم باشا المصري انظر: حول ذلك ماجاء في مذكرات تاريخية. ص٢٥ و ص٦٨ ص٦٩ تحقيق أحمد عدنان سبانو. ثم نظر: DOUIN. OP.CIT. P.257.

(٣) انظر: رستم، أسد (الأصول العربية ...). ج٥. ص١٤.

(٤) انظر: المصدر السابق ــ المجلد ٢. ص٩٧ ص١٠. ثم المجلد ٥. ص٧٤ و ص٧٥ ثم انظر:

Douin. op.cit.partie.3. PP.222.257.

ثم انظر: مجهول. مذكرات تاريخية. ص٢٤٨.

فيها احتجاجاً على ذلك. وكانت العادة في دمشق أن يذهب القنصل الجديد أو وكيل القنصل، سواء أكان أجنبياً أو محلياً، بصحبة ترجمانه ليقدم نفسه للوالي ويبلغه أمر تعيينه، وتتم هذه العملية أيضاً في حال انتقاله إلى مكان آخر أو في حال ترك وكيل القنصل عمله وانتقاله إلى دولة أخرى.

ولم يكن نفوذ القناصل على درجة واحدة، بل لعبت فيه عوامل عدة، كان أبرزها قوة الدولة العثمانية وولاتها وقوة ونفوذ دولة القنصل فمثلاً: في عهد أحمد باشا الجزار الذي كان يتمتع بشخصية قوية والذي أصبح أكثر من مرة والياً على دمشق وصيدا في وقت واحد، لم يستطع القناصل الأوربيون أن يتمتعوا في عهده بما تمتع به أقرانهم في مدينة حلب. وكثيراً مافرض هذا الوالي إرادته على استانبول في مايخص هؤلاء القناصل. ففي عام ١٢٠٣هـ/١٧٨٨م صدر فرمان من السلطان العثماني يعيد بموجبه بعض قناصل أوربا إلى عكا، إلا أن الجزار لم يمتثل للأمر، في حين نرى الصورة معكوسة في حلب في نفس الفترة إذ أسهم بعضهم في عزل واليها جطلي علي باشا عام ١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م[١]. ونسوق مثالاً آخر مابلغه ريتشارد وود القنصل الإنكليزي في دمشق من نفوذ لدى السلطات العثمانية، لم يبلغه غيره من القناصل، ووصل ذروة نفوذه عشية إخراج ابراهيم باشا المصري من سورية، حيث منح القنصل المذكور تفويضاً من الحكومة العثمانية بمراقبة أعمال مأموريها في دمشق. ولم يكتف بذلك، بل قام بعزل الوالي العثماني علي باشا[٢]. ولا غرابة في ذلك إذا ماعلمنا أن الحكومة البريطانية تزعمت عملية إجبار ابراهيم باشا على الانسحاب من سورية، وعودتها إلى السلطة العثمانية.

ولقد كان القنصل الإنكليزي مبعوثاً فوق العادة لدولته، وكان يعادل في منصبه مرتبة وزير في وطنه. ولم يمنح هذا المنصب إلا لأصحاب الكفاءة. وكانت قنصليته تلك بمثابة حكومة مصغرة أنيط بها تأمين مصالح بريطانيا من دمشق إلى بغداد ومن نابلس إلى حلب، وكان عليه تأمين تجارة إنكلترة عبر الصحراء، وتأمين المسافرين الإنكليز والمبعوثين والمبشرين المقيمين فيها، وتأمين المدارس التابعة لهم وحماية رعايا وطنه. كما كان عليه إقامة علاقات

(١) انظر: الصايغ، فتح الله. المرتاد في تاريخ حلب وبغداد. ص٦١ الصورة المخطوطة في مكتبتي الخاصة.

(٢) انظر: مشاقة، ميخائيل. مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان. ص١٣٧. ثم مجهول، مذكرات تاريخية ص٢٤.

جيدة مع بدو الصحراء والدروز في حوران واللجاة وغيرها. وهكذا نرى أن مهامه لم تكن سهلة، ناهيك عن كونه يقع تحت مراقبة والي دمشق العثماني، خاصة وأن دمشق عاصمة سورية، وفيها مقر قيادة الجيش وعناصر السلطة الحاكمة[1]. ومن جهة أخرى هناك صورتان متعاكستان يراهما المرء في معاملة قنصل إحدى الدول في فترتين مختلفتين فمثلاً: قنصل النمسا في دمشق عومل معاملتين مختلفتين، نرى الأولى منهما متمثلة في (الكافيلر لابي) يقول في رسالة له مؤرخة ١٤ آذار عام ١٨٣٩م، أن مشاكل بلاده التي هي أكثر صعوبة، وأمكن حلها مع أحمد باشا الجزار رغم أنه كان أكثر شراسة من جميع الباشوات المعروفين في سورية[2]، في حين نرى الصورة الثانية في قول القنصل النمساوي (الكافيلر بيتشوتو) الذي كان في دمشق قبل عام ١٨٣٩م إذا يقول: أن الطريقة التي تمشي عليها الحكومة الحالية المصرية في سورية قد تضطرنا لقرع أبواب كثيرة. ومع ذلك ترفض العديد من طلباتنا[3].

أما ابراهيم باشا المصري فقد حاول قدر إمكانه عدم الإساءة للقناصل في دمشق استرضاء منه لدولهم. ونلمح العديد من الإشارات إلى تلك السياسة في كتب الإخباريين فمثلاً فتح الله ابن أنطون الصايغ «صاحب المقترب في حوادث الحضر والعرب» والذي عمل ترجماناً لدى وكيل قنصل فرنسا في اللاذقية ثم لدى القنصل العام المسيو لاسكاريس في طرابلس يقول: «إن ابراهيم باشا المصري كان دايماً أوامره متواصلة إلى متسلميه ورؤساء عساكره بالتواصي والتشديد في عدم التماهل والاستهتار في مصالح أغراض الأوربالية ويفضلوا قضي أموادهم على جميع الأشياء وكذلك دايماً التواصي إلى جميع متسلميه بالامتزاج والمحبة مع الإفرنج وكامل الرعايا»[4].

وإن دل ذاك على شيء، فإنما يدل على أن ابراهيم باشا، لم يكن ليريد استعداء الدول الأوربية عليه، خاصة وأنه في حاجة لظروف مواتية دولية لحسم الموقف مع الدول العثمانية لصالحه، وتحقيق طموحاته في عزلها عن مساندة الدول الأوربية، إلا أن العواطف لا تحدد

---

1 - See: Burton, Isabel the inner Life Syria. PP.28.29.

(٢) انظر: قرأ لي، بولس. فتوحات ابراهيم باشا المصري في فلسطين ولبنان وسورية. ص٤٤ و ص٤٥ و ص٥١.

(٣) انظر: المصدر السابق. ص٦٥.

(٤) انظر: الصايغ ـ فتح الله ـ المرتاد... ص٧٦.

طبيعة علاقات الدول بل مصالحها الدائمة هي التي تحددها، فلطالما تضررت مصالح بعض الدول الأوربية بوجود قوات ابراهيم باشا في بلاد الشام وامتدادها إلى الأناضول وتهديدها للسلطة العثمانية في استانبول وأن ذلك سيؤدي إلى إقامة دولة عربية مصرية فتية قد تؤثر بدورها على مصالح هذه الدول الأوربية على مطامحها في الممتلكات العثمانية. فلا غرابة إذا ماكاد الإنكليز والنمساويون والروس والبروسيون لابراهيم باشا، ونشط قناصلهم في دمشق لتقويض حكمه مما أجبره لإقامة الرقباء عليهم[1].

ومن جهة أخرى، كانت علاقة القناصل فيما بينهم، تحددها علاقة بلدانهم مع بعضها البعض، ولم يحصل أن اجتمعت كلمتهم في دمشق على أمر إلا إبان أحداث ١٨٦٠م في دمشق، حيث فتح جميع القناصل بيوتهم لإيواء النصارى، كما كلفوا قنصل اليونان فيها للاتصال بوالي دمشق وتبليغه رغباتهم لأن (قنصل اليونان يتقن التركية)[2].

أما رواتب القناصل فكانت تختلف بحسب دولهم، وكانت تعطى لهم على شكل نقود، وكانت رواتبهم ترتفع بارتفاع الأسعار، وكانوا يتحملون مصاريفهم الذاتية، كما كانوا يمنحون رسوماً قنصلية بنسبة ٢٪ من ثمن بضائع شركاتهم الوطنية عند مرورها بالمدن المقيمين فيها أو التابعة لمهام قنصلياتهم[3].

معيشة القناصل وحماياتهم

بقي القناصل الأوربيون في البداية يعيشون حياتهم الخاصة مع أسرهم في أماكن محددة من المدينة، ولم يستطيعوا إنشاء علاقات ما، أو المشاركة في الحياة الاجتماعية إلا فيما ندر[4]، مع أنهم كانوا يعملون جواسيس لبلدانهم[*]، وأقيمت قنصلياتهم في البداية في الأحياء المسيحية واليهودية من دمشق، كي لا يتعرضوا مع أسرهم للإيذاء فيما لو سكنوا في الأحياء

(١) انظر: مشاقة، ميخائيل. مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان. ص١٢٦ و ص١٣٢.

(٢) انظر: مجهول. حسر اللثام عن نكبات الشام. ص٢٢٤.

3 - Wood.A.C.history of the Levant company.P.248.

4 - Ibid.P.235.

(٥) انظر: مشاقة، ميخائيل، حيث يقول في كتابه. مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان. ص٦ و ص١٢٦: إن القنصل الإنكليزي ريتشارد وود هو جاسوس للدولة السكسونية.

الإسلامية منها. فمثلاً سكن وكيل قنصل فرنسا ثم قنصلها فيما بعد في حي النصارى. وأقام أول قنصل للإنكليز وهو المستر فارن في حي اليهود بالقرب من بيت هارون هرارى اليهودي الذي يقع بدوره بالقرب من زقاق القميم والقميلة[1]. وقنصل روسية كانت قنصليته ودار سكنه في حي الآسية بالقرب من الكنيسة المريمية[2]. ولكن بعد تعود الدمشقيين على وجودهم، قام القناصل بتبديل أماكن قنصلياتهم لخارج تلك الأحياء. ففي أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر أصبحت القنصلية الإنكليزية خارج أسوار دمشق وبالقرب من سرايا الوالي[3].

ومن جهة أخرى كانت القنصليات عبارة عن بيوت دمشقية، أجرت لهؤلاء القناصل، فرفعوا أعلام بلادهم عليها، ووضعوا على أبوابها آرمات للدلالة عليها[4].

أما فيما يتعلق بمعيشة القناصل الأجانب وحياتهم اليومية مع أسرهم، فليست لدينا معلومات كاملة عن ذلك، وحسبنا هنا أن نورد ماذكرته إحدى نساء القناصل التي عاشت مع زوجها في دمشق في القرن التاسع عشر وهي «المسز إيزابيل بورتن» زوجة القنصل الإنكليزي. وتصف هذه المرأة بيت سكنها في دمشق قائلة «إنه عبارة عن بيت دمشقي به فسحة سماوية مزروعة بأشجار الياسمين وعرائش الكرمة وشجرات الكباد والليمون والبرتقال، وقد شكلت هذه الأشجار مظلة وارفة الظلال للساحة. وتردف قائلة: إنها قامت بنزع المصبعات عن الشبابيك، التي كانت تستخدم في البيوت الدمشقية آنئذ، لتحجب رؤية السابلة عما في داخل المنزل. ولقد أقامت قناً في حديقة بيتها لتربية الدجاج البلدي والرومي والأوز والبط والغرغر «دجاج فرعون»، كما قامت بتربية العديد من الحيوانات الداجنة وغيرها في الاسطبلات التابعة للبيت، وكان منها الماعز والخيول نصف الأصيلة وثلاثة أرباع الأصيلة أو الأصيلة، وكان منها الجمال، وحمار جلده أبيض كالثلج، بالإضافة إلى قطة فارسية

---

(١) انظر: رستم، أسد. الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا. ج٥. ص٥. ويذكر صاحب مذكرات تاريخية. أن القنصلية أقيمت في بيت قريها الذي قدام قناية الخطيب انظر: ص٦٩ من الكتاب المذكور.

(٢) القساطلي، نعمان الروضة الغناء في دمشق الفيحاء. ص١٠٢.

(٣) انظر المصدر السابق ص٨٩ ص٩٠ ثم:

See: Burton, isabel, the inner life of Syria. PP.26.27.31.

(٤) القساطلي، نعمان. المصدر السابق. ص٨٩ و ص٩٠.

بيضاء وكلبين، الأول من نوع «برانديلد» والثاني من نوع «باريورو»، بالإضافة إلى حمل كان مدللاً لديها، ونمر أصبح كالاله الوثني على حد قولها يسيطر على جميع هذه الحيوانات، فكان يقفز على ظهور الخيل والجمال فتفر منه أفراد الماعز مذعورة لترمي بنفسها في النهر»[1]. وكان الاعتناء بهذا الحشد الكبير من حيواناتها يأخذ جانباً كبيراً من وقتها. ولقد اهتم القناصل وأسرهم بإنجاز أعمال دولهم الموكلة إليهم، وقضى بعضهم ماتبقى من وقته في الكتابة والمطالعة. وتقول إيزابيل بورتن إنه إذا ماتوفر لها الوقت مع زوجها بعد كل ذلك، تقوم بالتنزه في أرباض دمشق. وكي لا يتعرضا للمخاطر في طريقهما اعتمدا في حماية نفسيهما على عناصر محلية جنداها لخدمتهما ومنحاها حماياتهما.

ولم يكن عدد الأوربيين كبيراً في دمشق حتى عام ١٨٥٠م، إذ لم يزد عددهم على ٣٠ أوربياً، ونادراً ماكان بينهم إنكليزي بل كانوا في معظمهم من جنسيات أوربية أخرى. ونلاحظ حجم عمل قنصل الإنكليز في دمشق من خلال قول إيزابيل بورتن، إذ ذكرت أن زوجها كان يحتاج لأكثر من ٢٤ ساعة في اليوم لانجاز أعماله المكلف بها. وساعدت زوجها في ذلك، وتقول المسز بورتن على الرغم من ضخامة عملها في النهار، كانت تقضي الليالي قلقة يجفو عينيها الكرى، خاصة في ليالي الشتاء الطويلة، ويؤنسها في وحشتها صوت الأذان المنطلق من مآذن المدينة، أو نباح الكلاب في البساتين المجاورة، أو عواء بنات آوى المنبعث من سفوح جبل قاسيون، أو نعيب البوم المتهادي إليها من الأشجار المحيطة ببيتها، أو زفزفة الريح بين الفجاج أو عنين النواعير المتعبة المقامة هنا وهناك على فروع بردى، أو أصوات شجار النسوة الدمشقيات في البساتين أو الحمامات المجاورة[2].

ومن جهة أخرى فقد شكل عدم إتقان اللغة العربية أو التركية حائلاً، دون اتصال القناصل وأسرهم المباشر مع أبناء دمشق، فاعتمدوا في ذلك على التراجمة والحمايات والقواصة الذين عملوا لديهم، من نصارى ويهود ومسلمي دمشق بتسميات مختلفة[3]، وكان نعمة الحضيرية أول من عمل مترجماً في دمشق، وكان على جانب من الذكاء والغنى بين المسيحيين، فاستخدمه قنصل إنكلترة لديه وبقي في عمله حتى وفاته سنة ١٨٣٨م[4].

1 - See: Burton Isabel. op.cit.PP.26.27.31.

2 - Ibid. P.31.

3 - Russell. op.cit. P.227.

(٤) انظر: القساطلي، نعمان. الروضة الغناء في دمشق الفيحاء. ص٨٩ ص٩٠.

ولقد سمحت الدولة العثمانية للقناصل في دمشق بتوفير الحماية للرجال الذين كانوا يعملون لديهم، فكان لكل قنصل حق في توفير الحماية لـ (٨ ــ ١٠ أشخاص) وكان هؤلاء يحصلون على البراءات من الدولة العثمانية عن طريق القناصل. إلا أن القناصل قد زادوا في عدد من يوفرون لهم الحماية، واستخدم البراءتلية الامتياز الممنوح لهم من الدولة العثمانية استخداماً سيئاً للتهرب من دفع الضرائب للسلطات العثمانية، وحتى الامتناع عن الامتثال أمام محاكمها.

وأبرز موظفي القناصل أصحاب البراءات الذين كانوا يعملون في القنصلية هم ــ ترجمان أول ــ وترجمان ثاني ــ وكاتب القنصلية ويسقجي وخدام وعدد من القواصة[1]. ثم كيخية القنصل وخزنداره وعبيد للخدمة[2]، إلا أن القناصل زادوا في توفير الحماية لأكثر من هؤلاء حتى بلغ عدد البراءتلية لكل قنصل يتراوح مابين ١٥ ــ ٥٠ شخصاً، مما أضر بمصالح الدولة، فاضطرت بدورها لتحديد عدد الحمايات لكل قنصل، وتركت لكل قنصل ترجمانين وقواسين و٦ خدم ومازاد عن ذلك رفعت عنهم الحمايات وعاملتهم معاملة الرعية[3].

ولقد كان للمتغيرات الاقتصادية في الساحة الأوربية، بقيام الثورة الصناعية، إنعكاس سلبي على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الدولة العثمانية بشكل عام، وعلى دمشق بشكل خاص، وأدى ذلك كله إلى سعي العديد من أبناء دمشق للحصول على حماية القناصل والعمل لديهم. فقد عمل عدد من الانكشاريين كقواسة لديهم. وكان القناصل يختارون من هؤلاء من كان يتصف بالأمانة والصيانة والهيئة اللطيفة. وكان قواص القنصل يقوم بحراسته وحراسة أسرته. وإذا ماالضطر القنصل أن يسير في شوارع دمشق لسبب ما إما راكباً أو ماشياً، كان القواص يتقلد سيفه ويسير أمامه وإذا ماركب القنصل العربة كان يجلس القواص

---

(١) انظر: رستم، أسد. الأصول العربية لتاريخ سورية .... ــ المجلد ٣ ــ ٤/ ص١٠١ و ص١٠٢. ويقول وليم بولك: إن المعاهدة التجارية المعقودة مع تركية في سنة ١٨٣٨م أعطت فرص التنافس بين التجار الأجانب والمحليين، ولم تكن أية حكومة محلية قادرة على مقاومة أي تاجر مرتبط مع القنصل، وفي حالات النزاع مع التجار المحليين، كان التاجر المرتبط بالقنصل فوق القانون العثماني، وكان سفير بلاده جاهزاً لمقابلة السلطان في استانبول نيابة عن القنصل. See: the opening of south Lebanon. P.224

(٢) انظر: مجهول. مذكرات تاريخية. ص٦٨.

(٣) انظر: مجلة المشرق. العدد ٥٥ / ص٥١٤. عام ١٩٦١م.

أمامه في العربة إلى جانب العربجي (الحوزي)[1] مرتدياً زياً خاصاً . ويتكون هذا الزي من قماش ملون ومذهب وسراويل كبيرة وطماق مطرزة وحزام (نطاق) يثبت في وسطه خنجره أما سترته فكانت مفتوحة بحيث يظهر ماتحتها من ثياب ويتدلى من وسطه مسدس مفضض والخنجر من الطرف الآخر ويثبت صندوق الذخيرة لمسدسه بالإضافة إلى بعض الأدوات الشخصية الأخرى[2] . واعتبرت مرتبة القواص أرقى درجات الخدم لدى القناصل ومعاشه ثلاثمائة قرش أو أكثر[3] . وبرز في سنة ١٢٥٤هـ من القواصة في دمشق عمر آغا بن حسين معدنلي ثم حسين قواص بن محمد الأدرميني[4] .

ولم يحصل الانكشاريون على الحماية وحدهم فحسب ، بل حصل عليها مسيحيو ويهود دمشق ، وقام هؤلاء بارتداء الأزياء الأوربية ويحلق لحاهم كالغربيين . كما حصل بعض الحرفيين (كمعلمي البناء والنجارة والفواخرية) على الحماية من القناصل[5] . ووفر القناصل الحماية لعناصر البريد الذين كانوا يحملون بريدهم كي لا يعترض طريقهم أي معارض[6] . واستطاعت الحمايات والتجار الأجانب اللجوء في خصوماتهم إلى المحكمة التجارية التي أقيمت في عهد ابراهيم باشا المصري ، ولم يكن ليبت في الدعاوي التي يكونون طرفاً فيها دون وجود أعضاء في المحكمة يحددهم القنصل . وإذا لم تستطع المحكمة التجارية في دمشق البت في ذلك تستأنف الدعوى إلى الاسكندرية للنظر فيها ثانية[7] . كما حصلت البعثات العسكرية على حماية ودعم قناصل دولها في دمشق . في العهد المصري في حين لم يتوفر لها مثل هذا الدعم والحماية قبل عام ١٨٣٠م ، مما أثر على نشاطها ، وتوقف بعضها عن العمل من جراء ذلك[8] .

الـرقـيـق

شكل الرقيق (الأسود والأبيض) فئة متميزة في مجتمع دمشق ، رغم قلة ماورد منه إلى

(١) انظر : القاسمي . قاموس الصناعات الشامية . ج٢ . ص٣٦٨ و ص٣٦٩ .

2 - Burton Isabel.op.cit.P.24.

(٣) انظر : القاسمي . المصدر السابق . ج٢ . ص٣٦٩ .

(٤) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٤٠ / سنة ١٢٥٠ ــ ١٢٥٤هـ . ص١١٩ .

(٥) انظر : رستم ، أسد . الأصول العربية .... مج المجلد ٣ ــ ٤ . ص٢٤٧ .

(٦) المصدر السابق ــ المجلد ٥ . ص٥٤ و ص٥٥ .

(٧) المصدر السابق . ص٦٣ .

8 - See: Polk. op.cit. PP.163.164.

دمشق في هذه الفترة، مضافاً إلى ماتبقى منه من الفترة السابقة، وماجاء منه إلى دمشق كان (خلسة)[1] ولقد أثر وجوده على بنية دمشق العرقية والاجتماعية.

ويلاحظ في دمشق أن عدداً غير قليل من الرقيق (الأبيض والأسود) قد شق طريقه صعداً في السلم الاجتماعي حتى وصل إلى أعلى المراتب الإدارية العسكرية بعد إسلامه، فأحمد باشا الجزار البشناقي الأصل باع نفسه رقيقاً في استانبول وجيء به إلى مصر وتدرج في المراتب العسكرية حتى أصبح (بكاً) ثم أصبح والياً على صيدا ودمشق وكليهما معاً ولمدة خمس وعشرين سنة[2]، ثم والي دمشق الكنج يوسف باشا كان كردي الأصل «شراه ملا اسماعيل وأخيراً فاق سيده»[3] وأصبح عدد من الرقيق أغوات في أوجاق الانكشارية، واستلم بعضهم متسلمين على المقاطعات التابعة لولاية دمشق، كحسن آغا العبد «الزنجي» الذي أصبح حاكماً على البقاع في عهد والي دمشق درويش باشا (١٢٣٦ ـ ١٢٣٩)، ثم والد أحمد بن شاهين القدسي، الذي كان والده من جزيرة قبرص، اشتراه بعض الأمراء وتبناه وجعله من أجناد دمشق، حتى صار أحد الأعيان[4] فيها.

ولقد عمل أناس عديدون في تجارة الرقيق[5] في دمشق كالنخاس والياسرجي

---

(١) ويذكر: ابراهيم بن عبد الرحمن الخياري الذي زار دمشق في القرن الثامن عشر أن تجار الرقيق كانوا يدفعون ضريبة للدولة في طريق عودتهم من الحجاز في مكان يطلق عليه اسم الخربة. انظر: رحلة الخياري المسماة (تحفة الأدباء وسلوة الغرباء). ج١. ص٥٢ و ص٥٣. كما يقول محمد سعيد القاسمي الذي عاش في دمشق في أوائل القرن التاسع عشر (إن تجارة الرقيق قد بطلت الآن بحمد الله تعالى وأصبح من يختلس الإتجار بالرقيق نادراً جداً كبعض من يذهب إلى الحجاز في موسم الحجاج فربما يأتي بعبد أو أمة بصورة لا يشعر بها ثم يبيعها لمن يرغب شراؤها ومن شعر به تجازي ويحرر ذلك الرقيق) انظر: قاموس الصناعات الشامية. ج٢. ص٤٨٠.

(٢) استلم ولاية الشام لأول مرة سنة ١١٩٨هـ وعزل عنها في ١٢٠٠هـ ثم استلمها ثانية ١٢٠١هـ ثم عزل عنها في سنة ١٢٠٥هـ ثم ثالثة في ١٢١٣هـ عزل عنها ١٢١٤هـ ثم رابعة ١٢١٨هـ إلى وفاته سنة ١٢١٩هـ انظر: سالنامة در العثمانية ـ سورية ولايتي ـ الولاة.

(٣) استلم ولاية دمشق سنة ١٢٢٣هـ وعزل عنها في ١٢٢٥هـ. ثم انظر: مجهول. تاريخ حوادث الشام ولبنان ص٣٦. ثم: الشدياق، طنوس. أخبار الأعيان في جبل بلبنان. ج٢. ص١٦٢.

(٤) انظر: المحبي. خلاصة الأثر... ج١. ص٦٢ و ص٢١٠.

(٥) وجد في دمشق سوق لبيع العبيد كان يقع بالقرب من خان الجمرك إلى الجنوب الغربي من الجامع الأموي وكان ملاصقاً لسوق الحرير (البزاز) وبقي هذا السوق قائماً حتى أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر انظر: Porter. op.cit. P.59

والمكاس[1] وغيرهم. وحصل تجار الرقيق على المماليك والجواري والعبيد بثلاثة طرق رئيسة هي: الخطف[2]، .... ←

---

(١) النخاس: هو تاجر الرقيق ــ أما الياسرجي: فهو دلال الرقيق ــ والمكاس: كان غالباً من اليهود وهو بائع المماليك. انظر: السيوفي. حبيب. المصدر السابق. ج١. ص٩١ و ص٩٢.

(٢) وكانت عملية الخطف تتم بالنسبة للمماليك البيض من مواطنهم في مقاطعات الكرج وجورجيا والبلقان وكان يقوم بعملية الخطف أقوام يطلق عليهم اسم (أولي) حيث يقوم هؤلاء بخطف الأطفال والذهاب بهم بعيداً عن أوطانهم ويقومون ببيعهم إلى تجار الرقيق. انظر: الآنسة توللي. عشرة أعوام في طرابلس، ص٤٨٣.
وكانت أفريقية مصدر الرقيق الأسود حيث كانوا يصطادون اصطياداً من مواطنهم ضمن الأدغال المكتظة بالأشجار أو يباعون من قبل آسريهم الذين غلبوهم في إحدى المعارك لتجار الرقيق إذا ماعجز المأسور عن دفع الدية لآسره. ويتم نقل الرقيق إلى أسواق النخاسة في أماكن عدة من موانىء المتوسط والبحر الأحمر. انظر: تولا مصدر السابق. ص٢٨. وقبل وصولهم إلى أحد الموانىء المذكورة يشكل هؤلاء قافلة كبيرة تسير تحت حراسة سادتهم لنقلهم على ظهر السفن إلى الأماكن المطلوبة. وكان في أواسط أفريقية عدد من المدن التي يتجمع فيها الرقيق مثل مدينة تمبكتو في مالي من المناطق الغربية في أفريقية أو منطقة شندي في أعالي النيل وهي هامة جداً حيث تتفرع منها طرقات عدة أحدها يساير وادي النيل إلى مصر والآخر يصل إلى شواطىء البحر الأحمر عبر أثيوبية إلى المتممة فغندار فشندي وإلى الشمال حيث الطرق تصل الواحة بعد الأخرى عبر الصحراء الكبرى. وكانت شندي أهم مركز للنخاسة في السودان الأوسط وعندما زارها «بوركهارت» شاهد تجارة النخاسة ويصف ذلك بقوله: (كان يمر من شندي خمسة آلاف عبد كل سنة يجلبون من سائر القبائل على طول ضفاف النيل إلا أن الأثيوبيين كانوا أرق صنف من هذه الأجناس جميعاً فالنسوة الحبشيات كن في مرتبة أعلى من سائر نساء أفريقية السوداوات جمالاً ويتمتعن بحرارة أجسادهن ومودتهم وولائهن لسادتهن. أما ذكور الأحباش فكانوا أفضل من يقومون بخدمة البيوت أو الأعمال الكتابية وكان المشترون الرئيسيون تجاراً يأتون من ساحل البحر الأحمر محملين بالبضائع الهندية التي يستبدلون بها العبيد والإماء في شندي وكذلك الخيل والذهب ويعودون محملين بالعبيد إلى ميناء سواكن على ساحل البحر الأحمر من أرتيريا وتذهب السفن بهم إما شمالاً إلى مصر أو شرقاً إلى الجزيرة العربية وفارس أما الطريق الآخر لتجارة الرقيق فكان يساير وادي النيل إلى القاهرة فالاسكندرية حيث يشحن العديد من العبيد إلى تركية عبر المتوسط ولقد حصل أن اشتري العبيد وبيعوا مراراً عبر محطات القوافل وهكذا ترتفع أثمانهم باضطراد كلما اقتربوا من الموانىء. وغالبية العبيد العظمى المعروضة للبيع في سوق شندي كما يقول بوركهارت: «كانوا في سن دون الخامسة عشر من العمر وكان ثمن العبد الذكر يصل إلى خمسة عشر ريالاً إذا لم يكن في وجهه آثار الجدري أما إذا كان وجهه مصاب بالجدري فينخفض ثمنه إلى ثلث هذا المبلغ. أما ثمن الأمة فكان آنئذ خمسة وعشرين ريالاً. وكان بوسع المرء أن يشتري عبداً أو أمة تحت التجربة لمدة ثلاثة أيام وكان معظم تجار الرقيق يقومون بتأجير الإماء للبغاء وكان من عادة هؤلاء التجار أن يضاجعوا الإماء بحيث نادراً ماتصل أية أمة إلى الساحل وهي باكر وكان من أحب الأمور على تجار الرقيق في شندي أن يمضوا ليالي حمراء فيها مع تلك الفتيات الصغيرات فيسكروهن حتى الثمالة ويمضون لياليهم الماجنة في أحضانهن» انظر: النيل الأزرق، ص٢١٩ و ص٢٢٠ و ص٢٢١ و ص٢٢٢.

←

.... ← أو الشراء[1] أو الأسر (في القرصنة أو الحروب) من أبناء (دار الحرب) المعادين للمسلمين كأبناء أوربا غير المسلمين.

ولقد دخلت الإماء والجواري والخصيان إلى أسر دمشق، وعوملوا كأفراد الأسرة تقريباً واستخدمت الجواري والإماء في عملية التسري، وإذا ماشريت إحداهن صغيرة كانت تربى في الأسرة حتى تبلغ أشدها فتعامل حينئذ كزميلاتها، وإذا ماكانت على جانب من الحسن والجمال والذكاء وتتقن الغناء والموسيقى فضلت على غيرها. وبشكل عام فضلت البيضاوات على الإماء السوداوات. خاصة في فترة دراستنا، لقلة ماجلب منهن إلى دمشق بسبب سقوط مواطنهن بيد الروس[2]، وغيرهم. فاستعاض الدماشقة عنهن بالإماء السوداوات اللواتي زاد

ورغم التقولات الكثيرة من قبل المؤرخين الغربيين المغرضين على أن تجار الرقيق كانوا من العرب والمسلمين، إلا أن الحقيقة تخالف ذلك فكان تجار الرقيق من مذاهب مختلفة فمنهم اليهود ومنهم المسيحيون ومنهم المسلمون. وكانوا من قوميات مختلفة كالإنكليز والفرنسيين والإسبان والأمريكيين وكذلك العرب حيث كان هؤلاء يعملون وسطاء. انظر: مورهيد، آلان. النيل الأبيض. ص١٩ الحاشية. ترجمة محمد بدر الدين خليل. وكان من عادة المسلمين إذا مااشتروا أجروا له عملية الختان وأطلقوا عليه اسماً عربياً، ومع ذلك فإن هؤلاء العبيد لم يتعلموا القراءة أو الكتابة ولكنهم يصبحون متدينين متزمتين أشد تمسكاً بالإسلام من سادتهم. انظر: مورهيد، آلان. النيل الأزرق. ص٢٢١.

وكانت تجرى عملية أخرى فظيعة في نوعها للعبد الأسود وهي عملية الخصي ويذكر «آلان مورهيد» نقلاً عن الرحالة بوركهارت أن محمد علي باشا أمر بخصي الأعضاء التناسلية لمائتين من عبيد دارفور صغار السن ثم أرسلهم هدية إلى السلطان العثماني وكانت تصل نسبة الوفيات بين الغلمان المخصيين من جراء هذه العملية إلى ٢٪ ويمكن التعرف على الخصيان دائماً بمنظرهم الذي يشبه الهياكل العظمية وكان لا يصل من هؤلاء سنوياً إلى القاهرة أكثر من ١٥٠ شخصاً إلا أنهم يعتبرون من السلع الغالية إذا ماقيسوا بالعبيد الآخرين. انظر: مورهيد، آلان. النيل الأزرق. ص٩١.

(١) كانت القسطنطينية من أكبر أسواق الرقيق الأبيض، كما بيع هذا الرقيق في حلب ودمشق وموانىء المتوسط.

(٢) يرى الرحالة الإنكليزي فريزر الذي كان في تبريز سنة ١٨٣٤م أن سبب تناقص المجلوب من الجواري يعود إلى الحملات المتلاحقة من الروس ضد الأباظة بنية استئصالهم من جهة ولأن الأمهات الكرجيات كن يجهلن تربية أطفالهن تربية صحية وسليمة وكان معظم الأطفال يموتون قبل إكمالهم الثالثة من العمر لجهل أمهاتهم بطريقة التغذية الصحية حيث كن يحشين بطون الأطفال بالحلوى والأطعمة دون مراعاة القواعد الصحية. انظر: رحلة فريزر إلى بغداد عام ١٨٣٤م. ص٨٥ و ص٨٦ الطبعة الأولى.

إلا أن هذا التفسير من فريزر يشوبه الضعف فاحتلال الروس لتلك المناطق لم يغيرها إلى الأسوأ بحيث سادها الجهل بين الأمهات ولكن الأكثر منطقية في تفسير هذه الظاهرة هو أن تلك الأقاليم قد أصبحت بيد الروس وكان عليهم أن يمنعوا تجار الرقيق من الدخول إليها. كما لعبت اتفاقية فينا في سنة ١٨١٥ دوراً في هذا التحريم خاصة وأن روسيا كانت إحدى أعضاء هذا المؤتمر.

عددهن في دمشق مع العبيد السود . ويمكن ملاحظة ذلك في سجلات محاكم دمشق المختلفة ، وارتفعت أسعار الجواري وفاقت أسعار الإماء إلى درجة كبيرة طبقاً لقانون العرض والطلب .

وكانت العادة في دمشق أن يمنح الرقيق اسماً عربياً ويكنى بابن أو بنت «عبد الله» كما ينسب المملوك أو العبد إلى السيد المالك فيقال (فلان عبد فلان أو تابعه) ، كما كان يكنى بعد عتقه بمعتوق فلان ، وتكنى الجارية بمستولدة فلان . وتطالعنا سجلات محاكم دمشق بالعديد من أسماء الجواري مثل (زهرة ـــ فاطمة ـــ حليمة ـــ أسمهان ـــ سعادة) أو أسماء مركبة مثل : (كل يموت ـــ ونجمة الصباح ـــ وقدم خير) ، وقصد من إطلاق هذه الأسماء كيد الحساد أو التيمن بالخير باقتنائهن . كما أطلق عليهن بعض الأسماء غير العربية مثل (شهناز ـــ وقونجة)[1] . وتحدد تلك السجلات لون الجارية وأحياناً قوميتها مثل (السودة أو السوداء اللون أو الزنجية أو الكرجية) ... الخ .

ولقد تمكنت بعض الجواري من التربع على عرش قلوب أسيادهن بفضل مايملكنه من ذكاء وجمال ، خاصة إذا ماأخلصن لهم وصن شرفهم . وكان من الطبيعي أن يفعلن ذلك لأنهن مقطوعات الجذور في مجتمع دمشق ، فلا ملاذ لهن سوى أسيادهن . وكان ينظر إلى الأمة أو الجارية كإحدى أفراد الأسرة ، واعتبرت الإساءة إليها كالإساءة لمن يملكها . وأحدث التعلق بالجواري والسراري في بعض الأحيان خللاً في الأسرة وأدى إلى تمزقها ، ففي سنة ١١٦٢هـ/١٧٤٨ ـــ ١٧٤٩م كان لقاضي قضاة دمشق بشمقه جي زادة عدد من الزوجات ، إلا أنه كان مغرماً بسريته فطلق إحدى زوجاته لأنها أساءت لسريته ، فكادت له زوجته المطلقة وتمكنت من عزله من منصبه ونفيه إلى قبرص[2] .

ونتج عن وجود الرقيق مشاكل اجتماعية عديدة تتعلق ببيعه أو عتقه أو وراثته ، أو

---

(١) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦/ ص١٣٩ و ص٢٧٠ و ص٢٢٣ و ص٣٢٦ و ص٣٦٣ ثم : سجلها رقم ٤٠٩ / سنة ١٢٦٤ ـــ ١٢٦٥هـ/ ص١٩ و ص٢٠ .

(٢) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية ، ص١٣١ .

مايتعلق بالتسري بالإماء والجواري[1] بعد وفاة سيدهن، وتنفيذ وصيته لهن بعد وفاته فيما يتعلق بمنحهن الحرية[2] وبعض من تركته.

ومن أمثلة ذلك ماحصل للأمة «مبروكة بنت عبد الله السوداء اللون الزنجاوية الجنس بأن سيدها قبل وفاته أشهد عليه شاهدين بأنها تكون حرة بعد وفاته، وأن تأخذ مبلغاً مالياً من تركته، فعارضها في ذلك ورثته بعد وفاته في حريتها وأخذها للمبلغ المذكور، فرفعت دعواها إلى القاضي في دمشق، فأمر بإحضار الشاهدين فأقراها بما ادعت، فحكم لها القاضي بعتقها وإعطائها المبلغ المذكور، وعدم معارضتها في ذلك من قبل الورثة»[3].

ولقد رفع مجتمع دمشق من مكانة الجارية أو الأمة لإنجابها الأولاد، وكثيراً ماأدى ذلك بها إلى عتقها من قبل سيدها فتنال لديه الحظوة والمحبة. وإذا كانت عاقراً تنحط أهميتها بعد أن يذوي جمالها إلى درجة الإهمال. وقد تتزوج الجارية بعد عتقها. وإذا كان زوجها الجديد فقيراً فتقاسمه أعباء الحياة وتكافح معه من أجل كسب لقمة العيش[4].

وكانت عملية عتق الرقيق تتم في إحدى محاكم دمشق وبحضور السيد والعبد وشاهدين. ونورد مثالاً على ذلك ماحصل في سنة ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢ ـ ١٨٣٣م. حيث قام خورشيد آغا النظام بعتق عبده المسمى سليم الأسمر بمجلس الشرع الشريف وجاء في النص مايلي: «حضر فخر الأغوات خورشيد آغا يوزباشي من آلاي عشرة نظام وأعتق لوجه الله

---

(١) يقول الشيخ محمد عبده: «إنه لابد من التنبيه إلى مسألة يجهلها العوام وقد سكت عن بيان الحق فيها جماهير علماء الإسلام ومرت في ذلك القرون والأعوام وهي: أن الاسترقاق الشائع المعروف في ذلك العصر أو العصور السابقة كان غير شرعي. سواء ماكان منه في بلاد السودان أو ماكان في بلاد البيض كبنات الشراكسة اللواتي كن يبعن في الاستانة جهراً قبل الدستور ومع ذلك كنا نرى العلماء ساكتين عن بيعهن والاستمتاع بهن بغير عقد نكاح وذلك من أعظم المنكرات وحتى لو سألت الفقيه عن حكم مسألة لأفتى بأن هذا الاسترقاق محرم وربما قال لك بأن ذلك يساوي الكفر».
نقلاً عن آلان، مورهيد. النيل الأبيض. ص١٩. الحاشية.

(٢) تذكر الآنسة توللي: أن الجواري المعتوقات كن أول النادبات على سيدهن المتوفى. فكن يلبسن طرابيشهن بصورة مقلوبة يخرجن باطنها إلى ظاهرها ويحرصن في مثل هذه الحالة أن تكون مظاهرهن رثة عنواناً على حزنهن على فقد سيدهن. انظر: عشرة أعوام في طرابلس. ص٢٢ ص١٦٢ و ص١٧٨.

(٣) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦ / ص١٢٩.

4 - Russell. op.cit. VOL.P.269.

وابتغاء مرضاته عبده الرقيق المدعو سليم الحاضر معه في المجلس المعترف بالرق بقوله أنت حر لوجه الله تعالى » كما ورد في النص تخصيص جميع مايملكه من المال لعبده بعد وفاته[١].

وكان عتق الرقيق يتم ككفارة عن قتل مؤمن عمداً أو ظلماً أو كفارة الظهار[٢]، أو كفارة عن الإفطار في رمضان متعمداً خاصة على محرم كالخمر أو الزنا. ثم كفارة الحنث في العهد أو / اليمين / أو حنث النذر أو كفارة جز المرأة لشعرها أو خدشها لوجهها في المصاب أو شق الرجل لثوبه في المصاب أو كفارة الملك[٣] أو السرايا[٤] أو المكاتبة[٥] أو التزبير[٦] أو العوارض[٧] أو إسلام أسرى الحرب[٨].

ولقد تناقص عدد الرقيق الوافد إلى دمشق في أوائل القرن التاسع عشر[٩]، نتيجة

---

(١) انظر: رستم، أسد. الأصول العربية ... ـــ المجلد٢ . ص٤٠ . ويطالعنا السجل رقم ٣٤٠ من محاكم دمشق /سنة ١٢٥٠ ـــ ١٢٥٤هـ/ أن زوجة حافظ أفندي معاون حكمدار باشا أوصت قبل وفاتها لجاريتها (زهرة بنت عبد الله) بعتقها ومنحها ٣٠٠ قرشاً من تركتها. انظر: ص٤٣ من السجل المذكور.

(٢) كأن يقول المسلم لزوجته أنت علي كظهر أمي وكان هذا القول موجباً للطلاق والحرمة الأبدية في الجاهلية ولكن الإسلام أجاز للزوج الرجوع إلى زوجته بعد أداء الكفارة. انظر: الشيخ محمد حسن آل ياسين. (الإسلام والرق). ص١٣.

(٣) ويقصد بذلك ما لو ملك الرجل أو المرأة أحد الأبوين وإن علوا، أو أحد الأولاد وإن نزلوا، وقد شرع الإسلام انقاض هذا المملوك بمجرد تملكه من أحد أبويه أو أولاده كما شرع الانقاض فيما لو ملك الرجل إحدى المحرمات عليه نسباً كالإخوات والعمات والخالات وماشاكلهن. انظر: الشيخ محمد آل ياسين ـــ المرجع السابق ـــ ص١٤ و ص١٥.

(٤) معناها أنه لو تشارك اثنان في تملك عبد لهما ثم أعتقه أحدهما كان هذا العتق نافذاً في حصته ويسري في حصة شريكه أيضاً فتقوم حصة الشريك ويسعى العبد في دفع حصة قيمة تلك الحصة من نتيجة سعيه وعمله. انظر: الشيخ محمد آل ياسين ـــ المرجع السابق. ص١٨ و ص١٩.

(٥) المكاتبة: هي أن يقول السيد لعبده كاتبتك على أن تؤدي لي مبلغاً معيناً من المال بعد مدة معينة يتفق عليها الطرفان وبعد أن يعمل ويحصل على المبلغ يقدمه لصاحبه ليصبح هذا العبد حراً طليقاً انظر: الشيخ محمد آل ياسين. المرجع السابق. ص١٩ و ص٢١.

(٦) كأن يقول السيد لعبده أنت حر بعد وفاتي وتنفذ وصية السيد ـــ المرجع السابق. ص٢١.

(٧) العوارض: كان العبد يصاب بالعمى أو الجزام فإن ذلك سبب لانعتاقه وكذلك الإقعاد فهو سبب قهري للانعتاق ومنها مالو أسلم العبد في دار الحرب قبل مولاه المصر على الكفر فإنه يعتق بمجرد إسلامه. ومنها تعذيب العبد أو التمثيل به كما لو أمر السيد بجذع أنف مملوكه. المرجع السابق. ص٣٠، ص٣١.

(٨) انظر: المرجع السابق. ص١٣.

(٩) وازداد تناقص الرقيق في النصف الثاني للقرن التاسع عشر بالإضافة إلى ماذكر أعلاه بسبب فرض نظام

للظروف الدولية ، ففي سنة ١٨١٥م قامت الدول المشتركة في مؤتمر فينا بتحريم الرقيق ، وكان على رأس الدول المطالبة بإلغاء تجارته وتحريمه إنكلترا وفرنسا ، وذلك خشية خلو مستعمراتهما في إفريقيا من اليد العاملة الوطنية المستخدمة في الزراعة ، وجمع المواد الخام اللازمة لصناعتهما . وقامت الامبراطورية البريطانية في ثلاثينات القرن التاسع عشر بمكافحة تجارة الرقيق ، كما قامت سفنها مع السفن الحربية الفرنسية المراقبة على سواحل البحر الأحمر والمتوسط لمراقبة السفن التي كانت تشحن العبيد على ظهرها . ومع ذلك لم تتوقف تجارة الرقيق نهائياً حيث كان النخاسون يترصدون تلك السفن ويقومون بعملية إخفاء الرقيق في أماكن محددة من سفنهم ، ويستغلون هبوط الظلام للقيام بعملية نقل الرقيق من الأدغال الإفريقية إلى شواطىء البحر الأحمر ، حيث يقومون بشحنهم فيها إلى شواطىء الجزيرة العربية ، ومنها إلى مدن الحجاز فبلاد الشام وغيرها .

ولكن جهود الدول الأوربية تلك لم تذهب هدراً ، بل تقلص عدد الرقيق وتناقص المعروض منه في أسواق النخاسة ، وأصبح عدد الرقيق الأسود يتراوح بين / ٢٠,٠٠٠ ـــ ٤٠,٠٠٠ / في العام ، وذلك في أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وأدى ذلك إلى ارتفاع أسعاره ، مما أغرى عدداً كبيراً من تجار الرقيق بالمجازفة ، بحشدهم عدداً كبيراً من الأرقاء على سفنهم ، وأن يضعوا سطحين فوق بعضهما البعض في السفينة الواحدة ، ولا يفصل بينها أكثر من ١٨ بوصة . كما لم توفر السفن للعبد الواحد أكثر من ٠,١٢٥ من الجالون من الماء .

وارتفع أيضاً سعر الجواري البيض إلى درجة أصبح امتلاكهن وقفاً على أفراد الهيئة الحاكمة والثرية[١] . ورغم دخول تجارة الرقيق في دمشق في دور الانحطاط في العهد المصري[٢] ، إلا أن أسواق دمشق شاهدت في هذه الفترة بعض عمليات بيع الرقيق ، وشاهدت محاكمها عمليات عتق لهم . ولم ينته الرق في دمشق إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

التجنيد الإجباري على أبناء الامبراطورية العثمانية طبقاً للنظام الجديد الذي فرضه السلطان محمود الثاني والسلطان عبد المجيد . فحل هؤلاء الأبناء محل المماليك والعبيد في سد حاجة المؤسسة العسكرية للرجال وانحطت تجارة الرقيق مع الزمن .

(١) انظر : مورهيد ، آلان . النيل الأبيض . ص٨١ و ص١٩ و ص٢٠ .

2 - See: Polk. Wiliam. the, openig of south Lebanon. 1788-1840. P,164.

فهرس الجزء الأول

الفصل الأول

دمشق

ومنشآتها العمرانية

الحاكمون والمحكومون
في مجتمع دمشق



بوجك باشي

هو من الضباط مهمته إحضار مرتكبي الجرائم إلى آغا الإنكشارية لتنفيذ الأحكام المختلفة بهم.

عسس باشي

تشبه مهمته مهمة الصوباشي ولكنها ليلية بالدرجة الأولى ونهارية. وتحت إمرته عناصر كثيرة لتنفيذ ذلك.

صوباشي

يشرف على نظافة شوارع المدينة وأزقتها وأبنيتها وتأمين راحة المواطنين.

بوستانجي باشي

يشرف على التشريفات السلطانية مقره سرايا البوغاز.

سكبان باشي

هو رئيس بولوك السكبانية.

أزياء عثمانية رسمية



قول أوغلي باش جاوشي

باش شاويش عبيد السلطان الذين هم في الأصل من أبناء الأعاجم وكان يكلف بالإشراف على انضباطهم.

تكه لي

من ضباط الأوجاق كان يعمل في دائرة شيخ الإسلام.

باش جاويش

هو أحد ضباط الإنكشارية وتحت إمرة الآغا ويشرف على المراسم في دائرته.

يكجيري آغاسي

آغا الإنكشارية.

آغايماغي

تابع لآغا الإنكشارية ويترأس عدداً من الشواش.

فلقه جي باشي

رئيس مفرزة ترافق الصدر الأعظم وتحرسه وتنزل العقوبة بمن يريد.

أزياء ضباط الانكشارية

علوفة كورن يكجيري

هو فرد مهمته تأمين متطلبات الجيش من المال وتوزيع الرواتب على الجند.

صولاق

هو فرد من المشاة من حرس السلطان الشخصي الذين كانوا يرافقونه أثناء السلم والحرب.

كيجه لي يكجيري (سلاملق البسي)

فرد من وحدة التشريفات السلطانية.

سلام دبرن يكجيري

جند من الانكشارية مهمتهم تقديم التحية والتعظيم للسلطان العثماني ووزراءه وهم تقاليدهم الخاصة.

حربه جي

فرد من بلوكات الإنكشارية رافق الآغا وحرس الصدر الأعظم وكلف بمهام خاصة.

أزياء عسكرية



صالمة جوقداري

هو بمثابة قائد الشرطة العسكرية يسهر على انضباط الجند ليل نهار في الشوارع والمحلات العامة .

أورته جاويش

هو ضابط من ضباط الانكشارية مسؤول على تنفيذ الأوامر وتأديب جند الانكشارية وتطبيق النظام .

كتخدا بك أو كتخدا سي

هو المعاون الأول لآغا الإنكشارية .

أوطة باشي

هو مساعد الجوربجي يعمل على ضبط الأورطة وتأمين طعامها وكسائها وينام معها في الغرفة .

أزياء قادة إحدى وحدات الانكشارية (الاورطة)



آشجي أوستة سي

هو معلم العشية وكان للعشية زي موحد إلا أن زيهم يختلف عن زي عشية الأورطة رقم (٣٢) .

قره قوللقجي

أوتوز ايكينك آشجي أوستة سي

هو رئيس عشية الأورطة رقم (٣٢) وهو من ضباط الإنكشارية ، لهم زي مميز عن بقية العشية .

قره قوللقجي

برنجي أورتة نك آشجي أوستة سي

هم عناصر عشية الأورطة الأولى في أوجاق الإنكشارية وكان يرأسهم (أسطة العشية) .

أزياء رسمية

Medjmouai teçavir (Collection de costumes).

مهتر باشي آغا

رئيس فرقة الموسيقية .

زلزن باشي آغا

رئيس نافخي الناي

إچ أوغلان جاويشلر آغلر

رئيس غلمان تلامذة القصر الهمايوني .

سورنازن باشي

رئيس نافخي المزامير .

إچ أوغلان باش جاويش آغا

رئيس غلمان القصر همايوني .

نقاره زن باشي آغا

رئيس قارعي الطبول .

بوريزن باشي

رئيس نافخي الأبواق .

باش مهتر

القائد الثاني للفرقة الموسيقية أو النائب .

جوقة السلطان أو الوالي (مهتار خانه) الموسيقية



مصيبي أجرا أولنوب خلعت إكتسا سبيله عودت إيدن خواجكان

الخلع التي توزع على من سيسلمون المناصب العلمية .

منصب أوله خذ خواجكان خلعت إكتسا إيتديريلمس

الخلع التي كانت تقدم للضباط من قبل السلطان .

تشريفات خليفة سي أفندي

أفندي التشريفات السلطانية .

دولة كتخدا بك أفندي حضرتلري

وكيل الصدر الأعظم .

تشريفاتجي أفندي

مدير المراسم .

توزيع الخلع من قبل مندوب السلطان



بيوك تذكره جي أفندي — مدير المكتب العالي .

آمدي أفندي — مقرر المجلس (الديوان)

يكلكجي أفندي — رئيس موظفي لدى الصدر الأعظم .

جاويش باشي آغا — آغا الشواش في الحرس (في الديوان) الهمايوني .

بآغالي آلاي باش جاويشي — رئيس شواش الباب العالي (الجيش الهمايوني) .

ازياء أصحاب المراتب العلمية والادارية



صدر اعظم

GRAND-VEZIR

رئيس الوزراء



أورتة سقاس

سقاء الأورطة .

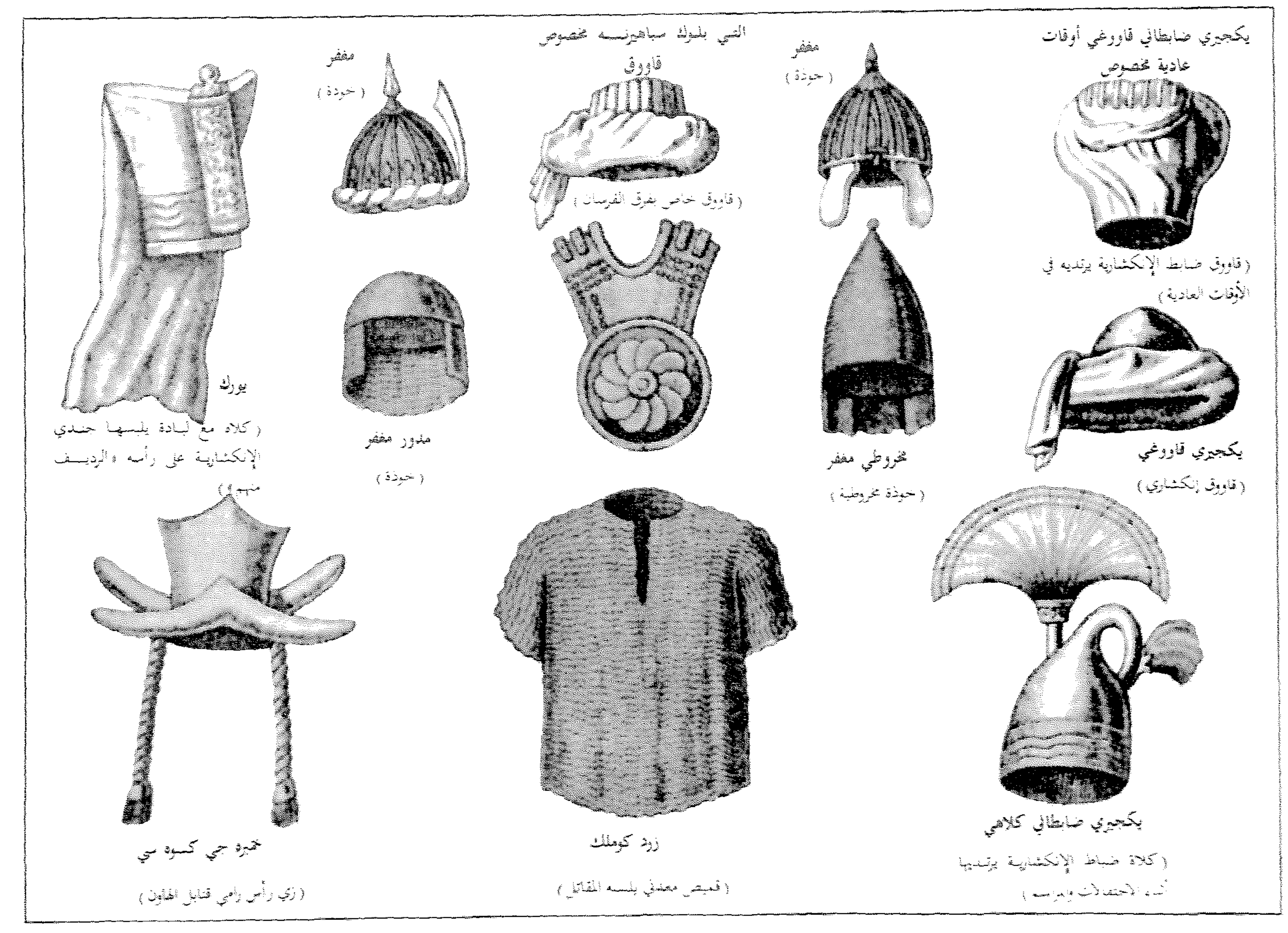
قره قوللقجي

خادم القرقوللقجي .

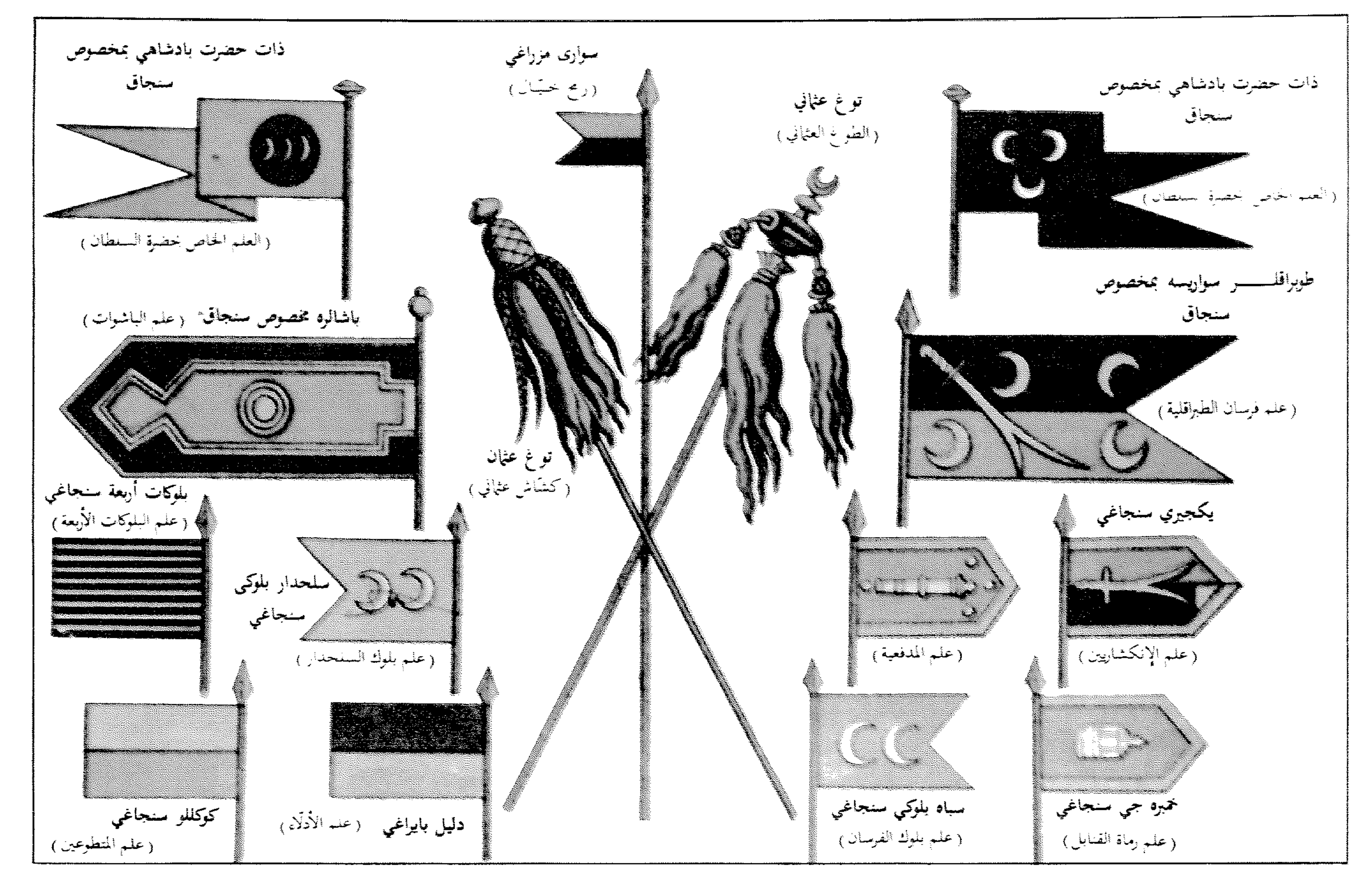
باش قره قوللقجي

رئيس القرقوللقجية .

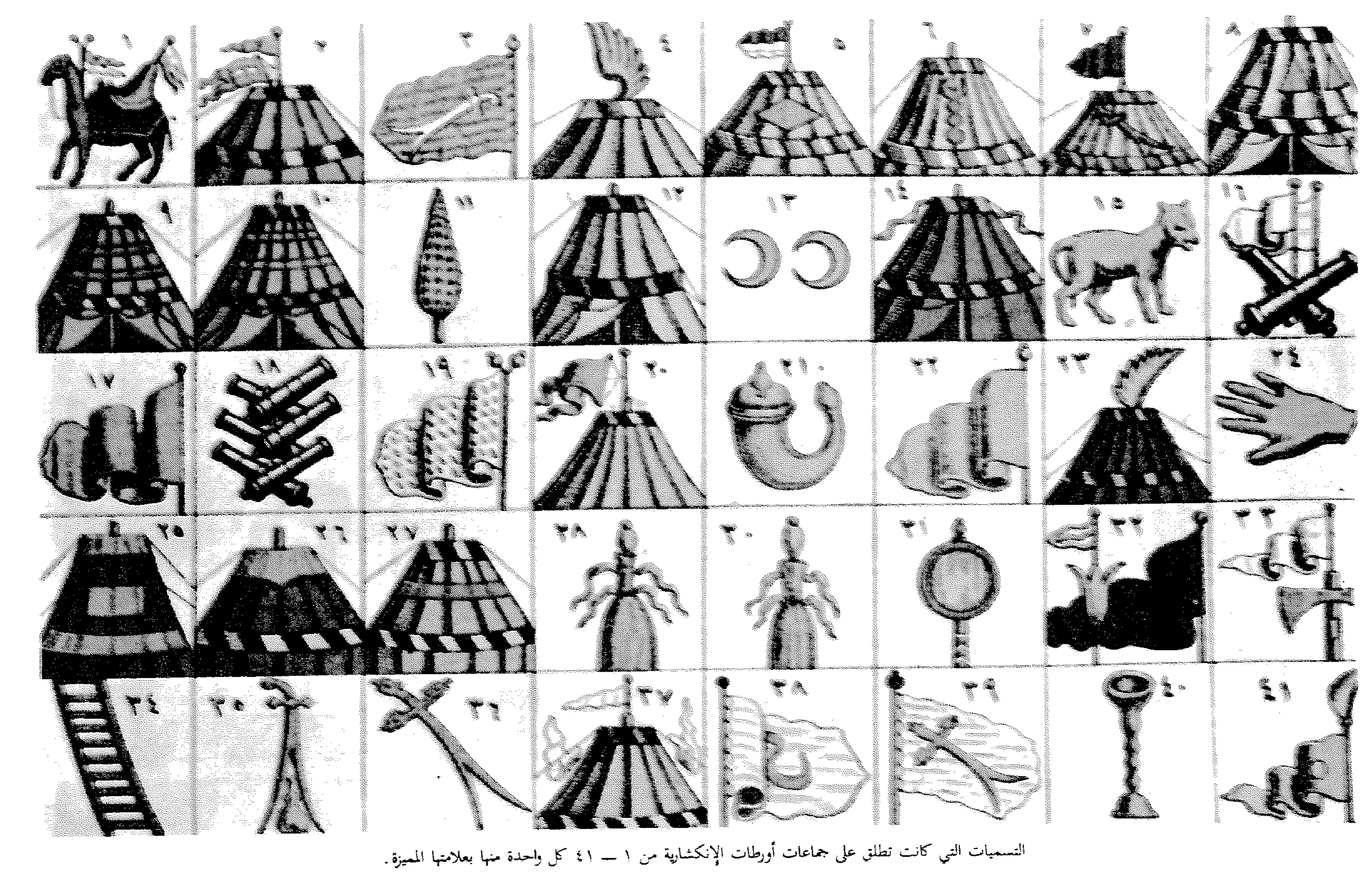
وحدة سقاييّ الجند



أزياء مختلفة للرأس والصدر



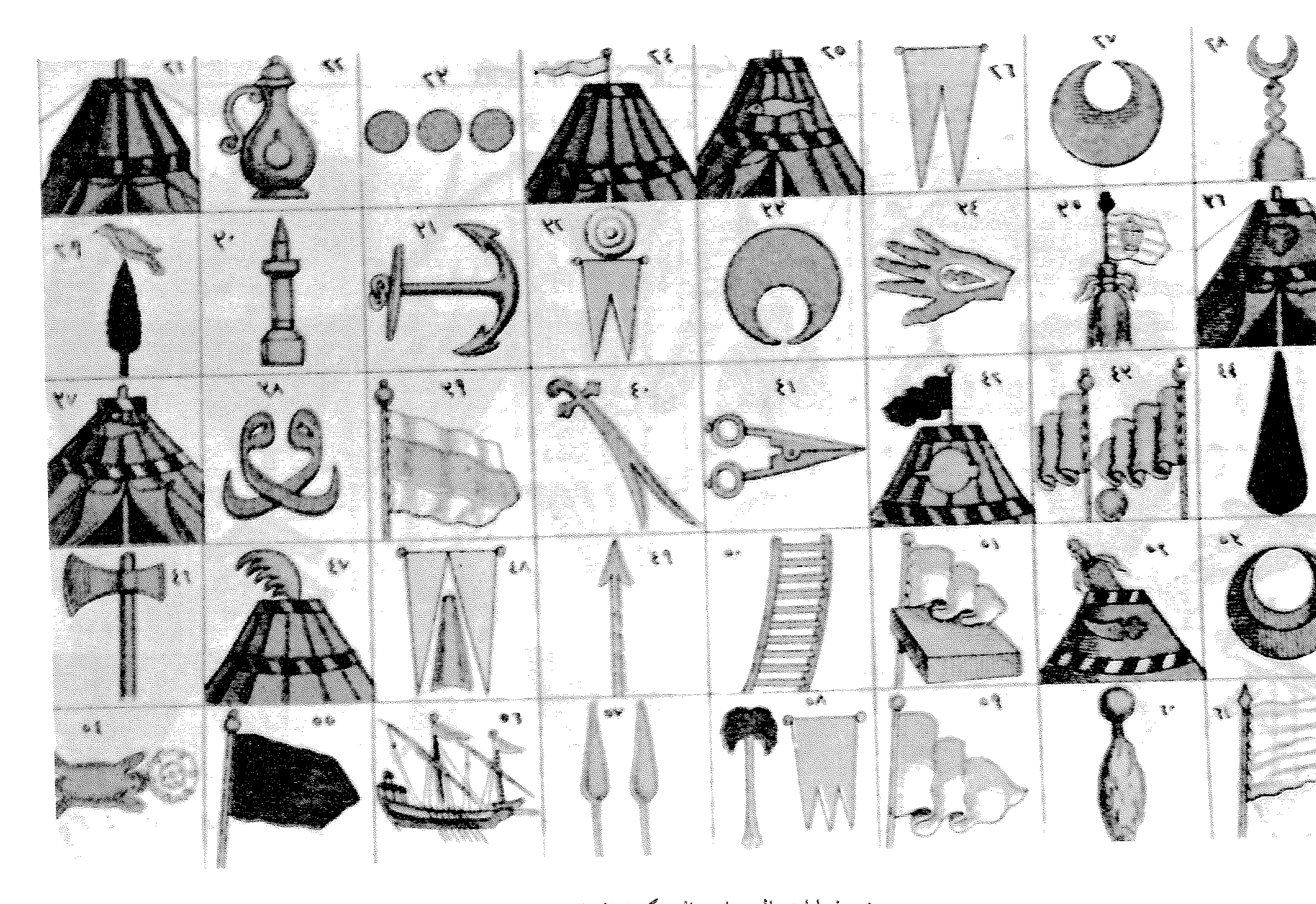
اعلام ورايات مختلفة



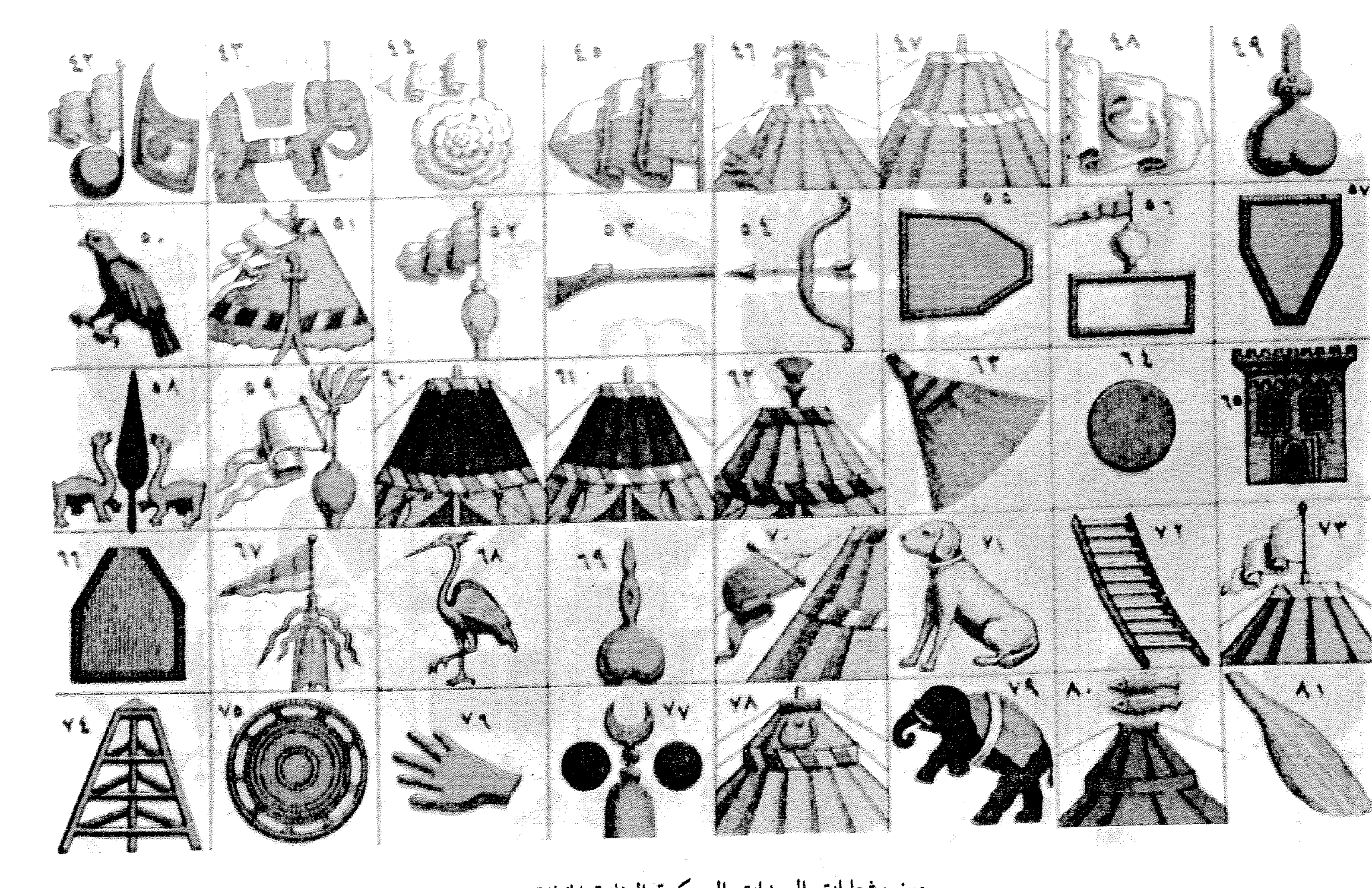
التسميات التي كانت تطلق على جماعات أورطات الإنكشارية من ١ – ٤١ كل واحدة منها بعلامتها المميزة.

رموز وشعارات الوحدات العسكرية العثمانية المختلفة

«الرقم الوارد في الصور هو رقم الوحدة وإلى جانبها رمزها»

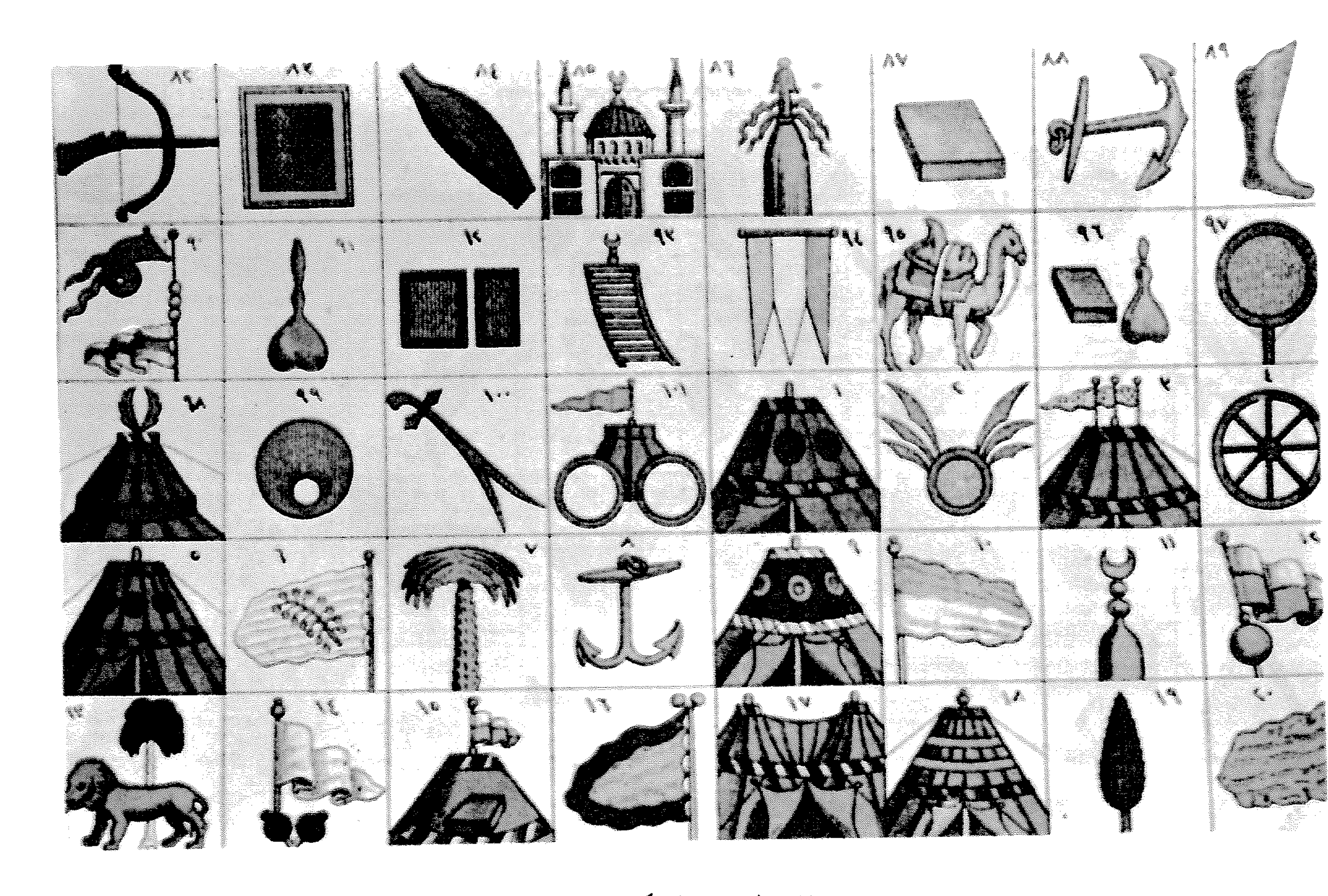


رموز وشعارات الوحدات العسكرية العثمانية المختلفة
«الرقم الوارد في الصور هو رقم الوحدة وإلى جانبها رمزها»



رموز وشعارات الوحدات العسكرية العثمانية المختلفة

«الرقم الوارد في الصور هو رقم الوحدة وإلى جانبها رمزها»



رموز وشعارات الوحدات العسكرية العثمانية المختلفة
«الرقم الوارد في الصور هو رقم الوحدة وإلى جانبها رمزها»

مجتمع مدينة دمشق في الفترة ما بين ١١٨٦ ـ ١٢٥٦ هـ
١٧٧٢ ـ ١٨٤٠ م/ يوسف جميل نعيسه. ط. ١. ـ
دمشق: دار طلاس؛ ١٩٨٦. ـ ٢ ج. (٨٢٦ ص.):
موضح؛ ٢٤ سم.

١ ـ ١ر٩٥٦ ن ع ي م ٢ ـ العنوان ٣ ـ نعيسه

الجزء الأول ع ـ ٤٧٥/ ٥/ ١٩٨٦

